دراسات استراتيجية

الشرق الأوسط في مهب الرياح

تأليف

يوزباشي
صلاح محمد نصر
مدرسة المشاة

يوزباشي
كمال الدين الحناوي
مدرسة المشاة

الطبعة الأولى
١٩٤٩

مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلي باشا بالقاهرة

دراسات استراتيجية

الشرق الأوسط في مهب الرياح

تأليف

يوزباشي

صلاح محمد نصير

مدرسة المشاة

يوزباشي

كمال الدين الحناوي

مدرسة المشاة

الطبعة الأولى

١٩٤٩

مكتبة النهضة المصرية

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

مطبعة الشبكشي بالأزهر بمصر

إهداء الكتاب

الى أرواح شهدائنا الأبطال من الضباط والجنود

الذين بذلوا أرواحهم فى سبيل المثل العليا ؟

طبع هذا الكتاب بموافقة إدارة المخابرات الحربية (قسم الامن) بكتابها رقم ١/٢/١ أ (٩) بتاريخ ١٣/٣/١٩٤٩ وتصديق إدارة العمليات الحربية (النشر الحربى) بكتابها رقم ١٦/٣/٣ (١٤) بتاريخ ١٣/٣/١٩٤٩ م

محتويات الكتاب

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحة

صفحـــة

صفحـــة

مواضع الخرائط

ثبت المراجع

١ — حرب البترول فى الشرق الأوسط } تأليف الدكتور راشد البراوى الأستاذ بجامعة فؤاد الأول
٢ — مشروع سوريا الكبرى } تأليف الدكتور راشد البراوى الأستاذ بجامعة فؤاد الأول
٣ — مشكلة المضايق والعلاقات التركية الروسية « لويس الحاج
٤ — ماهى منظمة الامم المتحدة ؟ « الدكتور رعون بارين وترجمة الأستاذ حسن صعب
٥ — الصحف اليومية والمجلات والنشرات الرسمية

1	The beginings of the Egyptian question and the Rise of Moh. Ali	Shafik Ghorbal Bey
2	The Mediterranean in Politics	Elisabeth Mource
3	Mediterranean Problems	Gordon East
4	The U.S.A. and the Near East	E.A. Speiser
5	U.S. Foreign policy	Walter Lippmann
6	Europe in the 19th. & 20th. Centuries	A. J. Grant & Harold Temperley
7	Kemalist Turkey & the middle East	Kruger
8	The Balkan's Background	Bernard Newman
9	The Arab Awakening	George Antonious
10	Egypt and the World war II	Jean Lugol
11	The Big Three	David J. Dallin

مقدمة

لم تتوفر لبقعة من بقاع الأرض فى الماضى عوامل الاستقرار كما توفرت للمنطقة التى يحلو للبعض أن يدعوها بالشرق الأدنى ويحلو للبعض الآخر أن يدعوها بالشرق الأوسط وهى فى الواقع منطقة واحدة أو قريبة من أن تكون واحدة وقد انحدرت إلينا تلك التسمية من البريطانيين فأن الشرق يكون أدنى وأوسط وأقصى بالنسبة للجزر البريطانية أما بالنسبة لنا فى مصر فنحن من صميم المنطقة وقد جرى العرف بإطلاق اسم الشرق الأدنى على غرب آسيا ، والشرق الأوسط على آسيا الوسطى أما آسيا الشرقية فيطلق عليها الشرق الأقصى ، وقد تنقلت بعض البلاد بين التسميتين فسوريا مثلا كانت تعتبر إلى وقت قريب من بلاد الشرق الأدنى ولكنها عقب الأحداث الأخيرة قد اعتبرت من بلاد الشرق الأوسط ، وهكذا مما يجعل الانسان يتحير بين التسميتين وتختلط عليه الحدود الفاصلة بينهما حتى ولو كان من أهل الاختصاص .

والعجيب أيضاً أن مصر تعتبر — رغم أنها دولة افريقية — ضمن دول الشرق الأدنى أو الأوسط وهى بذلك استثناء مما تعارف عليه الجغرافيون ولكن ارتباطها بالأقليم ثقافياً وتاريخياً ودينياً واقتصادياً من قديم العصور هو الذى أسبغ عليها هذه الصفة .

ذلك الأقليم الذى كان إلى عهد قريب مثلاً للاستقرار والسكون قد أخذ يتأرجح فى مهب الرياح ، رياح الأطماع الاستعمارية الجديدة كأنه لم يكفه الاستعمار الجاثم على صدره منذ مئات السنين ، ولكن الاستعمار الجديد يتلفع بأثواب براقة ولكن بريقها خادع ختّال ، ويختفى خلف أسماء مستحدثة ولو أنها فى صميمها هى أصول الاستعمار القديم ، وقد ظهرت على مسرح الشرق الأوسط قوىً كانت بعيدة عنه إلى الحرب الأخيرة إذ كان وقفـــا على بريطانيا وفرنسا وحدهما ، فلما تخلصت بريطانيا من فرنسا وتقلص النفوذ الفرنسى فى المشرق وأخذت بريطانيا تتنفس

الصعداء، إذا بها تروع بالدب الروسى ينفض عن فروه الثلوج ويتمطى مادا ساعديه إلى الجنوب يتلمس الدفء والشبع ويريد أن يمتع نفسه بالنفوذ والسلطان فقد حرم منهما منذ عام ١٩١٧ حتى الحرب الأخيرة، وعندئذ ظهر فى الأفق شبح ظلّ غائباً عن ذلك الأقليم معتزلا السياسة والصراع إلى أن تفتحت عيناه على الثروات المخبوءة فى باطن الأرض فى الشرق الأوسط وأحس بموارده على وشك النفاذ فخرج يتلمس البترول هناك، عندئذ عبست بريطانيا قليلا ولكنها هزت رأسها وتبسمت بعد طول عبوس وقالت لنفسها فلأضرب الدب بالعم سام فإن لديه المال وإنتاجاً وعدداً لا يحصى من الرجال ... وقد كان ...

وتخلت بريطانيا للولايات المتحدة عن كثير من الامتيازات البريطانية بمحض رغبتها وقاسمتها اللقمة السائغة — وهى الشرق الأوسط — لترد عن نفسها غائلة ذلك الدب المخيف الذى بدأ يتمطى استعداداً لزحف لا يعلم إلا الله إلام سيؤدى ؟

وهكذا أصبح الأقليم المستقر الساكن على مر الأجيال ميداناً لصراع خفى حيناً وظاهر أحياناً وبدأ الطرفان يستخدمان أساليبهما لضم الأقليم كلٌّ إلى جانبه والأقليم خاسر فى كلا الحالين فإن هنا استعماراً وهناك استعمار وكلاهما شر .. فإلى أى جانب يميل ياترى ؟ إنه اليوم كالريشة فى مهب الرياح وهذا ماحدا بنــا إلى هذه التسمية .

وإننا لنأمل أن يحوز هذا الكتاب رضى الجميع وأن نكون قد أدّينا واجباً مقدساً نحو وطننا العزيز ملتمسين القدوة من حضرة صاحب الجلالة القائد الأعلى للجيش حفظه الله ذخراً لوادى النيل ورفع الجيش فى ظل رعايته حتى يحتل المكانة اللائقة به بين جيوش العالم ؟

صلاح محمد نصر ، كمال الدين الحناوى

الباب الأول

العامل الجغرافى

الفصل الأول

العامل الجغرافى

قد تعاونت عوامل أربعة على إعطاء الشرق الأوسط أهميته وهى : -

١ — الموقع الجغرافى ٢ — الطبوغرافيا أو طبيعة أرض الأقليم

٣ — المناخ ٤ — الموارد الطبيعية

ولقد أثرت هذه العوامل مجتمعة فى جنوب غرب آسيا وفى ذلك الشريط الممتد على طول الشمال الشرقى لأفريقيا فأسبغت على الأقليم كله صفات عامة جعلت منه إقليما واحدا يدعوه البعض الشرق الأوسط ويدعوه الآخرون الشرق الأدنى ولا بأس من إطلاق التسمية الأولى عليه لأنها الغالبة فإذا ذكر الشرق الأوسط خلال الكتاب فأننا نعنى بذلك الشرقين الأدنى والأوسط كلاهما .

والشرق الأوسط يتكون من إيران وتركيا ومصر وسوريا وفلسطين ولبنان ووادى الدجلة والفرات (أرض الجزيرة) وشبه الجزيرة العربية أى بمعنى آخر البلاد والدول الواقعة بين البحر الأسود والبحر الأبيض والبحر الأحمر والمحيط الهندى مضافا إليها مصر وإن لم تكن من البلاد الأسيوية .

وشبه الجزيرة العربية بل الأقليم كله يتخذ شكل شبه المنحرف وتحيط به وتتخلله الصحارى فى كثير من جهاته فالصحارى تتاخم بقية إفريقيا وسلاسل الجبال تحوطه وتتخلله مثل جبال ارمينيا والأناضول والهضبة الايرانية، أما البحر الأبيض والمحيط الهندى فيكملان الدائرة ويغلب على معظم الأقليم جو المناطق الحارة الصحراوية ويحيط به دائرة من المناطق المعتدلة المناخ وهى حوض النيل ومساقط الأمطار على سواحل البحار ووادى الدجلة والفرات ، ومن الطبيعى أن يهاجر السكان إلى المناطق الخصيبة وخصوصا أرض الجزيرة ووادى النيل .

ويمكن اعتبار الاقليم وحدة واحدة رغم بعض الفروق المحلية . وموقع الاقليم كملتقى للطرق البرية والمائية بين الشرق والغرب قد جعل منه مركزا للثقافة الواردة

إليه منهما أو بمعنى آخر البؤرة التى تلتقى فيها الثقافات العالمية .

ولم يكن الأقليم مركزا جغرافيا للعالم القديم فحسب ولكنه كان مركزا حضاريا له كذلك ولعل بيئة الاستقرار التى تغمرالشرق الأوسط منذ القدم هى التى ساعدت على ميلاد الحضارات ونموها هناك، وهو بالأضافة الىذلك موطن الاديان السماوية وموطن الأسلام بصفة خاصة والمسلمون يزيدون على ثلثمائة مليون مسلم يحتلون ذلك النطاق الاستراتيجى الواسع الممتد من داكار وجبل طارق غربا الى جزر الهند وشواطىء البحر الاصفر شرقا .

وتعتبر مصر من البلاد القادرة على الاستكفاء الذاتى وهى محدودة بالبحر الأبيض شمالا وفلسطين والبحرالاحمر شرقاوصحراء النوبة جنوبا(حدود السودان المصرى الانجليزى) والصحراء الكبرى غربا ومعظم أراضيها صحراء فيما خلا ذلك الشريط الضيق الطويل الخصب الملاصق لمجرى النيل والذى تحفه التلال ويتسعذلك الشريط — وهو وادى النيل — قبل ان يلتقى النهر بالبحر بحوالى مائة ميل فيكون الدلتا ، ويتجمع فى ذلك الشريط الضيق شعب تعداده تسعة عشر مليوناً مما يجعل من وادى النيل بقعة من أشد بقاع العالم ازدحاما بالسكان وقد يساورك العجب إذاعلمت أن خمس سكان الاقليم كله يسكنون ما مساحته جزء من مائة من المساحة الكلية له.

وقد يكون من العسير أن نوضح التأثير الضخم للبيئة على حياة البلاد فالبيئة فى حالة مصر بالذات وليدة النيل ولن تجد فى العالم بقعة تدين بكيانها لنهر واحد مثلما تدين مصر للنيل فان النهر يجرى حوالى ٩٠٠ ميل فى أرض مصر لايتلقى فى اثنائها عونا من أى رافد ومع ذلك فهو العامل الأساسى فى التقدم الاقتصادى والاجتماعى وله الأثر الأكبر فى حيوات المصريين نفسيا وروحيا .

والأمطار لا تسقط إلا فى شمال الدلتا وإنما يعتمد الزراع على تصرف النهر وفيضانه السنوى المحمل بالطمى ولا يزيد عرض الوادى المحاط بالتلال عن ثلاثين ميلا ، والتلال تضع حدا فاصلا بين الأرض المنزرعة والصحراء . والحياة فى وادى النيل تسير تبعاً (لروتين) النهر منذ ١٤٦٠ عاما الى يومنا هذا واقتصاديات الأرض متوقفة على النهر وعلى تنظيمها تبعا لذلك ، والإقتصاد فى مصر زراعى أكثر منه صناعيا أو تجاريا والزراعة هي الحبوب من القمح والذرة والشعير

والكتان والقطن وقد شغلت الزراعة جميع الأرض الصالحة للزراعة فلم تترك مجالا للغابات ، وآمال الفلاحين إنما تتعلق بالنهر منذ فجر التاريخ حتى فى عباداتهم .

والبيئة المصرية بيئة استقرار وإقليمية وقد حدث التقدم الثقافى نتيجة للعزلة فإن التوسع الاقتصادى يستوجب الحاجة الى مواد ليست متوفرة محليا ولابد من استجلابها وهذا يؤدى إلى المقايضة بالسلع والأفكار ولقد كانت تلك الاتصالات منذ فجر الحضارة مع الشرق وحده ، ومن هنا كان اكتشاف المصريين المعادن في سينا وللجسر الذي يؤدى إلى أرض الجزيرة وللخشب اللبنانى، وكذلك البحر الأحمر نظرا لملاصقته لوادى النيل وإمكان استخدامه كطريق بحرى إلى آسيا كان من الميادين التي جاسوها ، وهكذا كانت اقتصاديات مصر — منذ عرفت الاقتصاديات — وثقافتها وسياستها متصلة بآسيا أكثر من جاراتها المتاخمة لها ولقد أدى التطور الصناعى والسياسى الأخير إلى لفت الأنظار إلى السودان المصرى الانجليزى بوصفه مجالا للافادة من موارده الطبيعية التى لم تستغل بعد .

أما منطقة سوريا ـ فلسطين (وتشمل لبنان وشرق الأردن أيضا) فتعتبر مصرف المياه للمناطق المتاخمة للبحر الأبيض المتوسط ، وأخدود الأردن — البحر الميت . ، أما من الناحية الاقتصادية والثقافية فان تلك المنطقة تعتبر جسرا بين مصر وأرض الجزيرة وقد كانت عرضة لشتى أنواع التغيير من الناحية السياسية على مر العصور أما الآن فانها مكونة من جمهوريتى سوريا ولبنان والمملكة الأردنية الهاشمية وفلسطين التى لم يبت فى مصيرها بعد إعلان انتهاء الانتداب البريطانى عليها .

وفلسطين تعدادها ١و٧٤٠و٠٠٠ نسمة ومساحتها حوالى ١٠و٠٠٠ ميلا مربعا ومساحة لبنان ٣و٦٠٠ ميلا مربعا وتعدادها ١و١٠٠و٠٠٠ نسمة أما شرق الأردن فانها تساوى ثلاثة أمثال مساحة فلسطين ولكن سكانها أقل من ٤٠٠و٠٠٠ بينما سكان سوريا حوالى ٣و٠٠٠و٠٠٠ نسمة والجزء الأكبر منهم يسكن الجزء الغربى من سوريا .

فإذا نظرنا إلى سوريا وفلسطين كوحدة بيئية نجدها تقطن ذلك الشريط الممتد على الساحل الشرقى للبحر الأبيض ، والعمود الفقرى لها هو هضبة تمتد من خليج الاسكندرونة أسفل هضبة الأناضول إلى خليج العقبة على البحر الأحمر وهى تتدرج

فى سلسلة جبال لبنان التى يصل ارتفاعها إلى ١٠١٣٥ من الأقدام وهذه الهضبة تقترب من الساحل حتى تكاد تلاصقه فى بعض الأحيان ويوجد سهل ساحلى يبدأ فقط من جبل الكرمل وينحدر الى مصر وفى الشرق تحد الجبال بواد خصيب هو وادى الأردن والبحر الميت وهما يكونان معاً أخفض أخدود عرفه التاريخ وقد حدث نتيجة انشقاق جيولوجى جعل البحر الميت منخفضا عن مستوى سطح البحر بمقدار ١٢٩٠ قدما ويصب نهر الأردن فى مجراه فى مسقط انخفاضه ٩٠٠ قدما فى المنطقة بين مستنقعات الحولة وبحر الجليل ، ففى مدى مائة ميل ينتظم النهر جميع المناطق المناخية لقارة كاملة ابتداء من البرودة عند منبعه إلى الجو الاستوائى عند مصبه . ولا شك أن مثل هذه العوامل الطبوغرافية والمناخية قد أثرت فى تاريخ الأقليم بأجمعه وهذان العاملان هما اللذان قررا طبيعة الاقتصاد فى الأقليم ويقوم على توليد الكهرباء من مساقط الأردن (مشروع روتنبرج) واستنباط الثروة الكامنة فى البحر الميت (شركة البوتاس) .

والمزايا الرئيسية لمنطقة سوريا — فلسطين هى التى قررت نوع البيئة والثقافة على أنها حلقة اتصال فالموقع والطبوغرافيا جعلا منها طريقاً طبيعيا للاتصال بين الواديين الكبيرين الذين نشأت فيهما الحضارات ، وقد هيأذلك المنخفض بالاضافة إلى السهل الساحلى الطريق إلى أرض الجزيرة والأناضول وبالتالى إلى أوربا ، والموانىء على شاطىء البحر الأبيض هى يافا — تل أبيب — حيفا — بيروت طرابلس — أنطاكيا وقد كانت الصلة بين الأقليم وبين حوض البحر الأبيض وما وراءه .

ونستطيع إدراك قيمة هذه الأرض الحيوية والطرق المائية إذا ذكرنا الغزاة والفاتحين من تحتمس الثالث إلى اسكندر الأكبر إلى بومبى إلى صلاح الدين وريتشارد قلب الأسد إلى نابليون إلى إبراهيم إلى اللنبى إلى كاترو ولقد احتفظ ذلك الشريط المزروع بين البحر والصحراء بقيمته على مر العصور بالنسبة لبقية الأقليم .

أما تركيا فتتألف من شبه جزيرة آسيا الصغرى وتراقيا الشرقية وهى محاطة من من الشمال بالبحر الأسود ومن الغرب ببحر إيجة ومن الجنوب بالبحر الأبيض

المتوسط وتتاخم تراقيا الشرقية حدود اليونان ، والشرق والجنوب الشرقى يتاخمه أرمينيا وجورجيا والعراق وإيران ، ومضايقها هى الطريق الوحيد لتصريف القمح والبترول من جنوب روسيا وحوض الدانوب الأدنى كما أنها تسيطر على الطرق الموصلة من جنوب روسيا إلى المحيط الهندى وحقول البترول الإيرانية والعراقية وكذلك إلى قناة السويس الهامة .

وهى عبارة عن هضبة مرتفعة تخترقها سلاسل من الجبال الوعرة أهمها سلسلة طوروس المتاخمة للبحر الأبيض وسلسلة بنطس المتاخمة للبحر الأسود وهى ترتفع كلما اتجهنا شرقا حتى تنتهى إلى جبال أرارات الأرمنية التى ترتفع ١٥٫٠٠٠ قدم وفى غربها نهر سقاريا وشرقيها نهر قيزل ارمق وواديا هذين النهرين هما طرق الاقتراب الطبيعية إلى قلب الهضبة وحاصلاتها القطن والتبغ والكتان والبنجر والحبوب هى القمح والشعير والذرة والأرز ، والفاكهة التى تصدر إلى الخارج والأخشاب ويعتبر الكروم من أكبر مصادر الثروة المعدنية إلى جانب النحاس والحديد والمنجنيز والرصاص والزنك والكبريت الخام .

أما أرض الجزيرة فهى رقعة واسعة من الأرض الخصبة تمتد من قرب الركن الشمالى الشرقى للبحر الأبيض المتوسط حتى الخليج الفارسى وهى تضم منطقة تصرف الدجلة والفرات وقد جعل نصف الدائرة المكون من جبال طوروس وزجروس تصرف هذين النهرين يتجه إلى شبه الجزيرة العربية ، والعراق هى التى تشغل معظم أرض الجزيرة وتبلغ مساحتها ١٤٠٫٠٠٠ ميلا مربعا ويتراوح سكانها بين أربعة وخمسة ملايين نسمة .

والأحوال الزراعية هناك مشابهة لها فى وادى النيل إلا أن الدجلة والفرات يجريان فى أرض مكشوفة، وتهطل الأمطار فى فصل الشتاء وتقل فى الجنوب الشرقى المنخفض ، وفيضان النهر يغمر كثيرا من الأراضى فترة من السنة فيعطل الزراعة ، وطبيعة أرض الجزيرة مختلفة فى كثير من المواضع فبينما النيل تحيط بواديه التلال كأنها الجدران إذا بالدجلة والفرات لايحدهما شىء مماثل ففى الجزء المنخفض من أرض الجزيرة فى الجنوب الشرقى حيث الأرض منبسطة لا تتقيد الأنهار بمجاريها وإنما تفيض وتتصل مكونة مايشبه المستنقعات وحتى الأرض فى تلك المنطقة تتحرك

ولكن نحو الخليج الفارسى لحسن الحظ فقد كان الخليج الفارسى فى العصور القديمة متوغلا فى أرض الجزيرة و لقد مرت عصور على الدجلة والفرات وكل منهما مستقل بمجراه ولكن الأرض قد زحفت اليوم مائة وخمسين ميلا فاتحد الدجلة والفرات مكونين شط العرب الذى ينحدر اليه الرافد قارون من هضبة إيران وقد أقيمت ميناء البصرة على بعد ستين ميلا إلى الداخل على شط العرب .

والزراعات والمحاصيل مختلفة كثيرا عنها فى وادى النيل فالجنوب مشهور بالنخيل والبلح بينما المرتفعات الشمالية تشتهر بالجوز والخضروات وتستخرج الزيوت من السمسم والزيتون ولقد نجحت أخيرا زراعة الموالح والتبغ ، والحبوب الشائعة هى القمح والشعير والأرز ، وتعتبر قطعان الماعز والأغنام مصدرا رئيسيا لثروة البلاد .

والثروة الحالية التى تسبغ على العراق أهميته إنما تكمن فى باطن الأرض وأغنى بها البترول ومنابع البترول فى العراق تعتبر من أغنى المنابع فى الشرق الأوسط والحقول تمتد من الخليج الفارسى إلى الأناضول وتتوسطها كيركوك شمال بغداد والقيارة جنوب الموصل وقد أفردنا للبترول فصلا خاصا فيما بعد .

أما شبه الجزيرة العربية فهو أكبر أشباه الجزر فى العالم فمساحته حوالى مليون ميل مربع ولا يصل سكانه إلى عشرة ملايين ومعظم شبه الجزيرة يكون المملكة العربية السعودية وفى الركن الجنوبى الغربى تقع المملكة المتوكلية اليمنية وسكانها حوالى أربعة ملايين أما جنوب وغرب شبه الجزيرة فانه مستقل يتبع المملكة العربية السعودية ماعدا مستعمرة التاج البريطانى فى عدن وسلطنة حضرموت وسلطنات الخليج الفارسى مسكات وعمان وقطر والبحرين والكويت وكلها تعتمد الى حد ما على بريطانيا أما منطقة الحسا الغنية بالبترول جنوبى الكويت فهى جزء من المملكة العربية السعودية .

والموقع والطبوغرافيا والمناخ كانت عاملا حاسما فى ماضى بلاد العرب وحاضرها ولقد كانت المواد الطبيعية وبخاصة البترول من العوامل الحاسمة فى طفرة هذه البلاد نحو مستقبل حافل .

والنطـــاق المضروب من البحر والرمال حول شبه الجزيرة تقويه سلسلة داخلية من الجبال وهى جبال عمان وترتفع فى بعض المواضع إلى أقل قليلا من

١٠,٠٠٠ قدم فى وسطها وتصل إلى ١٢,٠٠٠ قدم فى اليمن وفى الشمال هضبة نجد وتطوى سلسلة شمر التى يصل ارتفاعها إلى ٥,٠٠٠ قدم ، فالارتفاع على ساحل البحر الأحمر يصل ٩٠٠٠ قدم فى الشمال ، ١٠,٠٠٠ قدم فى الوسط ، ١٢,٠٠٠ فى اليمن ولا توجد أرض منبسطة إلا حول الشاطىء الجنوبى وحول الخليج الفارسى .

ويسمى النصف الجنوبى من شبه الجزيرة بالربع الخالى نظراً لأقفاره وتعذر الانتقال فيه وليس بالجزيرة كلها نهر يصل إلى البحر أو حتى قناة ملاحية ، ولا تصلح الزراعة إلا فى اليمن وفى الساحل الجنوبى حيث يسقط قليل من المطر ؛ وجدة فى الغرب ومسكات فى الشرق من أشد الموانى حرارة فى العالم .

والأهالى بدو رحل كما هو الحال فى معظم بقاع الشرق الأوسط والنخيل والبلح الذى يثمره هو العماد فى التغذية هناك كما أن البن يزرع فى اليمن ويصدر إلى الخارج، ولا شك أن البترول هو المصدر الأساسى لثروة شبه الجزيرة العربية فى المستقبل وهو الذى يعطيها الأهمية الاستراتيجية ، ويقدر الخبراء موارد البترول فى المملكة العربية السعودية والكويت والبحرين بأنها من أكبر الموارد فى العالم إن لم تكن أكبرها .

وبما أن الشرق الأوسط مرتبط بحوض البحر الأبيض المتوسط ارتباطا وثيقا من الناحية التاريخية والاستراتيجية ولا يمكن ان ينظر الى احدهما منفصلا عن الآخر فى السوق الدولية ، ونظرا لتوحد المصالح الدولية فيهما معا فينبغى أن نمر مرورا سريعا بالعامل الجغرافى وتأثيره فى ذلك الحوض أيضا .

والبحر الأبيض غنى بالجزر وأشباهها التى تعتبر امتدادا لسلاسل الجبال الشاهقة التى تحيط بحوضه وأهمها البرانس فى اسبانيا وأطلس فى شمال افريقيا والألب والألب الدينارية فى فرنسا وايطاليا والأبنين فى ايطاليا وجبال البلقان وسوريا ولبنان .

ومناخ الأقليم مناسب للحياة بشتى أنواعها ومناسب للزراعة وخصوصا الأشجار عميقة الجذر كالزيتون ، ويمتاز حوض البحر الأبيض المتوسط بالجفاف فى كثير من أجزائه والمطر يسقط خلال الخريف، وطرق الرى متيسرة فى هذا الحوض ففى فترة جفاف الأنهار يمكن الرى من الينابيع والآبار الارتوازية وتعتمد بعض المناطق

على المياه المتحدرة من الجبال المرتفعة كاعتماد ايطاليا على مياه الألب لزراعة الأرز .

ومعظم مناطق البحر الأبيض أراض جبلية والباقى مقسم الى مناطق تلال وأراض مرتفعة وسهول ساحلية ولكن نسبة الأراضى الصالحة للزراعة تعتبر قليلة نسبيا .

وطرق الزراعة فى الحوض كله بدائية فى الغالب فالفلاحون لا يزالون يستخدمون المحاريث الخفيفة والفئوس التى كان أجدادهم يستعملونها منذ آلاف ، السنين ومن محاصيل البحر الأبيض بوجه عام الزيتون والكروم ويستخرج منهما الزيت والنبيذ ، والتين والقمح والتبغ والخضروات ويمكن تصدير تلك المحاصيل بفضل الملاحة البحرية ، ومن منتجات الأقليم ايضا منتجات الألبان وهى من الصناعات الهامة فى حوض البحر الأبيض .

واقليم البحر الأبيض يفتقر الى المعادن ومصادر القوى المحركة والغابات وهى اساس الصناعات ، فالفحم قليل وغير كاف رغم ان بعض الممالك ولا سيما اسبانيا وفرنسا تنتجان منه انتاجا زائدا عن الحاجة ولكنه من اراضيهما خارج حوض البحر الأبيض ، والبترول قليل جدا فى البانيا وتركيا فقط ولكن الفحم الأبيض (الكهرباء الهيدروليكية) متوفر فى ايطاليا نظرا لوجود مساقط المياه ، والفوسفات موجودة بكثرة فى تونس والجزائر ومراكش .

ويفتقر الحوض أيضاً إلى الأخشاب فأن الغابات قطعت وحلت محلها الزراعة عدا تركيا فلا يزال بها بعض الغابات جنوب البحر الأسود ، ويفتقر كذلك الى المواد الخام رغم توفر القطن من مصر والحرير من جنوب فرنسا وايطاليا واليونان . وكثافة السكان فى حوض البحر الأبيض اقل منها فى وسط وغرب اوربا ومستوى المعيشة منخفض لدرجة كبيرة نظرا لفقر الأراضى وقلة دخلها والسكان يكثرون فى المناطق الخصبة المنزرعة ، وقد دعا ذلك الفقر كثيرا من الأهالى الى الهجرة.

جغرافية البحر الابيض

تقسم كل من ايطاليا وتونس وصقلية البحر الى حوضين شرقى وغربى او بمعنى آخر حوض شمالى غربى وآخر جنوبى شرقى اذ أن الحوض الشرقى يحتل موقعا يميل

الى الجنوب عن الحوض الشرقى ، والحوض الغربى أقل حجما من الحوض الشرقى وتحف به شواطىء جبلية وصخرية .

الحوض الشرقى الغربى

فنى الجانب الشمالى تصل جبال الألب حتى البحر وتكملها سفوح جبال الأبنين داخل إيطاليا وإذا استثنينا مضيق مسينا فانها تصل إلى شمال صقلية ، كما يفصل مضيق ضحل يشبهه بين صقلية وسواحل تونس وقد يضيق هذا المضيق حتى يصل إلى ١٠٠ ميل فقط ثم تمتد جبال أطلس من تونس غربا حتى مضيق جبل طارق والساحل الاطلنطى لمراكش وبعد ممر جبل طارق العميق تمتد جبال سيرانيفادا التى تتجه نحو الساحل الجنوبى لأسبانيا ثم تتجه نحو الشمال إلى جبال البرانس هضبة أسبانيا الداخلية .

وتقسم الحوض الغربى إلى جزئين جزر كورسيكا وسردينيا وألبا ، فنى الجزء الشرقى نجد البحر التيرانى الذى تقع عليه شواطىء إيطاليا الغربية وفى الجزء الغربى نجد جزائر البليار الأسبانية .

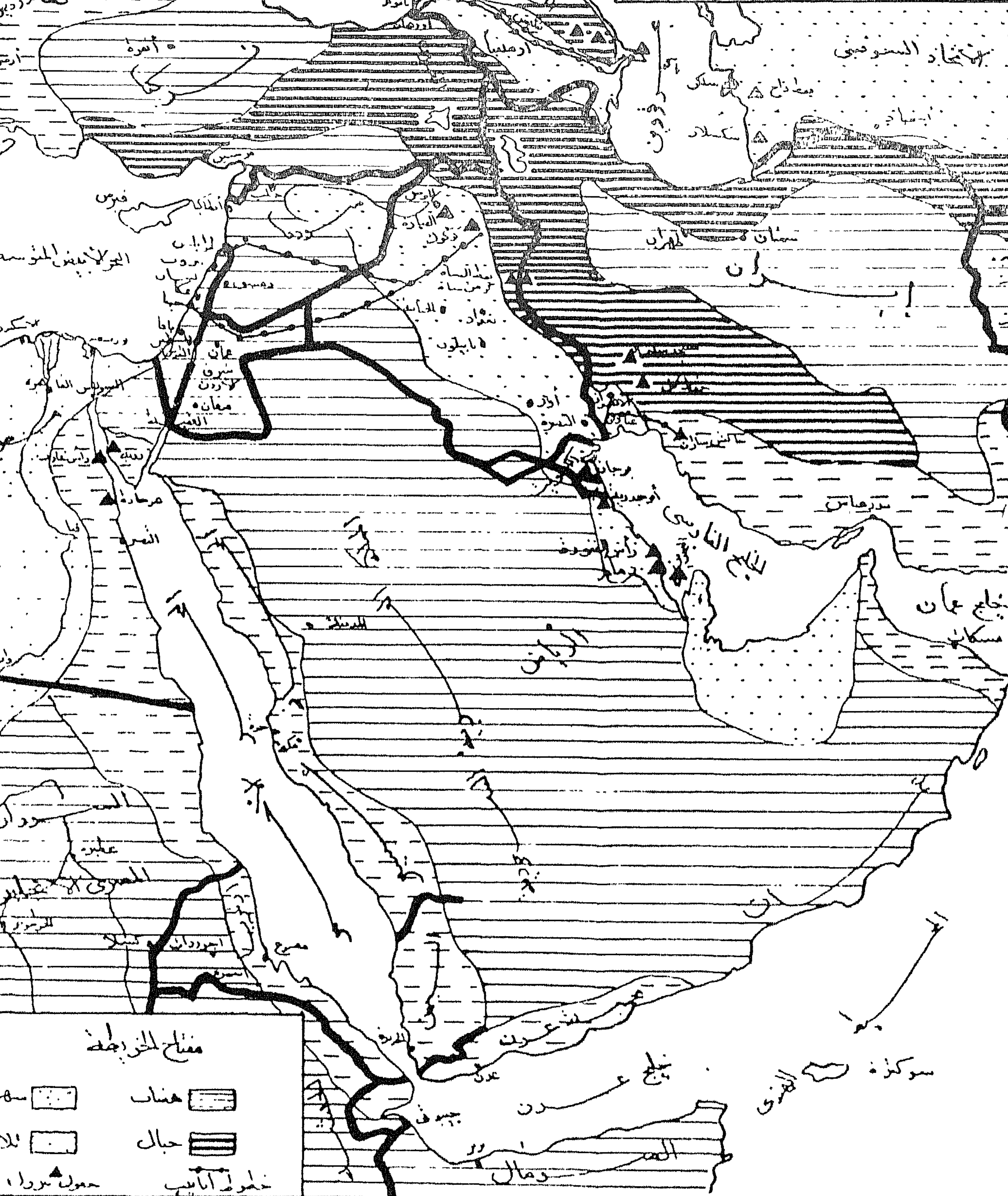
الحوض الشرقى

يتميز الحوض الشرقى بعدة بحار داخلية ففيه بحر الأدرياتيك بمدخله المحدود عند ممر اترنتو ، وبحر اليونان بين اليونان وإيطاليا ، وبحر ايجة بين كريت واليونان وشواطىء تركيا الغربية وأخيراً بحر مرمرة الذى يصل بين البحرين الأبيض والأسود ويتحكم فى مدخله الدردنيل والبوسفور .

وإلى الجنوب من هذه البحار المقفلة يوجد بحر مكشوف هو بحر قدمـــاء الإغريق حيث يفتقر هذا الجزء إلى الجزائر عدا قبرص للشمال الشرقى من مالطة كما يوجد به بنتالريا التى تقع فى طريق مضايق صقلية .

والحوض الشرقى ليس جبلياً كالحوض الغربى فنى شمال إفريقيا نظراً لعدم وجود جبال فان الصحراء تمتد حتى تصل إلى البحر بين أراضى الدلتا المنزرعة وكـذا أراضى تونس المنزرعة .

طبيعة الأرض في الشرق الأوسط



وبين أراضى الدلتا وساحل تونس الشرقى فان الساحل يوجد به تلال رملية لاسيا عند طبرق وساحل برقة .

مركز البحر الابيض

إن موقع البحر الأبيض الجغرافى بالنسبة الى الأراضى والمحيطات التى حوله يكون طريقا قصيرا بين أوربا وآسيا ، ويصل أوربا اتصالا مباشرا بشمال أفريقيا بما فيها القطر المصرى .

وتمر خطوط جوية كثيرة على مصر والسودان فى طريقها الى جنوب افريقيا وكذلك من الجزائر عبر الصحراء الكبرى إلى افريقيا الفرنسية الاستوائية .

وهناك أيضا مواصلات برية بالسيارات أسبوعيا من الجزائر إلى كانو ولكن هذه الرحلات فى الشتاء فقط . ويمكن الوصول إلى شرق افريقيا من طريق البحر الأبيض ثم قناة السويس ثم البحر الأحمر ولكن معظم افريقيا يتصل بأوربا اتصالا تجاريا عن طريق الأطلنطى .

المواصلات البحرية

وإذا نظرنا إلى خريطة الخطوط البحرية العالمية نجد أن البحر الأبيض مكتظ بخطوط هامة فالخطوط البحرية التى تنقل المسافرين والبريد والبضائع، والسفن الناقلة للوقود وكذلك السفن الحربية تمر فى هذا البحر إلى أوربا الغربية أو الهند أو بورما وشرق إفريقيا والملايو والهند الشرقية والصين حتى استراليا .

إن الخط البحرى الرئيسى فى البحر الأبيض يمر من بور سعيد إلى جبل طارق وبالعكس، ولكن هناك بعض الطرق التى تربط هذا الخط بموانىء البحر الأبيض الهامة وكذا البحر الأسود علاوة على بعض الخطوط الفرعية الداخلية .

ونجد أن موانىء البحر الأبيض الهامة تعمل إلى حـــد ما كمنطقة لتصريف التجارة الواردة من شرق السويس علاوة على أنه نظرا لبعض اعتبارات المسافات نجد أن دول غرب وشمال أوربا تستورد البضائع الشرقية من هذه الموانىء .

والواقع أن بعض الموانىء مثل مرسيليا تعانى من بعض العيوب الجغرافية فإن

أراضيها الداخلية جبلية ولذا فقلما نجد سوقا محليا أو منطقة انتاج، وعلى ذلك فإن تكاليف النقل باهظة ، علاوة على أن أنهار البحر الأبيض غير مستقرة ولا تصلح للملاحة لأن مصابّها ضحلة نتيجة للطمى الذى تحمله هذه الأنهار معها ولذا فإن هذه الموانىء الواقعة عند مصابّ الأنهار تفتقر إلى الميزات التى تتمتع بها موانىء الأنهار الداخلية مثل هامبورج ولندن .

الخطوط الجوية

تمر خطوط الملاحة الجوية المدنية فوق أجزاء كثيرة من حوض البحر الأبيض فعلاوة على الخطوط الفرعية كالخط من باريس إلى الجزائر (٨ ساعات)، والخط إلى تونس عن طريق أجاكسيو (١٠ ساعات) ، فإن هناك خطوطا بعيدة المدى كالخط من انجلترا عن طريق مصر إلى جنوب أفريقيا والهند واستراليا .

وليس الحوض الشرقى فقط هو الحوض الذى يقع على أقصر الخطوط لهذه المناطق ولكن البحر كله يسمح بأحوال جوية ملائمة للطيران خصوصا فى الصيف ، ورغم بعض الصعوبات الجوية شتاء فإن الخطوط الجوية تكون شبكة جوية من الشمال للجنوب ومن الشرق للغرب .

وإنها لحقيقة واقعة أن أصبحت السواحل الشرقية للبحر الأبيض مركزا هاما للخطوط البحرية والجوية العالمية .

الفصل الثانى

التوسع الاستعمارى

السياسى والتجارى

وصل استعمار الدول الأوربية الكبرى لما وراء البحار أقصى قمته فى القرنين السابع والثامن عشر، ثم ضئول فى القرن التاسع عشر وخفت نسبته فى جميع الدول ما عدا بريطانيا التى استمرت فى توسعها الاستعمارى .

وقد بدأت فرنسا حركتها الإستعمارية فى إفريقيا سنة ١٨٣٠ ثم تبعتها معظم الدول الكبرى ، وكان الاستعمار بالنسبة لروسيا هو استصلاح أراضى سيبريا للزراعة والتوغل فى آسيا الوسطى وقد نشطت سياستها تلك فى القرن التاسع عشر .

وكان المقصود بالاستعمار فى أول الأمر هو استيطان الجنس الأبيض فى البلاد الأجنبية عندما يزيد عدد سكان البلاد عن طاقتها الإقتصادية ولكن تدخلت فيما بعد بعض العوامل الهامة كالمبادلات التجارية والاستعمارين العسكرى والاقتصادى .

وكان الاستعمار يبدأ بإرسال بعض التجار أو الرحالة أو المبعوثين إلى المنطقة المطلوب استعمارها ثم يتدرج الموقف فتصبح منطقة نفوذ فمشاركة فحماية ثم تدير الدولة الدخيلة شئون المستعمرة سياسيا واقتصاديا .

توسع بريطانيا الاستعمارى

كان فى استطاعة بريطانيا عام ١٨١٥ أن تحصل على جميع المستعمرات التى تريدها من فرنسا وهولاندة، ولكن همها الأول كان تأمين طريقها البحرى والتجارى استراتيجيا، وقد أمّنت طريقها للهند بامتلاكها رأس الرجاء الصالح من هولاندة، وجزر الموريشيوس من فرنسا ثم أمّنت طريقها إلى الصين بامتلاك سنغافورة عام ١٨١٩ وعدن عام ١٨٣٩ .

أغراض فرنسا الاستعمارية

فى عام ١٨١٥ أجبرت انجلترا فرنسا على ترك كل محاولاتها الاستعمارية فى أمريكا ولما كان الاستعمار غير ممكن فى أوربا فى ذلك الوقت فقد أخذت فرنسا تبحث لها عن مكان فى افريقيا تحقق فيه أغراضها علاوة على الصين وسوريا ، وكان لها عندها الاعتبار الأول .

وقد اختارت افريقيا لتكون مجالا لهجومها ووضع الخطة لذلك الاستعمار وزراء شارل العاشر آخر ملوك البوربون فى فرنسا .

احتلال الجزائر

كان القرصان الجزائريون يعيشون فى البحر الأبيض وقد كونوا لأنفسهم حكومة خاضعة لتركيا وكانوا يسلبون الناس أموالهم ويتخذون منهم عبيدا اذا وقعوا فى الأسر .

وفى عام ١٨١٤ ارسلت الولايات المتحدة قطعاً بحرية حررت ٥٠٠ ، عبدا وفى عام ١٨١٦ ضرب الأسطول البريطانى الجزائر وحرر ٣٠٠٠ عبدا آخرين وكان لفرنسا من الحقوق مايبيح لها التدخل ولكن مقصدها الأساسى كان انتهاز الفرصة المناسبة لإدارة الجزائر ثم ضمها اليها بعد ذلك وفى منتصف عام ١٨٣٠ احتلت حملة فرنسية مدينة الجزائر ثم توغلت على الساحل تدريجياً فى كلا الجانبين ثم للداخل .

وقد لجأ رؤساء القبائل إلى مراكش ووصلتهم الأمداد من الحدود المراكشية ولكن عندما وصلت القطع البحرية الفرنسية وضربت طنجة وموجادور وهُزمت القوات المراكشية البرية أمام الفرنسيين لم يجد سلطان مراكش بدا من التخلى عن قضية الجزائر وقد خضعت الجزائر بأكملها للفرنسيين عام ١٨٤٧ .

سياسة فرنسا الاستعمارية

كانت الطريقة التى تتبعها فرنسا فى الاستعمار جديدة ، وكانت وسطا بين الطريقة البريطانية التى تقوم على انتهاز الفرص لاستيطان البيض ، والطريقة العادية وهى السيطرة الاقتصادية على الشعوب المتأخرة بواسطة الشركات الأجنبية والحكومات ،

وكانت الفكرة الفرنسية قائمة على استعمار الجزائر بواسطة البيض الذين يحكمون بدورهم العرب والأجناس الأخرى المقيمة هناك .

وكان برنامج فرنسا أثناء وزارة موليه عام ١٨٣٨ هو إحياء فرنسا لأفريقيا الرومانية ، وكان لابد لنجاح الفكرة الفرنسية من إدخال الأصلاحات وتوجيه الدولة توجيها صحيحا ، فابتدأت فى اصلاح الطرق وحفر الترع وتأمين حقوق التجار الأجانب ومنح الأهالى اليهود الجنسية الفرنسية، وفى ١٨٤١ هاجر الى الجزائر كثير من المدنيين الفرنسيين وقد عاشوا على الزراعة فى الأراضى التى صودرت من أملاك السلطان والزعماء الجزائريين ، وقد احتل بعض الفرنسيين مراكز استراتيجية.

وقد شجعت فرنسا جنودها فى الجزائر على زيارة فرنسا بعد انتهاء مدة خدمتهم ليتزوجوا من فرنسيات ويعودوا بهن الى الجزائر للأقامة بها وتكوين عائلات فرنسية وقد وزعت الأراضى على المستعمرين بدون مقابل لتشجيعهم على الأقامة ولم يشجع زواج هؤلاء من الأهالى .

ولم يزد عدد الفرنسيين بالجزائر كما كان مقدرا وبالسرعة المطلوبة ، ولم يكن الفرنسيون راغبين فى الهجرة ، وقد سببت قلة عدد المهاجرين فشلا جزئيا فى الخطة التى كانت مقدرة من قبل .

وقد بذلت بعد ذلك محاولات كثيرة لإقامة حواجز جمركية بين الجزائر وفرنسا ولكن جميع هذه المحاولات منيت بالفشل وكذلك محاولات قصر حق الانتخاب على البيض المهاجرين فقط قد فشلت، وأصبحت الجزائر جزءا من الوطن الفرنسى يعين أهلها أعضاء فى الوزارة ويقرأون الصحف الفرنسية وأصبحت الملاحة بين الجزائر وفرنسا تشابه التجارة الساحلية لأى بلد متصل الأجزاء .

وكانت فكرة فرنسا فى الاستعمار أن تخلق من الأراضى المستعمرة صورة واضحة المعالم لفرنسا نفسها وأن تكون المستعمرة على اتصال وثيق بها ، وكانت الجزائر بمثابة نقطة خارجية لفرنسا فى العالم العربى ومثلا ناجحا للاستعمار .

ولم تحاول فرنسا لمدة كبيرة أن تمد حدودها ولكن وجودها فى الجزائر جعل ذلك أمرا لا مفر منه، وكانت فرنسا ترغب فى أن تصل الجزائر بالفرنسيين المقيمين

فى إفريقيا الغربية ولذلك لم يكن هناك بد من تقدمها فى الصحراء الكبرى .

وقد حدثت احتكاكات على حدود الجزائر بين الفرنسيين وسلطان مراكش وباى تونس ، ولكن لم تظهر لها نتائج خطيرة حتى بدأت ايطاليا تتطلع إلى تونس وإسبانيا تفكر فى ضم جزء من مراكش ، وقد كان لمصالح فرنسا الاقتصادية فى الفترة بين عامى ١٨٣٠ ، ١٨٤٠ أثر كبير فى تنفيذ مشرعات تجارية فى مختلف أنحاء العالم ، فلما ثار محمد على ضد السلطان ساعدته فرنسا وكان ذلك لرغبتها فى السيطرة على سوريا وقد قضى بالمرستون على هذه المحاولة ، ولكن مصالح فرنسا فى شرق البحر الأبيض لا تزال موجودة ، وكذلك مشروعاتها التجارية ؛ وكانت إرسالياتها الدينية على استعداد لمعالجة مشروعاتها السياسية .

قناة السويس

فكر ميشيل شيفالييه وأتباعه من سانت سيمون فى توصيل البحرين الأبيض والأحمر ، وذلك بحفر قناة السويس ، وقد التقط هذه الفكرة فرديناند ديلسبس قنصل فرنسا فى تونس وأخرجها إلى حيز الوجود فأقنع خديوى مصر بمنحه امتياز المشروع ، وقد عارض بالمرستون هذا المشروع لعلمه أن هذه القناة لو تم حفرها فستفتح طريقاً جديداً لمهاجمة الهند ولكن معارضته كانت دون جدوى وأكمل دلسبس مشروعه من سنة ١٨٥٩ حتى سنة ١٨٦٩ ، ولم تفعل انجلترا بازاء ذلك إلا المعارضات، ولكن حدث فى عام ١٨٧٥ أن تدخل دزرائيلى على حين فجأة واشترى نصيب الخديوى من أسهم القناة ، فأصبح لبريطانيا نصيب الأسد من هذه الأسهم . وفى عام ١٨٨٠ وضعت انجلترا عينها على مصر ، وفرنسا على الجزائر ، وإيطاليا على تونس .

روسيا والقوقاز

كان لدى الروسيا دوافع عديدة للزحف فى آسيا فقد كان استعمارها فى سيبريا يتم بإرسال المهاجرين من الفلاحين والخارجين على القانون والمجرمين السياسيين ، أما فى القوقاز والتركستان ، فقد أدت المنازعات الدائرة هناك إلى إرسال حملات تأديبية تلاها الغزو الروسى .

وقد كان وجود قبائل المسلمين والتتار فى القوقاز عاملا مهماً فى تاريخ روسيا ، فإن روسيا لم تجد أى صعوبة فى احتلال شاطىء البحر الأسود جنوبى القوقاز ولكن أسباباً استراتيجية منعتها من مهاجمة الأتراك من الخلف فى آسيا الصغرى حيث أن القبائل الجبلية فى القوقاز كانت لم تخضع بعد ، وقد بدىء فى إرسال هذه الحملات ضد القبائل الجبلية عام ١٨٣٠ ، ويظهر أن هذه الحملات لم تكن بالقوة المطلوبة إذ أن إخضاع هذه القبائل لم يتم إلا عام ١٨٥٩ ، ولو كانت مقاومة هذه القبائل ضعيفة لاستطاعت روسيا أن تحصل على مزايا عديدة فى حرب القرم .

وفى عام ١٨٧٨ ضمت روسيا القرص من تركيا وقد عارض دزرائيلى فى ذلك ، إذ سرعان ما أدرك خطر التوغل الروسى فى أرمينيا ؛ أما الإستعمار فى سيبريا الشرقية فقد كان يجرى بنفس الطريقة التى اتبعتها روسيا ، ونتج عن ذلك احتلال مناطق من من الصين مثل آمور ، وكان زحف الروسيا يسيرة بتؤدة حتى وصلت إلى البحر وأنشأت ميناء فلاديفستك عام ١٨٦٠ ، فقد كانت تحلم بالحصول على ميناء لا يتجمد ماؤه شتاء وقد فكرت بعد ذلك فى الحصول على ميناء فى الأراضى الدافئة وهذا ما جعلها تزحف جنوباً نحو كوريا وتهدد بكين . ولكنها فى عام ١٨٨٠ ، تحولت إلى آسيا الصغرى والتركستان .

روسيا والتركستان

أما فى وسط آسيا فان السكان الأصليين الذين يراد إخضاعهم هم التركستان الشرقيون والغربيون وقد كان التركستان الغربيون تابعين للصين إسماً ، وكانت كثرة العصابات وقاطعى الطرق تجبر الحكام الروسيين على إرسال حملات تأديبية لحفظ الأمن ، وقد يستولون على بعض المناطق فى بعض الأحيان ، وقد ظلت الصحراء الشاسعة عائقاً أمام الروس حتى سنة ١٨٦٠ ، إلا أن العلم والدراسة الجغرافية قد سهلا الأمر فسقطت طشقند عام ١٨٦٤ ، وتبع ذلك احتلال روسيا لسمرقند تلك المدينة الشهيرة التى كان جنكيز خان يحكم منها امبراطوريته الشاسعة .

وقد ازدادت أهمية روسيا فى وسط آسيا بهذا الانتصار وسرعان ما سقطت التركستان الشرقية فى يد الروسيا ، إلا أن التركستان الغربية صمدت مدة أطول حتى

أجبرخان خيفا على التنازل عن أراضيه للروسيا عام ١٨٧٣ وقد بقيت إحدى قبائل التركمان متمردة حتى تم اخضاعها عام ١٨٨٠ على يد سكوبلف بطل بلفنا .

احتلال فرنسا لتونس

حولت روسيا اتجاهها الاستعمارى إلى الصين وقبل أن تتوغل فى منشوريا بدأت منافسة استعمارية بين انجلترا وفرنسا أولا ، ثم دخلت المباراة بعد وقت قصير كل من المانيا فأيطاليا فبلجيكا فأسبانيا ؛ وكان أول نتائج تلك المباراة هو احتلال فرنسا لتونس، ففى مؤتمر برلين ارضت انجلترا فرنسا بأن اقترحت أن تضم الأخيرة تونس إلى أملاكها مقابل ضم إنجلترا لقبرص وقد استمر لورد سالسبورى يحبذ هذه الفكرة ، كما أن بسمارك الذى كان يريد أن تنسى فرنسا الألزاس واللورين شجع هذه الفكرة بدوره حتى تتلهى فرنسا بتونس ، فابتدأت فرنسا فى التفاوض مع باى تونس ، وكانت تونس فى ذلك الحين ولاية تركيـــة إسماً ولكنها كانت خاضعة للنفوذ الحقيقى لحاملى الأسهم ، ففى عام ١٨٦٩ كانت الإدارة الإقتصادية فى تونس مشتركة بين كل من انجلترا وفرنسا وإيطاليا ولكنها لم تثمر ، وكانت إيطاليا تضع عينها على تونس مما جعل الحكومة الفرنسية تعبىء قوة على حدود الجزائر وتهاجم تونس فى إبريل عام ١٨٨١ ، وقد فوجئت انجلترا وزمجرت إيطاليا ، ولكن ألمانيا وافقت على ذلك بل شجعته .

وقد حاولت تركيا أن تعارض ، ولكن سرعان مادخل ٣٠٠٠٠ جندى فرنسى إلى تونس، ووقعت معاهدة بوردو فى ١٢ مايو ١٨٨١ وقد أصبحت تونس بموجبها محمية فرنسية وقد قاومت بعض القبائل المقيمة فى الداخل ولكنها أخضعت بسرعة، وقد طاب لفرنسا أن تهنىء نفسها بهذا النصر ، ولكن ظهر فيما بعد أن رأى كليمنصو وهو النائب الوحيد الذى صوت ضد المشروع فى البرلمان كان حكيما، إذ أن إيطاليا نظرت إلى فرنسا بعين الحسد وانضمت إلى الحلف الثلاثى مع امبراطورية النمسا والمجر وألمانيا ، وبقى العداء الإيطالى خطراً على فرنسا زهاء عشرين عاما .

الإدارة الثنائية فى مصر

أما فى مصر فقد سبقت انجلترا فرنسا فى ذلك المضمار وكان لكل منهما مطامع

فى مصر إذ أنها تقع على الطريق إلى الهند وقد سبقت فرنسا انجلترا مبدئيا بعبقرية دلسبس وإكماله مشروع قناة السويس ولكن دزرائيلى حوّل الدفة بعد ذلك بشرائه نصيب خديوى مصر من أسهم القناة فأصبحت انجلترا فى سنة ١٨٧٥ أكبر حاملة للأسهم ، وفى العام التالى كانت مالية الخديوى بالغة الاضطراب ، مما جعل فرنسا وانجلترا تفرضان عليه إدارة مالية وقد رغبت فى المساهمة فى تلك الإدارة بعض الدول ، مثل ألمانيا والنمسا والمجر وإيطاليا ، ولكن انجلترا وفرنسا انفردتا بها وأصبحت الإدارة الاقتصادية مشتركة بينهما فقط .

ثورة عرابى

وقد كان من المحتمل أن تسير الأمور سيراً حسنا لولا ما سببه التدخل الأجنبى من ظهور حركة قومية ، فقد تنازل الخديوى اسماعيل — الذى سبق أن أعلن استقلاله فى يونية ١٨٧٩ — عن العرش وذلك بإيعاز من انجلترا وفرنسا وتولى الخديوى توفيق الحكم وظهرت فى عهده الحركة القومية ، وكان من نتائج هذه الحركة أن ثار عرابى والجيش فى ٩ سبتمبر ١٨٨١ حيث قاد خمسة آلاف جندى إلى قصر الخديوى وطلب منه ما يأتى :—

١ — تغيير الوزارة ٢ — زيادة الجيش ٣ — الجمعية الوطنية

وقد استجاب الخديوى لهذه المطالب وأضحت السلطة كلها فى يد عرابى وقد حدث بينه وبين الدول الأجنبية نزاع حول حماية رعاياها وممتلكاتها .

وفى ٨ يناير أرسلت مذكرة بريطانية فرنسية مشتركة الى الخديوى وكان هذا أول عمل أضعف من مركزه وزاد من قوة الحركة الوطنية من ناحية أخرى فأصبح عرابى زعيما قوميا .

وقد ظهر بعد ذلك فى الإسكندرية أسطول فرنسى بريطانى بحجة حماية الرعايا الأوربيين بالإسكندرية .

وقد صممت بريطانيا بعد ذلك على تحطيم القوة العسكريه فى مصر أولا ، وألا تقوم

بأى مفاوضات إلا بعد ذلك ، وقد رفضت فرنسا التعاون معها فنى ١١ يوليو ١٨٨٢ ضرب الأسطول البريطانى حصون الإسكندرية ودمرها وتلا ذلك هجوم برى فهاجمت قوة بريطانية بقيادة سير جارنت ولسلى قوة عرابى ودمرت خنادقه ، ثم هزم عند التل الكبير فى ١٣ سبتمبر ، وقد أسلم نفسه لما لم يجد فائدة من المقاومة ، وأخذ أسيرا ونفى إلى سيلان .

وقد ساعدت ألمانيا بريطانيا فى عملها هذا ، أما إيطاليا فوقفت مكتوفة الأيدى ، بينما وافقت روسيا مع تركيا على ذلك العمل وكانت فرنسا هى الدولة الوحيدة التى عارضت ذلك ، فقد دعتها بريطانيا للمساهمة معها فى هذا العمل بقواتها ولكنها لم تشترك رغم أنها قد اشتركت معها فى الخطوات الأولية ، ولذلك فقد طالبت فرنسا بنصيبها من ثمار النصر وقد وعد غلادستون بالجلاء عن مصر عقب تسوية الحالة ولكن الأمور لم تسو أبدا بعد ذلك وقد انقلبت صداقة بريطانيا لفرنسا إلى عداء استمر حتى عقد بينهما الاتفاق الودى عام ١٩٠٤ ، والذى نجحت فيه بريطانيا فى مراضاة فرنسا .

الفصل الثالث

الاتفاق الودى

بين بريطانيا وفرنسا

١٨٩٥ — ١٩٠٥

كانت بريطانيا تشعر بعزلتها وقد حاولت أن تتقرب إلى ألمانيا ، وكان ذلك على يد مستر تشمبرلين عام ١٨٩٨ ، ولكن هذه المحاولة فشلت نتيجة لطلبات ألمانيا التى جاوزت الحدود ، وكان فى استطاعتها أن تعقد حلفا مع بريطانيا مقابل ثمن معين ، ولكنها رفضت ففشلت المفاوضات وبعد فشلها وقع حادث هام ، فقد حدث أثناء وجود قيصر ألمانيا فى بيت المقدس للحج أن أذاع بيانا فى دمشق يؤكد فيه صداقته الدائمة للثلاثمائة مليون مسلم الموجودين فى العالم ، وقد اجتذب هذا الحديث كثيراً من الأقطار ، إذ أن كثيرا من ملايين المسلمين كانت خاضعة للحكم البريطانى أو الفرنسى أو الروسى .

حادثة فاشودة

كانت انجلترا تتفاوض مع ألمانيا بينما هى تتشاجر مع فرنسا ، وفى عام ١٨٩٨ بدأ الجيش المصرى بقيادة كتشنر فى إعادة فتح السودان ، وقد هزم جيش الخليفة عند أم درمان ودخل الخرطوم بعد ذلك مباشرة وحينئذ سمع أن حملة فرنسية قوامها ١٢٠ رجلا بقيادة الكابتن مارشان قد وصلت إلى فاشودة ، (كوداك) ورفعت عليها العلم الفرنسى .

وفى ١٩ سبتمبر تقدم كتشنر بنفسه إلى فاشودة ولم يفلح فى اقناع مارشان بإنزال العلم الفرنسى أو التخلى عن مقصده ، وسرعان ما انتقل النزاع من الخرطوم وفاشودة إلى بريطانيا وفرنسا وكان متوقعا أن تحدث أزمة نتيجة لذلك .

وكانت هذه الحملة مرسلة بمعرفة هانوتو وزير خارجية فرنسا الذى تخلى عن الوزارة فى يونيو ليطالب بالمناطق الداخلية الاستوائية فى السودان ، وكذلك منابع

النيل العليا ولا سيما منطقة بحر الغزال ، وكان من الصعب أن نتصور أن تتخلى الحكومة البريطانية عن جزء من أغنى أجزائه لمكتشف فرنسى وفصيلة من الجنود، ومن الناحية الأخرى فقد كان من الصعب على الفرنسيين أن ينزلوا عليهم ، ولكن القوة أو التهديد بها بمعنى آخر هو الذى سيحسم هذا النزاع ، ولذلك صرح اللورد روزبرى فى حديث له أنه أثناء توليه رآسة الحكومة أعلنت انجلترا أنها ستعتبر تصرف فرنسا عملا عدائيا إذا ماطالبت بما تطالب به الآن، وقد تبع هذا التصريح السلوك الحازم للورد سالسبورى رئيس الوزارء الحالى، مما كان له أثر فعال فى حسم النزاع.

وفى ٤ نوفمبر أعلن السفير الفرنسى أنه قد تقرر الجلاء عن فاشودة ومرت الأزمة بسلام ، وقد أدى هذا الخلاف إلى تحالف فيما بعد .

وقد رفضت كل من روسيا وألمانيا التحالف الذى عرضته عليهما بريطانيا ، وكانت فرنسا لا تزال على سياستها فى تجنب الحرب مع بريطانيا بعد حادثة فاشودة ، وكان هانوتو وزير خارجيتها لا يزال على عدائه للانجليز ، ولكن دلكاسيه استطاع بشجاعته أن يعلن أنه لا بد لفرنسا من عقد اتفاق ودى مع بريطانيا .

حرب البوير

وفى منتصف عام ١٨١٨ أعان قيصر الروسيا دعوته لحفظ السلام ، وكان من نتيجة هذه الدعوة أن انعقد مؤتمر هيج الأول من مايو إلى يونيو ١٨٩٩ ، ولم تكن هناك أية فكرة فى البداية عن تحديد التسليح ، ولكن ما أن اقترحت بريطانيا ذلك حتى انبرت لها ألمانيا معارضة ، وقد بذلت بريطانيا جهدا كبيرا ومحاولات عديدة لعمل تحكيم دولى ولكن ألمانيا عارضت هذه الفكرة لآخر لحظة بشدة وعنف، وقد تحقق قيصر ألمانيا من أنه إذا أراد السلامة فلا ينبغى أن يعتمد على التحكيم ، ولكن على سيفه البتار فقط. وقد توقف عمل المؤتمر عندما دخلت بريطانيا فى حرب مع جمهوريات البوير فى الترنسفال ودولة الأورانج الحرة فى أكتوبر ، وكانت الحرب بين فريقين غير متكافئين فى العدة والعتاد ولكن الهزائم الذريعة التى منيت بها انجلترا فى هذه الحرب جعلتها تشك كثيرا فى النصر .

وكانت تسود الصحف الفرنسية والألمانية والهولندية والبلجيكية كراهية عامة لبريطانيا، وكان السؤال الخطير الذى يدور فى الأذهان هو: هل تتدخل القوى الثلاثة

التى تدخلت ضد اليابان عام ١٨٩٥ ؛ ضد بريطانيا عام ١٨٩٩ أو عام ١٩٠٠ ؟ إن الروسيا وهى أكبر أعداء الإنجليز فى ذلك الوقت كانت وزارة خارجيتها ممتلئة بالخبراء الذين يبحثون ذلك الأمر ، أما فرنسا فلا يمكنها التدخل وحدها ؛ ورغم أن ألمانيا كانت راغبة فى انتهازهذهالفرصة للحصول على ربح إلا أنها لم تظهرعداءها كما أنها أبعدت القوتين الآخريين عن إتيان أى محاولة من ذلك النوع .

الاتفاق الفرنسى البريطانى

فى خريف عام ١٩٠٣ عمل كل من لورد لانسدون ومسيو دلكاسيه على الوصول إلى اتفاق ودى بين فرنسا وانجلترا، وكان قصد الساسة البريطانيين من ذلك هو وضع حل شامل لكل المشاكل القديمة المعلقة بين البلدين فى افريقيا وآسيا وأمريكا والتى هى محل خلاف بين البلدين ، وكانت هذه المشاكل نتيجة لمعاهدات قديمة أو عداء حديث ، هذا من وجهة النظر البريطانية أما فرنسا فقد كانت راغبة لا فى حل المشاكل فحسب بل فى عقد تحالف بينهما .

وفى ٨ إبريل عام ١٩٠٤ أعلن أن الإتفاق الفرنسى البريطانى الخاص بكل من مراكش ومصر قد وقع وأصبح الإتفاق الودى منذ ذلك التاريخ حقيقة واقعة ، فقد كانت انجلترا راغبة فى وضع يدها على مصر بينما كانت فرنسا راغبة أشد الرغبة فى مراكش،وقد احتفظت فرنسا لنفسها ببعض الإمتيازات فى قناة السويس ولكنها تعهدت فى مقابل ذلك ألا تعرقل سياسة بريطانيا المرسومة لاحتلال مصر .

وقد أعلنت فرنسا بدورها أنها ليس لديها نية تغيير سياسة الحكم فى مراكش، وتعهدت انجلترا بدورها أنها لن تقف فى طريق فرنسا هناك .

الشروط السرية للاتفاق

وقد وقعت فيما بينهما شروط فى ٨ إبريل ١٩٠٤ ولكنها ظلت سراً حتى أعلنت عام ١٩١١ وأهم هذه الشروط :

١ — عند ما ترتقى كل من مصر ومراكش وتتقدم سياسياً يجب أن تعاد حرية التجارة إلى ما كانت عليه من قبل، وتكفل حرية المرور فى قناة السويس، ولا تقام تحصينات أمام مضيق جبل طارق ، وتلغى الإمتيازات فى مصر إذا رغبت كل من فرنسا وبريطانيا فى ذلك .

٢ — عندما تتلاشى سلطة سلطان مراكش يضم جزء منها إلى أسبانيا، ومعنى ذلك أن جزءا منها سيضم إلى أسبانيا بينما تلتهم فرنسا الباقى باتفاق بريطانيا ورضاها.

وقد ضمنت فرنسا حسن علاقتها بكل من إيطاليا وإسبانيا فقد وعدت الأولى بطرابلس الغرب قبل ١٩٠٤، ووعدت الثانية بعد ذلك بجزء من مراكش.

ولم تحاول كل من فرنسا وبريطانيا أن ترضى ألمانيا فى اتفاقهما السرى، ولم يكن الساسة الألمان يجهلون ما دار فى الإتفاق السرى ولكنهم كانوا يخشون أن تقفل مراكش فى وجه التجارة الألمانية والنفوذ السياسى الألمانى.

وفى أوائل عام ١٩٠٥ بدأت الحكومة الألمانية تشك فى سياسة الحكومة الفرنسية نحو مراكش، وذلك عندما وصل إلى علمها بعض الشروط السرية للاتفاق ويبدو أنها استنتجت نوايا فرنسا نحو مراكش من حركتها وخططها نحوها.

وكانت فرنسا قد ضمنت لألمانيا مدخلا لتجارتها إلى مراكش عام ١٩٠٤ وتعهدت كذلك باستقلالها، ولكن حدث فى فبراير عام ١٩٠٥ أن أرسل إلى سلطان مراكش رسول من فرنسا بطلبات يفهم منها أن فرنسا راغبة فى السيطرة على البلاد أو تغيير نظام البلاد الأساسى"، فلم يجد الألمان رداً على ذلك إلا أن يذهب القيصر بنفسه إلى مراكش ليعرقل المشروع الفرنسى، وفى ٣١ مارس رسا قيصر ألمانيا بيخته فى طنجة وألقى بياناً أعلن فيه إعترافه بسيادة السلطان واستقلاله، وأن مراكش ستصبح باستقلالها تحت سيادته محل تنافس الدول دون أن تحاول إحداها احتكارها أو ضمها إليها.

وهذا البيان يعنى شيئين هما :

١ — أن ألمانيا غير مرتبطة بالاتفاق الودى أو المعاهدات الفرنسية الأسبانية.

٢ — أن ألمانيا ستبذل جهدها فى تأمين استقلال مراكش وسيادتها.

وسرعان ما تأيدت هاتان النقطتان، ففى ١١ إبريل طلب الجنرال الألمانى بيلو من الدول عقد مؤتمر لبحث مشكلة مراكش، ولكنه صدم عندما أعلن سلطان مراكش أنه ألغى كل الامتيازات التى سبق أن منحها لفرنسا، ودعا جميع الدول التى وقعت معاهدة ١٨٨٠ لمقابلته فى طنجة.

الباب الثاني

بريطانيا والشرق الأوسط

« إن على بريطانيا التزامات ولها مصالح فى الشرق الأوسط، وهى مسئولة عن الأمن صيانة والاستقرار فى تلك البقعة من الأرض » .

إرنست بيفن وزير خارجية بريطانيا
٢٦ يناير ١٩٤٩

الفصل الأول

مصالح بريطانيا فى البحر الأبيض المتوسط

رسخ فى أذهان البريطانيين على مر الزمن أن مركز بريطانيا فى البحر الأبيض قوى ، وقد ظل هذا الاعتقاد قوياً إلى أن فوجىء الشعب البريطانى بانسحاب الأسطول البريطانى من مالطة عام ١٩٣٥ - ١٩٣٦ أثناء الحرب الحبشية الإيطالية وذلك إلى المياه الآمنة فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، خوفاً من التصادم مع الأسطول الإيطالى .

أسباب قوة بريطانيا فى البحر الأبيض

كانت لبريطانيا مصالح استراتيجية وتجارية فى البحر الأبيض المتوسط قبل افتتاح قناة السويس عام ١٨٦٩ وقبل أن يتحول البحر الأبيض إلى طريق عالمى بعد أن كان بحيرة مغلقة .

وقد تطورت صناعة السفن فى بريطانيا فأنتجت السفن الكبيرة عابرة المحيطات التى فاقت السفن الصغيرة المستعملة حينئذ فى بعض موانىء البحر الأبيض كجنوا والبندقية .

وكان البريطانيون من التجار يعانون فى القرن الخامس عشر من قوات البندقية وجنوا البحرية التى كانت سيدة البحار فى ذلك الوقت ، وفى عام ١٥٧٠ كونت شركة « شرق البحر الأبيض » لتنظيم العلاقات التجارية فى أراضى سواحل شرق البحر الأبيض ، وكانت قوة إسبانيا البحرية عائقاً ضد تدخل بريطانيا فى البحر الأبيض ، ولكن بريطانيا فكرت فى القرن السابع عشر فى أن تجعل نفوذها ملموساً فى سياسة أوربا وحروبها عن طريق قوتها البحرية ، لا فى مياه الوطن فحسب بل فى المياه البعيدة ، وخاصة فى البلطيق والبحر الأبيض المتوسط حيث وجدت فى الأخير طريقاً مفتوحاً لدول أوربا ، ومسرحا للحروب يمكن منه مهاجمة كل من

إسبانيا وفرنسا بسهولة وقد كان كلاهما معها فى حروب مستمرة .

وقد ساعد تحالفها مع البرتغال على استعمال لشبونة كقاعدة للعمليات الحربية فى حروبها فى القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر ، وقد احتلت بريطانيا عدة جزر ومعاقل ساحلية أثبتت قيمتها فى استعمالها كمحطات للوقود والإرشادات أو قواعد يمكن منها ازعاج العدو والسيطرة على استراتيجيته ، ومن هذه الغنائم جبل طارق ومالطة رغم أن بريطانيا قد تنازلت لأسبانيا عن مينوركة ، ولليونان عن جزر اليونان .

جبل طارق

احتلت بريطانيا جبل طارق نتيجة عمل جرىء قام به السير چورچ روك الذى احتل الصخرة بعد هجوم كبير عام ١٧٠٤ ، ولقد فقد مركزه نتيجة لتصرفه هذا عند عودته لانجلترا .

وتهيء جبل طارق لبريطانيا قاعدة بحرية مستقلة عن لشبونة ، ولها بعض المزات الاستراتيجية فى شطر القوات البحرية الفرنسية إلى قسمين .

ورغم عدة محاولات قام بها الأسبان لاستعادة الصخرة خصوصاً من ١٧٧٩ - ١٧٨٣ فان جبل طارق بقيت بريطانية ، وأصبحت من مظاهر قوة بريطانيا ، وقد حدث التنازل لبريطانيا عن جبل طارق بمقتضى معاهدة ڤرساى ١٧٨٣ نظير تعويضها عن بعض ممتلكاتها فى أمريكا وأوربا .

مالطة

وقد استسلمت مالطة التى كان نابليون قد احتلها من فرسان القديس يوحنا عام ١٧٩٨ لبريطانيا بعد ذلك بعامين ، وسلمت نهائياً لبريطانيا عام ١٨١٥ .

ونخرج من هذا التاريخ القصير بنتيجتين هامتين عن مصالح بريطانيا فى البحر الأبيض والتى لا تزال مستمرة إلى وقتنا هذا :

١ — إن استخدام القوات البحرية فى البحر الأبيض كان وسيلة هامة لتدخل بريطانيا فى سياسة أوربا ، وغرضها التقليدى هو المحافظة على توازن القوى فإنه

بعد انتهاء الحرب العالمية الأولى ، ورغم الآمال التي عقدت على جعل عصبة الأمم أداة لحل المنازعات الدولية ، فإن توازن القوى ظل دائما من اختصاص الدول الكبرى .

وذرع بريطانيا للبحر الأبيض بقواتها البحرية من الوسائل الهامة للضغط السياسى على الدول وقت السلم ، كما أنه يحافظ على مركز بريطانيا الهام ويقدم معونة استراتيجية لها فى وقت الحرب ، ولذلك فان القوات البحرية البريطانية — فى الحرب العالمية الأولى — لم تساعد فقط فى حماية مصالحها الاقتصادية بل إنها قامت أيضا بحملات على العراق وفلسطين وحملة غاليبولى المشئومة

٢ — إن مصالح بريطانيا فى البحر الأبيض هى البحث عن قواعد استراتيجية واتفاقات اقتصادية أكثر من البحث عن مناطق استعمارية للاقامة بها .

قناة السويس

وقد زاد افتتاح قناة السويس من أهمية البحر الأبيض فقد أصبح حلقة من أنسب الطرق بين أوربا والهند والشرق الأقصى ، ورغم أن انجلترا قد عارضت الفكرة الفرنسية فى شق القناة إلا أنها قد كسبت الكثير اقتصاديا واستراتيجياً من ذلك الطريق المائى الجديد .

ولم يظهر لبريطانيا أن البحر الأبيض طريق حيوى لمواصلاتها الإمبراطورية إلا بعد افتتاح قناة السويس، ولذا فإنها أثناء فترة توسعها الإستعمارى أخذت تفكر فى حماية هذا الطريق بالسيطرة على النقط الهامة المناسبة للدفاع عنه .

وفى عام ١٨٧٥ كانت كل من بريطانيا وفرنسا تسيطر على مالية مصر التى كان يحكمها الخديوى إسماعيل ، وكانت كل منهما ترغب في أن تضمن مصالحها المالية فإن كلا منهما قد أقرض الخديوى مبالغ طائلة وكانت ميزانية الدولة تقريباً قد وصلت إلى درجة الإفلاس .

وفى عام ١٨٨٥ زاد دزرائيلى من مصالح بريطانيا المالية فى مصر بشرائه نصيب الخديوى إسماعيل من أسهم شركة قناة السويس لحساب بريطانيا ، وبعد ذلك بعامين،

بعد أن طرقت القوات الروسية أبواب القسطنطينية أخذت بريطانيا قبرص من تركيا لاستعمالها كقاعدة متقدمة لحماية قناة السويس إذا ماتقدمت روسيا مرة أخرى إلى البحر الأبيض المتوسط .

وفى عام ١٨٨٢ قامت الثورة العرابية فى مصر وسبقها تدخل بريطانى مسلح ، ولما رفضت فرنسا أن تشترك مع بريطانيا استمرت الأخيرة وحدها فى إدارة البلاد ، ولذلك أصبحت فى موقع تضمن منه حماية قناة السويس .

البحر الأحمر ومدى سلامته

سرعان ماأدرك ساسة بريطانية أن ضمان حماية البحر الأحمر ومدخله من المحيط الهندى هام جداً للعمل مع قناة السويس ، فى ١٨٨٠ وصف اللورد سالسبورى البحر الأحمر « بطريق مواصلاتنا للهند والعصب الحساس لمواصلاتنا » .

وكانت الترتيبات التى عملت لوقاية هذا الطريق البحرى هى احتلال عدن وجزائر بريم وسوكوترا ، ووقوع سواحل البحر الأحمر جميعها تحت سيطرة بريطانيا ، وأثناء الحرب العالمية الأولى وبعدها حدثت بعض التغييرات ، فان مصر التى كانت الحماية البريطانية قد أعلنت عليها عند إعلان الحرب على تركيا عام ١٩١٤ قد أصبحت بموجب المعاهدة البريطانية المصرية عام ١٩٣٦ مستقلة استقلالا تاماً ومتحالفة مع بريطانيا .

وأصبحت الممتلكات التركية — فلسطين وشرق الأردن — مناطق انتداب منذ ١٩٢٢ ، والعراق التى كانت انتداباً بريطانياً أصبحت دولة مستقلة متحالفة مع بريطانيا .

كل هذه البلاد كأنما وضعت فى مواقعها لتضمن لبريطانيا سلامة طريق البحر الأحمر البحرى إذا ما كانت على صداقة وعلاقة طيبة معها .

مصالح بريطانيا فى البحر الابيض

١ — مصالحها السياسية

إن لبريطانيا مصالح وأغراضاً سياسية بالبحر الأبيض نتيجة لممتلكاتها الإستعمارية

فى جبل طارق ، ومالطة وقبرص ، وانتدابها على فلسطين وشرق الأردن ، وكذا معاهدة التحالف مع مصر ثم تعهداتها الحربية بالنسبة لتركيا واليونان .

ب — مدى مصالحها المالية والتجارية

ولها علاوة على ذلك مصالح مالية وتجارية فإن لبريطانيا رأس مال يقدر بحوالى من ٣٠٠ — ٤٠٠ مليون جنيه يستثمر فى شرق البحر الأبيض لاسيما مصر، وبنسبة أقل فى فلسطين واليونان وتركيا .

وهناك أيضا نصيب بريطانيا من أسهم شركة قناة السويس وكذا الأموال المستثمرة فى شركة بترول العراق التى تصل أنابيبها حتى مينائى حيفا وطرابلس .

ويصل إلى بريطانيا عن طريق البحر الأبيض المتوسط حوالى ٢٠ ٪ من مواد التغذية والمواد الخام التى تستوردها ، ونصف هذه الكمية يمر من قناة السويس .

وأهم المنتجات فى هذه التجارة هى القمح والجوت والشاى من الهند ، والصفيح والمطاط من الملايو ، واللحوم والصوف من استراليا ، والبترول من رومانيا والعراق وإيران والهند الهولاندية الشرقية ، والقطن من مصر ، والفوسفات والحديد من إفريقيا الشمالية الفرنسية ، والفواكه المجففة من إسبانيا وإيطاليا وفلسطين .

والبحر الأبيض المتوسط ليس طريقاً قيما فقط للملاحة التجارية من حيث توفيره لكثير من الوقت فى الوصول إلى الهند وبورما وشرق إفريقيا والخليج الفارسى والملايو ، ولكنه يوفر موانىء هامة على طول ذلك الطريق .

ويعتبر طريق البحر الأبيض ثانوياً بالنسبة لبريطانيا إذا ماقورن بطريق الأطلنطى الشمالى ، فان كمية الإمدادات التى تحمل عن طريق هذا البحر ليست بالكمية التى تسبب لبريطانيا متاعب إذا ما أغلق فى وقت الحرب ، وينقل ما يزيد على نصف البترول الذى تستورده بريطانيا عن طريق البحر الأبيض المتوسط بالنسب التالية : ١٨ ٪ من الهند الشرقية الهولاندية ، ١٩ ٪ من الخليج الفارسى ، ٧ ٪ من رومانيا ، ٤ ٪ من العراق ، وإذا اضطرت السفن ناقلات البترول من الخليج الفارسى أن تسلك طريق رأس الرجاء الصالح فانها ستقطع مسافات أطول وبذلك تقوم برحلات أقل فى وقت محدد .

وهناك موارد أخرى تستمد منها بريطانيا بترولهـــا وهى الولايات المتحدة

ووسط وجنوب أمريكا . وهى الآن تستورد من هذه المناطق حوالى ٣٩ ٪ من بترولها عن طريق البحر الكاريبي ويمر نصف ماتستورده بريطانيا من لحوم استراليا عن طريق السويس .

أما الفوسفات والحديد من شمال إفريقيا فيمكن أن ينقل من موانىء مراكش على الأطلنطى ، وسيعانى طريق التجارة إلى الهند كثيرا إذا ما أغلق البحر الأبيض، إذ أن طريق رأس الرجاء أطول مرة ونصف تقريبا من طريق البحر الأبيض .

أهمية البحر الأبيض الاستراتيجية

إن أهمية البحر الأبيض الاستراتيجية بالنسبة لبريطانيا تتلخص فى أنه يوفر لها طريقاً بحرياً قصيراً إلى المحيط الهندى ، وحول سواحله يقع حوالى نصف أو ثلاثة أرباع سكان الامبراطورية البريطانية، ويدخل ضمن ما ذكرنا جنوب إفريقيا واستراليا والهند وهى السوق الرئيسية للتجارة البريطانية ، ويتوقف الدفاع عن هذه المناطق ضد أى هجوم لدولة كبرى على استخدام القوة البحرية التى يمكن أن تعمل من البحر الأبيض المتوسط وتحرك بسرعة نحو نقطة الهجوم ، أو لحمل القوات العسكرية والذخيرة والمعدات اللازمة للحرب .

ومن وجهة النظر البحرية فإن بريطانيا قد قوت مركزها فى المحيط الهندى بإنشاء قاعدة بحرية جوية فى جزيرة سنغافورة التى تقع فى الحد الجنوبى لشبه جزيرة الملايو ، ويمكن أن تستخدم لتحول دون دخول أسطول العدو الحربى من بحار الصين إلى المحيط الهندى .

سنغافورة

وقبل افتتاح قاعدة سنغافورة رسمياً عام ١٩٣٦ كانت القاعدة البحرية الرئيسية هى مالطة التى تبعد حوالى ٣٠٠٠ ميلا من الساحل الغربى للهند .

وهناك قاعدة بحرية أخرى عند سيمون تون بالقرب من مدينة رأس الرجاء الصالح وتسيطر على الطريق الموصل من الأطلنطى إلى المحيط الهندى ، ويوجد فى سيلان المستعمرة البريطانية قاعدة أخرى هى ترنكومالى ، ولكن مجرد وجود هذه

المعاقل ليس مبرراً لأن نصف المحيط الهندى بأنه بحيرة بريطانية . ولكن قوة بريطانيا تتوقف على حقيقة أن أية دولة كبرى لا يمكنها أن تثبت أقدامها فى المحيط الهندى إلا فى أراض مستعمرة ولا بد أن يكون لها اتصال بحرى بأرض الوطن ، فإن بعض المناطق غير المستقلة حول المحيط الهندى تتبع بعض الدول الصغرى مثل البرتغال وهولاندا وبلجيكا . وسيام الدولة الصغيرة المستقلة واقعة بين أراض بريطانية وفرنسية .

ويكون الساحل الجنوبى لشبه جزيرة العرب وشرقى ميناء عدن المحصن مع الخليج الفارسى منطقة نفوذ بريطانية .

أما في شبه جزيرة العرب فإن الدولة العربية السعودية مملكة مستقلة وعلى صلات طيبة مع بريطانيا ، وكذلك اليمن التى تقع على مدخل البحر الأحمر وكانت تحرسها إيطاليا فى أوائل الحرب الأخيرة ، أما العراق فدولة مستقلة ومتحالفة مع بريطانيا

وتشمل ممتلكات فرنسا فى المحيط الهندى جزيرة مدغشقر وجزءا صغيرا من الصومال وبعض المحطات فى الهند وقليلا من الجزر . بينما الأراضى الإيطالية تكون شرق إفريقيا الإيطالى .

الممتلكات الايطالية

تشغل الأراضى الايطالية مركزا استراتيجياً هاما للعمليات الجوية والبحرية فى البحر الأحمر أو خليج عدن ، وكان شرق إفريقيا الإيطالية يعتمد على الوطن فى ضروريات الحرب ، وكذلك الأمداد بالمواد الغذائية التى يجب أن تمر من قناة السويس .

وبالمقارنة نجد أن بريطانيا لها مخارج إلى موارد إمداد كثيرة ولا سيما الهند التى يمكن لبريطانيا أن تحمى طريقها عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ويمكننا أن نضيف أن البترول يمكن الحصول عليه من عدة مناطق فى المحيط الهندى ولا سيما الهند الهولندية الشرقية والخليج الفارسى ويمكن للسفن الحربية أن تأخذ منها تموينها بالوقود .

وقد وصف البحر الأبيض مع البحر الأحمر بأنهما جزء من محور الامبراطوريه

البريطانية ، ويمكن مد هذا المحور من ناحية إلى كندا عن طريق بريطانيا ، ومن ناحية أخرى عن طريق الهند إلى استراليا . وعلاوة على ذلك فإن جزءا كبيرا من الجيش البريطانى — علاوة على قوات المستعمرات والقوات الهندية — موزع على خط البحر الأبيض والأحمر والمحيط الهندى فى مالطة وقناة السويس وفلسطين (وشرق الأردن) والسودان المصرى البريطانى والهند .

وقد اقترح بعض الخبراء — لأسباب استراتيجية — أنه يجب أن يوضع فى هذه المنطقة وبالأخص قبرص جزء كبير من القوات البريطانية المسلحة .

وكذا القوة الجوية البريطانية موزعة على هذا الخط فى النقط التى ذكرت علاوة على عدن والعراق وسنغافورة ، وكانت نتيجة هذا التوزيع الاستراتيجى أن أصبحت المساعدة ممكنة وبسرعة لأى جزء من الامبراطورية ، ويمكن أن تعمل الاحتياطات ضد أى هجوم معادٍ ومفاجىء .

مدى تعرض مركز بريطانيا فى المحيط الهندى

خلال القرن التاسع عشر كانت بريطانيا تخشى على الدوام من زحف روسيا على الشمال الغربى للهند عن طريق أفغانستان ، إذ ربما كانت تحتل القسطنطينية وتتقدم بعد ذلك نحو البحر الأبيض ؛ ولكن هذا الخطر قد زال .

ومنذ انتهاء التحالف البريطانى اليابانى عام ١٩٢٢ أصبحت اليابان أقوى قوة فى الشرق الأقصى ووسعت ممتلكاتها التى تحتوى على كثير من المعاقل ، أما جيوشها فقد وصلت إلى نقط أبعد بكثير من الهند الصينية الفرنسية وبورما البريطانية وكانت قد احتلت جزيرة هاينان التى تقع بالقرب من شواطىء هاينان ، وكان معروفاً رغم أنه لم يعلن بصفة رسمية أن اليابان تأمل فى تحقيق مشروع حفر قناة تمر فى شبه جزيرة سيام عند برزخ كرا Kra ، ولو تحققت هذه الفكرة لقلت قيمة سنغافورة الإستراتيجية قليلا برغم أن القاعدة البحرية فى ترينكومالى والحصون التى على شواطىء بورما قد تقوى من مركزها .

ونعود فنذكر المشروع الألمانى القديم « سكة حديد برلين - بغداد - البصرة » وكان الغرض منه فتح طريق مباشر إلى الخليج الفارسى والمحيط الهندى ، ولكن منذ

اتفاق ميونخ ١٩٣٨ أخذت ألمانيا تعطى مصالحها الإقتصادية فى شرق أوربا الجنوبى أهمية خاصة على الرغم من ضآلة قيمة هذا الجزء كسوق .

مركز بريطانيا فى البحر الأبيض

لنبحث أولا قيمة ممتلكات بريطانيا فى البحر نفسه فى ضوء الأحوال الحاضرة فقد وصفت بريطانيا بأنها الحارسة لمدخل البحر من قاعدتها البحرية فى جبل طارق ، ولكن إلى أى مدى ستحتفظ بهذه السيطرة ؟ إن هذا لا يتوقف بالطبع على قوة وسلامة جبل طارق وحدها فإن من المحتمل أن تستعمل الشواطىء والأراضى المجاورة كقواعد بحرية أو جوية .

إن الطريق الموصل إلى مضيق جبل طارق من الأطلنطى محدود بشواطىء البرتغال وأسبانيا ومراكش والصخرة نفسها ، وفى الشاطىء المواجه لجبل طارق فى مراكش الأسبانية تقع سبتة .

والتحالف القديم بين بريطانيا والبرتغال والذى استمر منذ القرن الرابع عشر ، يمكن من تقديم المعونة اللازمة لحماية الطريق الموصل للمضيق فى حالة أى عمليات ، ويزيد من قيمة هذا التحالف التطور الأخير فى العلاقات بين أسبانيا والبرتغال واتخاذها طابعاً ودياً .

وقد أصبحت طنجة منطقة محايدة ودولية بمقتضى اتفاق بين بريطانيا وفرنسا وإسبانيا فى عام ١٩٢٤ وانضمت إليه إيطاليا بعد ذلك سنة ١٩٢٨ .

ومعظم شواطىء الأطلنطى فى مراكش فرنسى ، ولكن هناك ميناء أطلنطيا واحداً هو العرايش فى منطقة مراكش الفرنسية ، ذلك علاوة على معاقل بريطانيا فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وسيأتى الكلام عنها بالتفصيل فيما بعد .

مركز بريطانيا فى شرق البحر الأبيض

يعتبر مركزها قوياً نسبياً ما دامت متحالفة مع مصر والحالة مستقرة فى فلسطين وسوريا ولبنان وصداقتها مع تركيا واليونان قائمة ، فبموجب معاهدة ١٩٣٦ التى اعترفت فيها انجلترا باستقلال مصر أصبح لها الحق فى الاحتفاظ بقوة

برية وجوية فى منطقـة قناة السويس ، وأن تستعمل المطارات المصرية وميناء الإسكندرية الذى يعتبر ميناء هاماً وقاعدة بحرية ذات أهمية بالغة ، كما أن هذه المعاهدة قد أوجـدت بين مصر وبريطانيا تحالفاً للدفاع المشترك ، ومدى سلامة القناة تتوقف على مركز بريطانيا فى فلسطين وشرق الأردن وتحالفها مع العراق حيث يربض كثير من القوات الجوية البريطانية .

وهناك نقطتا ضعف فى مركز بريطانيا : الأولى تتوقف على حل مشكلة فلسطين التى تهم الدول العربية خاصة ، لحيفا ميناء مناسب لإيواء الأسطول وهى بعيدة عن مرامى أى قوة من الدول الكبرى ويمكن أن تصبح قاعدة بحرية ، ولا يمكن للأسطول البريطانى أن يعتمد على البترول الوارد إليها من العراق إلا إذا ساد فلسطين هدوء ونظام إدارى محكم .

أما الثانية فهى هل يمكن لمصر أن تدافع عن نفسها ضد هجوم أرضى محتمل إذا كانت الأحوال فى فلسطين غير مستقرة ؟

وعلاوة على ذلك فإن الطريق من تركيا إلى مصر ماراً بسوريا وفلسطين هام من الناحية الاستراتيجية ، وقد كانت فرنسا تسيطر عليه ولكنها جلت عن سوريا ، ولانجلترا الحق بمقتضى معاهدتها مع شرق الأردن أن تضع ماتشاء من قواتها هناك .

وفى النهاية فإن مركز بريطانيا قوى فى البحر الأحمر والشرق الأوسط ، ولكن الدخول إلى هذا البحر يمكن أن يصبح خطراً من تدخل الطائرات وهجوم الغواصات التى تعمل من عصب أو من غيرها من المناطق الإيطالية (باعتبار ما كان) .

مصالح بريطانيا فى البحر الابيض والاحمر ومركز قوتها فيهما

إن مياه هذين البحرين توفر لبريطانيا مدخلا إلى ميدان تجارى واستثمارى كما توفر لها طريقاً إلى أوربا ، وقد زادت أهميته بعد تكوين محور برلين — روما علاوة على قيمته التجارية والاستراتيجية كطريق قصير إلى الهند : السوق الرئيسية لبريطانيا .

وقد وصف هذا الطريق رسمياً بأنه شريان الأمبراطورية فلو حرمت منه فإنها تصبح فى خطر ، ومن المهم لبريطانيا أن تضمن سلامة أرض الوطن — المملكة المتحدة — ويجب أن يكون هذا غرضها الاستراتيجى الأمبراطورى كما يجب أن يكون الشريان الرئيسى الذى يمر فيه معظم تموينها . حيث يمر من شمال الأطلنطى إلى كندا والولايات المتحدة آمنا .

والمشكلة القائمة هى : هل تستطيع بريطانيا أن تتخلى مؤقتاً عن البحر الأبيض فى حالة تورطها فى حرب ؟ وهل تؤثر هذه الحالة على سلامة الامبراطورية بأجمعها ؟

والجواب على هذا السؤال يتوقف على مدى إحضار القوات إلى مسرح الحرب فالبحر الأبيض المتوسط منطقة من المناطق البحرية الثلاثة الخطرة بالنسبة لبريطانيا أما الأخريان فهما بحر الشمال وغرب الباسيفيك .

فى حالة الحرب فإن السفن التجارية ستتخلى بلاشك عن الطريق القصير « البحر الأبيض إلى الشرق » فى الحرب العالمية الأولى وزعت بريطانيا جزءاً كبيراً من أسطولها فى وسط البحر الأبيض عند مالطة وترنتو وبرنديزى . وبالرغم من ذلك فإن جزءاً بسيطاً من غواصات العدو التى كانت تعمل من قواعدها فى الأدرياتيكى قد استطاع أن يلحق بالسفن التابعة للحلفاء خسائر بلغت ٤٠ ٪ على الرغم من أن الحلفـــاء كان لهم التفوق ، ومما لاشك فيه أن نسبة الخسائر ستزيد فى أى حرب مقبلة .

وقد ظهرت عدة أساليب لمقابلة هذا الخطر فيمكن للطيران أن يكتشف أماكن الغواصـــات ، وقد سلحت السفن التجارية لتدافع عن نفسها ، كما ظهرت عدة اختراعات لاكتشاف صوت الغواصات وعمقها . ومن الناحية الأخرى فاننا نجد اعتبارات جديدة تقلل من الاجراءات السابقة لحد ما ، فإن الأسطول الضعيف فى السفن الحربية نجـــد أنه تخصص فى الغواصات ليعوض هذا النقص ، وكذلك فى زوارق الطوربيد السريعة ، ويمكنه أن يوجد عدة قواعد بحرية يعمل منها ، وكذلك

الشباك التى تشل عمل الغواصات فى القنال الانجليزى لا يمكن أن تكون عملية فى مياه البحر الأبيض العميقة ، والابتكار الحديث الذى يمكنه أن يعمل على الرغم من الغواصات هى القوافل البحرية ولكنها معرضة لقاذفات القنابل وتعتبر أغراضاً جيدة لها ، والطيران هو الخطر الأكبر على السفن التجارية رغم أن الهجوم الجوى على القوافل فى بحر الشمال لم يأت بنتيجة حسنة .

وبينما نجد أن البحر الأبيض مهم لفرنسا من حيث أنه طريق عبور من شمال إفريقيا إلى فرنسا ، نجد أنه مهم لانجلترا كشريان حيوى من أحد طرفيه إلى الطرف الآخر وطوله ٢٠٠٠ ميل ، فإذا أضفنا اليها ١٢٠٠ ميلا هى طول البحر الأحمر لوجدناه معرضا للهجوم من أى نقطة ، ولذا فإن تخلى بريطانيا عن البحر الأبيض سيسبب نقصا فى تجارتها وكذلك فى أسواقها ويلزمها بزيادة عدد السفن اللازمة لنقل نفس الكمية عن طريق أطول .

ولكنه من ناحية أخرى سيحلل البحرية من واجب حماية تلك السفن التجارية التى كان محتما عليها الدفاع عنها فى البحر المغلق : ويمكن لتلك السفن أن تتخذ تكتيكات هجومية علاوة على أنها تستطيع استخدام القواعد البحرية الممتدة على طول طريق رأس الرجاء الصالح فى لشبونة — جبل طارق — دا كار فى أفريقيا الفرنسية الغربية — جزر الموريشيوس — ترينكومالى فى سيلان — سنغافورة .

وقد بذلت مجهودات كثيرة لتحسين وسائل التموين بالفحم وتقوية المعاقل على طول طريق رأس الرجاء الصالح .

وواضح أن مالطة لم تعد بعد صالحة لسد حاجات السفن التجارية علاوة على تعرضها للهجوم الجوى ؛ وعلى أنها لا تستطيع أن تحقق الغرض منها كقاعدة بحرية لإصلاح وإيواء السفن الحربية ؛ رغم أن المهاجم سيجد فيها غرضاً خطراً لأنها تصلح لايواء السفن السريعة والوحدات البحرية الصغيرة ؛ ولكن وجود القاعدة البحرية ببزرته قريباً منها سوف يساعد على إكمال النقص الموجود فيها .

وإذا فرضنا أن عدواً تمكن من الحصول على مطارات خارج حدوده على الحد الغربى للبحر الأبيض ، وأن أسبانيا وقفت موقف المحايد ، فهل من الممكن أن يغلق المضيق فى وجه السفن المعادية بمساعدة القوات البحرية والحصون المبنية على جبل طارق ؟

إن ذلك سيتوقف بالطبع على مدى المساعدة التى تقدمها الدول المحالفة لها فى الأراضى القريبة من المضيق .

أما فى الحوض الشرقى للبحر فإن أسطول البحر الأبيض الموجود فى الاسكندرية وحيفا وقبرص سوف يساعد فى الدفاع عن مصر وفلسطين واليونان وقبرص ، ويحرم السفن المعادية من الوصول إلى قناة السويس .

وعلاوة على ذلك فإنه لو سيطر على مدخل البحر الأحمر عند عدن فإن الامدادات الحربية يمكن أن تحضر إلى مصر من الهند واستراليا .

وبالاختصار فإن استراتيجية البحرية البريطانية الفرنسية يمكنها أن تحاول غلق المداخل الرئيسية للبحر الأبيض والمقدرة على ذلك ستتوقف على مدى أخطائهما .

وإن السيطرة على المضايق بين البحر الأسود وبحر إيجه ستبقى في يد تركيا التى تحتفظ بوعد مساعدتها من انجلترا ضد أي اعتداء فى البحر الأبيض المتوسط .

الفصل الثانى

المعاقـــل الاربعة

التى تؤثر على سلامة الامبراطورية البريطانية

كانت بريطانيا من قديم الزمن ومن يوم وضعت أقدامها فى البحر الأبيض من جبل طارق إلى مالطة — إلى قبرص — إلى مصر وفلسطين ، كانت تعتمد على قوتها فى الاحتفاظ بكل معقل جديد ، أما الآن فقد تغير الموقف وتطورت عقلية الشعوب ودب فيها الوعى القومى ، ولذلك فإن بريطانيا قد أصبحت مجبرة على تحسين علاقتها بهذه الشعوب التى تسكن تلك المعاقل ضمانا لسلامة امبراطوريتها .

١ — جبل طارق

جبل طارق مضيق يوصل البحر الأبيض المتوسط بالمحيط الأطلنطى وله قيمة استراتيجية بالنسبة للدول الغربية التى لها مصالح فى الشرق ، وخصوصا للدول التى ليس لها ساحل على البحر الأبيض المتوسط مثل بريطانيا .

ففرنسا لها مصالح كثيرة فى الشرق ولكن لها موانىء على البحر الأبيض فلا تكون قيمة هذا المضيق بالنسبة لها مثل قيمته بالنسبة لبريطانيا .

وجبل طارق أحد مخارج البحر الأبيض المتوسط الثلاثة ، وثانيها الدردنيل ، وثالثها قناة السويس ، وصخرة جبل طارق تكون رأس مثلث فى أوربا وقاعدته فى افريقيا وطرفاها طنجة فى اليسار وسبته فى اليمين ، وهذه البلاد الثلاثة مهمة جداً لأنها تهيمن على المدخل وتتحكم فى المرور فيه .

مقارنة بين جبل طارق والدردنيل

الدردنيل	جبل طارق
١ — هو وضفتاه ملك لتركيا أى أنها تتحكم فيه على عكس بريطانيا فمركزها دقيق فى جبل طارق .	١ — مستعمرة بريطانية وهو معقل صخرى قوى وتمتلك إسبانيا الأراضى الواقعة على جانبيه .
٢ — حوله أراضى واسعة تصلح مطارات من الدرجة الأولى .	٢ — قاعدة حربية فقط ليس بها أرض كافية لنزول الطائرات أو إقامة المطارات .
٣ — يصل الدردنيل البحر الأبيض ببحر مرمرة ونسبة مرور السفن صغيرة جداً لا يمكن مقارنتها بما يمر فى جبل طارق .	٣ — يصل جبل طارق البحر الأبيض بالمحيط الأطلنطى ونسبة السفن التى تمر به كبيرة .
٤ — إذا أقفل الدردنيل يحبس روسيا ورومانيا وبلغاريا عن افريقيا والبحر الأبيض المتوسط .	٤ — إذا قفلت انجلترا جبل طارق وقناة السويس فإنها تحبس ممالك البحر الأبيض مثل اليونان وإيطاليا عن العالم الخارجى .

أهمية جبل طارق الاستراتيجية

إن تطور الأسلحة الحديثة والمدافع ذات المرمى الطويل وكذلك الطيران قد جعل مضايقة حامية جبل طارق من جميع الإتجاهات أمراً ميسوراً مما يمنعها من السيطرة على البوغاز .

هذا علاوة على أنها تفتقر إلى أراضى تصلح مهابط للطائرات، وهى تعتمد فى كل تموينها على الاستيراد فيما عدا المياه التى تجمع من الأمطار وتخزن فى صهاريج ، وستصبح السيطرة على المضيق أمراً صعباً إذا ما سمح لقوة كبيرة أن تستعمل قواعد بحرية أو جوية قريبة مثلا — قادس أو قرطاجنة — فى الأراضى الأسبانية ، وتستعمل هنا المدافع بعيدة المدى ضد جبل طارق ، ولكن رغم ذلك فإن فى جبل طارق دفاعات قوية فوق الأرض وتحتها ، وسكانها موالون لبريطانيا علاوة على أنها مخزن للفحم والزيت وميناء بحرى هام .

وقد انتشرت الإشاعات عن تحسين مليلا فى مراكش الأسبانية واتخاذها قاعدة بحرية، وعن إمكان استخدام المدافع منها على جبل طارق وكذا عن احتمال استخدام جزر الكنارى الأسبانية كقاعدة لغواصات العدو ولكن شيئاً من ذلك لم يتحقق إلى الآن .

ومن حيث استخدام السلاح الجوى فى المضيق فان مركز بريطانيا يكون أضعف من خصمها ، اللهم إلا إذا توافرت القواعد الجوية فى البرتغال ومراكش الفرنسية ، إذ أن حاملات الطائرات علاوة على أنها أغراض مناسبة للهجوم الجوى فانها لا يمكنها أن تعمل بكفاءة فى مياه محصورة .

وقد كانت قوة جبل طارق فى الماضى تعتمد إلى درجة ما على حياد إسبانيا ، فلو أن هذه الدولة فى حرب قادمة انضمت إلى عدو لبريطانيا فى البحر الأبيض أو سمحت له باستعمال أراضيها بقواته البحرية أو الجوية فإن جبل طارق ستفقد قيمتها الاستراتيجية ، وتصبح السيطرة على المضيق غير ممكنة .

ويرى بعض البريطانيين أن جبل طارق قد فقدت أهميتها وعلى بريطانيا أن تنتهز الفرصة وتستبدلها بسبتة إذ أنها محمية من الأرض وتسمح باقامة المطارات .

ولكن بريطانيا رغم ذلك لا يمكنها أن تنفذ هذا العمل فإن عدد سكان سبتة حوالى ٦٠٫٠٠٠ وهم إسبانيون اقحاح علاوة على فقدها سيادتها وعظمتها فى البحر الأبيض .

الموقف السياسى بها

جبل طارق إحدى المستعمرات التى تؤثر فيها علاقة الشعب على مصالح بريطانيا إذ أن عدد السكان هناك يزيد عن الحامية المحتلة بقليل بنسبة ٣ : ١ تقريباً ونسبة عدد السكان غير مهمة بالنسبة للشعور السائد وهو الولاء لبريطانيا .

وقد نشأت العائلات العريقة بها على الولاء للتاج البريطانى ، أما الطبقات العاملة بها فقد تعودت على «الجيب البريطانى» والأجور البريطانية العالية ، وبينما يستعمل السكان اللغة الأسبانية فيما بينهم نجد معظمهم يتقن الإنجليزية أيضاً، ولذلك فقد اختلطوا مع البريطانيين وتزاوجت نساؤهم مع الجنود والبحارة ورجال البوليس الإنجليز

على مر الأجيال ، وبالرغم من حبهم لانتقاد السياسة البريطانية إلا أن شعورهم إلى جانبها فهم يحتفلون بأعيادها ويقفون فى الكنائس إجلالا حينما يسمعون نشيد « حفظ الله الملك » .

الحرب العالمية الأولى وجبل طارق

فكرت ألمانيا قبل الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ فى هذه الصخرة وفكر قوادها البحريون فى أنهم إذا استولوا عليها يمكنهم مضايقة سفن الحلفاء فى البحر الأبيض ولكن هذه الأفكار لم تخرج إلى حيز العمل .

وفى مارس ١٩١٧ رأى القائد العام للجيش الأسبانى « بريمودى ريفييرا » أن يعطى انجلترا سبتة ومليلا على الساحل الإفريقى المراكشى مقابل أن تسترد إسبانيا جبل طارق ، وفى العام نفسه خطب السنيور مورا مطالباً بجبل طارق كثمن لحياد الجيش الأسبانى .

وفى عام ١٩١٨ عرض الكونت رومانونز رئيس الوزارة الأسبانية إعطاء سبتة وأخذ جبل طارق ، ولم يتم شىء من ذلك لأن بريطانيا قررت أن لا تسلم فى جبل طارق مهما كلفها الأمر .

ولقد قررت بريطانيا منذ ١٩٣٥ تحصين هذه الصخرة وفعلا أقامت فيها الاستحكامات الحديثة وقوت الدفاع ضد الطائرات .

والواقع أنه ليس من السهل غزو هذه الصخرة من الجو لأن الطبيعة جعلت منها أوكاراً مخفية للبطاريات والمدافع التى لا يمكن للطيار أن يرى موقعها من الجو بينما هى تراه فتصيبه ولا يصيبها ، وقد أقامت السلطات هناك ملاجىء قوية لجميع الأهالى ليلجأوا إليها إذا دعت الضرورة ، وبالرغم من ذلك يجب أن نعرف أن بريطانيا قد حافظت على هذه الصخرة تلك المدة الطويلة ضد الغزاة والمحاصرين لأن البحرية البريطانية لها السيادة ، وكان يحمى الصخرة رجال أشداء ومدافعون أقوياء ولكن فى الوقت نفسه إذا استطاعت أية دولة معادية أن تستولى على سبتة وطنجة وأن تكون لها قوة بحرية وبرية كافية فإن مركز جبل طارق سيكون حرجا وعرضة للخطر .

وأخيراً فإن بريطانيا تستطيع البقاء فى جبل طارق بدون حرب إذا صادفت من يضع يده على سبتة وإذا بقيت طنجة دولية .

٢ — مالطـــة

الموقع الجغرافى

تقع جزيرة مالطة فى منتصف المسافة بالضبط بين جبل طارق والسويس وفى منتصف الطريق المائى بين صقلية وساحل إفريقيا ، وتبلغ مساحة الجزيرة ٩٥ ميلا مربعاً وأراضيها قاحلة جدباء تعلوها الصخور وعاصمتها الحديثة فالتا .

أهميتها الاستراتيجية

١ — ميناء فالتـــا جيد وقاعدة بحرية هامة معدة لإصلاح وتموين كل السفن البحرية .

٢ — مركز اتصال سلكى ولاسلكى للمواصلات الإمبراطورية .

٣ — الميناء الوحيد الخاضع للسيطرة البريطانية من بورسعيد الى جبل طارق فإذا حذفت مالطة من سجل الوجود أو احتلتهـــا دولة معادية ، اضطرت السفن البريطانية التى تمخر عباب البحر بين بورسعيد وجبل طارق أن تقطع ألف ميل تقريبا بدون أن يكون لها مرفأ انجليزى تلجأ إليه ، وقد جعلت منها التحصينات التى أقامتها القوات البريطانية قاعدة مهمة للعمليات الحربية .

٤ — مالطة شوكة فى جنب ايطاليا فهى تبعد سبعين ميلا فقط عن ساحل صقلية ويمكن رؤيتها فى اليوم الصحو من مرتفعات إتنا ولذا فإن إيطاليا تكره قيام أى معقل أجنبى بالقرب من شواطئها .

ولكن هناك بعض نقط الضعف التى تؤثر فى مركزها الاستراتيجى وأهمها :

١ — تعانى مالطة من افتقارها إلى الوقود والمعدات وبعض الإمدادات التى تستورد من الخارج .

٢ — يمكن الوصول إليها من صقلية فى ظرف ٢٠ دقيقة بالطيران وقد أزعج ذلك بريطانيا وجعلها تفكر فى الموقف إذا ماقام بينها وبين إيطاليا نزاع .

الموقف السياسى

فى أثناء عام ١٧٩٨ حينما أبحر نابليون لغزو مصر أنزل قواته فى الجزيرة وطرد منها فرسان القديس يوحنا . وبعد شهور ثلاثة من هذا الاحتلال ثار سكان الجزيرة ضد الفرنسيين وحاصروا حاميتهم وكان يمدهم بالأسلحة أحد رجال نلسون ، وبينما كان المالطيون يحاولون طرد الفرنسيين نزلت القوات البحرية البريطانية بالقرب من الميناء وفى جزيرة جوزو وامتلكوها باسم ملك انجلترا .

وبعد أربعة عشر سنة من ذلك التاريخ ، وطبقاً لمعاهدة باريس ، وتبعاً لرغبة الأهالى ؛ ضمت الجزيرة إلى التاج البريطانى .

وقد عانت بريطانيا كثيراً من دعاية الإيطاليين فى الجزيرة فقد ظن الإيطاليون أنهم يستطيعون أن يتقربوا من المالطيين على أساس الجنس والقرابة ، ولكن اعتقادهم كان خاطئا فإن لغتهم أقرب إلى العربية السورية منها إلى الإيطالية ، ورغم فشل إيطاليا فى ذلك فإنها تقربت إلى المالطيين عن طريق آخر هو الكنيسة والثقافة الإيطالية ، وقد نجحت كلتا الطريقتين فإن المالطى بطبيعته متدين علاوة على أن الإيطالية كانت لغتهم العلمية الدراسية منذ القرن الثامن عشر فكانت لغة النبلاء والكهنة والمحاكم ، ولم تحاول بريطانيا إرغام أهلها على استخدام لغتها كما هى العادة فى سياستها نحو باقى المستعمرات البريطانية ولذلك سمح البريطانيون بعد استيلائهم على مالطة ببقـــاء اللغة الإيطالية وجعلوها فى مرتبة واحدة مع اللغة الإنجليزية بالمدارس وكذا فى إدارة الشئون العامة بالجزيرة .

وقد هيأ ذلك الفرصة لإيطاليا للتدخل فى سياسة الجزيرة وخصوصاً أيام النظام الفاشى ودعايته فيما وراء البحار ، ومما جعل بريطانيا تمنح مالطة دستوراً عام ١٩٢١ وكان من نتيجته أن تمتعت مالطة بحكومة مستقلة .

ومن ناحية أخرى فقد كان للكنيسة تأثير كبير على الشعب والحادثة التالية

أكبر دليل على ذلك : « تشاجر اللورد ستركلاند رئيس الحكومة المالطى مع الأسقف المحلى للجزيرة وأبلغت هذه الحادثة للبابا » وقد نتج عن ذلك أن استعملت الكنيسة نفوذها ضده فى انتخابات ١٩٣٠ فلما رأت بريطانيا تدخلا أجنبياً أجلت الانتخابات لمدة سنتين حاولت فيهما أن تشل الدعاية الإيطالية بتقليل تعليم الإيطالية .

ولكن الفاشية كانت تتطور تطوراً سريعاً فلما أعيدت الانتخابات فى الجزيرة ١٩٣٢ صوت المالطيون بتأثير الكنيسة ضد اللورد ستركلاند وعاد للحكم بعض معارضيه الموالين لإيطاليا .

وقد شجع ذلك الفاشيين على منح المالطيين إجازات مجانية إلى إيطاليا ومدهم بالمساعدات الطبية وإنشاء ناد لهم لتوكيد الصداقة بين المالطيين والإيطاليين ، وقد أقلق ذلك بريطانيا مما جعلها تعطل الدستور عام ١٩٣٣ وتلغيه نهائياً عام ١٩٣٦ .

وقد وصلت سطوة الإيطاليين إلى قمتها عام ١٩٣٦ ثم بدأت فى الهبوط لعدة عوامل خارجية ، فقد اتبع البريطانيون سياسة ثقافية جديدة أعطت المالطيين كل ما يأملون فيه ، فمثلا ألغت الحواجز الاجتماعية التى كانت تفصل بين المقيمين البريطانيين والمالطيين الأرستقراطيين ، ولكن التغيير المهم هو استبدال الإيطالية بالمالطية فى المحاكم فأمكن للأهالى بذلك أن يحاكموا بلغتهم الوطنية .

وقد ترجم الأنجيل إلى المالطية واستعملتها الصحافة والمدارس ، وقد ساعد النزاع الإيطالى الحبشى السلطات القائمة على القضاء على النفوذ الإيطالى فقد مكن الحاكم من طرد الإيطاليين غير المرغوب فيهم وإقفال المدارس والنوادى الإيطالية .

والمالطيون يفضلون بريطانيا على منافستها إيطاليا لسببين رئيسيين :

١ — أن المبالغ الطائلة التى تنفقها بريطانيا بمالطة تدخل مباشرة إلى جيوب أهلها . فإن بريطانيا تنفق سنوياً ٣ مليون جنيه منها حوالى نصف مليون جنيه يصرف كأجور لعمال الميناء ، ويعلم المالطيون حق العلم أن ايطاليا التى تملك عدة قواعد فى وسط البحر الأبيض سوف تدفع أقل بكثير لو حلت محل بريطانيا .

٢ — يتمتع السكان تحت الحكم البريطانى بحكم ذاتى فإن معظم الوظائف المدنية فى مالطة يشغلها مالطيون وكذلك الوظائف الإدارية .

وقد اتبع المالطيون الأساليب البريطانية فى معيشتهم فهم يرتدون الملابس الانجليزية ويذهبون إلى بريطانيا لقضاء إجازاتهم وتمتلىء صحفهم بأخبار الرياضة فى بريطانيا ولا يمكن أن ينسى احتفال المالطيين بعيد تتويج الملك جورج السادس ملك بريطانيا أو الحزن البالغ الذى ساد الجزيرة حينما مات الملك جورج الخامس .

٣ — قبرص

الموقع الجغرافى :

تقع قبرص فى الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط وعلى بعد أربعين ميلا من ساحل آسيا الصغرى و٦٠ ميلا من ساحل سوريا ، ويبلغ طولها ١٤٠ ميلا وعرضها ٥٥ ميلا ومساحتها ٣٥٨٤ ميلا مربعاً ، ويبلغ عدد سكانها ٣٥٠ ألف سدسهم أتراك والباقون من اليونان والأرمن ، وعاصمتها نيقوسيا وتقع فى وسط الجزيرة وتتصل بميناء فاما جوستا بسكة حديدية .

ومنذ أن احتلت انجلترا قبرص بدأت فى تمهيد الطرق والسكك الحديدية وبناء الكبارى ، وبها كثير من المعـــادن لا سيا النحاس الذى تستخرجه بعض الشركات .

والجزيرة تعتمد على نفسها فى منتجاتها الزراعية رغم أنها لا تكفى نفسها فى المواد الغذائية ، فإن قلة الأمطار غير المنتظمة علاوة على التأخير فى استخدام طرق الزراعة الحديثة حدّ من طاقة انتاجها الزراعى .

ولكن لو جند المال والفكر فى تحسين الرى فإن الجزيرة يمكنها أن تستكفى بمواردها الغذائية ويمكن التغلب على النقص الموجود فى المياه اللازمة للشرب .

أهميتها الاستراتيجية

تعتبر قبرص عروس البحر للامبراطورية البريطانية لأهميتها الاستراتيجية التى تتلخص فيما يأتى :

١ — أن قيمتها العظمى كقاعدة للسفن الحربية والطائرات مبنية على حسن

موقعها فهى بعيدة عن منطقة نفوذ أو وطن أى دولة كبرى رغم وقوعها بجوار تركيا وقربها من جزيرة رودس والدوديكانيز .

٢ — لا تبعد أكثر من ساعة طيران عن حيفا وبور سعيد وتتصل بسوريا وفلسطين ومصر بطرق ملاحة بحرية ، وقد استعملتها شركات الخطوط الجوية العالمية كمركز لخطوطها إلى الهند وجنوب أفريقيا .

٣ — ميناؤها فاماجوستا يمكن الآن أن تأوى إليه السفن غير الحربية ولكن يمكن تحسينه وإعداده لإيواء السفن الحربية .

٤ — إن أجزاء الحافة غير المزرعة فى سهل مسوريا يمكن أن تمد بريطانيا بموانىء جوية وكذلك بحيرة اكوديترى تعطى الفرصة لاستخدامها لهبوط الطائرات المائية فى الجو الردىء .

الموقف السياسى

إن شعور الأهالى بالجزيرة كان سلبياً فان ٢٠ ٪ أتراك والباقون يونانيون وأرمن فرغم ما قام به الانجليز فى إنعاش الجزيرة فقد قوبل ذلك من الأهالى ببرود وشعور غير طيب .

وكانت بريطانيا قد استولت على قبرص عام ١٨٧٨ من الأتراك نظير وقوفها أمام تهديد الروس فى آسيا وزحفهم نحو القسطنطينية ، وكان الأتراك يجبون جزية من الجزيرة فلما سلمت لبريطانيا تعهدت الأخيرة أن تدفع سنوياً ما يوازى متوسط ماجبى فى السنوات الخمسة الأخيرة من الحكم التركى ، وكان المحصلون الأتراك فى حسابهم الجزية يحصلون على أقصى مايمكن تحصيله بينما الإداريون الذين يقومون بالحكم لاينفقون شيئاً على رفاهية أهل الجزيرة ، فكانت إدارة تركيا للجزيرة غير حكيمة فوجد القبرصيون بعد ذلك أن البريطانيين كالأتراك تماماً ، وسرعان ماتحققوا من أن الجزية التى كانت تدفع لتركيا أصبحت تدفع لبريطانيا .

وقد أضعف مركز بريطانيا عام ١٩١٥ أنها قدمت الجزيرة لليونان كرشوة

لدخولها الحرب لإنقاذ الصرب ، ولكنها حولت إلى مستعمرة بريطانية عام ١٩١٤ وكمستعمرة للتاج البريطانى عام ١٩٣٥

ومن الناحية الأخرى فان القبرصيين لايرغبون فى استبدال الحكم البريطانى بآخر لدولة أخرى ، ولن تفكر اليونان — التى تعهدت بريطانيا بحمايتها — فى أن تدعى أحقيتها فى قبرص .

٤ — فلسطين

وسيأتى الكلام عنها بالتفصيل فى فصل آخر .

الفصل الثالث

المسألة المصرية

الحملة الفرنسية على مصر

كان لإكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح أثر فعال فى فقد مصر لأهميتها كحلقة إتصال بين أوربا والشرق منذ مطلع القرن السادس عشر ، وكانت الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨ أول نقطة تحول فى تاريخ مصر الحديث .

أسباب الحملة

يمكن أن توجز الأسباب الرئيسية لهذه الحملة فى رغبة فرنسا الملحة فى مضايقة بريطانيا فى الشرق ، وقطع مواصلاتها الرئيسية مع مستعمراتها ، وكذلك كانت تهدف إلى إنشاء مستعمرة فرنسية وفتح أسواق لها فى الشرق .

وهناك أسباب ثانوية وهى رغبة نابليون فى استعادة مجده بإنشاء دولة شرقية شبيهة بدولة إسكندر الأكبر ، علاوة على أن الفرصة لم تكن مواتية له ليهاجم حكومة الإدارة فى فرنسا فآثر أن يبتعد عن فرنسا حتى تواتيه الفرصة لمهاجمتها ، ومن الأسباب التى قيلت أيضاً أن المماليك كانوا يسيئون معاملة التجار والرعايا الفرنسيين ولذلك صمم نابليون على الإنتقام منهم .

تاريخ الحملة

تم إعداد الحملة بمنتهى السرية حتى أن البريطانيين لم يشعروا به ، وعين نابليون قائداً للقوات البرية والبحرية . وقد غادرت الحملة شواطىء فرنسا فى ١٩ مايو ١٧٩٨ واحتلت مالطة فى طريقها إلى مصر فى ١٢ يونيو ، وبعد أن نظم نابليون شئون الجزيرة عين الجنرال فوبوا حاكما لها ثم واصل الرحلة إلى مصر فى ١٩ يونيو .

ولقد ضرب نابليون المثل الأعلى للقائد الممتاز وعزيمته الحديدية أثناء مطاردته للأسطول البريطانى ، وقد علم نلسون قائد الأسطول البريطانى فى ٢٢ يونيو أن الفرنسيين احتلوا مالطة وأن أسطولهم قد أبحر إلى مكان غير معروف ، وقد خمن بأن وجهتهم لابد وأن تكون مصر لانشاء مستعمرة لهم هناك ولذلك صمم على الإبحار إلى الاسكندرية لشل خطط الفرنسيين .

وصول الحملة الى مصر

بعد أن غادر نابليون مالطة لم يسلك الطريق المألوف ولكنه سلك طريقاً آخر جنوبى كريت ، وكانت نيته متجهة إلى دخول الدلتا عند مصبى النيل لأن دمياط ورشيد كانتا أصلح موضعين لإنزال القوات وزحفها إلى القاهرة ، وقد وصل الأسطول الفرنسى إلى الاسكندرية فوجد أن الأسطول البريطانى قد سبقه إليها فغير نابليون تصميمه وسارع بإنزال جنوده غرب الاسكندرية ببضعة أميال وبدأت قواته الزحف لتوها إلى القاهرة .

سياسة نابليون

اتبع نابليون سياسة التودد إلى المصريين وإظهار المحبة لهم فقد أبان للمصريين أن الفرنسيين قد دخلوا مصر لتحريرها لا لاستعمارها ، وأن وجودهم فيها سوف لايؤثر على العلاقات الودية بين فرنسا والباب العالى ، وقد أصدر نابليون أوامره لقواته فى البحر قبل وصوله باحترام الدين الإسلامى ، واطلع على الكتب السماوية الثلاثة وكانت كل نداءاته إلى المصريين باللغة العربية ولذلك أحضر معه مطبعة عربية ثم جعل العلماء واسطة بينه وبين الشعب وقربهم إليه .

معركة الاهرام

بمجرد سماع أعيان القاهرة والمماليك بوصول الفرنسيين إلى الاسكندرية صمموا على طلب المساعدة من الباب العالى وأسندت القيادة لمراد بك ، وفى السادس عشر من يوليو كان مراد يعسكر بجنوده عند امبابة على الضفة اليسرى للنيل ولم يفكر

فى أن يجعل من النيـــل مانعاً بينه وبين العدو فيرغمه على التعرض أثناء عبوره ويكبده خسائر كبيرة .

وفي ١٨ يوليو شن الفرنسيون حملتهم على فرسان مراد فشتتوهم ودارت بينهما معركة الأهرام التى انتهت باحتلال الفرنسيين للقاهرة ، ولم يستطع ابراهيم مساعدة مراد ففر بمماليكه ونسائه وممتلكاته إلى سوريا ، وفى ٢١ يوليو اجتمع نابليون بالعلماء وأعاد عليهم تأكيداته السابقة باحـــترام المصريين ثم دخل المدينة فى ٢٤ يوليو .

وقد تشتتت فلول المماليك فى كل الاتجاهات فانسحب مراد إلى الجنوب فأرسل إليه نابليون يطلبه للتفاوض معه حتى يتمكن من القضاء على ابراهيم الذى فر إلى سوريا ولـكن مراد رفض طلبه نظراً لوجود الأسطول البريطانى .

وقبل أن يصل رد مراد إلى نابليون أرسل قواته لمطاردة ابراهيم ، ولـكن تأخر المشاة الفرنسيين أعطى ابراهيم الفرصة للهرب إلى سوريا ، ولما عاد نابليون من مطاردة ابراهيم سمع بتدمير الأسطول الفرنسى عند خليج أبى قير .

تدمير الأسطول الفرنسى

كان نلسن يجهل وجهة الأسطول الفرنسى ولـكن المعلومات وصلت إليه بأنه كان يسلك طريقا جنوب شرق ساحل كريت ، ولـكن فى ١١ أغسطس اكتشف سفن العدو التى ظلت مدة طويلة غير معروف مكانها بينما هى راسية فى خليج أبى قير وقد استغل نلسن عبقريته البحرية لحصر السفن الفرنسية ودمرها عن آخرها .

وبذلك أصبح الفرنسيون فى حالة يرثى لها لاستحالة وصول إمدادات لهم من فرنسا ، بل أصبحوا لا يستطيعون التقدم إلى سوريا لأهمية المواصلات البحرية فى مثل هذا الغزو ، وقد زاد من سوء الموقف اعتداء العصابات البدوية على مواصلاتهم فى الدلتا وبذلك عزلت القوات الفرنسية فى مصر ولم يعد ممكنا أن تعزّز أو أن تنسحب .

التحالف البريطانى التركى

كان أساس هذا المشروع أن تعد تركيا جيشا تعداده ١٠٠٠٠٠ رجل والسفن اللازمة لنقله فى الوقت الذى تعهدت فيه بريطانيا بأن تحتفظ فى شرق

البحر الأبيض المتوسط بأسطول يكفى للمحافظة على سيادة الإمبراطورية العثمانية، وفى نهاية سبتمبر أعلنت تركيا الحرب على فرنسا .

وفى ١٩ أكتوبر وصل إلى الإسكندرية ٣٦ قطعة بحرية تركية وقطعتان روسيتان وانضمت إليها بعض قطع الأسطول البريطانى وحاولت احتلال قلعة ومعسكر أبى قير ، ولكن نظرا لعدم وجود قوات برية فقد اكتفى الحلفاء بحصار أبى قير .

ثورة القاهرة

وقد صادف وصول القطع البحرية التركية قيام ثورة جامحة فى القاهرة ضد الفرنسيين ، ويجب أن نمعن النظر فى نظام حكومة نابليون قبل أن نتناول ثورة القاهرة بالتفصيل ، فقد كان من أول مبادئه أن يسمح للأهالى بالمساهمة فى إدارة شئونهم بأكبر قسط وخصوصا فى إدارة المحاكم ، وكان يعتقد أن المصريين يفتقرون إلى مجالس يستطيعون عن طريقها أن يعبروا عن آرائهم ، وقد بين للفرنسيين هذه الحقيقة وما تحتاجه مصر لضمان رفاهيتها ، وجعل من العلماء صلة بين الشعب وبين الفرنسيين .

وفى سبتمبر دعا نابليون رهطا من العلماء الذين اختارهم حكام المديريات الفرنسيون ، وضم إليهم العالمين الفرنسيين : مونج عالم الرياضيات وبرثولت الكيماوى وعهد إلى الجمعية ببحث الموضوعات الآتية :

١ — إنشاء مجالس مديريات .

٢ — تنظيم البوليس والسجون .

٣ — تنظيم قوانين الوراثة .

٤ — تعديل قوانين الضرائب والممتلكات .

أسباب الثورة

ولكن هناك عوامل كانت سببا فى إثارة شعور المصريين مما أدى الى ثورتهم فى النهايه فى ٢١ أكتوبر وقد جعلت الفرنسيين فى موقف حرج وأهم هذه الأسباب هى:

١ ـــ تدخل الفرنسيين فى شئونهم الخاصة كإجبار كل صاحب منزل أن يضع على بابه مصباحا وان يلبس الأهالى ملابس خاصة .

٢ ـــ قاسى المصريون البؤس من هذه الحملة فقد كان الفلاح يجد باب داره يحرق أمام عينيه ليطهى به الجنود طعامهم وكانت ممتلكاته ونساؤه نهباً للجنود .

٣ ـــ حض تركيا للمصريين على الثورة بواسطة عملائها وذلك علاوة على المنشورات التى كانت تقرأ فى المساجد لحث المصريين على عدم السماح للفرنسيين بالتدخل لهـــدم دينهم .

٤ ـــ انتشرت الشائعات بأن الجزار والى عكا فى طريقه إلى القاهرة وأن بونابرت سيحرق القاهرة قبل إخلائها .

٥ ـــ جباية الضرائب على العقارات .

حملة سوريا

بعد أن وقع سيدنى سميث معاهدة التحالف البريطانية التركية وصل إلى القسطنطينية وكان عليه أن يضغط على الباب العالى لتنفيذ خططه ، وكان من رأيه أن الأسكندرية هى الغرض الأول علاوة على أن حاميتها حسب التقارير التى وصلته كانت لاتزيد عن مائتى جندى .

وكانت خطته هى القيام بعدة هجمات على نقط متعددة بقطع بحرية خفيفة وألا يتعدى عدد القوات التى ستنزل ٤٠٠٠ رجل وحوالى ٣٠٠٠ آخرين بمثابة احتياط عند رشيد وتبقى بعض الزوارق الحربية فى النيل عند الرحمانية لتقطع المواصلات بين الساحل ومركز الرئاسة فى القاهرة .

وقد عجب وزراء الباب العالى لذلك المشروع الجرىء ولكن رغبة تركيا فى طرد الفرنسيين بأقل خسائر ممكنة فى الرجال والعتاد جعلتها تقبل ذلك الاقتراح .

غزو نابليون

وقبل أن ينفذ سميث خطته سبقه نابليون بإرسال حملة لغزو سوريا وكانت الدوافع التى أوعزت إليه بذلك كثيرة أهمها :

١ — رغبته فى تأمين غزو مصر بإنشاء معقل أمام الصحراء .

٢ — إجبار الباب العالى على تحديد موقفه من المفاوضات التى كانت دائرة .

٣ — حرمان الأسطول البريطانى من إمدادات سوريا .

٤ — تكملة خطط الامبراطورية الواسعة بالتوسع حتى هندوستان .

فأرسل جيشا قوامه ١٢,٠٠٠ رجل وكان أول انتصاراته فى العريش حيث قامت قواته بهجوم ليلى رائع على قوة الجزار فى ١٣ فبراير ، وانتهت المعركة بطرد الحامية التركية التى أصبحت فى حالة لا تمكنها من الدخول فى معركة أخرى قبل مرور عام على الأقل .

ثم زحف بعد ذلك إلى غزة فلم تقاوم واستسلمت ، وتقدم بعد ذلك نحو يافا وطلب من قائدها أن يسلم فرفض فاحتلها بالقوة ، وواجهت نابليون عقبة مشكلة الأسرى ووضعته فى موقف حرج فإن الطعام كان نادرا . فإن أرسلهم إلى مصر فإنه سيحتاج إلى حرس قوى لحراستهم مما يضعف من قوته ، وإذا أطلق سراحهم فإن ذلك يقوى عدوه ، وقد لاحظ أن بعض حامية العريش التى سرحها وجدت فى أسرى يافا ولذلك فقد استعمل نابليون القسوة وأصدر أمره بقتلهم للتخلص منهم.

وقد ظهرت إصابات الطاعون فى قواته أثناء وقفته عند يافا وابتدأ الجنود يشعرون بتفشيه ولكن سلوك بونابرت الحكيم وسياسة أطبائه لمكافحة المرض حفظت روح الجنود المعنوية .

حصار عكا

كان الفرنسيون يتصورون فى بادىء الأمر أن تحصين المدينة ضعيف ، وكان لسرعة سقوط يافا أثر كبير فى اعتقادهم أن الاستيلاء عليها أمر بسيط .

بدأ هجوم الفرنسيين فى ٢٣ مارس وانتهى بفشل ذريع فى ٢٨ مارس وتكبدوا خسائر جسيمة مما رفع روح الحامية .

وفى أثناء المرحلة الأولى للحصار كان على الفرنسيين أن يقابلوا قوة أخرى أرسلت بقيادة الجزار وتجمعت على شواطىء نهر الأردن لتخليص حامية عكا ، وقد تمكن نابليون من القضاء عليها .

وفى ٨ مايو قام نابليون بهجوم كبير على عكا فانتهى بفشل ذريع فصمم على رفع الحصار لعدة دوافع ، منها أنه قد حصل على غرضه ومن المستحسن أن يعود لمقابلة الجيش التركى أو الأوربى المنتظر نزوله فى القطر المصرى فى يوليو أو أغسطس علاوة على ظهور أعراض الطاعون ووصول أنباء تفيد باشتعال الحرب فى أوربا وعليه أن ينتهز الفرصة ليضرب ضربته .

وكانت المشكلة الكبرى فى الإنسحاب هى إخلاء الجرحى والخسائر ولكنه أستطاع أن ينسحب بقوته فى ٢٠ مايو بنظام دقيق وبدون أن تتدخل حامية عكا .

وفى منتصف يونيو دخلت قوات الحملة السورية القاهرة فى زهو بعد انسحاب لاقت فيه كثيرا من الصعوبات .

وقد كان للقوة البحرية أثر فعال فى فشل هذه المعركة فقد مكنت من وصول الأمدادات إلى الحامية بالحصن كما أن الأستيلاء على مدفعية الفرنسيين الثقيلة أضعف من هجومهم .

نتائج الحملة السورية

تعتبر حملة سوريا من الحملات الناجحة فقد دحرت مماليك إبرهم وقوات العصابات غير النظامية وكذلك قوات الجزار وكبدتهم خسائر فادحة وشلت تحضيراتهم ودمرت قواعدهم .

وكان فشل نابليون عند عكا معنويا أكثر منه ماديا .

معركة أبى قير البرية

وصلت الأنباء نابليون فى معسكره بالقرب من الأهرام بأن السفن التركية قد رست فى خليج أبى قير وأنزلت حوالى ١٨٠٠٠ جندى .

ولم يذعن مصطفى باشا قائد هذا الجيش لنصيحة سميث بإنزال قواته عند مصب النيل بل أنزل مقدمته عند حصن أبي قير حيث توجد بئر واحدة فقط مياهها صالحة للشرب .

وفى ١٩ يوليو وصل نابليون إلى أرض العملية بعد أن أصدر أوامره إلى الجنرال ديزيه بالاستعداد للتقدم إلى الوجه القبلى إذا دعت الظروف .

وقد حصل نابليون على نصر حاسم بهجومه على الأتراك بنحو ١٠,٠٠٠ من المشاة ومثلهم من الفرسان .

عودة نابليون الى فرنسا

صمم نابليون على العودة إلى فرنسا بعدأن علم بالهزائم الفرنسية فى إيطالياو أسند قيادة الحملة من بعده إلى كليبر وقد أكد له أنه سيرسل ما فى وسعه من إمدادات .

وقد أصدر إليه التعليمات بالتفاوض مع الأتراك إذا لم تصل إليه الامدادات اللازمة حتى مايو وله أن يتبع ذلك الحل إذا قضى الطاعون على أكثر من ٢,٥٠٠ من جنوده حتى لو استدعى الأمر إخلاء مصر ، وقد غادر نابليون مصر فى ٢٣ أغسطس مع بعض أخصائه دون أن ينتظر كليبر وذلك على إحدى السفن الفرنسية .

كليبر يواجه المشاكل

تذمر كليبر من رحيل نابليون المتكتم وكان موقف الحملة يزداد سوءا ، فأرسل تقريرا إلى حكومته فى ١٧ أكتوبر أوضح فيه حالة الجيش الذى نقص إلى نصف العدد الأصلى وأصبح مفتقرا إلى الذخيرة والملابس ، علاوة على أن المصريين قد أصبحوا فى حالة تنذر بالثورة فى أى فرصة ، وأن القوات التركية تزحف على مصر فى الوقت الذى أصبحت فيه الاسكندرية خالية من أى دفاع بعد فقد المدفعية الفرنسية فى الحملة السورية كما أن ميزانية الحملة المالية قد استنفدت .

مؤتمر العريش (يناير ١٨٠٠)

وتحت ضغط هذه الظروف القاسية فكر كليبر أن يبدأ بالمفاوضات مع تركيا

فكتب إلى رئيس وزراء تركيا فى ١٧ سبتمبر فرد عليه بأن الباب العالى يوافق على ذلك وعلى أن تعاد علاقات الصداقة والود بين تركيا وفرنسا .

تدخل سيدنى سميث

ولكن سميث صمم على التدخل فى المفاوضات حتى يمنع الباب العالى من الارتماء فى أحضان الفرنسيين ، فكتب إلى كليبر فى ٢٦ أكتوبر موضحا له المواد الهامة فى معاهدة التحالف بين بريطانيا والباب العالى وأنه لا يمكن إجراء أى جلاء عن مصر بدون إذن بريطانيا ، وكان كليبر يرحب بتدخل بريطانيا لخوفه من روسيا ، وفى أوائل يناير عام ١٧٩٩ علم كليبر بأن ايطاليا قد فقدت وأن أسطول بروكس قد انسحب من البحر الأبيض وأن الحملة الفرنسية قد انتقدت فى الصحافة الفرنسية ففقد كل أمل فى وصول إمدادات إليه من فرنسا ، ورأى أن واجبه الأسراع بقواته إلى نجدة الوطن فأرسل مبعوثيه إلى الباب العالى لمفاوضته فى جلاء القوات الفرنسية عن مصر على أساس حياد الباب العالى والسماح للقوات الفرنسية بالجلاء بمعداتها وذخيرتها .

وفى هذا الوقت وصلت إليه معلومات بذبح الحامية الفرنسية فى العريش وسقوطها فلم يؤثر ذلك عليه ، وسمع كذلك بقيام فتنة بين قواته فى الاسكندرية ، وقد جعلته كل هذه العوامل يسرع فى مفاوضاته مع تركيا وفى هذا الوقت قبل كلٌّ من ديزيه وبوسريليج التفاوض وبدأت المفاوضات على أساس جديد .

وأخيراً بعد عقد عدة اجتماعات وقعت معاهدة العريش فى ٢٤ يناير ١٨٠٠ ورفض سميث التوقيع عليها ، وقد صدق الباب العالى عليها وابتدأ فى جمع الحملة اللازمة لنقل الفرنسيين إلى بلادهم ولكن كليبر استأنف عداءه واشتبك مع الجيش التركى فى ٢٠ مارس عند هليوبوليس حيث كبد الأتراك خسائر فادحة ، وفى هذا الوقت اغتال الطالب السورى سليمان الحلبى كليبر فخلفه مينو .

طرد الفرنسيين من مصر

كان من المقرر أن تقوم حملة هندية بمهاجمة الفرنسيين عن طريق البحر الأحمر وقد أرسلت قوة تحت قيادة رالف أبركرمبى إلى مصر ، وكان تعدادها

حوالى ١٥,٠٠٠ رجل بينما كان عدد الفرنسيين لايتعدى ١٣,٠٠٠ جندى وكانت دفاعات الاسكندرية ضعيفة وغير كاملة ، وتمكن أبركرمبى من رفع الروح المعنوية بين رجاله مما سهل عليهم القيام بالواجب المطلوب منهم .

وفى أول مارس وصلت القوة إلى خليج أبى قير ولكنها لم تستطع النزول حتى اليوم الثامن وبذلك توفر الوقت الكافى لمينو فأمكنه إرسال إمدادات لمنع القوات ولكنه لم يستغل هذه الفرصة السانحة .

وفى يوم ١٣ مارس زحفت القوات البريطانية نحو الاسكندرية ولكنها فشلت فى هجومها على مواقع الفرنسيين القوية فتحركت إلى غرب المدينة وحفرت خنادقها أمام مواقع الفرنسيين .

وفى الوقت نفسه وصل مينو ومعه ١٠,٠٠٠ جندى إلى الاسكندرية ودارت معركة حامية بينه وبين البريطانيين وقد انتصر البريطانيون نهائياً فى ٢١ مارس .

ولكن هذه المعركة لم تبت فى مصير الحملة فإن القائد العام قسم قوته وأرسل منشورات لمتابعة القتال ولكنه لم يصـــدر أى تعليمات إلى بليـار قائد حامية القاهرة .

وكان أبركرمبى قد مات فى ذلك الوقت متأثراً بجراحه وخلفه الجنرال هتشنسن الذى صمم على أن يترك قوة لمحاصرة الاسكندرية ويتحرك بالقوة الأساسية نحو القاهرة .

وفى ٢٧ يونيو استسلم بليـار بقواته ولم يبد أية مقاومة وتلا ذلك استسلام مينو بقواته وبذلك انتهى الاحتلال الفرنسى لمصر وكان الفضل فى ذلك لانتصار البريطانيين وانهيار معنويات الفرنسيين .

نتائج الحملة

كانت الحملة الفرنسية نقطة التحول فى تاريخ مصر الحديث فإن المسألة المصرية قد بدأت منذ ذلك التاريخ ، وقد أظهرت هذه الحملة لنابليون أثر التعاون والعزيمة التى استطاع بها أن يتغلب على العقبات المادية والمعنوية التى صادفته ، ولكن إقامة

الفرنسيين القصيرة فى مصر قد أثرت فى تاريخها تأثيراً بالغاً فإن المماليك أصبحوا غير قادرين على الإفاقة من اللكمات التى كالها لهم الفرنسيون ، وأثبت الأتراك عدم كفاءتهم إذ لم يستطيعوا طرد الفرنسيين وإبادتهم .

وكان من نتائج الحملة أن نقل إلى الغرب بعض آثار الحضارة المصرية واكتشف سر اللغة المصرية القديمة مما لفت أنظار العالم إلى مصر .

ظهور محمد على باشا

كانت نتيجة الحملة الفرنسية على مصر أن أصبحت مصر ميداناً للنزاع السياسى الدولى ، وكان والى مصر فى ذلك الوقت هو خورشيد باشا الذى كان صنيعة لقبطان باشا ، وكان عليه أن يقضى على المماليك الذين هربوا إلى الوجه القبلى يقودهم أربعة من كبارهم هم ابراهيم والألفى والبرديسى وعثمان حسن ، وكانت الفوضى قد وصلت إلى أقصى درجاتها ولذلك كنا نجد أن مصر أصبحت بلا حاكم يسيطر على شئونها ، وقد مهد ذلك السبيل لأول محرر للبلاد أن يرحب به الأهالى .

وقد انتهز محمد على هذه الفرصة إذ رأى أن قوة الحكم إنما تستمد من الشعب فجعل أداة حكمه شعبية بحته ، واستطاع أن يعتلى عرش مصر وأن ينهض بها فى النواحى الاقتصادية والعمرانية، واستطاع أن يكوّن أعظم الجيوش البرية وأسطولا بحريا ضخما تحدى به الدول الكبرى .

سنوات الاستقرار

كان أمام محمد على كثير من المنافسين فرأى أن يتخلص منهم ولذلك قضى الفترة من ١٨٠٧ حتى ١٨١٢ فى القضاء على هؤلاء المنافسين ، وقد حاول علماء القاهرة فيما بعد أن يستخدموا ضده نفس السلاح الذى استخدمه ضد خورشيد ولكنه استطاع أن يفرق بينهم ونفى زعيمهم السيد عمر مكرم الذى نادى بخلع خورشيد وتنصيبه والياً على مصر .

وكان المماليك حجر عثرة فى طريقه ولم يتمكن أن يتخلص منهم بأى طريقة سلمية ولذلك قرر أن يستخدم القوة والحيلة للقضاء عليهم .

وكان من أهداف محمد على الأساسية إنشاء مالية للدولة فإن والى مصر كان يحتاج إلى المال لرشوة الباب العالى والمماليك حتى تحين الفرصة للقضاء عليهم ، ولكن الجنود الألبانيين كانوا دائماً عبئاً ثقيلا على خزانته نظراً لمرتباتهم المضاعفة والمتزايدة ، وكان الجنود هم الذين يشعرون بالرخاء أما العامة فكانت أحوالهم الاقتصادية سيئة ، وكانت الأموال تجبى بجميع الوسائل فالضرائب تجبى بمعرفة البكوات المماليك ولايعفى أى فرد من أداء الضرائب .

وقد لجأ محمد على ـ ليصلح من الحالة الاقتصادية ـ إلى أن ينزع ملكية الأراضى وأن يكون هو المالك الوحيد ، ويشرف على زراعتها بأجمعها وفقاً لنظام معين لانتاج محاصيل معينة كان من أهمها القمح والقطن والدخان فاستطاع أن يبنى نهضة زراعية .

وكان أحد الموارد التى يعتمد عليها مالياً هو بيع القمح فقد حل بجميع دول البحر الأبيض قحط شديد وذلك فى عام ١٨٠٩ — ١٨١١ ، وكان الباب العالى يشدد على التصدير من مصر إلى الخارج ولكن محمد على استطاع أن ينتهز هذه الفرصة ويصدر القمح الفائض عن الاستهلاك المحلى ، وكان الباشا يقوم بشراء القمح من الزراع بسعر التكاليف ويبيعه بأسعار مرتفعة للأوربيين والفرق بين السعرين كان مورداً سخياً للخزانة المصرية وبذلك استطاع أن يبنى مصر بناء جديداً يعتبر أساساً لنهضتها الحديثة .

الفصل الرابع

ارتباط مصر ببريطانيا

إن العلاقة السياسية بين مصر وبريطانيا تلعب دورا هاما فى خطط الدفاع عن الامبراطورية .

ففى عام ١٨٨٢ بعد أن ظهرت قيمة قناة السويس احتلت بريطانيا مصر لدوافع استراتيجية بحتة وقد بقيت فى مصر تلبية لهذه الدوافع .

وفى عام ١٩١٤ تحولت مصر محمية بريطانية للسبب نفسه ؛ وفى عام ١٩٢٢ عندما أعلن استقلال مصر احتفظت بريطانيا لنفسها بأربعة نقط على أن تبحث فيما بعد ، ومن بينها خطوط المواصلات الامبراطورية والدفاع عن مصر ومسألة السودان ، وقد ظلت هذه التحفظات الأربعة لمدة أربعة عشر عاما عقبة فى سبيل الاتفاق بين بريطانيا ومصر ، وقد نتج ذلك عن أن الوطنية المصرية ترفض بقاء الأنجليز داخل الحدود المصرية بينما أن بريطانيا وهى عليمة بالمشاكل السياسية العالمية والموقف المضطرب فى البحر الأبيض والتسابق السياسى فى مصر، تخشى أن تؤدى الاضطرابات الداخلية فى مصر إلى عرقلة خططها للدفاع عن الامبراطورية ولذلك فكرت فى الاحتفاظ ببعض النقط لا للدفاع عن قناة السويس وحدها بل فى بقية القطر المصرى وبذلك كملت المشكلة .

المعاهدة البريطانية المصرية

ولكن ذلك الخطر قد زال عام ١٩٣٦ فقد سويت فى عدة شهور تلك المشاكل التى استمرت عدة سنين بين الطرفين وقد جاء بالمعجزة طرف ثالث هو إيطاليا ، فقد أزعج هجوم الايطاليين على الحبشة المصريين كما لم يزعج شعبا آخر فقد رأوا فى ذلك تهديدا للسودان ، وخشوا من الخطر على حدودهم الغربية التى تلاصق ليبيا

وكذلك منابع النيل وهى المورد المائى الذى لا يستطيعون التخلى عنه ، فساد القلق الدولة بأجمعها وظهر لسكانها ضعف البلاد واحتمال أن تكون لقمة سائغة لأى دولة طامعة .

وقد جعل هذا الخطر المتوقع الأحزاب المصرية ـ لأول مرة فى تاريخ مصر ـ تتحد على اختلاف نزعاتها وتقف جنبا إلى جنب يدا واحدة وتظهر جميعا فى مظهر البطل الواحد .

وقد ساد القلق من ناحية أخرى فى لجنة الدفاع الامبراطورية فقد وصفت ايطاليا بأنها غازية الحبشة وأنها لو تهيأت لها الفرصة فستكون كقبضة الكماشة على مصر ، وسيكون لها النفوذ على الحكومة المصرية ، وقد بنت اللجنة أسبابها على أنه باضطراد خطط إيطاليا الاستعمارية فإن ذلك سيقلب نفوذها إلى عمل حاسم ضد بريطانيا ويعرقل مصالحها وخصوصا فى قناة السويس ، وقد أدى هذا القلق المتبادل بين مصر وبريطانيا إلى تبادل المساعدة .

وبموجب معاهدة ١٩٣٦ تعهدت بريطانيا بسحب جميع قواتهـــا المسلحة إلى منطقة قناة السويس ، وتأكيد الحكم المشترك مع مصر على السودان ، ومساعدة بريطانيا لمصر فى الدخول إلى عصبة الأمم ، ووعدت بريطانيا بإلغاء الامتيازات للدول الأجنبية ولكنها احتفظت لنفسها ببعض الإمتيازات وأهمها :

١ ـــ إعتراف مصر بمصالح بريطانيا فى قناة السويس والسماح لها بالاحتفاظ بقوة مكونة من ١٠٫٠٠٠ جندى ، ٤٠٠ طيار على ضفتى القناة إلى أن يصبح الجيش المصرى قويا بدرجة يستطيع معها أن يدافع عن القناة .

٢ ـــ يستخدم الجيش المصرى مهمات عسكرية بريطانية وكذا مدربين بريطانيين .

٣ ـــ حق بريطانيا فى استعمال المطارات والموانىء المصرية ، ولصالح الطرفين أنشئت طرق استراتيجية هامة وسكك حديدية ومطارات على نفقة مصر .

نتيجة المعاهدة :

وقد استراح كل من الطرفين لهذا التحالف رغم أن المصريين بوطنيتهم الملتهبة ظلوا يكرهون الأجانب عموما ومنهم الانجليز ، ولكنهم كانوا يفضلون الانجليز

على سواهم وخصوصاً الإيطاليين لأن بريطانيا تعتبر منسامحة نوعاً بالنسبة لإيطاليا هذا علاوة على أن بريطانيا لديها أسطولها البحرى القوى فى البحر الأبيض المتوسط .

ولكن الرعايا الأجانب فى مصر كانوا يعلمون أن الامتيازات يجب أن تنتهى يوماً ما ، وكانوا يأملون فى إنقاذ ما يمكن إنقاذه ، وقد اقترحوا تخفيفاً للموقف أن تستمر المحاكم المختلطة لمدة طويلة ضماناً لحقوق الأجانب كما يزعمون .

مؤتمر مونترو

وفى مؤتمر إلغاء الامتيازات الذى عقد فى مونترو عام ١٩٣٧ شملت الاتفاقية بعض النصوص التى منحت الجاليات الأجنبية مدة ١٢ عاماً إما لتصفية مصالحها فى القطر المصرى أو الاندماج فى مصر والخضوع للقانون المصرى بعد انتهاء هذه المدة .

وكان عام ١٩٣٧ مظهر بشائر جديدة فى العلاقات بين مصر وبريطانيا فقد انقلب الاحتلال إلى تحالف ، وأصبحت دار المندوب السامى البريطانى سفارة ، وصارت العلاقات طيبة بين الطرفين .

وقد استمر الطرفان فى الحصول على المساعدة المتبادلة فقد ضمنت مصر المساعدة الدبلوماتية والسياسية حتى تصبح قوية سياسياً بدرجة تمكنها من الدفاع عن حدودها وثروتها ، وضمنت انجلترا أن تمر من الشرق وإليه فى أمن فى حالة أى طارىء .

مدى المساعدة الاجنبية

ومصر تضع نصب أعينها ما تمليه عليها سياستها العليا التى تقوم على الاستعداد الدائم والمستمر ضد من يحاول مساس قوميتها ووطنيتها التى تتمثل فى عروبتها .

ولن تكون مصر فى يوم من الأيام إلا فى جانب الذين يسعون إلى مثل

العدالة التى حاربت فى سبيلها ، وجاهدت من أجلها ، وتمثلت اليوم فى سياستها أمام المحافل الدولية .

إن مصر الديمقراطية لن ترضخ إلا للعدل والحق اللذين يمثلان أحقيتها فى الحياة الحرة الصادقة .

الفصل الخامس

مصر بعد الحرب العالمية الثانية

لم يكد الخطر الإيطالى الذى كان يهدد مصر يزول بهزيمة المحور وطرده من شمال أفريقيا حتى تنفس المصريون الصعداء ولو أن الحرب كانت لا تزال مستعرة فى أماكن متعددة ولم تضع بعد أوزارها ، وساد مصر هدوء نسبى ظهر فى اهتمامها بشئونها الداخلية وتكريس جهدها للإصلاح الداخلى ، وكان أول عمل هو التخلص من ذلك الوضع الشاذ الذى فرض عليها فى ٤ فبراير ١٩٤٢ تحت ضغط ظروف معينة ، فلما زالت تلك الظروف وكفّ البريطانيون يدهم عن التدخل ، أبعد الوفد عن الحكم فى ٩ أكتوبر عام ١٩٤٤ ، وتولى الوزارة الرجل الجرىء أحمد ماهر باشا الذى طالما جاهر برأيه فى دخول مصر الحرب ، وما أن أعلن أن الاشتراك فى مؤتمر سان فرانسيسكو — الذى تمخض عن ميثاق هيئة الأمم — لن يكون إلا من حق الدول التى تعلن الحرب على المحور حتى بادر بإعلانها حتى تفيد مصر من ذلك الظرف وقد راح ضحية جرأته فقد اغتيل فى دار البرلمان عقب إعلان الحرب ، وقد خلفه النقراشى باشا فى رياسة الوزارة ولكنه استقال بعد ذلك وبعد أن وضع أساس سياسة مصر فى عدم قيام أى مبرر لوجود القوات البريطانية فى أرض مصر وأن معاهدة ١٩٣٦ قد استنفدت أغراضها بزوال الخطر الإيطالى المجاور .

وقد خلفه إسماعيل صدقى باشا فى رياسة الوزارة الذى دخل فى مفاوضات مع البريطانيين الذين أوفدوا لورد ستانسجيت وقد جرت محادثات انتهت بسفر صدقى باشا إلى لندن فى أكتوبر ١٩٤٦ والاجتماع بمستر بيفن وزير الخارجية البريطانية وقد وصلوا إلى مشروع معاهدة وقعت بالحروف الأولى ولكن هذا المشروع لم ينل موافقة هيئة المفاوضات واستقال بعض أعضائها فخلّها صدقى باشا ولم يتم توقيع المعاهدة وفيما يلى مشروع المعاهدة الذى اشتهر باسم مشروع (صدقى — بيفن) :

١ — تنص المادة الأولى على انتهاء العمل بمعاهدة ١٩٣٦ بمجرد سريان المعاهدة الجديدة .

٢ — تنص المادة الثانية على التعاون بين الطرفين على الدفاع عن مصر أو البلاد المتاخمة حتى يتدخل مجلس الأمن .

٣ — تنص المادة الثالثة على تعيين لجنة مشتركة لتنسيق الدفاع وتجتمع من تلقاء نفسها كلما دعت الحالة وتختص بتنسيق الدفاع فى البحر والبر والجو ومن اختصاصها أيضا تعيين الموظفين المدنيين والعسكريين وتجتمع تبعا للأحداث فى الشرق الأوسط .

٤ — تنص المادة الرابعة على أن مدة المعاهدة عشرون عاما من بدء سريانها .

وقد ألحق بالمشروع بروتوكولان :

الأول : بروتوكول الجلاء وينص على الجلاء الكامل عن الأراضى المصرية فى أول سبتمبر ١٩٤٩ وقد نص على أن « الأراضى المصرية » تعنى مصر وحدها وليس السودان .

الثانى : بروتوكول السودان وينص على تحقيق رفاهية السودانيين وإعدادهم للحكم الذاتى على أن تظل اتفاقية ١٨٩٩ سارية حتى يتم الاتفاق بين الأطراف الثلاثة — بريطانيا ومصر والسودان — مع عدم المساس بالسيادة .

وقد استقال صدقى باشا وخلفه النقراشى باشا الذى قام بعرض القضية المصرية على مجلس الأمن بوصف أن وجود القوات البريطانية فى مصر أمر يهدد السلم فى الشرق الأوسط بالتكدير ، وأن وجودها مخالف لميثاق هيئة الأمم المتحدة ، وطالب بوحدة وادى النيل تحت التاج المصرى مستندا إلى رغبة سكان الوادى أجمعين مصريين وسودانيين ، وقد عبر بحق عن المطالب القومية التى أجمع عليها المصريون بلا استثناء على اختلاف مشاربهم ، ولكن بعض الإنفصاليين السودانيين كانوا أداة طيّعة فى يد البريطانيين الذين دفعوهم إلى المطالبة بالاستقلال عن المصريين والبريطانيين معا ، ليظهروا المصريين بمظهر الطامعين فى استغلال السودان ورغبة السودانيين فى الانفصال عنهم ، ولم يصل مجلس الأمن إلى حل القضية المصرية

رغم حسن بلاء النقراشى باشا ومن معه فى الدفاع عنها ، ولم نشطب القضية المصرية من جدول أعمال مجلس الأمن ، ولكنه نصح للفريقين بالتفاوض مباشرة للوصول إلى حل يرضى الطرفين معا .

ولا يزال الأمر معلقا للآن وإن كانت بريطانيا ومن ورائها الولايات المتحدة ترغبان فى الوصول إلى حل للمسائل المعلقة ، وحتى تكون العلاقات مرتكزة إلى أسس سليمة مدعمة وحتى تطمئن الدولتان الكبيرتان إلى استتباب الأمن فى الشرق الأوسط الذى تتركز فيه مصالحهما قديما وحديثا .

وقد وقع أخيرا حادث يؤسف له حقا إذ أطلق شاب الرصاص على النقراشى باشا فى مبنى وزارة الداخلية فلقى حتفه لساعته ، وكان مثال النزاهة والحزم والصلابة فى الحق وقد خلفه إبراهيم عبد الهادى باشا وكان وزيرا للخارجية فى وزارة إسماعيل صدقى باشا ، وحضر المفاوضات الأخيرة التى أنتجت مشروع « صدقى - بيفن » ولعلّ ذلك يعنى اقتراب وجهات النظر فالرغبة متبادلة بين كل من مصر وبريطانيا لحل المسائل المعلقة بينهما ، والولايات المتحدة يهمها أن تستقر الأمور حتى تتفرغ الكتلة الغربية لمقاومة التوسع الروسى وتطويق ذلك الخطر بنطاق من المحالفات الدفاعية الشاملة والمواثيق التى تربط بين كتلة من الدول لا دولة واحدة ، والمثل الراهن أمامنا هو حلف الأطلنطى الذى ينتظم دول غرب أوربا ، والتفكير جاد هذه الأيام لعقد حلف لدول شرق البحر الأبيض المتوسط مضافا إليها اليونان ولعل الأيام القريبة تكشف عن مشاريع لم تكن فى الحسبان .

الباب الثالث

فرنسا والشرق الأوسط

« إن عظمة فرنسا تتمثل فى شمال
إفريقيا والمشرق »

دالاديه

الفصل الأول

أزمتا الجزيرة وأغادير

١٩٠٦ — ١٩١١

١ ــ أزمة الجزيرة

مؤتمر الجزيرة :

لم ينعقد المؤتمر الخاص بمشكلة مراكش حتى عام ١٩٠٦ ، ولما كان لابد لمثل هذه المؤتمرات من بعض المقدمات فقد وصلت الدول فيما بينها إلى اتفاقات مبدئية ، فوافقت فرنسا على انعقاد المؤتمر مع ضمان سيادة مراكش ووافقت ألمانيا على النصوص العلنية للاتفاق الودى ، كما وافق الطرفان على إدخال إصلاحات فى مراكش يدخل فيها إنشاء بوليس دولى بشرط ألا يعمل على الجنب الملاصق للجزائر وأن تنشىء مراكش بنكا وطنيا فلا تتدخل أى دولة فى مصالحها الاقتصادية .

وبالرغم من هذه المقدمات فقد كان سلوك الألمان نحو مراكش فى عام ١٩٠٦ منذراً بالخطر مما جعل السير ادوارد جراى يقوم بمحادثات بين البحريتين البريطانية والفرنسية ، ويباحث الخبراء العسكريين ويتفق على مدى الحرية التى تمنح للحكومة البريطانية للتدخل إذا ما وقعت الأزمة فعلا .

وقد انعقد المؤتمر فى الجزيرة فى ٧ إبريل وحضره ممثلون لاثنى عشرة دولة وسرعان ما بدأ الصراع السياسى بين كل من فرنسا وألمانيا وقد استعانت فرنسا فى صراعها بحليفتها القديمة روسيا وحليفتها الجديدة بريطانيا وجارتها إسبانيا ، أما أمريكا فقد قدمت إليها مساعدة غير ظاهرة ولكنها ذات أثر فعال وكان ذلك على يدى الرئيس روزفلت ، وبالرغم من أن ايطاليا كانت متحالفة مع ألمانيا إلا أنها ساعدت فرنسا .

ولم يمد يد المساعدة إلى ألمانيا إلا امبراطورية النمسا والمجر وكان قيصر ألمانيا يعرف ذلك حق المعرفة فأرسل إلى وزير خارجيتها يشكره لعطف الامبراطورية النمساوية على ألمانيا .

وكانت ألمانيا تهدف فى المؤتمر إلى أن يكون البوليس المراكشى مكونا من الدول الصغيرة أو يسمح للسلطان باختيار بوليسه بمنتهى الحرية ، وكانت ترغب رغبة أكيدة فى إبعاد فرنسا عن تنظيم البوليس المراكشى بأية طريقة ، وبعد مفاوضات كثيرة وافقت ألمانيا على أن يكونْ البوليس المراكشى مشتركا بين فرنسا وإسبانيا وأن يكون مدير البوليس سويسريا ، وكان ربح فرنسا من وراء هذه الموافقة كبيرا فقد أصبح لها القسط الأول فى الإدارة وأخرجت ألمانيا وحلفاءها من هذا العمل الذى يعتبر صاحب السلطان والقوة المنفذة فى المناطق الهمجية والتى تكثر فيها الاضطرابات .

وفيما يختص بالناحية الاقتصادية حازت ألمانيا نجاحا أكبر من فرنسا إذ تمت الموافقة على إنشاء بنك وطنى تحت إدارة الدول الأربع (فرنسا وانجلترا وألمانيا وإسبانيا) على أن تكون مصالحهم فيه متساوية ، وكان من بنود المعاهدة نص ينظم الضرائب الجمركية وحركة المرور على الحدود الجزائرية بين فرنسا ومراكش وعلى حدود الريف بين إسبانيا والريف .

من ذلك نتبين أن ألمانيا قد وضعت الأسس النظرية لمساواة الدول فى المصالح بمراكش ، بينما نرى أن فرنسا قد ضمنت مصالحها فيها لا فى الوقت الحالى فحسب بل فى المستقبل أيضاً ، وقد وجدنا أن جميع الدول قد تصدت بالمعارضة لألمانيا ما عدا النمسا والمجر وعلى هذا الأساس فإن ألمانيا لو فرض وتدخلت فى مراكش فى المستقبل فإن تدخلها لن يكون عن طريق مؤتمرات بل عن طريق القوة ، والقوة وحدها .

العلاقة بين الدول الكبرى قبل معاهدة بيركو Böjrko

كان من الواضح أن بريطانيا وفرنسا لن تسمحا لأى دولة من الدول أن تتدخل بينهما ففى عام ١٩٠١ وجدنا أن بريطانيا قد عرضت على ألمانيا أن تعقد معها تحالفا

وفى ١٩٠٤ حسمت بريطانيا النزاع القائم بينها وبين فرنسا بعقد التحالف الودى الذى وضع حلا لكل المشاكل المعلقة بينهما ، وفى عام ١٩٠٦ وجدنا أن بريطانيا تتفاوض مع فرنسا على عمل ترتيبات للحرب ضد ألمانيا ويبدو أن سير الحوادث كان سابقا لتقديرات الساسة وكان يسير بسرعة تفوق سرعة تفكيرهم .

وكانت روسيا رابضة تترقب الفرصة لتواصل زحفها البطىء إلى الهند ، وقد بدأت بريطانيا تشك فى نوايا الروسيا نظراً لمسلكها حيال الصين وقد قامت بعمل بعض الاحتياطات المضادة لسياسة روسيا ، وفى أغسطس ١٩٠٠ وقعت بريطانيا معاهدة مع ألمانيا فيما يختص بالصين ، وفى عام ١٩٠٢ وقعت بريطانيا تحالفا مع اليابان وقد جدد هذا التحالف عام ١٩٠٥ وكانت كل هذه الترتيبات مضادة للسياسة الروسية ، وفى عام ١٩٠٣ أعلنت بريطانيا أنها مصرة على إبعاد كل القطع البحرية الأجنبية عن الخليج الفارسى ، وفى سنة ١٩٠٥ أرسلت حملة بريطانية إلى التبت ليحل النفوذ البريطانى محل الروسى .

وفى ١١ مايو ١٩٠٥ فكر بلفور رئيس الوزارة البريطانية فى مسلك الروس ووجد أنه من الضرورى تحذير روسيا من نتيجة زحفها نحو أفغانستان والحدود الشمالية الغربية للهند .

وقد انتهز قيصر ألمانيا فرصة الحرب الروسية اليابانية ليوغر صدر الروسيا ضد انجلترا ثم يقدم المعونة للأخيرة ، وحتى عام ١٩٠٤ كان قيصر ألمانيا يقترح أن يعقد ميثاق تحالف ضد انجلترا وتشترك فيه كل من ألمانيا وفرنسا والروسيا ، واقترح قيصر روسيا من جانبه أن يوضع مشروع معاهدة لوقف طغيان انجلترا واليابان وتحقيقا لذلك وضع قيصر ألمانيا مشروع معاهدة ، ولكن قيصر روسيا اقترح استشارة فرنسا قبل الموافقة عليها وتوقيعها ومن ثم فترت المفاوضات .

معاهدة بيركو

وفى يونيو عام ١٩٠٥ بدأت مفاوضات السلم بين روسيا واليابان وانتهت بمعاهدة بورتسموث فى ٥ سبتمبر ١٩٠٥ .

وفى يوليو زار قيصر ألمانيا قيصر روسيا زيارة مفاجئة فى يخته فى بيركو وفى

اليوم التالى وقعت بينهما معاهدة أظهر فيها الأول حنكة وسياسة بعيدة النظر بينما لم يكن مع قيصر الروسيا أى مستشار سياسى وأهم نصوص هذه المعاهدة :

١ — تتعهد كل دولة للأخرى بأن تنضم إليها بكل قواها إذا ما هاجمتها أى دولة أوربية .

٢ — لا يجوز لأحدى الدولتين أن توقع صلحا منفردا .

٣ — تنفذ شروط هذه المعاهدة بمجرد انتهاء الصلح مع اليابان .

٤ — على روسيا عرض هذه الشروط على فرنسا ودعوتها للاشتراك كحليف والتوقيع عليها ، وقد وصف قيصر ألمانيا هذه المعاهدة بقوله إنها (إشتراك دولى) لسد الطريق أمام بريطانيا حتى لا يصبح العالم بأجمعه ممتلكات بريطانية ، وأن هذه المعاهدة ستجبر فرنسا على أن تسلك أحد طريقين : إما أن تطيع ألمانيا أو تتخلى عن روسيا وهى فى كلتا الحالتين ستترك بريطانيا فى عزلة كاملة .

وسرعان ما أوضح ساسة روسيا للقيصر أن التحالف مع فرنسا لن يتم بمثل هذا الطريق ، فكتب القيصر إلى قيصر ألمانيا رسميا عن طريق سفير الروسيا فى برلين يخطره بأن المعاهدة لن تعتبر سارية المفعول حيث أنها ستقضى على تحالفه مع فرنسا وأنه يجب أن توافق فرنسا على هذه المعاهدة قبل سريانها .

وقد مر بعض الوقت قبل أن يتحقق قيصر ألمانيا أن خطته البارعة التى تجلت فيها عبقريته السياسية سيصبح مصيرها تحت رحمة الأقدار .

الاتفاق الودى بين روسيا وبريطانيا

بدأت العلاقات تتحسن بين انجلترا وروسيا منذ أن اتفقت سياستهما فى مؤتمر الجزيرة فقد وقفتا ضد ألمـــانيا وذلك بالإضافة إلى أن مشكلة سكة حديد « برلين بغداد » كانت على أشدها بين ألمانيا وروسيا فى تلك الفترة ، وقد أصغى سالسبورى للاقتراح الخاص بنصيب بريطانيا فيها ولكنه صمم على إبعاد انجلترا عن هذا الموضوع لأنه سيكون مثار إشكال دائم مع الروسيا فترك ألمانيا تواجه العقبات وحدها .

ولم تصل روسيا وألمانيا إلى اتفاق خاص بهذا المشروع ولكن فى ٣١ أغسطس

١٩٠٧ وقع اتفاق بين روسيا وبريطانيا فى بتروجراد ، وكان هذا الاتفاق خاصاً بإيران والغرض منه هو ضمان استقلال إيران ، وكانت بريطانيا تطمع فى امتلاك جزء فى شرقيها بينما تطمع الروسيا فى امتلاك جزء كبير فى الشمال الغربى .

والواقع أن هذه الاتفاقية قد صغرت من مساحة الجزء المستقل من إيران عما كان من قبل ، وقد قبلت بريطانيا هـــذا التقسيم الجزئى حتى يمكن الاحتفاظ باستقلال إيران بعكس روسيا التى كانت تنتهز أى فرصة لضم أجزاء منها إليها .

وفى ١٠ يونيو وقعت فرنسا معاهدة مع اليابان لضمان استقلال الصين وسيادتها كما عقدت معاهدة أخرى شبيهة للأولى بين روسيا واليابان فى ٣٠ يوليو ، ولكن هزيمة روسيا مع اليابان وأملها فى الحصول على مساعدة بريطانيا جعلها تتخلى عن مطامعها وطموحها فى الصين ، وكانت قد تخلت فعلا عن مطامعها فى افغانستان وحصرتها فى الشمال الغربى لفارس حيث تفصلها صحراء الوسط عن النفوذ البريطانى.

ولم يمض قليل من الوقت حتى صرفت روسيا نظرها عن الهند والصين وأخذت تتطلع إلى هدف آخر هو القسطنطينية .

٢ — أزمة أغادير

إن جذور مشكلة مراكش تكمن فى مؤتمر الجزيرة ، فقد عوملت ألمانيا بقسوة وأظهرت تذمرها بعد ذلك عام ١٩٠٨ ، ثم تلا ذلك حادث مهاجرى الدار البيضاء فأرادت ألمانيا أن تنتهز هذه الفرصة ضد فرنسا ولكن كليمنصو الذى كان رئيساً للوزارة الفرنسية فى ذاك الوقت رفض أن يتدخل وساعده فى ذلك كل من روسيا وانجلترا وانتهت تلك الحادثة بتحكيم هيج الذى لم يكن فى صالح ألمانيا .

ميثاق مراكش

عندما وصلت مشكلة البوسنة إلى قمتها لم تكن ألمانيا راغبة فى أى تعقيدات خارجية ولذا وقعت مع فرنسا ما يعرف بميثاق مراكش فى أوائل ١٩٠١ ، وقد ضمن هذا الميثاق النفوذ السياسى لفرنسا فى مراكش بينما أعطى ألمانيـــا بعض الامتيازات التجارية بالاشتراك مع فرنسا فى هذه المنطقة ، وقد تغير الموقف بعد

ذلك ودارت مفاوضات بين ألمانيا وفرنسا حول اتفاق اقتصادى لادارة المناجم واستغلال السكك الحديدية بمراكش ولكنها انتهت بالفشل ، وفى عام ١٩١٠ انزعجت ألمانيا لعدم وصول فرنسا إلى حل اقتصادى ، وفى أوائل ١٩١١ كان لنشاط فرنسا السياسى فى مراكش أثر كبير فى تنبيه ألمانيا وتحذيرها .

الفرنسيون فى مراكش

كان الموقف الدولى فى مراكش غير محتمل فقد طرد السلطان وحل محله على العرش أخوه بعد أن خلعه ، ومع أن السلطان الجديد كان معترفا به من الدول الكبرى إلا أنه لم يكن حائزاً لولاء القبائل ، وفى ١٩١٠ طلب من الفرنسيين ضباطاً لتنظيم جيشه ولكن طلبه رفض ووجد نفسه غير قادر على حماية عاصمة ملكه ضد القبائل الثائرة ، فتوسل إلى فرنسا لمساعدته ؛ وفى إبريل ١٩١١ وافقت فرنسا على إرسال قوات مراكشية وإذا لزم الأمر فرنسية إلى فزّان لتأمين السلطان .

وحتى شهر مارس كانت ألمانيا قد أخطرت فرنسا أن الرأى العام الألمانى قلق من جراء حركتها فى مراكش وأن هذه الحركة تمزق ما اتفق عليه فى مؤتمر الجزيرة .

وعندما وصلت القوات الفرنسية فى إبريل تحققت ألمانيا أن إرسال قوات إلى أرض مضطربة أسهل من إعادتها ثانيـــاً ، وأن احتلال الدول المتمدينة لأراض همجية حتى ولو كان مؤقتاً سيصبح احتلالا سياسياً إلى الأبد ، وقد وافقت إسبانيا ألمانيا على أن عمل فرنسا خطر على مؤتمر الجزيرة وأنه يتنافى مع استقلال مراكش أما انجلترا فقد وقف السر ادوارد جراى فى صف فرنسا التى اقترحت استئناف مفاوضات السكة الحديدية مع ألمانيا فى يونيو ، ولكن ذلك توقف إثر قيام ألمانيا بحركة غير منتظرة .

« البانثر » فى أغادير

وفى أول يوليو أخطرت ألمانيا الدول الكبرى التى وقعت إتفاق مؤتمر الجزيرة أنها أرسلت قطعة حربية ألمانية هى « البانثر » إلى أغادير جنوب مراكش بحجة حماية المصالح والرعايا الألمانيين هناك ، ثم أعلنت ألمانيا بعد ذلك أنها تعتبر

ميثاق الجزيرة فى حكم الملغى ، وانها لا يمكن أن تعمل به ما دامت فرنســـا وأسبانيا تتجاهلانه .

وكان كيدرلن وزير خارجية ألمانيا هو الذى أرسل « البانثر » لالغرض تقسيم مراكش ولكن لانتهاز الفرصة والتخلص من ميثاق الجزيرة ، وكذلك للضغط على فرنسا للتنازل لألمانيا عن جزء من أرض الكنغو فى مقابل عدم عرقلة ألمانيا لخطط فرنسا السياسية فى مراكش .

وقد خيل له أن يحتل أغادير حتى تخضع فرنسا لمطالبه ، ولكن ظهر أن ذلك الظن لم يكن من الحكمة فى شىء لعدة أسباب أهمها :

١ ـــ كان السير ادوارد جراى يحترم المعاهدات ولكن ألمانيا مزقت ميثاق الجزيرة بحركتها دون دعوة لمؤتمر للمفاوضات .

٢ ـــ أن إرسال قطعة بحرية حربية ألمانية إلى ميناء على الأطلنطى قد أدخل فى روع كل بريطانى أن ألمانيــــا تحاول أن تحصل على قاعدة بحرية فى أغادير بوسائل هجومية .

الجانب البريطانى من الأزمة

أبلغ السير ادوارد جراى سفير ألمانيا أن عمل ألمانيا فى أغادير قد خلق موقفا جديدا ولكن ألمانيا لم تعط رداً حاسماً حتى ٢٣ يوليو ، وفى هذه الفترة حصلت محادثات بين جول كامبون وكيدرلن فى برلين واقترح كيدرلن أن تكون المفاوضات مباشرة بين ألمانيا وفرنسا مع اخراج بريطانيا وباقى الدول التى وقعت اتفاق الجزيرة ، وأن تمكنه فرنسا من طلب تعويض إزاء إنسحاب ألمانيا من مراكش وأن يكون التعويض من فرنسا فقط أو بمعنى آخر من أراضى فرنسية « الكنغو » .

وقد وافق كامبون على المفاوضات الثنائية ولكنه صرح بأنه لابد لأصدقائه وحلفائه من معرفة سير المفاوضات ، وقد طالب كيدرلن بالكنغو الفرنسية بأكملها بطريقة تهديدية مما جعل انجلترا وفرنسا تغيران وجهة نظرهما بأزاء الخطر المنتظر ، وفى ٢١ يوليو كان السير ادوارد جراى قد قابل السفير الألمانى وتحدث

معه فى صراحة فى أن طلب الكنغو الفرنسية بأكملها طلب يجاوز حد المعقول وأن مسلك ألمانيا ورفعها العلم الألمانى على أغادير أمر يحتاج إلى تفسير ، وفى ٢٣ يوليو أرسلت ألمانيا الرد تلغرافيا بتحقيق مطالب بريطانيا، ولوكانت ألمانيا أرسلت هذه الضمانات مبكرا لانتهت المشكلة ، ولكن فى ٢١ يوليو قبل وصول الرد الألمانى ألقى المستر لويد جورج خطابا هاما فى مجلس العموم معلنا أنه يجب على بريطانيا أن تحتفظ بمكانتها وعظمتها وسط الدول ولو أدى ذلك إلى خروجها من جامعة الأمم ، وقد أعلن الرأى العام الألمانى أن ألمانيا قد خُدعت وهُددت وتُحديت وطالبت القيصر الألمانى بأن يكون ذا عزيمة ويقابل ما تنكشف عنه الأحداث ولكنه لم يستطع ، وفى ٢٦ ، ٢٧ يوليو أرسل السفير الألمانى مذكرة من ألمانيا أنهت المشاكل بين بريطانيا وألمانيا .

وكانت المشاكل بين فرنسا وألمانيا لم تنته بعد ، وا كتشفت الاستعدادات العسكرية ولو أنها لم تكن تعبئة فى كل من بريطانيا وألمانيا وفرنسا وبلجيكا ، وقد دارت مفاوضات بين كيدرلين وكامبون وكان الأخير يفكر فى أن الحرب محتملة الوقوع ، وقد وصلت المشكلة إلى أقصاها حينما حدث اضطراب مالى فى البنوك الألمانية ، وفى الأسبوع التالى من أكتوبر توصل إلى حل ووقع الاتفاق النهائى فى ٤ نوفمبر .

نتائج أغادير

١ — تحول الجزء الداخلى من مراكش من منطقة دولية إلى منطقة نفوذ فرنسى ، وفى العام التالى وافق السلطان على الحماية الفرنسية وأصبحت مراكش فرنسية عدا طنجة والمنطقة الإسبانية .

٢ — لم تحصل ألمانيا إلا على مدخل لتجارتها ولكنها حصلت على قطعتين من أراضى الكنغو وكان غرضها من مطلبها هذا هو الحصول على طريق مباشر إلى الكنغو البلجيكية لكى تحتفظ بمركز ممتاز فى هذه الأراضى .

٣ — كانت مشكلة أغادير أشد سوءا من الجزيرة بل كانت أحرج أيضا من البوسنة فقد فشل الاتفاق الودى الثلاثى فى البوسنة وفقدت روسيا هيبتها .

٤ — انتهزت روسيا وايطاليا أزمة أغادير فى الضغط على حلفاء كل منهما بمطالب ربما يوافق عليها أولئك الحلفاء ، فابتداء من يونيو أخذت ايطاليا تراقب الموقف من بعيد وغرضها الأساسى هو الاستيلاء على طرابلس الغرب من تركيا وكانت كل من ألمانيا وفرنسا وانجلترا مشغولة فى ذلك الوقت عن منعها من ذلك ، وكان قد سبق لإيطاليا أن حصلت على موافقة الدول لاحتلالها طرابلس ولكنهم لم يوافقوا على الظرف الذى اختارته ايطاليا لتنفيذ مشروعها الخطير .

ايطاليا تهاجم تركيا

فى ٢٦ سبتمبر أرسلت إيطاليا إنذارا إلى تركيا أعقبه إعلان الحرب بعده بثلاثة أيام ، ولم تكن الأسباب التى أذاعتها إيطاليا لاعلان الحرب على تركيا مبنية على أساس من المنطق ، وإنما كانت مبنية على اغتصاب دولة لأراضى دولة أخرى لم تقم نحوها بأى عمل عدائى .

ورغم أن بعض الانتقادات قد وجهت إلى إيطاليا إلا أنها كسبت من وراء ذلك احتلال الجزء الساحلى لطرابلس وجزر الدود يكانيز التى منها جزيرة رودس الهامة ، وقامت بعد ذلك حرب البلقان فى ١٢ أكتوبر مما أجبر تركيا على الدخول فى معاهدة لوزان مع إيطاليا وأن تتنازل لها عن غنائمها التى استولت عليها .

بريطانيا تتخلى عن البحر الأبيض المتوسط

كان الرأى العام البريطانى يتجه إلى زيادة الأسطول البريطانى فى بحر الشمال والتخلى عن البحر الأبيض المتوسط لفرنسا ، فى سبتمبر ١٩١٢ وقعت كل من فرنسا وانجلترا اتفاقا بحريا كانت نتيجته أن انضم الأسطول الحربى الفرنسى الثالث إلى الأسطولين الآخرين فى البحر الأبيض ، وتركت انجلترا لفرنسا حماية البحر الأبيض المتوسط ضد امبراطورية النمسا والمجر ، وانفض الأسطول الحربى البريطانى فى مالطة بارسال معظم قطعه إلى بحر الشمال وأصبحت انجلترا مسئولة عن حمايته ولذلك لو فرض وقامت حرب فإن كلا من الدولتين تشعر بمسئوليتها نحو الأخرى .

أما من ناحية فرنسا فإنها قد أصبحت قوة بحرية كبيرة يمكن أن تتعاون مع بريطانيا إذا ما قامت حرب فى البحر الأبيض المتوسط .

الفصل الثانى

مصالح فرنسا
فى البحر الأبيض المتوسط

إن مصالح فرنسا السياسية المتباينة والمتزايدة فى البحر الأبيض المتوسط كانت نتيجة لموقعها الجغرافى ، ولكونها شبه جزيرة ، وحيث أن لفرنسا حدوداً برية ممتدة فى الشمال الشرقى على الرين ، وكذا على غرب جبال الألب وجبال البرانس ، فإن فرنسا كانت ولا تزال قلقة على أراضيها الداخلية وإن كانت تعتمد — لسلامة أراضيها — على عقد المحالفات وعلى قوتها البرية والجوية .

وكما أن لفرنسا حدوداً برية ممتدة فلها كذلك حدود بحرية على القنال الإنجليزى ، وعلى المحيط الأطلنطى والبحر الأبيض المتوسط ، وقد شجعها ذلك على المخاطرة بمشروعات فيما وراء البحار ، وتحتل فرنسا كإسبانيا موقعاً متوسطاً بين دول البحر الأبيض المتوسط الرئيسية الثلاثة : بين إيطاليا الواقعة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، وبريطانيا التى تمتلك فى هذا البحر عدة معاقل وأراضى انتداب.

وإذا نظرنا إلى تاريخ فرنسا نجد أن البحر الأبيض المتوسط قد أثّر فى تاريخها أكثر من المحيط ، فمن هذا البحر وعلى مياهه وصلت إليها الثقافة الرومانية والمسيحية ، وقد وصلت إليها هذه الثقافات إما عن طريق السواحل الجنوبية أو ممرات الألب الغربية .

وفى نهاية العصور الوسطى وجدت فرنسا فى البحر الأبيض مجالا لنفوذها السياسى والتجارى ، فقد تعامل تجار مرسيليا مع تجار شرق البحر الأبيض ، وفى سوريا وفلسطين وجد الفرسان الصليبيون فرصتهم الذهبية لإنشاء ممالك مسيحية بحجة حماية الأماكن المقدسة التى تعهدت فرنسا بحمايتها منذ عام ٨٠٠ بموافقة خليفة المسلمين ، وبموجب معاهدة مع الأتراك عام ١٥٣٦ ضمنت فرنسا مركزا تجاريا ممتازا فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من أن قوة بريطانيا البحرية قد حدّت من طموح فرنسا السياسى فى البحر الأبيض لا سيما أيام نابليون عند ما رغب فى غزو الهند عن طريق مصر إلا أن فرنسا قد تمكنت من احتلال عدة جزر فى أوقات مختلفة مثل مينوركا — ومالطة — وكورسيكا ولا تزال فرنسا تحتفظ بالجزيرة الأخيرة .

وقد سيطرت فرنسا على مساحة واسعة فى شمال أفريقيا نتيجة لتوسعها الاستعمارى فى القرن التاسع عشر ، وكذلك بسطت سيطرتها على الخط الساحلى الذى يمتد فى الجزء الجنوبى من حوض البحر الأبيض الغربى ، وقد زادت قيمة أراضى شمال أفريقيا التجارية والسياسية من مصالح فرنسا فى الحوض الغربى للبحر الأبيض .

وقد تكفلت فرنسا ببعض المسئوليات السياسية فى شرق البحر الأبيض بموجب انتدابها على سوريا عام ١٩٢٤ ، ولا يجب أن يغيب عن بالنا أن قناة السويس كانت مشروعا ضروريا لفرنسا ، ورغم أن ترتيب فرنسا هو الخامسة بين حاملى أسهم القناة إلا أن القناة ذات قيمة استراتيجية كبيرة حيث أنها تيسر أقرب الطرق إلى قاعدتها الحربية فى جيبوتى ، وكذا إلى الصومال الفرنسى والهند الصينية ومدغشقر .

ويمتد ساحل فرنسا المطل على البحر الأبيض من الحدود الإسبانية إلى الحدود الإيطالية وبينهما دلتا الرون ، وتوجد غرب هذه الدلتا أرض ساحلية واطئة تكثر بها البحيرات والمجارى المائية وبها ميناءان بحريان هامان ، أما شرق دلتا الرون فإن الساحل صخرى وبه كثير من الخلجان الصغيرة وعلى هذا الساحل تقع أهم موانىء فرنسا مثل مرسيليا وقاعدتها البحرية الهامة طولون وتتصل مرسيليا بداخل فرنسا بمواصلات حديدية ومائية وقد جعلت منها مخازنها الكبيرة قاعدة للتجارة الفرنسية مع الشرق الأقصى وشرق البحر الأبيض المتوسط وشمال أفريقيا ؛ ومرسيليا ميناء هام لاستيراد البترول علاوة على أنها مدينة صناعية هامة يبلغ سكانها المليون .

أما طولون فميناء طبيعى جيد وتقع على رأس الخليج ويعتمد الدفاع المحلى عن ساحل فرنسا المطل على البحر الأبيض على القوة البحرية فى طولون بالتعاون مع

بعض القواعد الجوية فى استر — وماريتان بالقرب من مرسيليا — وطولون — وسان رافاييل .

كيف احتلت فرنسا ممتلكاتها فى البحر الأبيض ؟ ولماذا ؟

١ — كورسيكا : خضعت كورسيكا لحكم الفرنسيين منذ عام ١٧٦٩ فيما عدا المدة بين عام ١٧٩٤ وعام ١٧٩٧ فقد احتلتها بريطانيا فى هذه الفترة ، وقد نتج ذلك عن طرد الحكومة الوطنية وقد صادف هذا التاريخ مولد نابليون ، وقيل إن فرنسا اشترت جزيرة كورسيكا من جنوة ، وكورسيكا أقرب إلى إيطاليا منها إلى فرنسا فالأهالى يتكلمون الإيطالية تقريبا أما من الجهة السياسية فإن سكانها موالون لفرنسا بلا شك فإن كورسيكا مسقط رأس نابليون العظيم .

أما إدارة الجزيرة فتظهر مدى العلاقة بين كورسيكا وفرنسا فإن الجزيرة ليست مستعمرة ولكنها جزء من الوطن الكبير فرنسا وترسل مندوبين عنها إلى البرلمان الفرنسى فى باريس .

والجزيرة ذات قيمة كبيرة لفرنسا من الناحية الجغرافية بالنسبة لموقعها وموانيها لا لمواردها فإن أغلب أراضيها جبلية ، وكورسيكا قريبة من إيطاليا أكثر من فرنسا من حيث الموقع فإن أقرب أجزائها إلى إيطاليا تبعد عنها بحوالى ٥٢ ميلا فقط .

ولا تقع الجزيرة فقط بالقرب من الموانى الإيطالية جنوا ولجهورن وسبزيا القاعدة البحرية بل أيضا بالقرب من جزيرة البا الغنية بمناجم الحديد ، وكذلك إلى مصانع الحديد العظيمة فى بيومبينو على ساحل توسكانيا ، وبالرغم من أن الأراضى الصالحة للطارات فى كورسيكا محدودة إلا أن لها ثلاثة قواعد بحرية هامة كأنها خلقت لتكمل طولون وبيزرتا هى :

١ — سان بونيفاكيو فى أقصى الجنوب حيث تحرس مضيق سان بونيفاكيو الذى تقع فيه جزيرة مادّالينا الإيطالية المحصنة .

٢ — أجاكسيو فى غرب كورسيكا حيث تواجه البحر الممتد المنبسط .

٣ — باستيا فى الشمال الشرقى وتقع بالقرب من إيطاليا وتسيطر على أحد خطوطها الملاحية الهامة، ولذا فإنه من السهل أن ندرك أنه بالرغم من فقر كورسيكا فإنها كانت دائما تحتل مكانا ظاهرا من الصحافة الإيطالية ومن اهتمام الحكومة الإيطالية، وعلى الرغم من ذلك فإن الشعور السياسى السائد فى كورسيكا هو الولاء لفرنسا وتفضيل الحرية معها .

٢ — شمال أفريقيا : أما ممتلكات فرنسا فى شمال أفريقيا فإنها تشمل ثلاثة أقسام مميزة فاحدى هذه الممتلكات هى الجزائر التى تقوم بإدارتها الحكومة الفرنسية نفسها لا وزارة المستعمرات إذ أنها تعتبر جزءا من فرنسا .

أما تونس ومراكش فانهما محميتان فرنسيتان ويحكم هذين القسمين الأهالى الوطنيون تحت إشراف فرنسا مع الإحتفاظ لفرنسا بادارة شئونهما الخارجية وتدبير الدفاع عنهما .

والفرق بين الجزائر والمحميتين الآخريين يظهر جليا فى عدة أمور، فإن الجزائر تعتبر من الناحية الجمركية جزءا من فرنسا وتبعث بمندوبيها إلى البرلمان الفرنسى، أما تونس ومراكش فلم تعتبرهما فرنسا فى يوم من الأيام جزءا ممتدا منها .

تدخل فرنسا فى شمال أفريقيا

الجزائر : إن تاريخ تدخل فرنسا فى شمال افريقيا يمكن اعتبار أنه حدث مبدئيا نتيجة لتوسعها الاستعمارى ومصالحها الاقتصادية، ففى نهاية الحروب النابليونية كانت فرنسا قد فقدت معظم ممتلكاتها فيما وراء البحار وكانت بريطانيا قد إتفقت مع فرنسا وبعض الدول الأخرى على إخضاع القراصنة على الساحل الجزائرى .

وكانت فرنسا ترغب بكل جوارحها فى ترك هذا العمل لبريطانيا، ولكن حدث فى عام ١٨٢٧ أن لطم سلطان الجزائر قنصل فرنسا بمروحته فاعتبرت إهانة لشرف فرنسا فأرسلت قطعا بحرية لمحاصرة الجزائر، وفى عام ١٨٣٠ أرسلت فرنسا حملة لإحتلال الجزائر تنفيذا لسياسة الملك شارل العاشر الذى كان راغبا فى كسب بعض الانتصارات الحربية، وقد ورطت هذه الحملة فرنسا فى حروب لمدة خمسين عاما وسببت للدولة خسارة مادية كبيرة .

والواقع أن إحتلال فرنسا للجزائر تم على عدة مراحل ، وكان عملا شاقا نظراً لطبيعة أراضى الجزائر الجبلية ونتيجة لمقاومة شعبها المسلم — المكون من العرب والبربر — مقاومة مستميتة .

وحتى بعد أن سيطرت فرنسا على الجزائر حتى حدودها الصحراوية فإنها أخمدت خمس ثورات بين عامى ١٨٧١ — ١٨٨٤ وكانت سياسة فرنسا الإستعمارية فى الجزائر تتلخص فى إغتصاب الأرض ومصادرتها وطرد أصحابها من الأهالى الوطنيين إلى الصحراء وهى تدل دلالة واضحة على تعنت الإستعمار وظلمه ، والواقع أن الجزائر كانت حقلا لتجارب العلوم السياسية وكانت تجربة قيمة إنتفعت منها فرنسا فى إدارة أراضيها المستعمرة بعد ذلك فى شمال أفريقيا .

تونس : إن إحتلال تونس الذى تم بمنتهى السهولة عام ١٨٨١ قد أدى إلى تحويلها بعد ذلك بعامين إلى محمية فرنسية ، وقد تم ذلك تبعا لسياسة الرئيس جول فيرى الذى كان يرغب فى التوسع الإستعمارى ، وكان يخشى أن تضيع موارد فرنسا فى هذه المخاطرة وهذه الموارد ضرورية لأى حرب محتملة ضد ألمانيا أو لإستعادة الألزاس واللورين ، إذن ما هى الدوافع التى دفعت فيرى إلى هذه المخاطرة التى أسقطته من مركزه ؟؟ لقد كان غرضه هو تأمين الجزائر من الحدود أو من أى تقدم من جهة تونس ، وكان يقصد كذلك إلى توسع إستعمارى مبنى على أن تونس مملكة زراعية غنية كما وصفها الرومان قديما ، وكان يرغب أن يسبق إيطاليا إلى إحتلال تونس إذ أنه منذ عام ١٨٩٦ وإيطاليا تسيطر بالاشتراك مع إنجلترا وفرنسا على شئون تونس ، وكان الأيطاليون أكبر الجاليات الأجنبية هناك ، وهناك اعتبار آخر وهو أن البرنس بسمارك الألمانى قد أعلن عام ١٨٧٩ رأيه وهو « أن الثمرة التونسية قد نضجت وأن الوقت قد آن لفرنسا أن تقطفها » كما أعلن أن البحر الأبيض هو المجال الطبيعى للتوسع الفرنسى .

وكان بسمارك يقدر أن مشروع فرنسا فى تونس قد يلهيها عن فكرة دخول حرب إنتقامية مع ألمانيا ، علاوة على إغضاب فرنسا لإيطاليا مما قد يؤدى إلى جعل إيطاليا تتحالف مع ألمانيا كما حدث عام ١٨٣٣ ، وأخيرا فإن فيرى لم يكن يجهل أهمية بيزرتا الإستراتيجية التى تعتبر إحدى موانى البحر الأبيض الطبيعية الجيدة .

مراكش : أما حماية فرنسا على سلطنة مراكش فقد أعلنت حديثا عام ١٩١٢ وكانت السياسة الفرنسية فيها تشبه فى البداية سياستها فى تونس وهى « الإستعمار الإقتصادى » ، أى محاولة الإحتفاظ بأسواق لمنتجاتها الصناعية الآخذة فى الازدياد.

وبموجب الإتفاق الودى عام ١٩٠٤ إتفقت كل من بريطانيا وفرنسا على اعتبار مصر ومراكش منطقتى نفوذ سياسى لكل منهما ، وقد تلا ذلك زيارة قيصر ألمانيا لمراكش عام ١٩٠٦ ، ثم تلت ذلك حادثة أغادير عام ١٩١١ ، وقد بينت بوضوح مصالح ألمانيا الإقتصادية وربما السياسية فى مراكش فقوى ذلك من مصالح فرنسا بهذه الأراضى المجاورة للجزائر ، وبالرغم من أن الماريشال ليوتى قد دخل مراكش وواجهته فوضى كبيرة عام ١٩١٢ إلا أنه تمكن من إقرار النظام بسرعة وأصبح قادرا على إعادة جزء كبير من قواته إلى فرنسا دون الإخلال بالسيطرة على البلاد .

أهمية شمال أفريقيا الفرنسية

١ — أهميتها الإقتصادية

إن تكوين شمال أفريقيا الجيولوجى بالإضافة إلى مناخها جعلها إقليما محدود الموارد الطبيعية ، فإن معظم أجزاء هذا الأقليم تغطيها مرتفعات جبال أطلس، وباستثناء الجزء الساحلى على ساحل الأطلنطى فإن غالبية مراكش جبلية .

والأجزاء الصالحة للزراعة قليلة لا سيما فى الجزائر وشمال مراكش ، علاوة على أن التسهيلات الزراعية محدودة نظرا لندرة الأمطار وعدم إنتظام سقوطها ، وجبال الأطلس ليست ذات إرتفاع كاف فيغطيها الجليد الذى يمد السهول بالمياه اللازمة للرى .

أما فى المناطق الشمالية فإن سقوط الأمطار غالبا ما يكفى لزراعة القمح والكروم وأشجار الزيتون ، وإلى الداخل قليلا حيث المرتفعات نجد المراعى أهم موارد هذا الجزء على مدار الفصول ، وأخيرا نجد الصحراء الكبرى حيث توجد بعض الواحات التى ينمو بها النخيل .

وقد نفذت مشروعات كثيرة للرى فتزايدت بذلك خصوبة الأرض لا سيما فى الجزائر ، ولكن هذه التسهيلات لا تزال محدودة ببعض الإعتبارات الطبيعية والإقتصادية .

وتونس أكثر المناطق الزراعية الثلاثة خصوبة فى أفريقيا الشمالية فهى تواجه الشمال ، ولذلك فإن كمية المطر التى تخصها أكبر من غيرها وفى مراكش نجد التسهيلات الزراعية أكثر .

وينتج شمال أفريقيا كثيرا من الحبوب وزيت الزيتون والمنتجات الحيوانية والنبيذ ، ومع أنه يوجد قليل من البترول فى تونس ومراكش إلا أنه تكثر بهما الفوسفات بدرجة تجعل شمال إفريقيا قادرا على تموين أسواق العالم بهذا الصنف .

ولم تعرف حتى الآن موارد شمال أفريقيا المعدنية والذى عرف منها لم يستغل إستغلالا كاملا فالحديد لا سيما فى الجزائر وكذلك فى تونس يسهل الإتجار فيه ، ويصدر الزنك والرصاص من المناطق الثلاثة .

وإذا عرفنا أن سكان شمال أفريقيا قد زادوا ستة عشر مليونا ولا يزال تعدادهم فى ازدياد ، يمكننا معرفة أن فرنسا تجد فى هذه الأراضى سوقا مفيدة لها ، بل تجد فيها مجالا واسعا لاستغلال رؤوس الأموال فى التعدين والوسائل الزراعية والسكك الحديدية والأعمال العامة العادية .

أهميتها الاستراتيجية

إن امتلاك فرنسا للسواحل الإفريقية من حدود طرابلس حتى مراكش الإسبانية مع كورسيكا وسواحلها الجنوبية قد مكن فرنسا من اتخاذ موقع قوى فى الحوض الغربى للبحر الأبيض المتوسط .

فإن بيزرتا قاعدة بحرية كاملة ومحطة جوية ، بينما مرسى الكبير بجوار وهران معقل بحرى أنشىء فى مكان طبيعى خصص للدفاع ، وفى نهاية البحر الأبيض الغربية تحد سواحل إسبانيا مع مراكش الإسبانية ذلك الممر الضيق الموصل للحوض الغربى ، ولذلك نجد أن موقع إسبانيا الجغرافى ذو قيمة استراتيجية للسيطرة على

المدخل الغربي للبحر الأبيض ، ولكن يجب ألا ننسى أن جبل طارق ومرسى الكبير يحتل كل منهما موقعا مكملا للآخر عند نهايتى هذا الممر الضيق .

وبيزرتا التى تقع إلى الشرق من ذلك فى شمال تونس قد وصفها الإيطاليون بأنها « شوكة فى الحلق » وهى تتحكم فى المضيق الذى يوصل الحوض الشرقى بالغربى وهى تكون مع القواعد الحربية فى كورسيكا نقطة خارجية محصنة للدفاع عن سواحل فرنسا .

ولكن لا يمكن أن تغفل الطرق الملاحية بين الجزائر وتونس ومرسيليا ، وسيت ، وبورت فاندر فإنها إذا تمكنت من تجنب سردينيا فانها لن تتمكن من تجنب المرور بالقرب من الأراضى الإسبانية أو جزر البليار الإسبانية ، ومن هنا تظهر لنـــا خطورة تعرض هذه الطرق الملاحية إذا تمكنت طائرات العدو أو غواصاته من العمل من الأراضى الإسبانية ، ولذا نجد أن انجلترا وفرنسا توجهان اهتماما خاصا إلى مستقبل جزر البليار .

ولقد احتفظت فرنسا بكثير من قواعدها البحرية فى الحوض الغربى ضمانا لسلامتها ووضعت به جزءا كبيرا من أسطولها البحرى ، وقد احتفظت فرنسا بعد الاتفاق الودى (١٩٠٤) بمعظم قطعها البحرية فى هذا الحوض ولكن منذ عام ١٩٣٤ قسمت فرنسا قوتها البحرية إلى أسطولين أحدهما فى برست والآخر فى طولون .

إن متاعب فرنسا الاستراتيجية تتلخص فى أن لها ساحلين يجب الدفاع عنهما ولا بد لاتصال الأسطولين من رحلة طويلة حول شبه جزيرة أيبريا ، وقد إعتادت فرنسا أخيرا أن تضع قطعها الحديثة فى برست بينما تركت فى البحر الأبيض أسطولها المكون من السفن السريعة والمدمرات والبوارج وقوارب الطوربيد ، والسبب فى هذا التوزيع هو أن القطع البحرية الكبيرة تكون محصورة فى مياه البحر الأبيض ومعرضة للألغام البحرية والطوربيد أو لأى هجوم جوى مفاجىء من الميناء ، علاوة على أن السفن الحديثة سريعة الحركة يمكنها أن تقلع بسرعة إلى البحر الأبيض أو تبقى فى برست لتكملة الأسطول البريطانى الذى يشتمل على كثير من السفن الحربية القديمة البطيئة .

ولذلك فان مشكلة وجود ساحلين لفرنسا وفصلهما بإسبانيا قد جعل فرنسا تفكر في حفر قناة توصل الأطلنطى بالبحر الأبيض ، ويمكن تنفيذ ذلك بتحويل القناة القديمة التى كانت تصل من الجارون قرب بوردو إلى آجدى بالقرب من سيت ـ وقد أنشئت فى القرن السابع عشر ـ إلى مجرى مياه عميق يصلح لمرور السفن الحديثة .

أهمية مراكش الاستراتيجية

إن لمراكش أهمية كبرى لفرنسا فهى تمكن فرنسا من استخدام طريق بحرى آخر من شمال أفريقيا اليها ، ويعتبر بديلا للطريق الذى يمر عبر البحر الأبيض المتوسط ، ومراكش الفرنسية لها حدود صغيرة وليس لها ميناء كبير على البحر الأبيض ولكن لها سواحل ممتدة على المحيط الأطلنطى .

وفى غضون السنوات الخمسة والعشرين الأخيرة تمكنت فرنسا بمقدرة الماريشال ليوتى من إنشاء وتجهيز عدة موانىء على هذا الساحل وأهمها الدار البيضاء ، وتتصل هذه الموانىء بالجزائر وتونس عن طريق السكك الحديدية ؛

والواقع أن السكك الحديدية فى شمال إفريقيا تعتبر رسما على الخريطة أكثر منها عمليا ، إذ أن اتساع الخطوط يختلف فى كثير من المناطق ، علاوة على أن أغلب المسافات خطوط فردية ومعرضة لهجوم طائرات العدو التى تعمل من مراكش الإسبانية ؛ وتكمل السكك الحديدية الطرق البرية .

وتسود فى فرنسا فكرة أنه لو تعرضت طرقها الملاحية فى البحر الأبيض للخطر فإن قواتها يمكن أن ترحل إلى بايونى وبوردو عن طريق الأطلنطى .

أهمية كمورد للقوة البشرية

إن شمال إفريقيـــا الفرنسية تعتبر موردا هاما لفرنسا بالنسبة للقوة البشرية فان عدد السكان الأوربيين بشمال أفريقيا لا يتعدى مليونا ونصف ، ولكن هذا الرقم يدخل فيه ما يزيد عن ٨٠٠٠٠٠ من المدنيين الفرنسيين فى شمال الجزائر ، أما السكان الأصليون فيبلغون حوالى خمسة عشر مليونا معظمهم من البربر ويسمون « مقاتلو الجبال الأحرار » وهم محاربون أشداء بالسليقة .

ولذلك فان فرنسا إذا حكمت شمال أفريقيا بعدل و كفاءة فسيكون فى استطاعتها ـ كما حدث فى الحرب العالمية الأولى ـ أن تستنجد بهذه الشعوب لمعونتها ، وقد دربت فرنسا جيوشا لافى شمال أفريقيا وحده بل وفى أفريقيا الغربية الاستوائية أيضاً ، وتعتبر الجزائر منفذا للوصول إلى هذه المستعمرة .

وعلاوة على ذلك فان شمال أفريقيا ميدان جيد للتدريب للقوات الفرنسية حيث يقيم ربع الجيش للفرنسى أو ما يزيد على ذلك هناك ، وفكرة أن فرنسا ستجد فى شمال أفريقيا مجالا لزيادة قوتها العسكرية ترجع إلى عام ١٨٧٠ ، فبعد أن فقدت فرنســـا الألزاس واللورين عام ١٨٧١ كان كثير من الفرنسيين يأمل أن تصبح الجزائر جزءاً من فرنسا بعد أن تستعمرها ويمكن أن تستمد المعونة من هذا الجزء لحماية فرنسا .

وقد ازدادت قيمة شمال أفريقيا من هذه الناحية عندما كان عدد السكان يتناقص فى فرنسا بالقياس لجاراتها ألمانيا وإيطاليا ، فان إحصاء السكان فى فرنسا عام ١٩٣٣ قد بلغ حوالى ٤٢ مليون نسمة ، وأخذ يتناقص ببطء لفترة من الوقت رغم أن الهجرة إلى فرنسا اتخذت شكلا كبيراً بعد الحرب الكبرى ، ورغم اللاجئين الذين وصلوا إليها ، وإذا استثنينا السياح وأولئك الذين تجنسوا بالجنسية الفرنسية (سواء حسب قانون ١٨٨٩ الذى يعتبر كل مولود ولد من أبوين ولدا فى فرنسا فرنسياأو أوتجنسوا برغبتهم الخاصة) فإننا نجد أن هناك حوالى ثلاثة ملايين من المستوطنين فى فرنسا منهم ٨٨٨ ألفا من الإيطـاليين وهنـاك أقلية من المستوطنين أيضاً فى الجزء المطل على البحر الأبيض من فرنسا وتشتمل هذه الأقلية كثيراً من الإيطاليين ويعيشون فى مرسيليا فقط .

وبمقارنة ذلك بإيطاليا نجد أن إيطاليا آخذة فى التزايد ببطء ففى سنة ١٩٣٣ وصل عدد السكان حوالى ٤٣ مليونا وبذا زاد تعدادها عن فرنسا ، وكذلك زاد سكان ألمانيا فى السنوات الأخيرة بضم النمسا إلى أراضيها ، فى عام ١٩٣٣ بلغ عدد سكان ألمانيا حوالى ٦٦ مليونا ثم زاد بعدذلك إلى ٧٥ مليونا بدون احتساب سكان تشيكوسلوفاكيا، ولذا فان فرنسا إذا لم تجد موردا خارجيا تعتمد عليه وقت الحرج

فإن موقفها بالنسبة للقوة البشرية التى تعتمد عليها جيوشها وحياتها الاقتصادية سيكون قلقا مزعزعاً ، فإن كل جندى فرنسى يقابله جندى فى إيطاليا واثنان فى ألمانيا .

مشكلة الأجانب والأهالى الوطنيين بشمال أفريقيا

كثيرا ما كان الفرنسيون يتساءلون هل يمكن لفرنسا أن تعتمد على ولاء الأهالى الوطنيين فى شمالى إفريقيا ؟ وهل يمكن حل مشكلة وجود الرعايا غير الفرنسيين فى هذه المنطقة ؟

أما المسألة الأولى فإننا نجد العرب عنصرا واحدا في شمال إفريقيا ، ورغم أن الاسلام هو السائد بين الأهالى هناك إلا أننا نجد أن الأهالى المسلمين على درجات متباينة من التقدم . ويظهر لنا جليا أن الحكم الفرنسى فى الجزائر والذى استمر حوالى قرن قد تقبلته الجزائر بولاء ، وكذا فى مراكش التى حدثت بها بعض الاضطرابات فى السنوات الأخيرة ، وذلك راجع إلى سوء الحالة الاقتصادية أكثر من رجوعه إلى القومية .

وأما المشكلة الثانية فإنها تقوم أساسيا فى تونس فإن كلا من تونس والجزائر تسكنها عناصر أوربية تقاوم مشروع التجنس وترى أن تحتفظ بثقافتها وولائها السياسى لوطنها الأصلى .

ففى الجزائر نجد أن هذه المشكلة ليست خطيرة إلى حد ما فان المستوطنين الفرنسيين هم الذين يكونون الأغلبية ، والأغلبية غير الفرنسية هناك من الأسبان ، فان حوالى ١١٠٫٠٠٠ من الأسبانيين يعيشون على رعى الأغنام حول وهران ورغم أنهم يتكلمون لغتهم القومية ويحتفظون بقوميتهم إلا أنهم لا يكونون عنصرا مضايقا لفرنسا .

وهناك أيضا أقلية من اليهود ولكنهم ظلوا موالين لفرنسا وقبل معظمهم التجنس بالجنسية الفرنسية ، من ناحية أخرى فان المستوطنين الايطاليين « حوالى ٢٦٫٠٠٠ ألفا عام ١٩٣١ » كانت فرنسا تنظر إليهم على اعتبار أنهم الخطر الداهم حيث كانوا يحتلون قسطنطين فى الجزء الشرقى من الجزائر ، ويتعاونون مع الايطاليين الذين يعيشون فى تونس . وقد حاولت فرنسا حل مشكلة هذه الأقلية بموجب قانون عام ١٨٦٩ الذى طبق فى كل من فرنسا والجزائر .

أما فى تونس فنجد أن وجود السكان الايطاليين ذوى الثقافة العالية والأقوياء المتحمسين للفاشستية قد جعل مركز فرنسا ضعيفا ، بل كان نذير الخطر على المحميات الفرنسية ، ففى عام ١٨٨١ عند احتلال فرنسا لتونس كان الايطاليون يزيدون عن الفرنسيين بدرجة كبيرة « حوالى ٧٠٠ فرنسى يقابلهم ١١٫٠٠٠ ايطالى » وكان معظم هؤلاء الطليان من يهود لجهورن فى توسكانيا وكانوا يزاولون التجارة فى تونس وموانيها ، وكانت ايطاليا تشترك مع بريطانيا وفرنسا فى السيطرة على حكومة باى تونس ، فبعد إعلان الحماية الفرنسية هاجر بعض المزارعين الايطاليين من صقلية وسردينيا إلى تونس حيث استبدلوا أعمالهم بأعمال المناجم ، واستؤنفت الهجرة الايطالية بعد الحرب العالمية الأولى .

وكانت فرنسا تنظر إلى تونس لا كميدان للاستعمار ، ولكن كميدان لاستغلال رأس المال الفرنسى والمشروعات الفرنسية التى تستخدم العمال الوطنيين والأوربيين ، الذين يحضرون من ايطاليا ومالطة واليونان والأماكن الأخرى ، وكان من نتيجة ذلك أن أصبح الإيطاليون إلى وقت قريب جدا أكبر عددا من الفرنسيين ، ولكن أحدث احصاء يدل على أن عدد الفرنسيين هو ١٠٨ آلاف أما الايطاليون فعددهم ٩٤ ألفا .

ويتمتع الايطاليون فى تونس بميزات ظاهرة لا يتمتع بها أى قوم آخرين فبموجب مؤتمر ١٨٩٦ اعترفت فرنسا بموجب وثيقة عرفت « بميثاق حرية الايطاليين » ببعض الحقوق الخاصة التى كان الايطاليون يتمتعون ببعضها قبل الحماية

والميزات التى يتمتع بها الايطاليون فى تونس كبيرة بنسبة لا يتمتع بها الايطاليون فى إيطاليا نفسها اذ أنهم غير مجبرين على تأدية الخدمة العسكرية لا لفرنسا ولا لإيطاليا ، بل إن لهم مميزات أخرى لا يتمتع بها الأوربيون الآخرون فى تونس ، كاليونانيين والمالطيين إذ أن للإيطاليين مدارسهم الخاصة والقنصل الخاص بهم ، وهم معفون من قانون ١٩٢١ الذى ينص على أن الأطفال الأوربيين الذين يولدون فى تونس يكتسبون الجنسية الفرنسية آليا .

وبموجب ميثاق ١٩٣٥ الذى عقد بين مسيو لافال والسنيور موسولينى سويت المسائل والمشاكل الخاصة بتونس وتوطدت امتيازات الايطاليين فيها ، وقد كانت هذه المحاولة مناورة من السنيور موسولينى ليضمن إطلاق يديه فى الحبشة ولكن الميثاق لم يصدق عليه بتاتا ، وفى ديسمبر عام ١٩٣٨ تنكرت الحكومة الايطالية لهذا الميثاق .

وفى النهاية فإن امتلاك إيطاليا لتونس إذا فرض وحدث فليس معناه أنه سيمدها بالفوسفات وزيت الزيتون فقط ، ويفرض سيطرتها على مستعمرة تزيد خيراتها عن جارتها ليبيا ، ولكنه سوف يمكنها من السيطرة على وسط البحر الأبيض المتوسط

مصالح فرنسا فى شرق البحر الابيض

وإن مصالح فرنسا فى البحر الأبيض رغم أنها متركزة فى غربى البحر إلا أن مصالحها تمتد نحو شرقى البحر الأبيض حيث نجد لفرنسا منطقة نفوذ لثقافتها ولا تزال باقية إلى الآن كما أن لها فى هذا الجزء كثيرا من المصالح التجارية والاقتصادية .

وقد قامت بحفر قناة السويس شركة مصرية فرنسية . ولكن مقر إدارة الشركة فى باريس، والقناة شديدة الأهمية بالنسبة لفرنسا استراتيجيا وتجاريا كطريق قصير إلى شرق إفريقيا وشبه جزيرة الملايو . وتستورد فرنسا حاليا نصف بترولها من العراق ، ويشحن هذا البترول فى السفن من طرابلس وحيفا حيث ينتهى فرعا خط الأنابيب الممتد من كركوك فلو فرض أن حالة الحرب قطعت إمدادات فرنسا من شرق البحر الأبيض فإنها سوف تزيد من البترول المستورد من موارد أبعد من ذلك وهى الولايات المتحدة ووسط أميركا ، ومنذ معاهدة فرنسا مع كل من سوريا ولبنان وافقت فرنسا على إنهاء انتدابها عام ١٩٣٩ ولكن يجب بحث مشاكل كل منهما .

أما سوريا فكانت جزءا من الامبراطورية التركية تحتل منطقة كبيرة تبلغ مساحتها بين ثلث ونصف مساحة فرنسا ولكن معظم أراضيها إما صحراء أو هضبة ، ولها ساحل على البحر عرضه حوالى ٥٠ ميلا وفى هذا الجزء نجد الأراضى الساحلية

الضيقة التى تنتج بعض المحاصيل وتنتهى بغابات لبنان فى الجنوب الشرقى ، وبجوارها واحات دمشق التى تتركز بها المدن والسكان وثروة سوريا كلها ، وهذا الجزء الصغير يحوى أناسا مختلفين فى الجنس والثقافة والدين .

وأما جمهورية لبنان فقد أخذت تكبر منذ أيام الأتراك وهى تواجه البحر الأبيض ومن موانيها بيروت « العاصمة » وطرابلس ومجموع سكان لبنان حوالى مليون نسمة ونصفهم من المسيحيين وبتعديل الحدود القديمة زادت فرنسا من عدد السكان المسلمين ، وكذلك أصبح بلبنان عدد من الدروز واليهود ، ولبنان أكثر المناطق ثقافة فى سوريا وتعود ثقافتها إلى النفوذين الفرنسى والأميركى ، فبالرغم من أن اللبنانيين يتكلمون العربية فانهم يميلون إلى فرنسا بثقافتهم وعواطفهم أكثر من سوريا التى ترى ادماج الجمهوريتين فى دولة واحدة .

وجمهورية سوريا عاصمتها دمشق وبها مدن حماة وحمص وحلب وسكانها مليون وثلاثة أرباع المليون معظمهم من المسلمين العرب ، وأهداف الجمهورية السورية هى اتحاد سوريا واحياء القومية العربية .

وقد تحققت أهداف سوريا سياسيا بمعاهدتها مع فرنسا حيث اعترفت باستقلالها وتحالفت معها على أن تبقى بها قوة جوية فقط ، وفرنسا حينما تتخلى عن انتدابها فى سوريا ستقوى مركزها فى شرق أفريقيا ، وقد قامت منذ أيام انتدابها ببناء كثير من الطرق واصلاح الموانىء وعمل البحوث الزراعية وعممت الوسائل الصحية للمحافظة على الصحة العامة .

ولكن الحكم الفرنسى لسوريا كان يتخلله كثير من الاضطرابات ولم تسو الحالة وتهدأ الا بمعاونة قوات عسكرية كبيرة وبمساعدة البوليس .

ومن الواضح أن لفرنسا مصالح استراتيجية كثيرة فى سوريا ولبنان كأنابيب البترول والمحطات الجوية والطرق والموانىء ولذلك يجب أن تحافظ على تحالفها معهما محافظة على هذه المصالح الحيوية .

ذلك هو وضع فرنسا قبل الحرب العالمية الثانية .

فلما نشبت الحرب فى سبتمبر ١٩٣٩ وأوشكت فرنسا على الانهيار أمام ضغط

جحافل الألمان أعلنت إيطاليا الحرب عليها فى يونيو ١٩٤٠ فانتهت المقاومة ، وأعلنت الهدنة فى يوليو وظلت فرنسا تئن تحت نير النازيين حتى قام الحلفاء بغزو أوربا فى يونيو ١٩٤٤ .

ولم يحاول الفرنسيون أن يواصلوا القتال من مستعمراتهم فى شمال أفريقيا وبذلك لم تستخدم دولتا المحور القواعد الفرنسية فى تلك المستعمرات ، ولم تتمكنا من الاستيلاء على الأسطول الفرنسى مما جعل السيادة البحرية تظل فى قبضة بريطانيا التى احتلت سوريا ولبنان فى يونيو ١٩٤١ فمنعت بذلك تهديد المحور لنفوذها فى شرق البحر الأبيض والشرق الأوسط .

وقد نزلت قوات الحلفاء كذلك فى شمال غرب إفريقيا ، واستولت أثناء زحفها شرقا على الجزائر ومراكش وتونس ، وظلت بها طوال مدة الحرب . وقد استعادت فرنسا مستعمراتها فى شمال إفريقيا بعد الحرب ولكنها جلت عن سوريا ولبنان فى أغسطس عام ١٩٤٦ حينما ثار ضدها الأهلون ، ولجأت حكوماتهما الى الهيئات الدولية فقررت جلاء الفرنسيين .

وبجلاء فرنسا عن المشرق فقدت قاعدتها فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، تلك القاعدة التى ظلت ترعى منها مصالحها طيلة عشرين عاما .

الباب الرابع

إيطاليـا

والشرق الأوسط

« يجب ألا يساء فهم ما نحن عازمون عليه ، فى هذا الجيل والأجيال الإيطالية القادمة ، إن المسألة ليست غزو أراضى فحسب . . . يجب أن يفهم ذلك القريبون والبعيدون ، إنما هو توسع طبيعى سيؤدى إلى تعاون وثيق بين إيطاليـا وشعوب أفريقيـا والشرق الأوسط »

موسولينى

الفصل الأول

اتحـــاد ايطاليا

كانت خطة نابليون الثالث فى الجنوح للسلم حفظاً للامبراطورية قد تحولت إلى مطامع ومصالح، جرته إلى خوض عدة معارك فى شمال ايطاليا .

وقد اختلفت هذه الحرب عن سابقتها فى القرم ، فقد أوفت بها على نهايتها معركتان حاسمتان ، فلم يلجأ الطرفان إلى حرب الخنادق الطويلة كما حدث فى حصار سيباستبول .

وكانت فوق ذلك أول حرب تدعو إلى قيامها الوطنية وحدها ، وقد كانت الوطنية ظاهرة واضحة فى تاريخ الدول فى القرن التاسع عشر .

القومية

سادت هذه العاطفة العظيمة والشعلة المقدسة بقوة فى أوربا ، والعجيب أنها لم تنتشر بين الشعوب التى بلغت حداً كبيراً من الإستقلال والوحدة كانجلترا وفرنسا وإسبانيا ، ولكنها إمتلكت أولئك الذين يعيشون بلا وطن ، ولكنهم اختلطوا بشعوب أخرى ، وقد ظهر هذا الشعور بصورة غامضة نوعا فى البلقان ، وشمل كذلك بلجيكا وهولندا وبولندا ، ولكن أثر هذه الموجة الوطنية ظهر فى أوضح صوره العسكرية والسياسية فى كل من ألمانيا وإيطاليا .

حالة ايطاليا منذ ١٨١٥

كانت إيطاليا فى يوم ما موضع عطف نابليون ؛ وكان من أثر هذا العطف أن حصلت على ما يشبه الاتحاد ، مما كان له أكبر الأثر فى بث روح الوطنيةفى شعبها ، ولكن منذ ١٨١٥ أعلن أن إيطاليا ليست إلا مفهوماً جغرافياً فقط ، وانطوت سياسياً ضمن الإمبراطورية النمساوية .

وقد فشلت فى محاولتها فى الحصول على الإستقلال عام ١٨٤٨ ، ولكن هذا الفشل لم يفت فى عضد شعبها أو يقضى على الروح الوطنية ، ولكنه بالعكس أسرع فى إذكاء هذا الشعور .

وقد كان هناك إختلاف فى الجنس والطباع فى شبه الجزيرة ، فالفارق كبير بين اللمبارديين والصقليين من حيث اللغة والتطور التاريخى ، ولكن الشعور الوطنى وذكرى أمجاد الإمبراطورية الرومانية ، مضافا إليه التقدم الصناعى والعلمى ، كل ذلك جعل من أهل مقاطعات شبه الجزيرة شعبا واحدا .

ماتزينى

ولقد كان من حسن حظ إيطاليا أن يظهر فيها بطل مثل ماتزينى ، فإليه يرجع الفضل الأكبر فى تنوير أذهان الشعب الإيطالى ، فقد كانت الوطنية عنده عقيدة مقدسة لا يستطيع أن يعيش بدونها ، فكان أمله أن يرى إيطاليا حرة متحدة فى ظل نظام جمهورى ديموقراطى ، وكان نظام الحكم مهماً فى نظره مثل تحرير إيطاليا وإتحادها ، فهو لا يرضى مثلا أن تتحد إيطاليا وتظل منطوية فى الإمبراطورية النمساوية ، أو تخضع لملك سردينيا .

الحالة قبل ظهور كافور

وكانت آمال إيطاليا فى الإتحاد فى أواسط القرن التاسع عشر لا تزال بعيدة المنال ، فالنمسا لاتزال تحكم اقطاعياتها بيد من حديد وفى قسوة بعثت الخوف فى قلوب أهلها ، ولم يكن حكمها قاصرا على سهل لمبارديا ، ولكن دوقيات وسط إيطاليا كانت لا تزال تحت نفوذها ، فالعلاقات طيبة بين البابوية والنمسا بعكس علاقتها بفرنسا ، وقد أظهر ملك نابلى إعتماده على ڤينا ، وفى ١٨٥٧ عين فرنسيس جوزيف الأخ الأصغر لإمبراطور النمسا حاكما على لمبارديا وقد تعهد بإجراء عدة إصلاحات ، ولكن محاولة علاج الحالة القائمة اوقف نظرا لسوء الحالة المالية والعسكرية عما قبل .

مولد إيطاليا

وقد ولدت إيطاليا المتحدة فى مملكة سردينيا التى تقع فى جبال ساڤوى ، ولو نظرنا فى تاريخ هذه الدولة حتى ١٨٤٨ وفى تاريخ عائلتها المالكة ، لم نجد ما يؤهلها لتحمل عبء المطالبة بالحرية والإتحاد ، ولكنها فى هذه السنة وضعت أساس مستقبلها بانضمامها إلى ميلانو فى مقاومتها للنمسا ، وقد أيدت هذه الخطوة بمنح شعبها الحرية الدستورية .

ولما خلف فيكتور عمانويل شارل البرت ، بذلت مجهودات كبيرة لإغرائه بسحب الدستور من شعب سردينيا ، وبأن يحكم بلاده حكما مستبدا ،ولكن سلوكه وحبه لوطنه منحه عرش إيطاليا المتحدة ، ولقد ابتعد بنفسه عن النمسا وعقائدها لجنى ثمار عمله .

كافور

كان كافور إبنا لأحد نبلاء بيدمونت ، وقد خدم فى سلك الجندية ولكنه تركها مبكرا واشتغل بالسياسة ، وقد قام لذلك برحلات واسعة درس فيها الحياة السياسية وخاصة فى كل من فرنسا وانجلترا ، وكان مقامرا ففقد معظم ما ورثه ، وقد مرت به فترة من الوقت كان يميل فيها إلى ترك السياسة والإنقطاع إلى زراعة أرض أبيه ، ولكن دعاء السياسة غلب هذا الميل .

وقد أظهر خلال وجوده نائبا فى برلمان سردينيا دراية واسعة بنظم السياسة فى أوربا ، فأكد للبرلمان ثقته بمستقبل إيطاليا وبيدمونت وأعلن أن رسالة سردينيا هى جمع قوى إيطاليا المشتتة ، وقيادتها إلى هدفها المرتقب ، وقد تولى كافور رياسة الوزارة عام ١٨٥٢ ، وكان شعوره الوطنى وإحساسه بقيمة الحرية شعور كل رجل عظيم ظهر فى إيطاليا ، وكان شعاره هو « إيطاليا حرة متحدة » ، وكانت الظاهرة المميزة لسياسة كافور هى صدق إحساسه ، وحقيقة فهمه للصعوبات العملية التى تعترضه فى سبيل تحقيق هدفه ، فقد كان يفهم حق الفهم أن إيطاليا لا يمكن أن تصل لهدفها وحيدة ، أو بالحماسة وحدها فأخذ يتلمس الحلفاء مستخدما عدته الديبلوماسية من عبقرية ودهاء ، وكان ماتزينى لا يثق فى إخلاص كافور ، وكان يلقبه بالوزير

المحرر الذى علّم سيده كيف يمنع إتحاد إيطاليا ، وكان يعتقد أن خططه غير عملية ، ولكن كافور استطاع أن يحرز النجاح ويحقق أمنيته .

سرديفيا وحرب القرم

وقد وجد فى حرب القرم فرصة ذهبية ليضرب إحدى ضرباته السياسية البارعة فلم يكن لإيطاليا فعلا أية مصلحة فى هذه الحرب ، ولكن أعداء روسيا كانوا فى حاجة إلى مساعدة ، فاذا دخلت سردينيا الحرب إلى جانبهم فانها ستظهر كدولة هامة بين دول أوربا ، وستطالب بمقعد فى المؤتمر الذى سيقرر شروط الصلح ، وربما نتج عنه تغيير فى خريطة أوربا ، ولذلك ذهبت قوات من سردينيا إلى القرم وحصلت على نجاح باهر فى معركة كرنايا ، وفى مؤتمر باريس طالب كافور بحل مشكلة إيطاليا ، وقد ساعده كلارندن وزير خارجية بريطانيا فى ذلك الحين باخلاص ، وقد نظر المؤتمر فى سوء إدارة الحكم فى شمال إيطاليا وجنوبها ، وأصبحت سردينيا جزءا هاما من أوربا .

سياسة كافور الخارجية

كانت فكرة كافور أن إيطاليا لا يمكنها أن تصل إلى هدفها بمفردها دون مساعدة خارجية ، ولذلك وجد فى تحالفه مع فرنسا فائدة كبيرة ، وكان نابليون الثالث وهو فى شبابه يعلم بعض الشىء بحركة النهضة فى إيطاليا ، وكان يعطف مخلصا على هذه الحركة ، ويعضد كافور ، ولكن قوة كافور جعلت نابليون يرتد على عقبيه ويمنع معونته عندما بدأ خطر تلك الحركة فى الظهور ، ففى يناير ١٨٥٨ بينما كان نابليون والإمبراطورة فى طريقهما إلى الأوبرا ، إذا بالقنابل تلقى عليهما ، وقد نجا رجال الحاشية ولكن عددا كبيرا قتل وجرح ، وقد قبض على كثير من الإيطاليين ، واكتشف أن زعيم المؤامرة إيطالى يدعى أرسينى ، وقد كان يوما ما على صلة وثيقة بماتزينى ، وقد اعترف بأن ما عمله كان نتيجة اعتقاده بأن نابليون خان قضية ايطاليا ، فقد كتب وهو فى سجنه خطابين الى نابليون يطالبه بحرية ايطاليا ، وهتف وهو على المشنقة قبل أن يعدم قائلا « فلتحى ايطاليا »

وقد كان من تأثير هذه الحركة أن قربت نابليون مرة ثانية من قضية إيطاليا ، وكان نابليون يحب أن يحصر الشئون الخارجية الإمبراطورية فى يديه ، وكان يتصرف فى بعض الأحيان دون الرجوع إلى وزرائه المسئولين أو علمهم ، فأرسل رسالة إلى كافور يدعوه فيها إلى مقابلته فى مصيفه بيلومبير ، وقد لبّى كافور هذه الدعوة ، وقابل الإمبراطور فى يوليو ١٨٥٨ ، ودارت بينهما محادثات كبيرة حول المساعدة الحربية ، وقد وعدت فرنسا سردينيا فى هذه المحادثات بمساعدتها فى الحرب ضد النمسا ، ولطرد النمساويين من إيطاليا ، ثم تكوين مملكة إيطالية فى الشمال على أن يعتلى عرشها فيكتور عمانويل ، ثم تكون مملكة إيطاليا باتحاد اقطاعياتها جميعا تحت عرش البابا ، وقد طالب نابليون فى مقابل ذلك بعدة مطالب ، وهى أن تتنازل إيطاليا عن سافوى مهد العائلة المالكة ، ونيس مهد غاريبالدى لفرنسا ، وأن يقبل فيكتور عمانويل زواج ابنته من ابن عم الإمبراطور وهو الأمير نابليون.

وقد أظهر المستقبل أنه لم يكن من الحكمة أن يطالب نابليون بجزاء عن مساعدته لسردينيا ، فقد تغير شعور الشعب نحوه .

معاهدة ١٨٥٨ بين سردينيا وفرنسا (المعاهدة الفرنسية السردينية)

وقد حصل كافور على وعد بمساعدته فى الحرب التى كان يتمناها من قلبه ، ولكن سياسته كانت العمل على أن تكون النمسا هى البادئة بالحرب والمهاجمة ، وقد سارت الأمور وفق رغبته حتى نهاية عام ١٨٥٨ ، وفى ديسمبر ١٨٥٩ وقعت بين فرنسا وسردينيا معاهدة سرية سميت بمعاهدة التحالف الدفاعى ، وقد تعهدت فرنسا بموجبها بأن ترسل إلى سردينيا ٢٠٠٠٠٠ جندى فى حالة الحرب ، وأن تطرد النمساويين من إيطاليا ، وقد زاد ذلك من حماس الشعب ورفع روحه المعنوية ، فنادى فى شمال إيطاليا بفيكتور عمانويل ملكا لإيطاليا ورحب بالحرب .

وقد ظهر توتر العلاقات بين فرنسا والنمسا حينما أبلغ نابليون سفير النمسا فى رأس السنة الجديدة أنه يأسف لأن تصبح العلاقة بين الشعبين غير طيبة .

وكانت رغبة الشعب الفرنسى فى الحرب فاترة ، اللّهم إلا فى صفوف الجيش ، أما انجلترا والروسيا فكانتا ترغبان فى حل مشكلة إيطاليا فى مؤتمر أوربى ، وكانت هذه فكرة نابليون أيضا مما جعل السلم أكثر احتمالا من الحرب .

النمسا تهاجم بيدمونت

ولكن النمسا قامت بعمل غامض لم يمكن معرفة غايته ، وربما شجعها على ذلك العمل ولاء معظم مستعمراتها ، فقد أرسلت إنذارا إلى تورين تطلب منها حل جميع قواتها العسكرية فى ظرف ثلاثة أيام ، وأرسلت قواتها إلى بيد مونت فى ١٩ أبريل عام ١٨٥٩ ، ولم يرحب أحد بالحرب مثلما رحب كافور ؛ فقد كان يرى فيها مولد وطنه الأكبر إيطاليا ، وقد أعلن إمبراطور النمسا أنه إنما يحارب من أجل حقوق الشعوب ، ولكن الرأى العام كان يحس بأنه هو الذى قضى على السلم ، وقد أعلن برلمان بيد مونت أن فيكتور عمانويل أصبح ديكتاتورا ثم ابتدأت الحرب.

تدخل الدول

وقد كانت الحرب محط أنظار كل دولة من دول أوربا الكبرى ، وأخذت الأحاديث تتناول مدى تدخل الدول المنتظر ، لاسيما انجلترا وروسيا ، ولكن ألمانيا وبروسيا هما اللتان ظهر تدخلهما واضحا . فالنمسا رغم أن شعبها خليط فقد اعتبرت نفسها قوة ألمانية ، وانضمت إلى الاتحاد الألمانى ، أما بروسيا فرغم شعورها المضاد للنمسا فانها بدورها لا يمكن أن ترى هزيمة الجيش النمساوى أمام القوات الإيطالية والفرنسية ، ولذا فقد كان هذا التدخل المنتظر لا يغيب عن بال نابليون الثالث .

مجرى الحوادث

رغم ذلك التدخل فإنه كان على النمسا أن تتحمل وحدها ضربات الهجوم ، وقد أظهر الجنود شجاعة فائقة وحاز أحد قوادهم بنيدك سمعة عالية فى قيادته للحملة ، وقد تأخر دخول القوات الفرنسية لإيطاليا عما كان متوقعا ، ولكن الموقف كان مناسبا جدا للتعبئة القومية ، فقد قامت ثورات عديدة فى شمال إيطاليا ، وثارت مودنة وطردت بارما حاكمها ، وظهرت حركات هامة فى توسكانيا وعاصمتها فلورنسة ، وتمت عدة مقابلات هامة كان محور الحديث فيها « الحرب والاستقلال وفيكتور

عمانويل » ، أما فى مقاطعة رومانيا الإيطالية فقد طردت قوات البابا ، ونادى شعبها بالاتحاد مع إيطاليا وفيكتور عمانويل .

ولم يكن هناك أمل فى أن ينضم لويس التاسع إلى القضية القومية ، ولكن بذلت محاولات لتقريب نابلى ومملكة صقلية ، وقد توفى هناك فى ذاك الوقت فرديناند الثانى وخلفه ابنه فرانسيس الثانى ، وقد فشلت محاولة كسبه فى جانب القضية القومية إذ سار على سياسة أبيه الذى تزوج من أميرة نمساوية .

نابليون يغزو ايطاليا

وقد استشار نابليون الثالث أحد قواده الكبار وهو جومينى فى شئون الحملة وخطتها ، أما القوات النمساوية فقد دخلت الميدان ببطء وبلا عزيمة ، ويجب ألا ننسى القوات الإيطالية المعروفة « بصيادى الألب » ، وهى قوات غير نظامية جمعت من عناصر وطنية إيطالية ، وأسندت قيادتها إلى غاريبالدى الذى كان الشعب يرى فيه محرك قضيته الوطنية ، وبينما كانت قوات الحلفاء تتقدم فى أراضى ميلان ؛ كان غاريبالدى يعمل بقواته على جانبهم الأيسر عند سفوح الألب ، وقد تحملت القوات الفرنسية الصدمات الكبرى ، ولولا مساعدتها لوجد الشعب الإيطالى صعوبات لا حد لها فى سبيل تحقيق مطالبه ، وقد كان من الحكمة بالنسبة لقوات النمسا أن تقف موقفاً دفاعيا ، مستندة إلى الحصون الموجودة هناك ، ولكنها قررت أن تحمى ميلانو .

معركتا ماجنتا وسيلفرينو

وقد حسم الموقف معركتان حاسمتان : ففى ٤ يونيو هزمت قوات النمسا فى معركة ماجنتا بعد قتال عنيف ، ولكنها لم تكسر وانسحبت نحو الحصون .

وفى ٢٤ يونيو قامت معركة أشد عنفا من السابقة فى سيلفرينو جنوبى بحيرة جاردا ، وقد حصل الفرنسيون والإيطاليون على نصر حاسم فى الجانبين الأيمن والأوسط ، وكانت هزيمة النمسا فى المعركة شديدة ولكنها لم تكن ضربة ساحقة لتحدد موقف الحملة بأجمعها .

دوافع نابليون للسلم

وكان ذلك نصرا حاسما لنابليون ؛ وقد وصلت شهرته عام ١٨٦٠ إلى قمتها ، وكان يفكر فى أن يكون قوة جبارة فى أوربا شبيهة بقوة نابليون الأول ، ولما دخل ميلان بعد معركة ماجنتا كان الشعب يحييه « بمحررنا ومنقذنا » ، وكان نساء ميلان ينثرن على مركبته الزهور ، وقد زادت كلماته روح الحماس فى الشعب ، فقد قال لهم « إنى لم أعمل لكم شيئاً ، وإن مستقبل بلادكم فى أيديكم ، إذا أثبتم جدارتكم بذلك » .

وقد أزعجت نابليون عدة عوامل دفعته إلى التفكير فى السلم أهمها :

١ — المذابح والأهوال التى حدثت بين القوات الفرنسية والنمسوية فى معركة سلفرينو .

٢ — لم يظهر الايطاليون من المقدرة العسكرية ما كان منتظرا .

٣ — حاجة القوات الفرنسية لحماية حدود نهر الرين .

وفى الوقت الذى كان كل شخص يفكر فيه فى استئناف الحرب ، إذا بنابليون يرسل الجنرال فليرى فى بعثة خاصة إلى فرانسوا جوزيف امبراطور النمسا مقترحا عقد هدنة .

دوافع فرانسوا جوزيف للسلم

وكان امبراطور النمسا راغبا فى هذه الهدنة للأسباب الآتية :

١ — الهزائم التى منى بها جيشه كانت ساحقة .

٢ — كانت الأمبراطورية مهددة بثورة وكان لابد من جيش لإخضاعها .

٣ — تدخل بروسيا لم يكن ملائما لسياسة النمسا ، فسينتج عنه التنازل لبروسيا عن بعض ممتلكات النمسا فى ألمانيا ، وهذا ما لم يكن فرانسوا جوزيف راغبا فيه .

مقدمات السلم (فيللا فرانكا)

ولذا قابل امبراطور النمسا نابليون فى ڤيللا فرانكا ورتبا مقدمات السلم وأهمها :

١ — تسلم لمباردى إلى نابليون وعليه أن يسلمها إلى ڤيكتور عمانويل .
٢ — تساعد كل من النمسا وفرنسا على تكوين اتحاد ايطالى تحت رعاية البابا .
٣ — تبق البندقية مع النمسا ولكنها تكون جزءا من الاتحاد الإيطالى .
٤ — يعود حكام مودنة وتوسكانيا وپارما إلى مناصبهم ثانيا .
٥ — يطلب من البابا أن يدخل إصلاحات فى دولته .
٦ — يعقد اجتماع من ممثلى جميع المقاطعات للتصديق على هذه المقترحات .

حركة ايطاليا للاتحاد

وكان ذلك بداية استقلال ايطاليا واتحادها ، ولكن بعض رجال إيطاليا وعلى رأسهم كافور داخلهم اليأس من هذه المحادثات . وأعلن كافور أن السلم سوف لا تنال إيطاليا من ورائه شيئا ، واستقال من رئاسة الوزارة ، ولكن قيام الحركة القومية فى وسط ايطاليا شجعه على العودة ثانيا للعمل لقضية وطنه ،وقد اعتبر بعض المؤرخين يأس كافور خيانة للقضية الوطنية .

وكان شعور العداء لأمبراطورى النمسا وفرنسا قددب فى أهالى توسكانيا ومودنة وبارما ورومانيا (١) الايطالية ، لأعادتهما حكام هذه الأقطاعيات . وقد عقدوا فيما بينهم مؤتمرا ، وقرروا الانضمام إلى إيطاليا المتحدة تحت عرش فيكتور عمانويل ، ولم يظهر البابا أى ميل من جانبه إلى الاتحاد مع ايطاليا ، أما مقاطعات الوسط فكانت قلقة وفى حالة خطرة .

لم يمكث كافور خارج الحكم كثيرا ، فقد عاد إلى رئاسة الوزارة ثانية فى يناير عام ١٨٦٠ ، وقد قرر ان يحل مشكلة دوقيات الوسط بمحادثة سرية مباشرة مع نابليون ويجب أن لا يغرب عن بالنا أن نابليون سبق أن طالب بساڤوى ونيس ثمنا لمحالفته مع سردينيا ، ولكنه لم يحقق وعده لينال الثمن ، أما الآن إذا انضمت دوقيات الوسط إلى فيكتور عمانويل فإنه يمكنه أن يطالب بمكافأته .

وقد أعلنت أغلبية ساحقة فى توسكانيا والأراضى الأخرى رغبتها فى الانضمام

---

(١) Romagna مقاطعة إيطالية قديمة.

إلى فيكتور عمانويل ، ومع أن اسم المملكة الرسمى كان لا يزال « سردينيا » إلا أنه كان معروفا أنها ستسمى ايطاليا لأن أهلها قرروا أنها جديرة بهذا الاسم .

ثم جاء بعد ذلك استفتاء نيس وسافوى ، فأعلنتا انضمامهما إلى الأمبراطورية الفرنسية بأغلبية ساحقة ، وكان ذلك نصرا كبيرا لنابليون الثالث ، ولكنه أسخط عليه الشعب الإيطالى ، فقد اعتقد أن نابليون قبض ثمن مساعدته .

أما فى دوقيات الوسط ، فقد تمت حركات الانضمام الى ايطاليا المتحدة فى هدوء وسكينة ، رغم الحماس الذى كان يملأ قلوب أهلها ، وقد وضعت هذه الأحداث الباهرة أساسا متينا لايطاليا المتحدة ، ولكن كانت لا تزال هناك البندقية وروما ومملكة نابلى ، فلم ينضموا بعد لإيطاليا المتحدة .

ولم يكن البابا بيوس التاسع راضيا عن هذه الحركة ، وكان يسمى الحرية والوطنية والديموقراطية « بالثورة » ، ويرى فيها الخطر كل الخطر على الكاثوليكية « كما سبقت خطورتها على الإسلام فى العصور الوسطى » ولكن سكان دويلات البابا كانوا قلقين ، وقد قوى ذلك عزيمة الوطنيين فى الشمال وزاد من انتصاراتهم .

أما فى نابلى فقد جلس على عرشها فرانسيس الثانى عام ١٨٥٩ ، ولم يكن بالحاكم الطاغية أو الرجعى الذى يكره التغيير ، ولكن حالة شعب نابلى والصقليين كانت تختلف عن شمال إيطاليا اختلافا بينا ، فمعظم الأهالى أميون غير متعلمين ، وكان للكنيسة تأثير كبير على عقيدتهم وعقليتهم ، وكانت الجمعيات السرية ولاسيما المعروفة « بكامورا » مصدر خطر دائم ، وكان أحد رؤساء حكومة الملك على اتصال وثيق بهذه الجمعية ، وعليه فقد شملت اليقظة جنوب ايطاليا ، وزادها نجاح الوطنيين فى الشمال .

غاريبالدى

وكان الملك فرانسيس يحس بالخطر المحيط به ، ففكر فى إدخال بعض الإصلاحات التى ربما خففت من حدة شعور الشعب ، ولكن غاريبالدى كان فى ذلك الوقت قد نزل بقواته فى صقلية ، فبدأت بذلك أكبر مغامرة ناجحة فى تاريخ

أوربا الحديث ، وقد جذب غاريبالدى نظر أوربا جميعها وملك مشاعر كل من قرأ تاريخ هذه الفترة .

وقد كان لشجاعته وعبقريته كقائد لقوات غير نظامية ، وحماسته الجارفة الصادقة لقضية إيطاليا ، وبساطته ونبل أخلاقه ، الفضل الأكبر فى نجاح القضية .

ولقد وجد مازينى الفرصة سانحة لأن تخلق إيطاليا المتحدة على نسق آخر غير السائد فى الشمال ، فقد كان يرغب فى قيام إيطاليا الجمهورية لا المملكة تحت عرش عمانويل ، ولكنه عندما تحقق اتحاد إيطاليا وجد مازينى أنها اختلفت عما كان يرغب فيه ، ولذا فقد يئس وأعان أنه لم يعد له أى أمل فى إيطاليا ، فقد قضت على روحه بهذه النتيجة الميئسة .

ومع أن غاريبالدى كان يكره كافور ولا يثق فيه ، إلا أنه كان يرى أن مساعدته لا بد منها .

غزو صقلية

ففى ٥ مايو ١٨٦٠ غادر غاريبالدى جنوا بقطعتين بحريتين ومعه ١١٣٦ متطوعا ووزع عليهم أثناء الطريق القمصان الحمراء التى ذاعت شهرتها بعد ذلك فى أوربا .

رست القوارب فى مارسالا يوم ١١ مايو ، وكانت تلك القوة صغيرة بالنسبة لحامية صقلية الملكية ، ولكن شجاعة غاريبالدى وعزيمته استطاعتا التأثير على أهالى صقلية فقبلوا الوضع .

ثم تقدم غاريبالدى بعد ذلك إلى بالرمو أكبر محطة عسكرية لحكومة نابلى ، ولكنه استطاع بعبقريته فى القيادة وبشجاعة قواته ، ومساعدة أهالى صقلية ، أن يملى على قائد الحامية شروطه ، ثم استولى على المدينة نفسها بعد ذلك ، وقد تقرر مصير الحملة بهذا النصر ، ولم يعد للملك فرانسيس أى أصدقاء فى صقلية خارج حصن مسينا . ألهبت حركة صقلية شعور أهالى نابلى ، وطلب الوطنيون من غاريبالدى مساعدتهم ، ولكن فيكتور عمانويل أرسل إليه راجيا أن يترك مضيق مسينا ، فنزل فى أقصى الجنوب وتقدم إلى نابلى ، مارا بأراض مهيأة للمقاومة ، ولكنه لم يقابل مقاومة تذكر .

أما فرانسيس فقد تخلى عنه كثير من وزرائه وجنوده ، فترك الملك نابلى يوم ٦سبتمبر إلى جايتا ، فدخلها غاريبالدى فى اليوم التالى ، وقد كان نصر ذوى القمصان الحمراء مدهشا لبساطته، ثم حل الساسة بعدذلك محل العسكريين فى تكملة فصول الرواية.

وكان كافور يراقب بحذر وقلق ما يدور فى صقلية ونابلى ، وقد سره أن يرى عرش البوربون يهوى ، ولكنه كان يفكر فيمن يحل محلهم ، وكان غاريبالدى قد أعلن أنه يعمل لإيطاليا وفيكتور عمانويل ، ولكن مدى استعداده لذلك لم يكن مؤكدا ، فقد رفض فى بساطة أن يعلن أن صقلية قد انضمت إلى مملكة سردينيا ، وقد يكون محقا فى رفضه هذا لعوامل عسكرية .

أما مازينى واتباعه فكانوا يعملون للجمهورية ، وكان هناك حزب قوى يرى أن تمنح نابلى وصقلية استقلالا منفصلا ضمن إيطاليا المتحدة .

وقد رأى كافور أن الفرصة سانحة لمولاه ، ولم يكن يثق فى مقدرة غاريبالدى العقلية على مواجهة الموقف ، وقد وجد الفرصة سانحة ، لا لإنهاء مشكلة نابلى ، بل لضم الأراضى البابوية إلى سردينيا ، وقد شعر البابا بالخطر المحيط به ، فالثورة محدقة به ، وحكومته قد فقدت عطف الشعب منذ ١٨٤٩ ، ولكن جيش دولة البابا كان قويا ، فقد كان منتخبا من عدة دول أهمها فرنسا وإيرلندة وبلجيكا ، وكانت حكومة البابا معترفا بها كدولة أوربية محترمة لا يسمح بالاعتداء عليها .

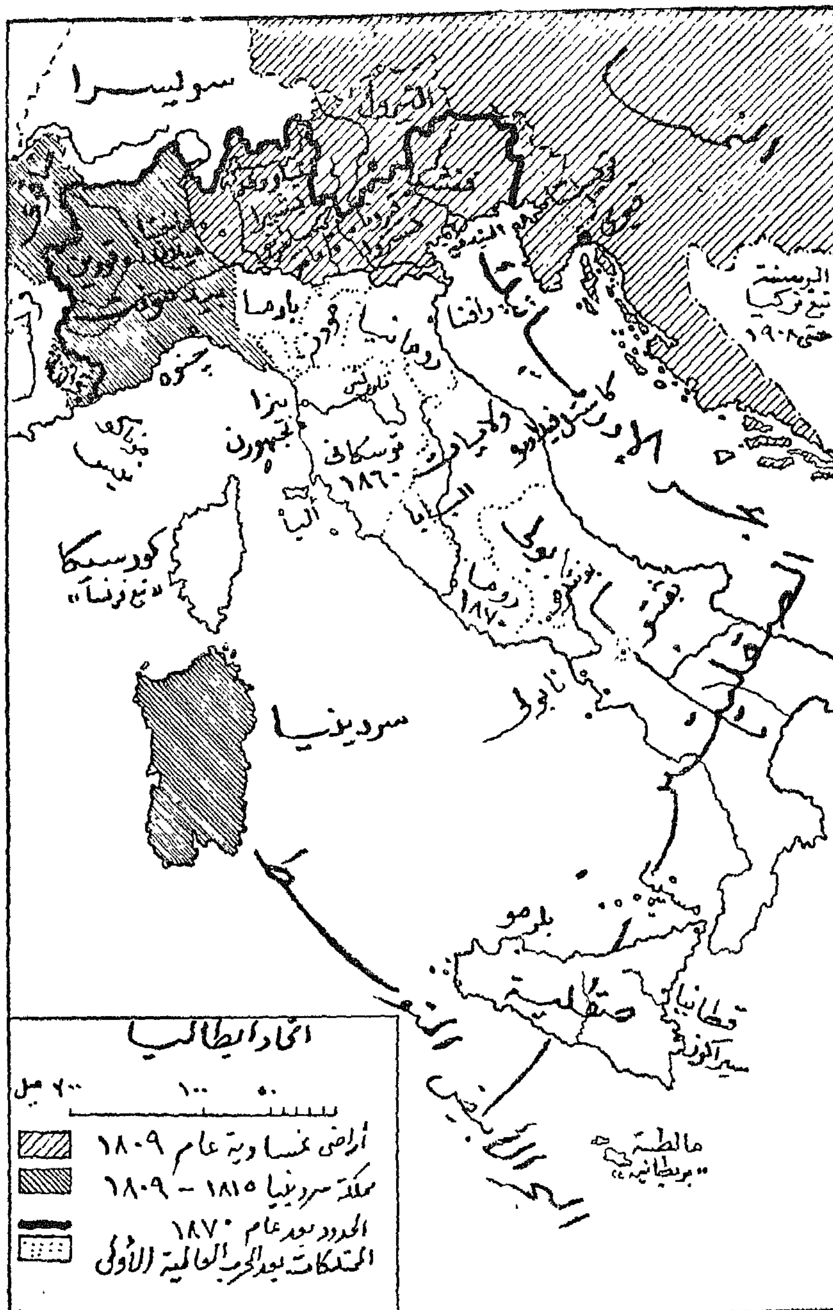
وقد أرسل كافور إلى بيوس التاسع يبلغه أن ملك سردينيا لن يسمح لقوات البابا العسكرية أن تخمد شعلة الوطنية بالقوة ، وعليه دخلت القوات الإيطالية الأراضى البابوية ، وهزمت جيش البابا عند كاستلفيدارو ، ثم دفعت قوات فيكتور عمانويل بجوار أراضى مملكة نابلى ، وحلت محل غاريبالدى الذى كان يحكمها منذ دخلها كدكتاتور .

وقد أعلن غاريبالدى من مبدأ الأمر أنه لا يثق بكافور ، وانه لا يسمح بانضمام نابلى إلى عمانويل قبل غزو روما ، وكان منتظرا أن تسوء الحالة نتيجة اختلاف القوات النظامية وذوى القمصان الحمر ، ولكن العاصفة مرت بسلام ، وقد انسحب فرانسيس مرغما من جايتا ، وذهب إلى روما ، ثم قابل غاريبالدى الملك الذى شكره على ما قام به .

وقد رفض غاريبالدى أى مكافأة وانسحب إلى موطنه جزيرة كابرارا ، ثم اجريت انتخابات فى نابلى وصقلية وأراضى البابا ، فأعلنت الملكية الدستورية لفكتور عمانويل بأغلبية ساحقة .

اجتماع أول برلمان ايطالى

وقد اجتمع أول برلمان إيطالى فى تورين فى فبراير ١٨٦١ ، وفى مارس أعلن مرسوم ملكى ينص على أن : « فيكتور عمانويل الثانى له ولخلفه لقب ملك إيطاليا » .



سويسرا
النمسا
بارما
رومانيا
رافنا
جنوه
بيزا
الجمهورية
توسكانا
١٨٦٠
البا
البابا
روما
١٨٧٠
كورسيكا
"تابع فرنسا"
سردينيا
نابولي
بلرمو
صقلية
قطانيا
سيراكوزه
مالطة
"بريطانية"
البوسنة
تبع تركيا
حتى ١٩٠٨
اتحاد ايطاليا
٢٠٠ ميل ١٠٠ ٥٠
أراضي نمساوية عام ١٨٠٩
مملكة سردينيا ١٨١٥ - ١٨٠٩
الحدود بعد عام ١٨٧٠
الممتلكات بعد الحرب العالمية الأولى

الفصل الثانى

ايطاليـــا

من بدء بعثها الى موسولينى

---

١ — من البعث حتى ١٩١٤

حققت إيطاليا الحديثة اتحادها معتمدة على قوميتها وحريتها الدستورية أكثر من اعتمادها على السلاح .

وكان شارل ألبرت قد وعد إيطاليا بمنحها الدستور عندما طالب باتحادها ، فلما تنازل عن العرش لابنه فيكتور عمانويل ، أوعز امبراطور النمسا لعمانويل بإلغاء الحريات الدستورية فى بيدمونت وسردينيا ؛ ولكنه رفض لأنه قد وعد الشعب بالولاء للدستور ، الذى هو أساس اتحاد ايطاليا ، وقد بنيت نهضة إيطاليا على الحرية الدستورية ، ولذلك كانت سياسة ملوك ساڤوى فى اتباعهم النظم الدستورية سياســـة حكيمة ، فإن الأحزاب كانت عديدة ومنشقة على بعضها والاختلافات كثيرة ومتباينة .

انخفاض الروح المعنوية فى ايطاليا (١٨٦٠ — ١٨٧٨)

شعرت إيطاليا أن الملكية ليست كما يشتهيها الإيطاليون . وزاد المسألة سوءا بعد وفاة كافور أن اختلف أتباعه ، ولم يفكروا فى صالح الوطن خاصة ، كما كان يفعل أسلافهم الذين كانت القومية رائدهم الأول .

وكان على قيد الحياة رجلان من رجالات إيطاليا العظام هما مازينى وغاريبالدى ، ولكنهما لم يقدما أية مساعدة إلى أتباع كافور ، فغاريبالدى البطل العسكرى الوحيد ومازينى رسول إيطاليا كانا يكرهان كافور ويودان أن يريا إيطاليا جمهورية وقد تلت هذه الفترة الهزائم التى منيت بها إيطاليا من النمسا فى البر والبحر عام

١٨٦٦ ، وكسبت ايطاليا حقيقة البندقية من النمسا ، ولكن هذا الربح كان بسبب روسيا وليس بسببها هى .

وفى عام ١٨٧٠ عندما انضمت روما إلى إيطاليا لم يكن هذا نصراً لإيطاليا ، فقد عرف كل مخلوق أن هذا لم يكن إلا نتيجة انتصار روسيا فى معركة سيدان ، ولذلك فإن انتصار إيطاليا كان مبنيا على اتفاقات ومعاهدات ، وليس نتيجة انتصارها فى حرب .

وقد زاد الموقف سوءا عامل اقتصادى آخر ، فقد علم كل فلاح أن ثمن اتحاد ايطاليا لا بد أن يدفع من ضريبة الجوع ، وزيادة احتكار زراعة الدخان ، ولم تكن التجارة الداخلية حرة بالمعنى الصحيح لكثرة الحواجز الجمركية ، ولم يكن لمزارعى إيطاليا وعددهم يفوق نصف عدد السكان أية قوة سياسية ، فساءت الحال ووصلت إلى درجة الغليان عام ١٨٧٦ حينما شاع أن هناك ثورات كثيرة تدبر ، فصمم عمانويل على أن يعهد إلى دبريتس بتشكيل الوزارة اليسارية كآخر حل ، وكان ذلك عام ١٨٧٦ .

كريسبى فى الحكم

تميز عام ١٨٨٧ بوصول كريسبى إلى الحكم ، وقد حاول أن يجمع الجمهوريين حول العرش ، ورغم أنه كان من أكفأ السياسيين البرلمانيين وأكيسهم ، إلا أنه تؤخذ عليه بعض الأخطاء التى كانت سببا فى سقوطه ، فقد كان مستبدا مستهترا ، ولكنه عاد ثانية إلى الحكم عام ١٨٩٣ ، بعد غياب ١٨ شهرا ، وقد أسبغت عليه بعض الظروف الخاصة المواتية خلال الوزارة الثانية شهرة ذائعة .

هزيمة عدوة

كانت إيطاليا كأى دولة أخرى تفكر فى التوسع ، وكانت قد استولت فعلا على أريتريا والصومال ، وكانت تتبع فى استعمارها طريقة إنشاء الشركات وتركها حتى تتطور مصالحها ، فتتدخل لتسوية المشاكل التى ينتج عنها الاحتلال .

وكان كرسبى يحلم بأن يقدم إلى أمبرتو ملك إيطاليا تاجا جديدا ، وكان فى

وزارته الأولى قد حصل من الإنجليز على موافقتهم على احتلال إيطاليا للحبشة وفى وزارته الثانية أراد أن يستأنف سياسته القديمة نحو الحبشة .

وكان غرضه من ذلك هو أن سياسة الاستعمار الخارجية ستهيء لإيطاليا امبراطورية أفريقيا ، وفى الوقت نفسه ستصرف الإيطاليين عن التفكير فى مشاكلهم الداخلية .

وقد قام بالحملة ضد الحبشة الجنرال براتييرى على رأس جيش من ٣٠٠٠٠ جندى ، وكانت قوات الحبشة حوالى ٨٠٠٠٠ جندى ، وكان الإمبراطور منليك إمبراطور الحبشة يقود جيشه ، وفى ١ مارس ١٨٩٦ هزم الإيطاليون عند عدوة وقد قتل وأسر منهم حوالى ٦٠٠٠ جندى ؛ وكان لهذه الهزيمة الأثر الأول فى تخلى إيطاليا عن حلمها فى غزو الحبشة ، وأسقطت كرسبى من الحكم .

وقد تجلت روح إيطاليا المعنوية السيئة لما لم يحاول الملك أو الجيش إغراء البرلمان على التصديق بميزانية لحملة أخرى .

الاضطراب الاجتماعى

كان عام ١٧٩٨ من الأعوام المميزة فقد قامت اضطرابات فى ميلان نتيجة للجوع ، كما قضى على كثير من الحركات الاشتراكية ، وقد صادفت هذه الحركة وقت احتفال الملك والحكومة باليوبيل الفضى للدستور ، وتلت ذلك عدة أعوام كلها اضطرابات ومظاهرات ، وقتل الملك أمبرتو بيد أحد الثوار ، وخلفه الملك فيكتور عمانويل الثالث ، وقد استمرت الاضطرابات السياسية حتى عام ١٩١٤ .

وقد أدرك رؤساء الحكومات الايطالية أن الكياسة البرلمانية ليست علاجا للاضطرابات المالية ، وقد حدث فى هذه المدة « حادث سعيد » لإيطاليا ، فقد حدث نزاع بين إيطاليا وتركيا عام ١٩١١ فأدى إلى حدوث حرب بينهما ، واستولت إيطاليا نتيجة لهذه الحرب على طرابلس وجزر الدوديكانيز .

ايطاليا وحرب ١٩١٤

حينما أعلنت الحرب العالمية الأولى ، تنكرت إيطاليا للتحالف الثلاثى وبقيت

محايدة ، وكان جيولينى رئيس الحكومة يرغب فى ذلك بدون شك ، وكان فى استطاعته أن يؤثر على البرلمان ، ولكن لا يمكنه أن يسيطر على الشعب ، فقد أثار دانتزيو شباب إيطاليا وحمسهم لاسترداد ترنتو من عدوتهم النمسا ، والدخول فى حرب ضد ألمانيا .

ومع أن إيطاليا دخلت الحرب بحماس ، إلا أنها لم تحقق ما كان متوقعا ، فرغم كثرة عدد القوات الإيطالية التى دخلت الحرب إلا أن تقدمها كان بطيئا ، مما جعل القيادة العامة فى قلق ، وكانت الروح المعنوية سيئة نظرا لعدم الاهتمام براحة الجنود والترفيه عنهم .

معركة كابورتو

وأخيرا فى خريف ١٩١٧ أمدت القوات النمسوية بستة فرق ألمانية ، واستطاعت أن تقضى على الجيوش الإيطالية عند كابورتو ، ولم يقاوم مقاومة فعالة إلا جيش دوق أوجستا ، أما باقى الجيوش فقد انسحبت فى فوضى واضطراب . وكان ذلك هزيمة منكرة للجيوش الإيطالية ، وأخيرا دخلت القوات البريطانية والفرنسية لنجدتها وتقوية مقاومتها عند نهر البيافى .

وقد حاولت القوات النمساوية المجرية اعادة الهجوم ، ولكن المقاومة أصبحت منيعة ، وحسن الموقف فيضان النهر المفاجىء ، الذى حرم النمسويين من تلقى التموين من الخلف ، فهزمت القوات النمساوية وانتعشت الروح المعنوية عند الجيوش الإيطالية .

وفى الأيام الأخيرة من شهر اكتوبر ، تحت ضغط حلفاء إيطاليا ، استأنفت القوات الإيطالية الهجوم على الجيش النمساوى ، الذى كان يعانى من سوء التغذية وقلة الملابس ، فهزم شر هزيمة عند فيتوريو فينيتو التى ادعى الإيطاليون أنها من أكبر انتصاراتهم فى الحرب .

التأثيرات الداخلية على ايطاليا

إن هزيمة كابورتو أهم من إنتصار فيتوريو فينيتو ، فقد علم ذوو العقول الراجحة أن معنوية إيطاليا قد تحطمت نتيجة أهوال الحروب ، ولم ينس الأهلون هزيمة

كابورتو وما ساد من ذعر ، وكانوا يرون أن فيتوريو فينيتو لم تكن تعويضا لهم وقد واجهتهم نهاية الحرب بذل تغيض كما حدث عام ١٨٦٦ ، فرغم الغنائم التى استولوا عليها قد شعروا بالمهانة ، لأنها جاءت على رؤوس الحراب الأجنبية ، ثم تلا ذلك مشكلة مطالبة إيطاليا بمطالبها الباهظة فى مؤتمر الصلح ، ولم تكن عند حلفائها الرغبة الأكيدة فى إعطائها تلك المطالب ، ومع أنهم قد تنازلوا لها عن تريستا وترنتو وجزء كبير من التيرول ، إلا أنهم منعوها من الحصول على نصف دلماشيا ، ومنحها مدينة فيومى ، وعلاوة على ذلك فلم تحصل على ما كانت تحلم به من مطامع استعمارية ، فلم تأخذ شيئا من آسيا ، أما فى إفريقيا فقد تنازلت لها بريطانيا عن جزء من الصومال ، ولم تتنازل لها فرنسا عن شىء .

٢ — مكاسب إيطاليا فى التيرول

كانت النمسا تعانى الكثير من إيطاليا ، فرغم أنها لم تمنح إيطاليا الكثير فإن أسرة هابسبرج كانت العدو اللدود ، والطاغية الذى يحكم لمبارديا بيد من حديد ، وكذلك البندقية ؛ ويحرم الإيطاليين من حريتهم ، ومثل هذه الحوادث لا يمكن أن ينسى بسهولة ، ففى ١٨٦٦ عندما تخلت النمسا لإيطاليا نهائيــا عن البندقية احتفظت بترنتو .

وكان بعض الإيطاليين يسكن التيرول الجنوبى ، وقد غضب الوطنيون الإيطاليون لبقائه تحت حكم النمسا ، ولم يكن ذلك هو الذى أغضب الإيطاليين ، فقد كان هناك سبب آخر ، وهو أن النمسا قد أظهرت اهتمامها بالاحتفاظ لنفسها بألسنة وقمم الجبال التى تمر بالسهول الإيطالية ، وبذلك تصبح النمسا محمية ، فى حين أن عملية الهجوم على إيطاليا تسهل إلى حد كبير .

وقد نجحت إيطاليا فى مؤتمر الصلح فى إدارة الدفة على النمسا ، فدفعت بالحدود الإيطالية حتى ممر برونر ، وبذلك صار لإيطاليا فرصة الهجوم على النمسا فى حالة نشوب الحرب بينهما ، علاوة على ضم مليون ألمانى إلى أراضيها .

وعلى ذلك فإن الحدود التى أخذتها إيطاليا فى التيرول كانت جزءاً من الأجر الذى طالبت به نظير انضمامها إلى الحلفاء ، وكان من شروط معاهدة لندن السرية

(١٦ إبريل ١٩١٥) أن تطالب إيطاليا بأراض فى النمسا ، ومعنى ذلك أن تتنازل يوغوسلافيا عن نصف مليون من سكانها لإيطاليا ، وكذلك نصف دلماشيا ، وقد عارض الرئيس ولسن ـ الذى لم يكن مرتبطاً بمعاهدة سرية ـ بشدة فى ذلك ، وقد استاء الإيطاليون لأنهم كانوا يريدون ميناء فيومى التى لم تدخل ضمن معاهدة لندن السرية

وقد صرح الرئيس ولسن بأنه إذا أخذت إيطاليا نصف دلماشيا كما فى معاهدة لندن ، فلا يجوز أن تستولى على فيومى ، وبالعكس فإن طالبت بفيومى فلا يصح أن تطالب بدلماشيا ، وقد أيده فى معارضته كل من فرنسا وانجلترا ، ولكن هذه المسألة لم تسو نهائيا فى مؤتمر الصلح ، ولكنها أنهيت بمفاوضات مباشرة بين إيطاليا ويوغوسلافيا .

وأخيراً استولت إيطاليا على فيومى وبعض الجزر فى بحر الأدرياتيك ، ومدينة زارا فى دلماشيا ، وبذلك ضمت إيطاليا لحدودها حوالى مليون يوغوسلافى ، علاوة على ربع مليون ألمانى فى التيرول ، ومع أن ذلك لم يكن تسوية طيبة لإيطاليا إلا أنه كان أحسن من لاشىء .

وهكذا إذا رغب شعب فى أن يدمج فى حدوده عناصر من الشعوب الأخرى فإنه من المستحسن أن توضع هذه العناصر خلف حاجز يفصل بينها وبين شعبها الأصلى ، حتى لا يستطيع مواطنوهم الأصليون تحريرهم ، وقد نفذت إيطاليا هذه الخطة بعبقرية وكفاءة ، فإن ربع المليون ألمانى فى التيرول ، ونصف المليون يوغوسلافى فى شبه جزيرة استريا والألب ، قد فصلوا عن أبناء وطنهم بجبال شاهقة ، وبذلك أصبح أولئك كالمسجونين خلف الأسوار وإيطاليا كالسجان الذى يحتفظ بالمفتاح .

٣ — من جيولينى إلى موسولينى

١٩٢٠ — ١٩٣٨

جيولينى

كان موقف إيطاليا المادى والمعنوى عام ١٩٢٠ سيئا جداً ، ومع أنها خالية من الفحم والحديد لم تحصل فى مؤتمر الصلح على أى موارد جديدة لصناعتها ،

وكانت نتيجة معاهدة فرساى مجحفة بها ، حتى جعلت شعور الشعب يصل إلى درجة الغليان ، وفى أثناء المفاوضات غير اورلندو وسومينو ، وحل محلهم نيتى وتيتو ، وكانوا سياسيين من الطراز القديم ، ولكن إيطاليا كانت فى حاجة إلى طراز جديد من السياسيين ، ذوى جرأة وإقدام وعزيمة ، وقد ظهرت أولى علائم الجرأة فى منتصف عام ١٩١٩ حينما استولى دانتزيو بقوة من الشباب الإيطالى ، على مدينة فيومى ، واوعز إلى القوات البريطانية والفرنسية بالانسحاب من المدينة فى أقرب لحظة ، واحتل المدينة حتى سلمها ، وكان معروفا أنها ستكون حرة ، ولكن كان هناك اتفاق سرى بضمها إلى إيطاليا ، وقد جنى دانتزيو ثمار ذلك لا الحكومة ، ففى يوليو ١٩٢١ استقال جيوليتى من رآسة الحكومة ، وذلك بعد انتخاب صوت فيه ما كان معروفا بالجبهة الدستورية، ٢٧٣ صوتا ضد ١٢١ صوتا من الاشتراكيين.

الفاشية والاشتراكية

أعلن موسولينى الذى كان يقود الحزب الفاشيستى ، أن أتباعه رغم أنهم معروفون بأنهم دستوريون ، إلا أنهم لم يعودوا من أتباع جيولينى .

وقد استقال جيولينى من الحكم ، تاركا لمن خلفه من الوزراء أن يحلوا المشاكل الناشئة عن الخلاف بين الاشتراكيين والفاشيستيين فى جميع المدن الكبرى ، وقد ترك الوزراء تلك الحوادث دون أن يولوها أى عناية ، ويعاقبوا المحرضين عليها ، وقد أعطى ذلك فرصة للفاشيين ، فإن حسن تنظيمهم وقيادتهم قد مكنتهم من الانتصار على الحكومة .

وكان أمل جيولينى أن يضعف الصراع القائم بين الفاشيين والاشتراكيين كلا الطرفين ، وأن يتدخل هو فى الوقت المناسب ليوفق بينهما ، وكان تقديره مبنيا على مايعلمه فى البرلمان ، وليس على الأمر الواقع ولعل ذلك من الأسباب التى أدت إلى انهياره عند أول ضربة كالها له موسولينى .

الزحف على روما

فى أواخر سبتمبر ١٩٢٢ أعلن موسولينى فى خطاب له فى كريمونا ، أنه يجد

الملكية الدستورية ، وفى ٢٤ أكتوبر قدم مطالب كثيرة للحكومة ، بعد اجتماعه فى مؤتمر فاشيستى فى نابلى حضره ٣٠,٠٠٠ نفس، وفى ٢٦ أكتوبر استقال فاكتا آخر وزير دستورى ، فعزم موسولينى على الزحف بأتباعه إلى روما ، فوصلها فى ٣٠ أكتوبر ولم يقابل أى مقاومة ؛ فعينه الملك رئيسا للوزارة . وقد خص موسولينى الجنرال دياز بطل فيتوريو فنيتو بوزارة الحرب .

موسولينى والدولة الفاشستية

وقد تميزت مدة الحكم الفاشستى ببعض التغييرات والاصلاحات فى إيطاليا ، فاستتب الأمن وادرت البلاد بكفاءة ، وجففت المستنقعات واصلحت الزراعة ، وبذلت المجهودات لتحسين الصناعة ؛ وقضى على عصابات النهب فى نابلى وصقلية ، واعتنى بالعمال واظهر عطفا عليهم وحسنت أحوالهم .

وقد أصبح الحزب الفاشيستى هو الدولة ، وقضى على كل معارضة قضاء مبرما ، وظهر الحزب ممثلا للدولة والشعب ، وقد تبين ذلك بوضوح عند انتخاب أغلبية أعضاء البرلمان الساحقة من أعضاء الحزب عام ١٩٢٩ .

الائتلاف مع البابا

وقد قام موسولينى بعمل لم يظهر فقط عبقريته الدبلوماسية ، بل أثبت أنه حصل على نصر لم يحصل عليه أى حاكم فى إيطاليا المتحدة من قبل ، فقد استطاع أن يوفق بين الشعب الإيطالى والبابا ، ففى سنة ١٩٢٨ وقع اتفاق رسمى بين مندوبى البابا وموسولينى .

وقد كانت نقطة الضعف فى عهد الحركة القومية ، هى طريقة معاملة الكنيسة والبابا ، فإن كافور بمقدرته فشل فى إيجاد تسوية مقبولة ، وابتدأ بمعاملة الكنيسة بأسلوب أصيب له كل كاثوليكى بخيبة أمل بالغة ، وقد أتبع خلفاؤه طريقته ، وكانت أوامرهم وتعليماتهم الخاصة بالكنيسة مجحفة بها ومضطهدة لها .

وكان رد البابا على ذلك سكوته . وإعلان استيائه ، مع تأكيد حقوقه في وقف سانت بيتر ، وفضل الانسحاب إلى الفاتيكان ليعيش به كأسير ، فأثار شعور العالم

الكاثوليكى ، وكان فى استطاعته أن يسبب مشاكل كثيرة الدولة الإيطالية والملكية خاصة ، لأنه يمثل أغلب المسيحيين فى العالم .

مركز البابا الدولى

وكان مركز البابا ذا صفة خاصة ، فقبل ١٨٧٠ كان أسقفا للمسيحيين ، ورئيسا للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وكان أيضا الأمير الحاكم لأملاك البابا ، وفى أكتوبر ١٨٧٠ حينما دخل الملك عمانويل روما ، أعطى جميع الرعايا الباقون مع البابا أصواتهم للانضمام إلى مملكة إيطاليا ، وهكذا قررت أصوات الشعب مصير البابا .

وفى ٩ أكتوبر ١٨٧٠ أصدر الملك فيكتور عمانويل مرسوما يعلن فيه « أن رومانيا والولايات الرومانية جزء من مملكة إيطاليا » ، وبذلك حرم الملك البابا من سلطته كحاكم ، وترك له مركزه فى الفاتيكان ، وكان البابا يتمتع بعدة امتيازات فى مملكته إيطاليا بموجب قانون خاص ، وليس بموجب قانون دولى .

وقد وصف بسمارك البابا « بمحكم فى منطقة نزاع » رغم أن مؤتمر هيج قد رفض قبول مندوبيه عام ١٨٩٩ ، وكذا رفضت عصبة الأمم قبوله كعضو فيها .

ولكن البابا كانت له السلطة الروحية كما ظهر أثناء وبعد الحرب ، فقد راعت اعتباراته كل الدول المحاربة ، وبعد الحرب وجدت فرنسا أنه من الملائم أن تستأنف علاقتها مع البابا سياسيا ، وكذلك أرسلت انجلترا مبعوثها ، ولذلك نرى من الواضح أنه حصل على مركز لا فى إيطاليا فقط بل فى معظم الدول ، وبالاتفاق الذى عقد مع موسولينى عام ١٩٢٩ ، اعترفت إيطاليا بالفاتيكان كدولة لها مدخل من البحر ، وأن البابا شخصية دولية .

وقد منحت الكنيسة بعض الامتيازات التى حرمتها منها الحكومات الإيطالية المختلفة منذ ١٨٦٠ ، ثم حصل بعد ذلك اتفاق بين المملكة الإيطالية والبابا حيث أيد البابا حكومة الفاشيست ، ومنحها سلطة لم تتمتع بها حكومة من قبل .

٤ – توسع إيطاليا فى البحر الأبيض المتوسط

حينما كان الفاشيستيون يتحدثون عن حقوقهم فى التوسع الاستعمارى ، إنما كانوا يقصدون بذلك الحوض الشرقى للبحر الأبيض المتوسط بالذات ، فإنهم كانوا يعلمون أن الحوض الغربى منطقة نفوذ دول أخرى ، لا سيما فرنسا التى وطدت أقدامها فيه .

وقد سببت هذه البيانات ازعاجا لدول الحوض الشرقى عموما ، وخاصة تركيا ، حينما أعلن موسولينى هذا التصميم ، وقد أبدى أسبابا ثلاثة لرغبة إيطاليا فى تطور علاقاتها بشرق البحر الأبيض :

١ — أنه على الطريق الهام إلى مناطق آسيا الغنية، فإنه مخرج يمكن أن يستمد الشعب منه المواد الخام، بدون التأثر بسيطرة قناة السويس وجبل طارق الأجنبيتين .

٢ — أن الدول الساحلية نفسها غنية بالمنتجات التى تفتقر إليها إيطاليا .

٣ — أن موانى هذه الدول هى المقصد الطبيعى للأسطول التجارى ، الذى يعمل من البندقية وبارى ، وبرنديزى وتريستا .

« يجب ألا يساء فهم ما نحن عازمون عليه فى هذا الجيل ، والأجيال الإيطالية القادمة ، إن المسألة ليست غزو أراضى . . . . !! ؟ يجب أن يفهم ذلك القريبون والبعيدون ، إنما هو توسع طبيعى سيؤدى إلى تعاون وثيق بين إيطاليا وشعوب أفريقيا ، وبين إيطاليا والشرق الأوسط » .

تلك فقرة من إحدى خطب موسولينى ، فإذا نظرنا إلى الموضوع من هذه الناحية ، نجد أن إيطاليا قد أحسنت الاختيار ، فإن هذه الشعوب ليست قريبة ، ولكنها تكون منطقة تعتمد إيطاليا عليها فى استثمار أموالها ، لكى توازن علاقاتها الاقتصادية الدولية ، والواقع أن إيطاليا لم تستطع أن تنجح فى موازنة تجارتها بها ، فإن تجارتها لا تتعدى أكثر من ١٠ ./. من مجموع التجارة المتداولة ، لأن معظم علاقاتها التجارية مع الدول المجاورة ومع دول الغرب ، بينما نجد تجارة ألمانيا وبريطانيا والولايات المتحدة الأمريكية وسويسرا ، تعتمد على الشرق الأوسط فى تصريف حوالى ٥٠ ./. من تجارتها .

ولكن بالرغم من ذلك ، فإن التجارة الشرقية هامة جدا ، إذ أن الواردات تحتوى على نصف زبوتها ، وخمس الحديد والقطن الذى تحتاجه ، والصادرات أهمها النسيج الذى يباع فى القطر المصرى خاصة ، ويعود عليها بالنفع الكثير .

وقد نشطت تجارتها بوسائل عادية بوساطة الملحقين التجاريين والغرف التجارية ، وكذلك بوسيلة فاشستية خاصة ، فأنشأوا مكتبا سمى « شئون شرق البحر الأبيض المتوسط » ، وقد افتتح عام ١٩٣٠ ، وكان يعقد اجتماعاته كل سبتمبر فى بارى .

وقد أملت التقاليد اختيار ذلك المكان ، فإن بارى لها اتصال بشرق البحر الأبيض المتوسط من قديم الزمان ، لموقعها عند كعب شبه الجزيرة ، وقد كانت فى يوم ما عاصمة لولاية بيزانتيوم ، ثم تحولت إلى مركز لتوزيع البضائع الشرقية التى كان يستعملها ملوك صقلية النورمانديون .

ولم ينس موسولينى ماضيها ، فصمم على إحياء ماضيها التجارى القديم ، فقبل زحفه على روما بأيام قلائل ، أعلن أن بارى ستكون نقطة ارتكاز لتوسع إيطاليا السلمى فى شرق البحر الأبيض وبعده ، وقد كان ما عقد عليه العزم ، فبارى اليوم مدينة جمعت إلى القدم حداثة . وبها اليوم جامعة موسولينى ، ومعهد للأبحاث التجارية ، ومحطة لاسلكية كانت تذاع منها كل يوم أخبار العالم من وجهة نظر الفاشيست بلغات الشرق الأوسط المختلفة .

والملاحة البحرية فى منطقة الشرق الأوسط ، والخدمات الجوية هى المورد الثانى لدخل إيطاليا ، وكان همها مقاومة التنافس الدولى ، فقامت بإنشاء عدة شركات ملاحية ، ولم يكن منذ يناير عام ١٩٣٧ يخدم الخطوط العالمية إلا أربع مجموعات :

١ — خط إيطاليا — أمريكا .

٢ — خط لويد تريستينو إلى ما بعد السويس .

٣ — خط تيرانيا للقرص .

٤ — خط الأدرياتيك إلى شرق البحر الأبيض المتوسط .

كما أنشئت عدة خطوط جوية مشابهة وأصبحت السفن والطائرات الإيطالية تقدم خدماتها على عدة خطوط هامة .

والمورد الثالث لدخل إيطاليا هو ما يستثمر من أموالها فى الشرق الأوسط ، فرغم أن نسبتها لفرنسا وانجلترا ضئيلة ، فإنها تمتلك ثروة لا يستهان بها بالاستبدال التجارى ، ولم تتورط كثيرا فى إعطاء قروض عدا قرضها لألبانيا ، والذى كان الغرض منه سياسيا ، فإنها لم تتوقع أن تأخذ عنه أرباحا .

الفصل الثالث

مصالح ايطاليا

فى البحر الابيض المتوسط

إن ظهور إيطاليا الحديثة كدولة متحدة ومستقلة لحدث هام فى سياسة البحر الأبيض المتوسط ، فقد كانت إيطاليا منذ العصور الوسطى حتى عام ١٨٧٠ عبارة عدة دوقيات وممالك ، وكانت تتبع دولا أوربية كبيرة على مر العصور ، ففى ١٨٥٩ امتلكت امبراطورية النمسا والمجر الأراضى الغنية فى لمبارديا وفينيسيا ، وتمكنت من السيطرة على إيطاليا بحصونها الأربعة فى ڤيرونا وبسكييرا ومانتوا ولنياجو ، التى كان لها مخرج بالسكك الحديدية ، أما دويلات البابا فكانت تمتد عبر الأبنين من البحر التيرانى إلى بحر الأدرياتيك ، أما فى جنوب إيطاليا وصقلية حيث كانت الثقافة على اختلاف العصور مختلفه عن الشمال ، وإدارة البلاد سيئة ، فهناك مملكة الصقليين ، أما فى الشمال فنجد مملكة ساڤوى التى كانت أراضيها تضم بيدمونت وساڤوى وجزيرة سردينيا .

ولذا فمن الواضح أن إيطاليا لكونها مقسمة ، لا يمكن أن تلعب دورا هاما فى الميدان الدولى ، ولكن اتحاد إيطاليا مصحوبا بأسماء كثير من العظماء الإيطاليين : مازينى المفكر ، وكافور السياسى الداهية ، وغاريبالدى القائد العسكرى ، قد عطف بريطانيا على قضية إيطاليا .

وقد طرد النمساويون من شمال إيطاليا عام ١٨٧١ ، وتوج فيكتور عمانويل ملكا على إيطاليا فى روما ، وباستثناء مدينة الفاتيكان أصبحت إيطاليا جميعها ، بما فى ذلك أراضى البابا ووسط وجنوب وشمال إيطاليا تحت حكم واحد، وبذلك ظهرت إيطاليا كدولة متحدة مستقلة ، وقد صادف اتحادها فترة تغييرات كبيرة فى حوض البحر الأبيض المتوسط ، فقد افتتحت قناة السويس عام١٨٦٩ ،وابتدأت

الحركة الإستعمارية فى أفريقيا ، ورغم أن فرنسا وبريطانيا والبرتغال كانت قد امتلكت فعلا عدة مستعمرات ساحلية فى أفريقيا ، وكذا الامبراطورية العثمانية ظلت محتفظة بسيادتها على مصر وليبيا ، فإن معظم أرض هذه القارة كان لا يزال خاضعا لحكم وطنى .

ورغم أن إيطاليا كانت ضعيفة نسبيا إذا ما قيست ببريطانيا وفرنسا ، إلا أنها اتجهت إتجاها عسكريا لتدافع عن نفسها ، ولتشترك فى المنافسة الإستعمارية القائمة ، ففى عام ١٨٦٩ بينما كانت إحدى الشركات الإيطالية تبحث فى طريقة لتسهيل عمليات الامداد بالوقود ، للسفن الإيطالية بالبحر الأحمر ، اشترت مساحة من الأرض حول خليج عصب ، وفى عام ١٨٨٢ حينما زادت مساحة هذا الجزء ، أصبح مستعمرة إيطالية ، وقد تنبهت إيطاليا إلى أهمية قناة السويس الاستراتيجية ، فأعلن مانشينى وزير خارجيتها حينذاك أن مفاتيح البحر الأبيض بالنسبة لإيطاليا إنما هى موجودة فى البحر الأحمر ، وقد تبع مشروع امتلاك عصب عدة امتلاكات لبعض الأراضى الساحلية الأفريقية الشمالية الشرقية .

ففى عام ١٨٨٥ احتلت القوات الإيطالية مصوع ، وبعد أربع سنوات أعلنت الحماية الحقيقية على الحبشة ، وفى ١٨٩٤ — ١٨٩٥ إغتصبت إيطاليا ولاية التيجر ولكن إنتصار الأحباش على الإيطاليين عام ١٨٩٦ عند عدوة أنهى الحماية الإيطالية وأصبحت الحبشة دولة مستقلة ، وفى ١٨٩٩ إحتلت إيطاليا ارتيريا ذات الساحل الطويل على البحر الأحمر .

وقد نتج عن حروب إيطاليا مع تركيا عامى ١٩١١ — ١٩١٢ أن إمتلكت الأولى ليبيا ، وفى الوقت نفسه احتفظت لنفسها بجزر الدوديكانيز ، بتعهد من تركيا تنفيذا لشروط الصلح .

وفى أوائل الحرب العالمية الأولى ، وقبل وصول الفاشست إلى القمة عام ١٩٢٤ أصبحت إيطاليا قوة استعمارية ، ولكن رغم أن مستعمراتها الإفريقية ممتدة ، إلا أنها ذات قيمة اقتصادية بسيطة ، ولم يكن سكانها عام ١٩١٤ يزيدون عن مليون ونصف من السكان . ولذلك فإن إيطاليا قد وصلت متأخرة ، فلم تجن الثمرة الشهية التى كانت تأمل فى اقتطافها .

أما التسوية التي تلت الحرب الكبرى فكانت مجحفه بإيطاليـــا ، ولذا كان موسوليني يطالب دائما بإعادة النظر في المعاهدات ، ورغم أن إيطاليا كانت مرتبطة مع ألمانيا وإمبراطورية النمسا والمجر بموجب التحالف الثلاثي عام ١٨٨٣ ، ولا يربطها ببريطانيا إلا الصداقة ، فإنها قد انضمت إلى جانب الحلفاء في الحرب العالمية الأولى ، وكانت مساعدتها للحلفاء نظير تعهداتهم ببعض المكاسب ، وضم بعض الممتلكات . فبموجب معاهدة لندن ١٩١٥ ومعاهدة سان جان دي موريان سنة ١٩١٧ ، كان لإيطاليا في نهاية الحرب أن تتسلم جنوبي التيرول ، واستريا وتريستا ودالماشيا ، وبعض جزر بحر الأدرياتيك وجزءاً من ألبانيا .

ومن ناحية أخرى وعدت ببعض مناطق نفوذ كبيرة في آسيا الصغرى في حالة ما إذا هزمت تركيا ، أو أصبحت دولة غير مستقلة ، وأخيرا كان لها أن تمتلك من المستعمرات الألمانية جزءا ، ولكن معاهدة فرساى سنة ١٩١٨ ومعاهدة لوزان عام ١٩٢٣ لم تحققا وعود ما قبل الحرب التي بذلها الحلفاء لإيطاليا . وظهر جليا كيف أن كلا من بريطانيا وفرنسا قد حاولت تجاهل وعودها ، وتركت إيطاليا في حالة سيئة من الاجحاف والاضطراب والاحساس بالظلم .

والواقع أنها قد نالت بعض المكاسب الاستراتيجية الهامة ، ولكن ذلك لم يحقق غرض الإيطاليين نظير مجهوداتهم أثناء الحرب ، وقد احتفظت إيطاليا بحدود استراتيجية على ممر برونر بادخال حوالي ٢٣٠,٠٠٠ ألماني في جنوب التيرول ، وكذلك استولت على شبه جزيرة استريا وميناء تريستا ، وزارا على ساحل دالماشيا ، وبعض الجزر في بحر الأدرياتيك ، وفيومى التي احتلتها متحدية قوات الحلفاء ، وعلاوة على ذلك فقد اعترف الحلفاء بادعاء إيطاليا ملكية جزر الدوديكانيز .

أما في إفريقيا فإن ما نالته كان ضئيلا ، فقد تنازلت لها بريطانيا عن جوبالند عام ١٩٢٤ وكذا فرنسا عن جزء ممتد من لوبيا عام ١٩٣٥ ، أما في تركيا فلم تحصل إيطاليا على أراض جديدة ، أو ميادين للاستغلال الاقتصادي ، إذ أن تركيا تحت حكم حاكمها القدير مصطفى كمال ، قد أصبحت دولة جمهورية مستقلة محتفظة بعظمتها وسيادتها .

وكذلك لم تحصل إيطاليا على دالماشيا ، إذ أن هذا الجزء الذي كان يتبع

الأمبراطورية النمساوية قد انضم إلى يوغوسلافيا ، وقد تقوى مركز إيطاليا فى بحر الإدرياتيك فى حالتى الدفاع والهجوم بامتلاك موانى تريستا ، وفيومى وپولا ، وزارا ، وبعض الجزر ، وكذا بالاعتراف ببعض مصالحها الخاصة فى ألبانيا بموجب معاهدة لندن ١٩١٥ .

موقع ايطاليا الجغرافى

إن إيطاليا بموقعها ومناخها يتبع جزء منها إقليم أوربا القارى ، والجزء الآخر يتبع إقليم البحر الأبيض المتوسط ، ورغم أن جبال الألب ذات ارتفاع عال وممتدة ، إلا أنها لم تفصل إيطاليا عن وسط وغرب أوربا ، وجبال الألب تمد إيطاليا بحدود طبيعية قوية ، ورغم أن شكلها المتقوس ورغم أن الطرق التى تمر بممراتها تتلاقى فى السهل الشمالى الإيطالى ، فإننا نجد أن الميزة الجغرافية تكون فى صف القوة الغازية لإيطاليا ، أكثر من القوة التى تهاجم من إيطاليا ، ولذلك فإن السهل الشمالى الإيطالى مثل سهول بلجيكا ، قد أصبح ميادين للحروب فى أوربا ، وحدود إيطاليا البحرية ٣٥٠٠ ميل بينما البرية ١٢٠٠ ميلا فقط .

مركزها الاستراتيجى

بينما نجد أن كل من فرنسا وإسبانيا لها حدودها على الأطلنطى والبحر الأبيض ، نجد أن حدود إيطاليا على البحر الأبيض وحده ، وأن موقعها فى وسط حوض البحر الأبيض مع صقلية تقسمان البحر الأبيض على قسمين غير متساويين ، وتسيطر إيطاليا على مضيق مسينا ، وتقع صقلية وسط البحر ، وبين صقلية وتونس تقع جزيرة بنتالوريا الإيطالية التى حصنت حديثا ، ورغم أنها تفتقر إلى ميناء إلا أنها ذات قيمة كبيرة كمحطة للغواصات والطائرات المائية ، وعلى جانبى إيطاليا يوجد بحران شبه مقفلين : فى الشرق البحر الإدرياتى وبحر اليونان ، وفى الغرب البحر التيرانى .

وتحتل إيطاليا مركزا هاما فى الأدرياتيك ، فى شمال هذا البحر توجد عدة موانىء هامة ، وكذا الجزر التى على شواطئه والتى يمكن أن تستخدم كقواعد

للغواصات ، وتسيطر إيطاليا على مدخل الأدرياتيك من ميناء ترنتو وجزيرة ساسينو ، وكذا بسيطرتها على ألبانيا بموانيها ، وقد اعترفت الدول الكبرى بمصالح إيطاليا فى ألبانيا ، وقد كانت ألبانيا مرتبطة مع إيطاليا بمعاهدة تحالف دفاعية منذ ١٩٢٧ ، بل وكانت تعتمد على إيطاليا فى مساعدتها اقتصاديا واعانتها بالمال .

وفى بحر الأدرياتيك تجاور إيطاليا يوغوسلافيا ، التى تمتلك ساحلا غنيا بالموانىء الطبيعية القيمة فى دلماشيا ، بينما نجد أن الساحل الشرقى لإيطاليا عديم الموانىء تقريبا بالنسبة للساحل اليوغوسلافى ؛ ويوغوسلافيا صعبة بالنسبة لإيطاليا ، فرغم أن حدودها البرية الشمالية الغربية مكشوفة لإيطاليـــا ، وكذا من الجنوب بالنسبة لألبانيا، إلا أن سواحلها الواقعة على الأدرياتيك منفصلة عن الأراضى الداخلية فى وسط حوض الدانوب بعدة جبال قاحلة، وغابات، ولذا فإنها تميل إلى وسط أوربا أكثر من البحر الأبيض ، وقد ضمنت إيطاليا حياد يوغوسلافيا فى الحرب بموجب اتفاقها معها عام ١٩٣٧، وبالاختصار فإن موقع إيطاليا فى الأدرياتيك يمنحها السيادة.

أما بحر اليونان فيتصل بإيطاليا وصقلية من الغرب ، وباليونان وإيطاليا من الجانب الشرقى ، وتقع جزيرة كورفو التى ضربت بقنابل السفن الحربية الإيطالية عام ١٩٠٥ ، وكذلك جزر بحر اليونان ، على إمتداد الأراضى اليونانية ، ولكن مركز إيطاليا فى بحر اليونان قوى ، فلها قاعدة بحرية فى ترنتو ، ومحطة جوية فى شرق صقلية فى اوجستا ، ولذا فإن سلامة جانب إيطاليا الشرقى تتوقف على مقدرتها على السيطرة على بحر اليونان ، وبذلك يمكنهـــا حراسة مضيق ترنتو بوابة بحر الأدرياتيك ، ، فإن هذا المضيق سعته حوالى ٥٠ ميلا ، ولذلك لا يمكن السيطرة عليه بالمدافع الموضوعة على كلا الجانبين ، ولكنه من الواضح أنه من مطارات قريبة ، وبواسطة الغواصات ، ، يمكن لإيطاليا أن تعمل بكفاءة للتحكم فى مدخل الأدرياتيكى .

أما فى الجانب الغربى لإيطاليا ، حيث يوجد كثير من المدن الرئيسية ، وخاصة روما وجنوا ونابلى ، فإن الأراضى الإيطاليـــة ملاصقة للبحر التيرانى ، وتشغل القاعدة البحرية الإيطالية سبزيا ميناء طبيعيا فى الشمال ، لا يبعد كثيرا عن القاعدة

البحرية الفرنسية فى طولون ، وجزيرة كورسيكا الفرنسية ، وإلى الجنوب قليلا توجد القاعدة البحرية فى نابلى ، وهناك كثير من المحطات الجوية فى صقلية وسردينيا وكذلك فى الأراضى الإيطالية الرئيسية .

وباستثناء الممر المائى الضيق الواقع بين كورسيكا وسردينيا الذى يمكن حراسته بواسطة التحصينات الموجودة فى جزيرة مادلينا ، فإن الدخول إلى البحر التيرانى يمكن من الشمال بالدخول بين البا وكورسيكا ، وكذا من الجنوب حيث المدخل عريض .

وتحد الأراضى الفرنسية أيضا بحر التيرانى ، فإن المحطات الجوية البحرية فى كورسيكا وتونس مجهزة تجهيزا كاملا للعمليات البحرية والجوية .

وحيث أن إيطاليا دولة استعمارية ، فيجب أن نبحث مواقع أراضيها التابعة لها ونرى كيف أضعفت أو قوت من مركز إيطاليا الاستراتيجى ، فليبيا التى غزتها إيطاليا بعد الحرب الكبرى تعطى مجالا ضيقا للاستعمار ، علاوة على مواردها الاقتصادية القليلة . ولكنها تمنح إيطاليا ميزة استراتيجية نتيجة لموقعها الجغرافى الممتاز ، فان لها حدودا ممتدة على البحر الأبيض المتوسط ، ورغم أن سواحلها قليلة الموانى الطبيعية ، إلا أنها تصلح لإنشاء المطارات وبعض المحطات للغواصات فطرابلس الميناء الرئيسى وعاصمة ليبيا محطة بحرية جوية ، وتبعد حوالى ٣٠٠ ميل فقط من صقلية ، ولكن الممر المباشر هناك يمرّ ملاصقا للجزائر المالطية ، وإلى الشمال قليلا توجد طبرق القاعدة البحرية التى تحتل مركزا طبيعيا قويا عند رأس خليج عميق ، وفى أثناء الحرب الحبشية الإيطالية ، أنشأت إيطاليا طريقا بريا يمر بطول الساحل الليبى من حدود القطر المصرى إلى تونس ، ومن الواضح أن النشاط الصناعى والإقتصادى فى ليبيا لا يكفى لهذا المشروع الكبير ، إذ أن الطريق يمتد حوالى ١٠٠٠ ميل ، وكان قد أعلن رسميا أن الغرض من إنشاء الطريق هو جذب السياح ، حيث تقع على امتداده آثار بعض المدن الرومانية القديمة ، علاوة على أن هذا الطريق قد أظهر فائدته فى تنفيذ خطط إقامة المستعمرات الإيطالية على الأراضى الساحلية .

وقد استعمل العسكريون أيضا هذا الطريق ، فإن إيطاليا قد اتخذت من

طرابلس فى السنوات القليلة الأخيرة محطة لقواتها العسكرية ، وتفتقر طرابلس كقاعدة حربية إلى بعض المميزات ، إذ أنه نظراً لانتاجها المحدود ، فإنها تعتمد على إمداد جيشها بالطعام والمعدات والتسليح والبترول من وارداتها من إيطاليا .

وقد تقوى مركز إيطاليا فى البحر الأبيض نظرا لامتلاكها جزر الدوديكانيز ، التى تكاسلت كل من انجلترا وفرنسا فى الاعتراف بها ، وتقع هذه الجزر على الساحل الجنوبى الغربى من تركيا ، فى الممر بين كريت وآسيا الصغرى ، وكأنما وضعت فى هذا الموقع لتتحكم فى مداخل بحر ايجة ومخارجه ، وتعتبر هذه الجزر شديدة الأهمية لإيطاليا نظرا لموقعها لا لمواردها ، إذ أنها صخرية وشبه قاحلة ، ولا تنتج إلا قليلا من النبيذ وزيت الزيتون والقمح وأحجار البناء ، ومعظم سكانها من اليونانيين ، ولا يوجد بها إلا ٧٠٠٠ إيطالى حسب احصائية عام ١٩٣٠ .

وفى جزيرة ليروس حولت بورتالاجو إلى قاعدة بحرية جوية ، وكذلك للغواصات ، وإذا نظرنا إلى خريطة البحر الأبيض لوجدنا أن معاقل إيطاليا الأربعة ، أوجستا وطرابلس وطبرق وليروس ، تقع فى أركان مربع واحد ، وتكون مع ترنتو وكاجليارى وبنتالاريا حصونا متقدمة نحو الشمال والغرب ، وبالاختصار فإن الأراضى والمعاقل الإيطالية تجرى على جانبى المنطقة الوسطى للحوض ، من سواحل آسيا الصغرى حتى شواطىء سردينيا ، وتفتقر إيطاليا إلى مواقع استراتيجية فى المناطق البعيدة للبحر ، والتى تسيطر على مداخل الأطلنطى والبحر الأحمر وبحر مرمرة .

أفريقيا الإيطالية الشرقية

وتملك إيطاليا مناطق شاسعة تعرف بأفريقيا الإيطالية الشرقية ، وقد بدأت مصالحها فى هذه المنطقة عندما اضطرتها أعمال السفن إلى الحصول على أرض على الساحل ، يمكن أن تمدها بموانىء مناسبة لرسو السفن ، ويمكن إنشاء علاقات تجارية مع البلاد والأراضى الداخلية .

وتشمل أفريقيا الإيطالية الشرقية أوتريا التى تحد البحر الأحمر بالقرب من

مخرجه عند باب المندب، والصومال التى لها ساحل طويل على المحيط الهندى، والحبشة التى فتحت عام ١٩٣٥ — ١٩٣٦، وتبلغ مساحة هذا الجزء تقريبا مساحة ليبيا.

وتفتقر ساحل إفريقيا الإيطالية إلى موانىء طبيعية، وقد صمم عام ٣٧ على تقوية ميناء عصب فى أرتريا. التى لا يمكن لها الآن أن تأوى سفنا أكثر من حمولة ١٠,٠٠٠ طنا.

وهناك أيضا بعض الجزر الإيطالية عند مدخل البحر الأحمر ومن المنتظر فى المستقبل أن تنتج الحبشة ما يزيد عن حاجتها من المواد الخام والمعادن والبترول، والسكة الحديدية الوحيدة الموجودة هى التى تصل أديس أبابا بميناء جيبوتى فى الصومال الفرنسية. ويتبع هذا الخط لشركة فرنسية، ولكن هناك تقدما محسوسا فى إنشاء الطرق البرية، فهناك طريق أسفلت طوله حوالى ١٠٠٠ ميل، يصل العاصمة مع مصوع على ساحل البحر الأحمر، وطريق آخر يصل مصوع بغندة مارا بأسمرة، ويمتد خلف المنطقة الساحلية مناطق صحراوية، ولكن الأراضى المرتفعة بالحبشة ربما تنتج البن بعد إجراء بعض التجارب، وكذلك القطن والموادالغذائية التى تستورد معظمها الآن.

أما المعادن فتعتبر قليلة فى منطقة أفريقيا الإيطالية الشرقية، فلا يوجد فحم أو زيوت رغم وجود بعض اللجنيت بالقرب من أديس أبابا، وبعض الحديد فى أماكن متفرقة، وبعض الميكا والذهب فى أرتريا.

ويبلغ عدد سكان أفريقيا الشرقية الإيطالية حوالى ٨ ملايين نسمة، منهم مليون من الزنوج، والباقى حاميون وشرقيون؛ ومعظم الأحباش مسيحيون رغم وجود عنصر إسلامى كبير فى البلاد.

أهميتها الاستراتيجية

إن موقع أفريقيا الشرقية الإيطالية حيث تحد الطريق البحرى بين البحر الأبيض والهند، وقربهامن مستعمرة كينيا البريطانية والسودان المصرى الإنجليزى

أعطاها قيمة استراتيجية كقاعدة للهجوم البرى والجوى ، بينما يمكن استخدام سواحلها البحرية كقواعد للغواصات .

ومما هو محل نقاش على الدوام، أن إيطاليا بوجودها فى أفريقيا الشرقية وامتداد إمبراطوريتها الأفريقية ، قد أضعفت مركزها الاستراتيجى أكثر من تقويته ، فان إيطاليا إن قورنت بالنسبة للإمبرطوريات الأخرى المجاورة لها ، نجد أنها تعتمد على الطريق البحرى « البحر الأبيض — قناة السويس — البحر الأحمر » ، وذلك للاتصال بشرق أفريقيا ، وقد يعوض استخدام الطيران إلى حد ما عن استخدامها لهذا الطريق البحرى ، وبذلك لاتعتمد على قوتها البحرية خلال الحرب ، ولكن إذا قطع هذا الطريق فان الطريقة التبادلية لنقل القوات والرجال ، هى السيطرة على القطر المصرى والسودان كقاعدة للعمليات الحربية ، وإنه لمن الواضح أن أفريقيا الشرقية الإيطالية تعتمد اعتمادا كليا على الإمدادات والمواد الحربية التى تستوردها من أرض الوطن « إيطاليا » .

مشكلة السكان بإيطاليا

ظهرت مشكلة السكان بإيطاليا بوضوح فى السنوات الأخيرة ، واهتمت بها معظم دول العالم، فقبل الحرب العالمية الأولى أجبرت الزيادة السريعة فى عددالسكان مع عدم ازدياد الموارد الاقتصادية ، على هجرة كثير من السكان على نطاق واسع ، وخصوصا إلى الولايات المتحدة ، وكذلك دول البحر الأبيض وخصوصاً فرنسا .

وفى عامى ١٩٢١ ، ١٩٢٤ وضعت الولايات المتحدة قيودا للهجرة ، بل إنها أخذت تفرق فى المعاملة بين المهاجرين من جنوب وشرق أفريقيا ، ولذلك نجد أنه بينما هاجر حوالى ٤٧٧,٠٠٠ إيطالى فى عام ١٩١٣ إلى أمريكا ، نجد أنه بعد قانون الهجرة الأمريكى عام ١٩٢٤ لم يتعد عدد المهاجرين إلى هناك أكثر من ٣٨٤٥ مهاجرا .

وبالمثل وضعت أيضا بعض القيود على الهجرة إلى أراضى بعض الدول ، مثل المستعمرات البريطانية .

ورغم أن نسبة المواليد فى إيطاليا آخذة فى النزول منذ عام ١٩٢٧ ، إلا أن نسبة ازدياد عدد السكان بها لا تزال أكثر منها فى ألمانيا وفرنسا وانجلترا ، ولذلك فإن إيطاليا أخذت تدعى منذ ١٩٢٧ أن أراضى الوطن المحدودة الموارد ، لا يمكن أن تستوعب هذا العدد الكبير من السكان ، ولذا كانوا يبررون حركاتهم الاستعمارية وخصوصا فى عهد الفاشست ، الذين أعلنوا مرارا أن « على إيطاليا أن تتمدد أو تنفجر » ، وواضح أنه من الصعب الموافقة على هذا الرأى بأكمله ، فالمناطق ذات الإنتاج الكبير مزدحمة بدرجة كبيرة ، ومستوى المعيشة منخفض بها .

وإذا قورنت بإسبانيا واليونان ، فإنها أحسن منهما حالا فى الإنتاج الزراعى والصناعى ، رغم أن طرق الزراعة فى الجنوب تحتاج إلى تحسين فى حيز الإمكان ، وقد نفذت مشروعات كثيرة أثناء الحكم الفاشستى ، فردمت البرك الواسعة التى كانت مصدرا للملاريا ، وأنشئت عدة مدن جديدة مثل بونتينيا وليتوريا وابريليا كما بذلت جهود كبيرة لتحسين استنباط الكهرباء من المساقط المائية .

وينبغى لنا أن نتوقف قليلا هنا لنسأل سؤالين : لماذا لا يستغل السكان الوسائل المادية والإمكانيات وتبذل الجهود لإيقاف الهجرة وتشجيع المواليد ؟ ولماذا يستخدم رأس المال فى إنتاج آلات الحرب بدلا من المشروعات المنتجة التى تعود على إيطاليا بالنفع الكبير ؟ إن رأس المال يمكن استغلاله بفائدة كبيرة في إيطاليا نفسها ، وفى سردينيا فى الأعمال الهيدروليكية وإنتاج الكهرباء .

ورغم أن إنتاج الكهرباء الهيدروليكية يوفر كثيرا من الفرص ، ورغم أن مشاريع عديدة قد أنشئت ، إلا أن ربع الخطوط الحديدية فقط هو الذى كهرب .

ومن ناحية أخرى فإن ليبيا لا تستطيع أن تستوعب أفرادا من الخارج للإقامة بها إلا على نطاق ضيق جدا ، وكذلك الحبشة لا تسمح الآن بهجرة أحد إليها ، ونستطيع هنا أن نقف لحظة لنتبين باختصار ، الجهود الاستعمارية التى بذلتها فى طرابلس وبرقة ، وكذلك لنأخذ فكرة عن المصالح الإيطالية الطامحة فى هذين البلدين ، فان ليبيا ليس بها ثروة معدنية ، ولا أهمية لها كطريق تجارى عبر الصحراء ، ولكنها تعتمد على التطور الزراعى فيها ، وهذا يتوقف على تنويع المحصول حسب الأحوال الجوية ، فان الأمطار لا تكفى لإنتاج زراعى يستحق الذكر إلا فى أقصى

الشمال لليبيا حول طرابلس، وكذا فى شمال برقة ، وحتى فى هذه المناطق فان المناخ يؤثر كثيرا فى الزراعة ، فان سقوط الأمطار غير منتظم من سنة لأخرى ، ولا يعتمد عليه كثيرا فى حالة توقفه ، ودرجة البخر عالية وهناك ريح لافحة من الصحارى المجاورة .

ومن ناحية أخرى توجد مصادر مياه جيدة فى باطن الأرض فى المنطقة الساحلية لطرابلس ، ويمكن استخدامها لرى الحقول ، بينما تتمتع المناطق الجبلية فى الشمال الشرقى لبرقة بسقوط الأمطار الغزيرة ، علاوة على الينابيع المنتشرة بها .

وخارج المناطق التى تزرع بالرى توجد أشجار الزيتون ، التى تعطى فرصة طيبة للإنتاج رغم أنها لا تحمل ثمارا إلا بعد ٢٠ عاما ، ويمكن انتاج محصول الشعير مرة فى كل عام باستخدام طرق الزراعة الجافة .

وقد أظهرت التجارب فى شرقى تونس أن المال والفن يمكن التغلب بهما على الموانع الطبيعية ، وقد نفذ مشروع إقامة العائلات الإيطالية بمنتهى الحكمة والنظام وكان أساس هذه السياسة هو إقامة ٢٠٫٠٠٠ فلاح فى عام ١٩٣٨ ، ويستمر هذا المعدل إلى أن يصل العدد إلى ١٠٠٫٠٠٠ ، وكان الأمل أن تعتمد هذه العائلات على نفسها وتنتج زيت الزيتون للأسواق الإيطالية ، ومن الواضح أن المشروع كان بعيد الطموح ، وأن الفكرة كانت صبغ الأراضى الساحلية الشمالية لليبيا بالصبغة الإيطالية ، كما فعلت فرنسا فى أجزاء كثيرة من الجزائر ، ولكن ليبيا كانت مصدر خسارة لإيطاليا ، علاوة على أن سياسة طلينة ليبيا قد أثارت شعور العالم العربى بمحاولة استعمار أرض عربية وطنية .

ومن الواضح أن السكان الذين يقيمون فى إيطاليا وخارجها ٦٠ مليونا ، منهم ٤٢ فى إيطاليا نفسها ، ويمكن مقارنة هذا العدد بما تحويه الامبراطورية البريطانية (٧٣٠ مليونا) ولكن توزيع الإيطاليين فى المستعمرات يجعلهم نسبة ضئيلة بالنسبة للسكان الأصليين ، والأعداد التالية المأخوذة من إحصائية ١٩٣٠ دليل واضح على ذلك .

	الإيطاليون	جملة السكان
ليبيا	٤٩ر٧٢٧	٨٣٩ر٥٢٤
أريتريا	٤ر٥٦٥	١ر٠٠٠ر٠٠٠
الصومال	١ر٦٥٨	١ر٣٠٠ر٠٠٠
الحبشة	٢٥٠ر٠٠٠	٥ر٥٠٠ر٠٠٠

أما الإيطاليون فى الدوديكانيز فيبلغ عددهم ٦ر٧٢٥

وقد زاد السكان الإيطاليون بليبيا بعد ذلك ، مع العلم بأن معظم الإيطاليين فى الحبشة من العسكريين ، وزاد عدد الإيطاليين فى الحبشة عشرة آلاف عن ذى قبل واستمرت الهجرة طوال السنين الثمانية التالية للإحصائية السابقة .

وأكبر عدد من المهاجرين الإيطاليين هو ٩٠٠ر٠٠٠ فى فرنسا ، ويستثنى من ذلك العدد الإيطاليون الذين اكتسبوا الجنسية الفرنسية وعاشوا فى جنوب فرنسا ، بما فيها نيس وساڤوى التى أصبحت فرنسية بعد استفتاء عام ١٨٦٠ .

ومعظم الإيطاليين المقيمين فى فرنسا يشتغلون بالزراعة أو بالأعمال الصناعية وقد رحلوا إلى فرنسا بعد الحرب الكبرى ، عندما احتاجت فرنسا إلى أيدى عاملة لإعادة بناء ما خربته الحرب .

ويوجد فى مصر حوالى ٥٠ر٠٠٠ إيطالى ، ونسبة قليلة فى تركيا ويوغوسلافيا واليونان ، وفى النهاية نجد أن عدد الإيطاليين فى تونس مساوٍ لعدد الفرنسيين رغم سهولة التجنس .

وبالاختصار فان حوالى المليون إيطالى عدا الذين غيروا جنسيتهم ، يعيشون خارج الأرض الإيطالية حول حوض البحر الأبيض المتوسط ، ويقومون بأعمال زراعية أو أعمال البناء ، ويملكون بقالات صغيرة .

موارد ايطاليا

مما سبق نجد أن قوة إيطاليا من الرجال وهى أساس القوة الاقتصادية والحربية كافية ، وطالما قال هتلر « إن قيمة الشعوب توازى قوتها من الرجال »

ولكن هناك عوامل أخرى مثل الروح المعنوية والتربية الحربية والسياسية، وكذا القوة العسكرية التى تعتمد أيضا على موارد الدولة الطبيعية والاقتصادية، ولذا يجب أن نبحث هذه الموارد فى إيطاليا الحالية .

تنقسم إيطاليا جغرافيا إلى قسمين رئيسين هما :

ا — السهل الساحلى الشمالى ب — شبه الجزيرة

ا — السهل الساحلى الشمالى

وهو محصور بين جبال الألب والأبنين، ومناخه يشبه مناخ وسط أوربا، ويتصل به بخطوط حديدية، وكذلك يشبه مناخ جزيرة إيطاليا وصقلية، التى تسيطر عليها جبال الأبنين ، مناخ الأقاليم البحرية، وفى شمال إيطاليا تقع الأراضى التى تنتج المواد الغذائية، يوجد به عدة موانىء رئيسية مثل جنوا . كما توجد عدة مدن صناعية هامة مثل ميلان وتورين، حيث توجد الكهرباء الناتجة من مساقط المياه المنحدرة من جبال الألب .

ب — شبه الجزيرة

وتقل بها فرص المشروعات الإنتاجية، فان معظم أراضيها مرتفع لا يصلح إلا لتربية الأغنام والماشية، علاوة على أن معظم أراضى السهول والهضاب حول جبال الأبنين قاحلة، وخصوصا فى الجنوب الشرقى، ولا يتيسر وجود المياه فى الصيف للرى كما فى السهول الساحلية فى لمبارديا وبيدمونت، وينتج جنوب إيطاليا وصقلية كثيرا من الفواكه المجففة للتصدير، وكذا القمح وزيت الزيتون .

وبالاختصار فان موارد إيطاليا الطبيعية غير كافية، وتعتمد على موارد الدول الأخرى، فالمعادن الموجودة بها لا تكفى لصناعاتها الحربية، فان ما يستخرج من الفحم بايطاليا لا يتعدى ٨ ٪ مما تحتاجه البلاد، والفحم الذى تحتاجه لصهر الحديد يجب أن يستورد، أما الحديد الخام فلا تستورد إيطاليا أكثر من خمس ما تحتاجه، ومواردها من الزيوت الخام لا يتعدى أكثر من ٧ فى المائة، ولذا فإنها تستورد ما تحتاجه من الخارج .

كما أن إيطاليا يجب أن تستورد حاجتها من النحاس والكروم والصفيح ، والنيكل والمنجنيز ، وسماد البوتاس والقطن والمطاط .

وفى إيطاليا كميات كافية من الكبريت والألومنيوم والزئبق ، والكيماويات والنترات ، ولكنها تستورد بعض المواد الغذائية وخصوصا اللحوم والأسماك ، ومن الواضح أن إيطاليا — كدولة تفكر فى الحرب كأداة لتنفيذ سياستها الوطنية — تفتقر بدرجة كبيرة إلى الفحم والحديد ، وتشاطر الدول الأخرى — عدا روسيا والولايات المتحدة — فى اعتمادها على غيرها فى تموينها بالبترول والوقود .

وبالإختصار فان موارد إيطاليا تحد كثيرا من قوتها الاقتصادية ، وبالتالى من قوتها المسلحة ، وهذا هو السبب الرئيسى الذى حدا بالحكومة الفاشستية أن تحاول تحسين الموارد الإيطالية ، حتى يمكنها أن تقلل اعتمادها على الخارج إلى أقل درجة ممكنة . لأن الواردات قد تنقطع عنها إذا فرض عليها حصار بحرى ، أو عقوبات اقتصادية فى حالة الحرب ، والعقوبات الاقتصادية التى فرضت من خمسين دولة على إيطاليا عام ١٩٣٦ ، جعلتها تحاول الوصول إلى درجة الاستكفاء الذاتى ، وكان من آثار هذا التوجيه أن عملت إيطاليا على زيادة انتاجها من الحبوب ، ثم استغلال مساقط المياه على نطاق أوسع ، واستخدام الكهرباء بدلا من غاز الاستصباح ، وقد نفذ مشروعان من مشروعات الكهرباء ، أحدهما فى سهول ايزونزو فى فينسيا ، والآخر فى أبروزى فى جبال فورمانو ، وقد بذلت مجهودات أخرى للحصول على الفحم وتحسين موارده ، وشيدت مدينتان جديدتان للفحم إحداهما فى استريا والأخرى فى سردينيا ، كما بذلت مجهودات لاستكمال صناعة الحديد ، باستخدام برادة الحديد ، ومعالجة الحديد القديم وتحويله إلى جديد .

الفصل الرابع

معاقل ايطاليا

فى البحر الأبيض المتوسط

« لقد كانت إيطاليا قوية فى البحر الأبيض وهكـذا أريدها الآن »

هذا ما قاله موسولينى فى خطاب له فى طرابلس عام ١٩٢٦ ، وكانت الخطوات التى اتبعت بعد ذلك هى إنشاء عدة نقط خارجية ، لا بين حلفائه الذين يحتمل أن يتخلوا عنـه ، ولـكن بين توابعه الذين يستطيع أن يسيطر عليهم ، ولذلك فان لإيطاليا أربعة نقط خارجية فى البحر الأبيض ، هى ألبانيا — بنتالريا — جزر الدوديكانيز — ليبيـا .

ألبانيا

إذا كان غرض إيطاليا هو اظهار عظمتها فى البحر الأبيض المتوسط فان ذلك يكون بالسيادة فى بحر الإدرياتيك ، ولقد كانت السيادة فى بحر الإدرياتيك إحدى الوسائل لرشوة الحلفاء لإيطاليا ، لإغرائها بعدم الانضمام إلى قوى الوسط ، فقد وعدت إيطاليا بموجب معاهدة لندن السرية عام ١٩١٥ بساحل مملكة النمسا والمجر ، وحمايتها على ألبانيا ، ولـكن عندما انعقد مؤتمر الصلح ، قامت الصرب وكرواتيا ضد النمسا ، ورأت إيطاليا أن الساحل عدا جزيرتين صغيرتين ومدينة زارا قد تسلمت ليوغوسلافيا ، وأن قيام يوغوسلافيا معناه أنه بدلا من أن تحتل إيطاليا مركز ملـكة بحر الإدرياتيك ، قـد أجبرت على أن تصبح متاخمة لجار قوى وهام .

وكان موقفها متميعا لتباين سياسة التوسع ، وسياسة حفظ الجوار ، وإن علاقتها مع يوغوسلافيا التى تتلخص فى السلسلة التالية « خرق معاهدة — معاهدة — خرق معاهدة — معاهدة » لأكبر دليل على سياستها المتميعة .

وأخيرا وقعت معاهدة صداقة مع يوغوسلافيا فى مارس عام ١٩٣٧ ، لإصلاح ما أفسدته بطلبها بعض المطالب أثناء الحرب الحبشية الإيطالية ، وقد كسبت إيطاليا كثيرا خلال هذه المدة التى استمرت من ١٩٢٦ — ١٩٣٤ بانتشار نفوذها فى ألبانيا .

أهميتها الاستراتيجية

ولموقع ألبانيا أهمية استراتيجية كبرى بالنسبة لإيطاليا :

١ — فان جبال ألبانيا تسيطر على مضيق اترنتو الذى يبلغ عرضه حوالى ٤٥ ميلا وهو المخرج الوحيد للبحر الأدرياتيكى .

٢ — علاوة على أن هذه الجبال مرتفعة وتسيطر على الأراضى الساحلية الواطئة لإيطاليا .

٣ — كما أنها تمتلك ميناءا عميقا هاما — فالونا — وهو يواجه المضيق مباشرة وآخر أحسن منه هو — دورازو — لشل نفوذ يوغوسلافيا .

ولهذه الأسباب الإستراتيجية ، أخذت كل من إيطاليا ويوغوسلافيا تبحث فى صداقة ألبانيا ، ولكن إيطاليا كانت الرابحة ، فقد وطدت علاقاتها معها بعدة معاهدات صداقة وتحالف عسكرى وقع فى عام ٣٦ — ١٩٢٧ .

وكان تدفق الأموال الإيطالية قد سبق ذلك بعام ، حينما حصلت إيطاليا على امتياز بانشاء بنك أهلى ألبانى ، بسلفة قدرها خمسون مليونا من الفرنكات الذهبية ، ولم تحصل إيطاليا على قواعد للدفع على رأس مالها ، ولكن أموالها لم تضع ، فان إيطاليا قد حولت مبالغ كثيرة لجيوب الأيطاليين ، لاستخدامها فى الأعمال العامة حيث صرفت هذه الأموال .

وكان الاعتقاد السائد بأن هذه الأموال تنفق لصالح إيطاليا وحدها ، وأنها حولت ألبانيا إلى مستعمرة إيطالية ، ولكن من يزور ألبانيا لا يرى ذلك فان هذه الأموال قد صرفت فى تعميق ميناء دورازو للأغراض البحرية ، وإنشاء الطرق التى لها أهمية إستراتيجية ، وإنشاء المبانى العامة ، التى قد تصلح للثكنات فى حالة نشوب الحرب ، ولكن حتى الآن قد أفادت هذه الاصلاحات ألبانيا أكثر من

إيطاليا ، فقد زادت من تجارتها ومواصلاتها ، علاوة على أن الأعمال الحكومية فى تيرانا قد زادت كفاءتها وهيبتها .

ولكن هل كانت إيطاليا تتوقع فوائد أكثر من ذلك نظير أموالها المنصرفة ، إنها كانت ترغب فى تحويل ألبانيا إلى مستعمرة زراعية ، ولكن الألبانيين بروحهم حاولوا منع ذلك .

وكانت إيطاليا تأمل أن تجد فى جبال ألبانيا كثيرا من المعادن ، رغم أن ألبانيا من هذه الناحية لا يمكن الإعتماد على مواردها . إذ أن الكميات الموجودة بنسبة صغيرة جدا لا تستحق العمل على استخراجها ، فان كمية النحاس والكروم ضئيلة جدا . ولكن وجد بها قليل من البترول الردىء النوع ، وكانت إيطاليا تعتمد على ذلك كأحد مواردها بعد اقفال عنق زجاجة البحر الأبيض المتوسط .

وقد رأينا أن من بين العوامل التى تحفز إيطاليا على السيطرة على ألبانيا ، هو أمل اعتمادها على قوة ألبانيا البشرية ، ولكن يجب أن نعرف أن الشعب الألبانى وطنى متحمس ، وأن ايطاليا حينما كانت تصدر أوامرها كانت تجد منه صلابة وبأسا ومثال ذلك ما حدث عام ١٩٣٣ حينما طالبت ايطاليا بزيادة حقوقها فى انشاء مدارس ايطالية ، وزيادة الضباط الإيطاليين فى الجيش الألبانى ، فرفضت ألبانيا ذلك وأعلنت أن ذلك يخالف استقلالها كما أن الشعب الألبانى قام بكثير من الثورات ضد تصرفات ايطاليا السيئة .

وكان ممكنا لإيطاليا أن تقوى مركزها فى ألبانيا عن طريق سيطرتها على الملك زوغو ، فهى الممولة له وهى التى تساعده ضد منافسيه ، الذين يعلمون أن الثورة معناها التدخل الأجنبى فى شئونهم فتسوء الحال عن ذى قبل .

بنتالريا

ان لإيطاليا معقلا يمكن الاعتماد عليه فى هذه الجزيرة ، التى ورثتها بجزء من مملكة نابلى والصقليين ، وقد اكتشف الإيطاليون أهميتها الاستراتيجية عام ١٩٣٥ فصمموا على الانتفاع بمميزاتها الإستراتيجية . لأنهم كانوا يخشون حربا بحرية .

فإن ارتفاعها الذى يبلغ حوالى ٢٥٠٠ قدما يسيطر على ما حواليه ، وموقعها

حيوى فى القناة الضيقة بين تونس وصقلية ، وبحيرتها تهيء الفرصة لإقامة قاعدة جوية ، ولكن لا يوجد بها موانىء طبيعية ، وأماكن رسو السفن رديئة ومعرضة وقد تغلب الإيطاليون على الصعوبات الفنية فبدأوا بتحصينها ، ومنعوا الطائرات الأجنبية من الطيران فوق المنطقة .

وتعتمد ايطاليا على بنتالريا كحصن ، اعتماد انجلترا على جبل طارق ، ويتوقف ذلك على ولاء السكان ، وقد توفر ذلك لإيطاليا .

الدوديكانيز

إن ألبانيا دولة أجنبية ، بينما بنتالريا جزء من أرض الوطن ، ولكن جزر الدوديكانيز مستعمرات إيطالية ، وهنا تواجه إيطاليا مشكلة المستعمرات العادية ، وهى حكم سكان متجنسين بالجنسية الإيطالية ولكنهم أجانب دما ولحما .

وموقف إيطاليا فى الدوديكانيز مشابه لحدما لموقف البريطانيين فى قبرص ، ومع أن السكان الذين تحكمهم إيطاليا أقل نسبيا ولكنهم يتكونون من نفس العناصر يونانيون ونسبة من الأتراك ؛ وفى رودس يوجد بالإضافة لذلك بعض آلاف من الأسبان واليهود ، وشعور الأهالى يميل نحو اليونان كما فى قبرص ، رغم أن إيطاليا تكبح جماحهم ، فلا يستطيعون إظهار هذا الشعور الذى لم يمت ، فقد طالب الأهالى عام ١٩١٢ بالتحرر من الأتراك ، وأعيدت الكرة ثانية لمؤتمر الصلح عام ١٩١٩ .

ومع أن أهل الدوديكانيز قد تمتعوا بكثير من الامتيازات تحت الحكم التركى إلا أنهم انضموا لحزب استقلال اليونان ، فقد كانوا يحسون أنهم منه ، وقد كرهوا الأتراك ورحبوا بالإيطاليين عام ١٩١١ ، ونادوهم بمحرريهم المسيحيين ، ولكنهم كانوا يريدون الحرية فى أحضان اليونان لا إيطاليا .

وأثناء حروب البلقان انتعشت الحركة فى الدوديكانيز ، وعقد مؤتمر حضره رؤساء الجزر فى باتاموس عام ١٩١٢ ، وطالبوا بإقامة دولة ايجية وضمها لليونان

ولكن سوء الحظ لاحقها ، فقد ظلت إيطاليا حتى الحرب العالمية الأولى تحتل الجزر ، وان كانت تحت السيادة التركية كقبرص .

وقد فشلت إيطاليا فى امتلاك هذه الجزر ، لأن بريطانيا وفرنسا خشيتا من وجود قاعدة غير متحابة بالقرب من قناة السويس، فشجعت اليونانيين فى حركتهم.

وفى أثناء الحرب العالمية الأولى تجاهلت كل من انجلترا وفرنسا وعدهما لليونان ، وذلك رغبة فى ضم إيطاليا إلى صفوف الحلفاء ، فمنحتا إيطاليا السيادة الكاملة على الدوديكانيز بموجب معاهدة لندن السرية ، ولكن أهل الجزر رفعوا صوتهم مرة ثانية فى مؤتمر الصلح ، مطالبين بالاتحاد مع اليونان ، وقد سمع صوتهم فى هذه المرة ومثل اليونان مسيو فنزيلوس ، وبموجب اتفاق فنزيلوس — تيتونى عادت السيادة ثانيا لليونان عدا رودس ، التى سيجرى فيها استفتاء ، وابتدأ اليونانيون يشعرون بالانتصار، ولكن آمالهم تحطمت بسقوط فنزيلوس فى انتخابات ١٩٣٠ ، فمع أن الحلفاء قد تورطوا مع فنزيلوس فإنهم لم يكونوا مجبرين على التورط مع خلفه ، الملك قسطنطين الذى كان يميل إلى الألمان .

ولما تآخت إيطاليا مع تركيا عام ١٩٢٠ أيام مصطفى كمال ، حصلت منه على وعد بجزر الدوديكانيز ، وقد حصلت عليها فعلا بموجب معاهدة لوزان وتسلمتها عام ١٩٢٠ .

وبمقارنة قبرص بالدوديكانيز نجد أن الأولى تتمتع بحرية أكبر ، فإنهم يتعلمون فى المدارس بلغتهم الخاصة ، ويعظ القساوسة فى الكنيسة بحرية أكثر مما يعظون فى رودس ، وعلى الأهالى فى رودس أن يؤدوا التحية للعلم الإيطالى فى الصباح والمساء ، وبمقارنة قبرص برودس نجد :

١ — ربحت بريطانيا بالأولى نفسانيا بينما كسبت إيطاليا ماديا .

٢ — ومن ناحية أخرى نجد تشابها بين المستعمرتين ، فكلاهما تفضل تبعية اليونان وقد انضمت لليونان .

٣ — كلا المستعمرتين على درجة من الثقافة ومعظم الوظائف الإدارية فى يد الأهالى.

٤ — أما من الناحية الاستراتيجية فإننا نجد إحداهما بالقرب من الدردنيل ، والأخرى بالقرب من قناة السويس ، ونجد أن إيطاليا تمتلك الميناء الطبيعي الجيد « بورتولاكى » فى ليروس ، ولكن قواعدها قريبة إلى ساحل أجنبي ، فان تلال تركيا الحادة تطل على رودس ، بينما شاطىء آسيا الصغرى يبدو للنظر من قبرص فى الأيام الصحوة .

ليبيا

إن ليبيا تعتبر أهم نقط إيطاليا الخارجية ، إذ أن طموح إيطاليا لإنشاء أمبراطورية بعد قناة السويس يجبر إيطاليا على إنشاء علاقات طيبة مع العالم العربي، وسلوكها فى المستعمرات الإسلامية هو الذى يتوقف عليه تقدمها ، أو شل حركتها الإستعمارية .

وتدعى إيطاليا أن موقفها فى ليبيا آمن أكثر من أى مستعمرة إسلامية أخرى ، وهذا صحيح ، فلا توجد دولة أخرى تحكم عددا من السكان بهذه القلة ، وبعيداً عن العالم وثقافته وأخباره وأحداثه .

وقد كان يشوب ليبيا بعض الغموض . فإن زوارها قليلون ، ولم تكن طريقا لأى مكان ، فان طريق القوافل بين أوربا والسودان الذى تقع عليه ليبيا لم يعد مطروقا كما كان من قبل ، وكذلك البواخر والطائرات التى كانت تسافر من إيطاليا إلى ليبيا كانت تعود بالتالى إلى إيطاليا ، ولكن منذ الحملة الحبشية سير خط جوى من إيطاليا للقطر المصرى ، وإفريقيا الشرقية الايطالية ، هو « الخط الأمبراطورى» هذا علاوة على إنشاء طريق مرصوف من حدود تونس إلى حدود مصر ، والواقع أن ليبيا تعتبر دولتين مختلفتين فى الأخلاق والشئون العامة ، إذ أن كلا من برقة وطرابلس منفصلتان عن بعضهما بفضاء صحراوى واسع ، يعتبر من أحسن الحدود الطبيعية فى العالم .

فطرابلس فى الغرب يتوقف مستقبلها على نظام الزراعة الجافة وزراعة الزيتون أما برقة فمساحتها الصغيرة تشبه أرض اليونان . « تربة سوداء وحمراء » ، وفى بعض الأماكن غابات ، وجوها ليس كطرابلس ، ومياه أمطارها أكثر من جارتها

طرابلس ، ولها مستقبل فى رعى الأغنام ، وبعض المنتجات التى تستخرجها إيطاليا .

ولكن طرابلس لها ميزة ، وهى أن أراضيها الجيدة بالقرب من مينائها ، تلك المدينة التجارية الهامة .

لمحة تاريخية

لقد غزت إيطاليا ليبيا عام ١٩١١ — ١٩١٢ لأسباب سياسية واستراتيجية كما ادعت :

١ — ليمكنها أن تتنفس فى البحر الأبيض بحرية .

٢ — لتتجنب كتم أنفاسها وسط ممتلكات وقواعد بريطانيا وفرنسا البحرية .

وقد ظهر نجاح استراتيجيتها عام ١٩٣٥ حينما جعل وصول قوات إيطالية إلى ليبيا ، الإمبراطورية البريطانية ومصر تجمعان رجالها وطيرانهما فى الصحراء الغربية ، ولذلك فقد حقق غزو ليبيا الغرض منه ، ولكنها كانت مخاطرة غالية إذ أنها تكررت مرتين :

الأولى قبل الحرب العالمية الأولى وقد ذهب ذلك دون جدوى ، إذ أن إيطاليا حينما انضمت للحلفاء سلح الألمان والأتراك بدو ليبيا الذين رموا بالإيطاليين فى البحر .

وأعيد الغزو مرة ثانية عام ١٩٢٢ ، واستسلمت طرابلس رغم أن سكانها ثلاثة أمثال برقة بسهولة كبيرة ، وساد السلام عام ١٩٢٥ ، بينما حوالى ١٨٠,٠٠٠ بدوى فى برقة يقومون بحركتهم حتى عام ١٩٣٢ ، وكانت الوديان والواحات المنتشرة والقديمة تساعدهم ، علاوة على نفوذ السنوسى وحركته القومية الإسلامية .

وكان رائد أهالى برقة فى كفاحهم «الاستقلال أو الفناء» ، ولكن الإيطاليين قاوموا الحركة بشراسة ، فردموا الآبار ، وحاصروا القبائل فى معسكرات متجمعة ، وتركوا ماشيتهم تنفق لقلة المرعى ، وأعدموا شنقا كل عربى استسلم وكان يحبذ الثورة .

ولم تكن لإيطاليا سياسة ثابتة لعدة سنين ، وقد كانت تتردد بين تحسين الاقتصاديات أو اتباع سياسة زراعة المستعمرات ، ونرى أن هاتين السياستين لا تصلحان فى طرابلس ، ولا يمكن تنفيذهما ، فإن أشجار الزيتون تتطلب أيدى

عاملة قليلة ، ولكنها لا تعطى ثمارها إلا بعد ٢٠ عاما ، ولذلك فان زراعة الزيتون تحتاج إلى أيدى عاملة قليلة ، ولكن رأس المال هو المعول عليه فى نجاح هذه الزراعة لطول مدة انتظار الأثمار ، ولذلك نجد أن إيطاليا عاقها ذلك فان لديها الأيدى العاملة ولكن ينقصها رأس المال .

وفى عام ١٩٢٨ صممت الدولة على إرسال عدد أكبر من الإيطاليين بدون النظر إلى نفقاتهم ، فإنهم يمكنهم إنتاج رأس المال ، ولكن بالرغم من المجهودات الكثيرة التى بذلتها ، وخاصة مجهودات الماريشال بالبو ، التى انتهت عام ١٩٣٤ برى مزارع كافية تتسع لإقامة حوالى ١٨٫٠٠٠ نفس ، فإن عدد الإيطاليين الذين وصلوا للإقامة لا يزال منخفضا جدا ، وقد أخذ عدد السكان يتزايد حتى وصل عام ١٩٣٨ حوالى ١٣٫٠٠٠ ، ولكن منذ ابتداء مشكلة الحبشة أخذت هجرة المستعمرين فى النقص، إذ أن الصراع لإنشاء مستعمرة أكبر فى مكان آخر حوّل المال والنشاط إلى منطقة أخرى ، وكان المجهود الذى بذل فى ليبيا ، مركزا على أنها الطريق الاستراتيجى الهام من الشرق إلى الغرب .

وقد شعر الكثيرون من مزارعى ليبيا فى ذلك الوقت أن الدولة تتجاهلهم ، واتجه نشاط السياسة الإيطالية إلى الحبشة ، ولكن زيارة موسولينى عام ١٩٣٧ طمأنت المستعمرين الإيطاليين ، فقد قال فى احدى خطبه إن حكومته ليس غرضها تحويل عطفها من ليبيا إلى الحبشة ، ولكنها ستحتفظ بالاثنين حفظا لسلامة الإمبراطورية .

أهمية ليبيا الاستراتيجية

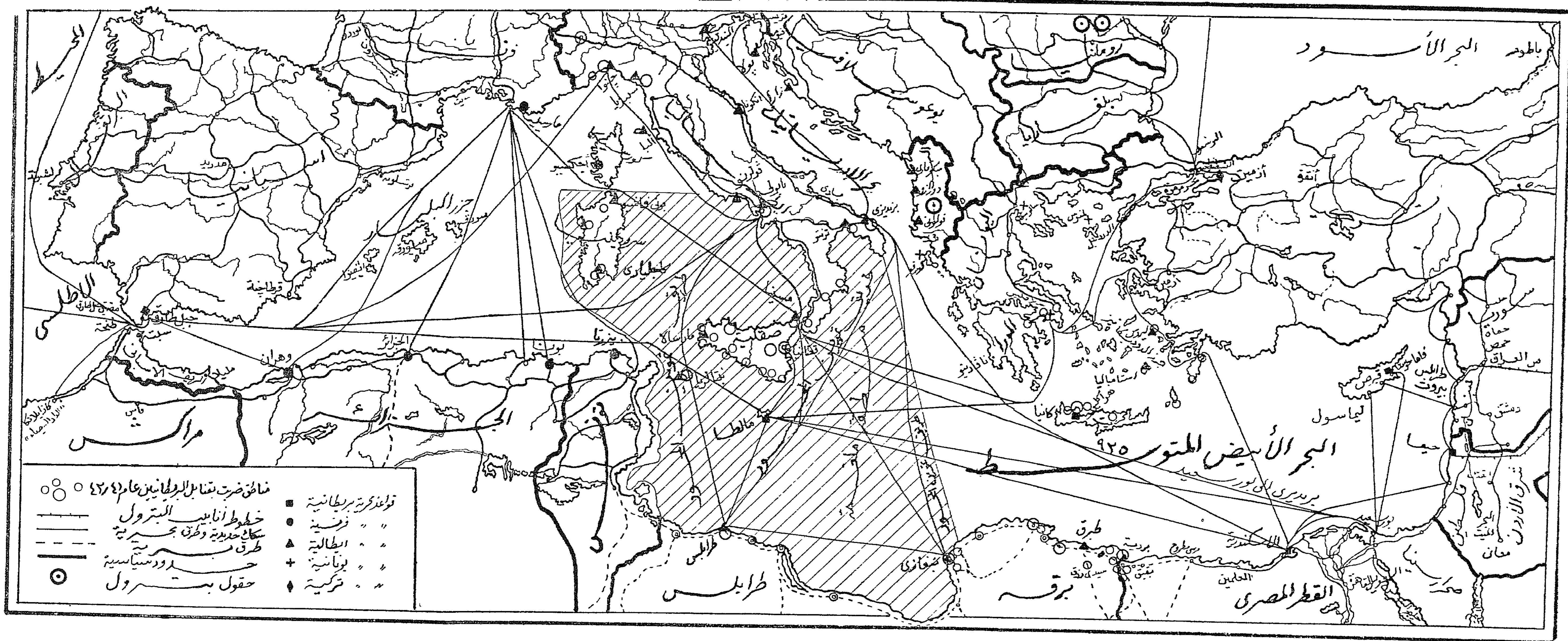
١ — يمكنها أن تمد الجيش بمواد غذائية كافية إذا كان المحصول جيدا .

٢ — تهدد القوات الموجودة بها كلاًّ من تونس والقطر المصرى .

٣ — تسيطر الطائرات والسفن الموجودة بطبرق على الممر المائى بين برقة وكريت (حوالى ٢٠٠ ميل)

٤ — زادت إيطاليا من قواتها فى هذه المنطقة عام ١٩٣٥ ثم ١٩٣٧ لتهديد منافسيها ، بينما مستعمرتها آمنة تحميها صحراء واسعة .

حوض البحر الأبيض المتوسط



أهميتها الاقتصادية

تعتبر خسارة لإيطاليا ، فإن إيطاليا لم تجد بها من المعادن ما كانت تأمل فى وجوده ، علاوة على أن الإنتاج بها لا يتناسب مع ما تتطلبه السياسة والإستعمار .

مركز ايطاليا فى ليبيا

إن مركز إيطاليا فى ليبيا قوى ، فمع أن العرب يكرهون الإيطاليين إلا أن المال والبطش فى الحكم قد قاما بواجبهما خير قيام وقد حارب الجنود العرب مع إيطاليا فى نزاعها مع الحبشة ، علاوة على أن العرب يقدرون القوة والعزيمة والنجاح ، وقد قدروا ذلك فى نزاع إيطاليا مع الحبشة ، وعلموا أن إيطاليا قوية باقية ، وربما يكون ذلك قد أيقظ مخاوفهم ولكن إنتصار الإيطاليين فى الحبشة جعلهم يحترمونهم

ويمكننا فى النهاية — ومن وصف هذه المعاقل — أن نستنتج الآتى :

١ — إن مركز إيطاليا يكون آمنا فى هذه المعاقل إذا كانت خاضعة لها .

٢ — هذا الأمن يرجع إلى معالجة إيطاليا لمشاكل ليست على درجة كبيرة من الأهمية كما هى الحال فى بعض المستعمرات البريطانية .

هذا ولا يزال مصير المستعمرات الإيطالية معلقا ، وسينظر فيه فى الدورة الثالثة للجمعية العمومية لهيئة الأمم ، ومن بين هذه المستعمرات جزر الدوديكانيز وليبيا ، أما ألبانيا فهى جمهورية مستقلة ولكن هذا لا يغض من قيمتها الاستراتيجية بالنسبة لإيطاليا ، اما بنتاريا فلا تزال إيطالية وهى التى بقيت لإيطاليا من هذه المعاقل التى بدونها تفقد حرية الحركة ، حتى فى داخل البحر المغلق عليها .

الفصل الخامس

إيطاليا والحرب العالمية الثانية

كان لنزول الحلفاء فى شمال أفريقيا أثر كبير فى سيطرتهم على الشاطىء الإفريقى بأجمعه ، لأن هدف المحور الرئيسى كان غزو مصر ، وبعد أن يسيطر على شمال أفريقيا كله يكيل الضربات للحلفاء فى الميادين المختلفة .

وقد بينا فى الفصل الخاص بالشرق الأوسط والحرب العالمية الثانية مدى تأثير هذه الحملات على سير دفة الحرب ، حيث استطاع الحلفاء الانتقال بعملياتهم إلى جنوب إيطاليا فى يوليو عام ١٩٤٣ ، وقد كان سقوط موسولينى فى سبتمبر عام ١٩٤٣ ، وحدوث الانقلاب الداخلى فى الحكومة الإيطالية ، السبب فى طلب إيطاليا الهدنة ، وقد انضمت بعد ذلك للحلفاء — كسابق عهدها — ، ورغم ذلك فإن الألمان استمروا يناضلون فى شبه الجزيرة ، حتى انتهت الحملة الإيطالية فى مايو عام ١٩٤٥ بانهزام المحور فى جميع الميادين .

وكان من شروط الهدنة الإيطالية نزع سلاح جميع القوات المسلحة الإيطالية ، واحتلال إيطاليا احتلالا كاملا بواسطة الحلفاء ، على أن تتكفل إيطاليا بجميع نفقات الاحتلال .

وقد أخذت وطأة هذه الشروط تخف تدريجيا ، ففى نهاية عام ١٩٤٥ استعادت إيطاليا نظامها الحكومى السابق ، وأصبحت حاميات الحلفاء العسكرية تحتل منطقتى فنيسيا — جوليا ويودين فقط ، وأخيرا عقدت معاهدة الصلح الإيطالية عام ١٩٤٦ ، وكان من شروطها أن تتنازل إيطاليا لفرنسا عن أربعة مناطق صغيرة ، وأن تتنازل لليونان عن جزر الدوديكانيز ، وعن جزر الإدرياتيك ومعظم منطقة فنيسيا — جوليا ، ومنطقة تريستا ليوغوسلافيا .

وكان على إيطاليا أن تعلن تنازلها عن المستعمرات الإفريقية ، على أن يناقش مستقبل هذه المستعمرات فيما بعد ، وسنورد فيما يلى النصوص العسكرية الواردة فى معاهدة الصلح الإيطالية وأهمها :

١ — تخفيض القوة البحرية الإيطالية إلى ٢٢,٥٠٠ رجلا ، والجيش البرى إلى ٢٥٠,٠٠٠ رجلا ، بينما لا يتجاوز عدد رجال السلاح الجوى ٢٥,٠٠٠ رجلا .

٢ — لا يجوز لإيطاليا أن تحتفظ بأى غواصات أو قاذفات قنابل ، على أن يسمح لها بالاحتفاظ بسفينتين حربيتين ، وأربعة بوراج ، وبعض القطع البحرية الخفيفة ، والا تتعدى قواتها المدرعة ٢٠٠ دبابة متوسطة وثقيلة .

٣ — لا يسمح لها ببناء أو امتلاك سفن حربية ، أو حاملات طائرات أو غواصات .

٤ — ينزع سلاح المناطق الموجودة بين حدود فرنسا وإيطاليا ، وكذلك المناطق بين إيطاليا ويوغوسلافيا ، وسردينيا وصقلية وكذلك جزر بنتالاريا .

ورغم أن إيطاليا قد فقدت مستعمراتها الإفريقية خلال عمليات حربية فى الحرب الأخيرة ، وذلك باحتلال بريطانيا لها ؛ إلا أن مصير هذه المستعمرات لا يزال موضوع نزاع بين الدول الكبرى ، وخاصة بريطانيا وروسيا ، فإن روسيا قد طالبت بالوصاية على ليبيا واريتريا ، ومن هنا نتبين بعد نظر الساسة الروس ، فإن روسيا بسيطرتها على هاتين المنطقتين تستطيع أن تتحكم فى مواصلات الامبراطورية البريطانية ، ولذلك وجدنا بريطانيا ترفض ذلك الطلب ، وتقترح أن تكون الوصاية على هذه المستعمرات دولية ، حتى لا تتمكن روسيا من بسط نفوذها عليها .

ولا يفوتنا هنا أن نذكر ذلك النزاع الدائم بين يوغوسلافيا وإيطاليا على ميناء تريستا ، والذى لم يسو حتى الآن ، فإن هذا الميناء قد منح لإيطاليا عام ١٩١٩ بموجب معاهدة سان جرمان ، مكافأة لها على مساعداتها فى الحرب العالمية الأولى ، وكانت يوغوسلافيا ترغب فى الحصول على ميناء حر ، وقد ظلت هذه المسألة طول الفترة بين الحربين معلقة ، ولكن ما أن انتهت الحرب العالمية الثانية بهزيمة إيطاليا نتيجة انضمامها للمحور ، حتى طالبت يوغوسلافيا بهذا الميناء مكافأة لها على مساعداتها للحلفاء فى الحرب العالمية الثانية ، ولكن الخلاف بين الكتلتين الشرقية والغربية ، ومحاولة كل منهما ضم إيطاليا إلى صفه ، لما لها من الأهمية الاستراتيجية والاقتصادية فى حالة نشوب حرب جديدة فى منطقة البحر الأبيض المتوسط ؛

والمشاهد أن الكتلة الغربية تحاول ضم إيطاليا إليها بكل جهدها ، وتساعدها على إقامة حكم ديموقراطى ، بل وتنادى بضم تريستا إليها رغم أنها من الدول الأعداء فى الحرب الأخيرة ، والواقع أن إيطاليا استطاعت أن تقف على قدميها فى هذه الفترة القصيرة بمعاونة الدول الديموقراطية لها ، ولعلها قد انضمت نهائيا للكتلة الغربية ، وسيبين لنا المستقبل القريب إلى أى اتجاه تميل وإن كان انضمامها لحلف الأطلنطى يبين لنا الجانب الذى تفضله وهو جانب الكتلة الغربية .

مصير المستعمرات الإيطالية

وقد دارت محادثات بين بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة فى صيف ١٩٤٨ حول مصير المستعمرات الإيطالية ، والمعروف أنها أسفرت عن الاتفاق بين الدول الثلاثة ، — وقد استبعدت روسيا — على إعادة الصومال إلى إيطاليا تحت وصاية هيئة الأمم المتحدة ، ووضع برقة تحت وصاية بريطانيا مع استمرار الإدارة الفرنسية بمنطقة فزان (الإقليم الجنوبى من ليبيا) .

وقد اقترح أثناء هذه المحادثات أن تقسّم أريتريا ، ويوضع القسم الشرقى منها تحت وصاية الحبشة ، ليكون لها منفذ على البحر الأحمر ، ويوضع القسم الغربى تحت الوصاية المشتركة للدول الثلاثة ، وتطالب إيطاليا بالوصاية على طرابلس وتؤيدها فرنسا ، وإن كانت بريطانيا لا تحبذ هذا الاقتراح الفرنسى .

ولم يبت حتى الآن فى مصير هذه المستعمرات بصفة نهائية ، وإن كانت الدول الثلاثة تعمل كل منها لصالحها فى منطقة من المناطق وتهيىء الجو لنفوذها وهضم نصيبها من التركة الإيطالية .

الباب الخامس

الولايات المتحدة

والشرق الأوسط

« إن منطقة الشرق الأوسط تمثل مشاكل جديدة وعويصة ، وتحتوى على موارد حيوية ضخمة ، وتقع على طريق من أكثر طرق المواصلات أهمية فى البر والبحر والجو ، وقد تصبح منطقة توتر بين الدول الكبرى . . . وقد ينقلب هذا التوتر إلى صراع ...!! »

الرئيس ترومان

فى خطابه فى يوم الجيش ٦ أبريل ١٩٤٦

الولايات المتحدة

والشرقين الاوسط والأدنى

« إن الأمة الحية لا يمكن أن تظل
في عزلة ، إذا أرادت أن يكون لها
مكان في السياسة العالمية »
والتر ليبمان

يقول والتر ليبمان فى كتابه « السياسة الخارجية للولايات المتحدة » : إن الأمة الحية لا يمكن أن تظل فى عزلة إذا أرادت أن يكون لها مكان فى السياسة العالمية ، فكل أمة يجب أن يكون لها سياسة خارجية مرنة ، ولن تكون سياسة محكمة إلا إذا أدخلت فى اعتبارها المطالب الخارجيـــة للدولة وقدرة الأمة على مواجهة هذه المطالب .

ومطالب الدولة الخارجية إنما تتوقف على مصالحها ، ودرجة استعداد الأمة للدخول فى المعترك الخارجى إنما تتوقف على قدر الاهتمام الذى تمنحه لمصالحها الخارجية ، والمصالح الخارجية للأمم كبرت أو صغرت لا يمكن أن ينظر إليها كحكم ثابت ، ولكنها تتغير تبعاً للظروف ، والتقلبات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية والاجتماعية ، والسياسة المرسومة لحماية هذه المصالح تصبح حينئذ عرضة للتغيير والتبديل، فحينما تنشأ مصالح جديدة ترسم لها السياسة الملائمة بحيث تتمشى مع السياسة الخارجية للأمة وتحقق أهدافها .

والولايات المتحدة لها اليوم فى الشرقين الأوسط والأدنى مصالح أوضح من أن تخفى ، ولكن السياسة الخارجية المطلوبة للمحافظة على هذه المصالح لم تتضح معالمها بعد ، لأن هذه المصالح تعتبر حديثة جدا بدرجة أنها لم تصبح بعد موضوعا لسياسة معينة ، ولكنها مع ذلك مصالح دقيقة لا تسمح بوقت كاف للتردد ، وإنما

تقتضى انتهاز الفرص وإلا ضاعت إلى الأبد ، فهل اتخذت الولايات المتحدة سياسة واضحة من هذا النوع ؟ وقبل أن نجيب على هذا السؤال يخطر بالبال سؤال آخر وهو : ما هى المصالح الحيوية للولايات المتحدة فى ذلك الأقليم ؟

ترجع أوجه نشاط الولايات المتحدة فى ذلك الأقليم إلى مطلع القرن التاسع عشر ، ومن يعرف ساحل طرابلس جيدا يذكر تلك النصب التذكارية المنتشرة عليه تخليدا لعمليات حدثت هناك عام ١٨٠٣ — ١٨٠٤ ، بين الأسطول الأميركى الناشىء وبين قرصان طرابلس ، الذين كانوا ينقضون على السفن الأميركية فى البحر الأبيض .

وقد وصلت أولى الأرساليات الأميركية إلى الشرق عام ١٨٢٠ ، ولم تحل سنة ١٨٣٤ حتى كان للارسالية مطبعة عربية فى بيروت ، وقد أثبتت تلك المطبعة فائدتها التى لا تقدر فى نشر الثقافة فى تلك المنطقة بأجمعها ، ونظرا لأن تلك الارساليات لم تتعرض للتراث القومى أو الثقافة ، وإنما حافظت عليهما ، فقد كانت لتلك الإرسالية الدينية الثقافية ثمار عظيمة ، لم تتمكن فرنسا أن تصل إلى مثلها رغم تأثيرها السياسى والحكومى ، وقد توج ذلك التقدم بافتتاح الكلية البروتستانتية السورية فى بيروت عام ١٨٦٦ وقد تطورت فأصبحت الجامعة الأميركية فيما بعد ، وقد لعب ذلك المعهد دورا جليلا فى رفع مستوى الثقافة بين العرب ، وأيقظ فيهم الشعور القومى .

وقد اتجه العرب بعد ذلك إلى أميركا حينما أعلن الرئيس ولسون مبادئه المشهورة فى حق تقرير المصير ، ويرجع فضل اكتشاف كثير من كنوز الشرق إلى الأميركيين ، الذين كشفوا الستار عن ذلك الماضى المجيد ، الذى تعتز به شعوب تلك المنطقة ، وأولها مصر والعراق ، ثم فلسطين وسوريا ولبنان .

وينبغى بعد أن تعرضنا للمصالح الثقافية الأميركية فى ذلك الأقليم قبل الحرب ، أن نشير إلى تجارة أميركا معه ، فالواردات أهمها المحاصيل الزراعية الخام ، أما الصادرات فمعظمها من السيارات والآلات الصناعية والزراعية .

وفى هذا المعترك للعلاقات الدولية فى الشرق الأوسط ، نجد أن الولايات المتحدة تحتل مرتبة ثانوية ، وخصوصا إذا قورنت ببريطانيا ، فالواقع أن صلة الولايات

المتحدة . ذا الإقليم قبل الحرب كانت لا تخرج عن الصلات الدينية والثقافية والأثرية والإنسانية ، ولم تكن المصالح التجارية تكفى لتجذب إليه انتباه الدوائر السياسية بصورة واضحة .

وترجع المصالح العملية للولايات المتحدة فى الشرقين الأوسط والأدنى إلى تاريخ اكتشاف حقول البترول الغنية فى ذلك الأقليم ، وقد نتج عن تمسك الولايات المتحدة باتفاقية سان ريمو الخاصة ببترول الموصل أن خصها ربع هذا البترول ، وقد اتسعت اختصاصات الأميركيين فى هذا الأقليم منذ عام ١٩٣٠ ، ولكن الحكومة لم تتدخل قبل ذلك التاريخ لتحصل على مركز مساو لبريطانيا ، وقد قل الناتج من البترول من الحقول الأميركية نتيجة للضغط الذى وقع عليها خلال سنى الحرب ، مما جعل بترول الشرق الأوسط أمرا بالغ الأهمية فى السياسة القومية للولايات المتحدة ، وقد بذلت محاولة فى عام ١٩٤٤ لإشراك الحكومة فى استغلال بترول المملكة العربية السعودية ، عن طريق اتفاق الحكومة على مشروع مد خط أنابيب من الحقول العربية إلى مخرج على البحر الأبيض ، ولكن هذه المحاولة لم تنجح لأسباب مختلفة ، مع أن الرغبة القومية فى تأمين مورد للبترول فى المستقبل آخذة فى الازدياد وقد عولج موضوع البترول فى مكان آخر من الكتاب .

وقد أظهرت الأحداث الأخيرة للحرب أهمية احتياطيات البترول ، كما ساعدت أيضا على إظهار عوامل أخرى نوقشت ، فوجد أن هذا الأقليم يعتبر مركزا للثقل السياسى فى العالم ، فكيف تتأثر المصالح الأميريكية بهذه العوامل تأثرا مباشرا ، إننا إذا تركنا البترول جانبا وجدنا أن لهذا الأقليم تأثيرا على المصالح الدولية نظرا لموقعه من المواصلات العالمية ، والحاجة إلى هذا الأقليم تستوى فى الحرب والسلم ، ومن الواضح أن الموقع الاستراتيجى للأقليم أهم بكثير بالنسبة لبريطانيا وروسيا منه للولايات المتحدة ، والمواصلات العالمية وخصوصا المواصلات الجوية إذا خضعت لسيطرة دولة واحدة فإنها ستفقد صفة العالمية ، وستنقلب إلى دكتاتورية عالمية خطرة وبمعنى آخر إذا كان الشرق الأوسط يعتبر مفتاحا للمواصلات العالمية ، فينبغى أن تخضع التسهيلات التى يقدمها ذلك الأقليم لأشراف دولى ، ولعل هذا السبب هو الذى يمنع الدول الكبرى من أن تنفرد إحداها بالسيطرة على المواصلات ،

وهذا الكلام ينطبق على الولايات المتحدة، كما ينطبق على كل من روسيا وبريطانيا.

وهناك مصلحة أخرى تشترك فيها الدول الكبرى كلها ،وهى مصلحة السلم والأمن الدوليين ، وواضح من العوامل الثلاثة التى تسبغ على الأقليم تلك الأهمية وهى البترول والمواصلات والموقع الجغرافى ، ان هذه المصلحة تطوى فى حناياها كل ما عداها من المصالح ، فالولايات المتحدة لا يمكن أن تسلم بحق أى دولة كبرى فى أن تقرر الحرب أو السلم بمفردها ، وكذلك بريطانيا وروسيا ، ولقد طال الصراع قديما بين بريطانيا وروسيا فى ذلك الأقليم ، ولا يزال مستمرا فى صور متعددة ، ولكن ظهور قوة ثالثة هى الولايات المتحدة منع النتيجة الطبيعية لهذا الصراع ، فلو كانت بريطانيا وروسيا وحدهما لكانت النتيجة الطبيعية هى الحرب .

ويمكن إجمال مصالح الولايات المتحدة فى حاجتها إلى البترول ، وملكيتها لكثير من خطوط الطيران العالمية ، ولها نفس المصالح التى للآخرين فى وقت السلم ولذلك فإن الولايات المتحدة غيرت نظرتها إلى مصالحها فى ذلك الأقليم لشدة أهميتها وخطورتها .

ولعل تغيير نظرة الولايات المتحدة إلى الشرق بدأت حينما اجتمع الرئيس روزفلت فجأة بملوك العرب فى فبراير ١٩٤٥ ، فى المياه الإقليمية المصرية ، وكان ذلك بمثابة أول إتصال أوحى إلى الأميركيين بأهمية تلك المنطقة بالنسبة لهم ، وقد اقتنع الأميركيون أن مصالحهم فى الشرق ليست مقتصرة على البترول فحسب ، بعد أن ألقى الرئيس ترومان خطابه المشهور فى يوم الجيش فى ٦ أبريل ١٩٤٦ .

وكان اهتمام الأميركيين بالشرق الأوسط فى الماضى على أساس ارتجالى ، وكان بجزءا ، فقد اهتموا كما أسلفنا بمسألة بترول الموصل ، وكذلك اشتركوا فى المؤتمر الأنجلواميركى عام ١٩٢٤ ، وكان خاصا بالانتداب على فلسطين ، وقد اهتموا كذلك بمشروع مد الأنابيب من الحقول العربية ، وكان اعترافهم باستقلال سوريا ولبنان مظهر إهتمام ، فالأميركيون كانوا يتصرفون حسب الظروف ، ولم تكن لهم سياسة مرسومة ينفذونها بالنسبة للأقليم كله ، لم تكن لهم سياسة شاملة مبنية على التحليل الصحيح والفهم الدقيق لمصالحهم الخاصة وبمنافسة مصالح الدول الأخرى لهم.

وقد عانت الولايات المتحدة كثيرا حينما نشأت لها مصالح فى هذا الأقليم ، لأنه

كان من الصعب على بريطانيا أن تتخلى عن بعض نفوذها لأميركا ، وقد ظل عدة قرون منتشرا فى ربوع ذلك الأقليم ، ولكن عند ما بدأ خطر التوسع الروسى يظهر وأخذت بوادره تشمل الأقليم كله ، قبلت بريطانيا أن تتقاسم النفوذ مع حليفتها وأخذت ترقب تضخم المصالح الأميركية فى الشرق بعين الرضى .

والولايات المتحدة تقاسم الدولتين الكبريين : روسيا وبريطانيا الإشراف على ذلك الأقليم ، وغير خاف أن هذه الدول الثلاثة هى التى يتعلق بهـــا مصير العالم ، والخطورة الحقيقية تكمن فى إنقسام هذه الدول الثلاثة إلى معسكرين اثنين ، والضمان الوحيد للسلم فى هذه المنطقة هو أن تحتفظ بصفتها الدولية .

الباب السادس

روسيا
والشرق الأوسط

« لا يتمالك الإنسان من الارتعاش
كلما تصور هذه الكتلة الجبارة التي
تستحيل مهاجمتها من الوراء ، ولا تمكن
مباغتتها من أحد جوانبها ، هذه الكتلة
الضخمة التي تغرقك بفيضانها إن هي
انتصرت ، أو تستدرجك بانكفائها نحو
مناطق الجليد ، إلى أحضان الموت، إن هي
منيت بالهزيمة ، وفي الحالين يمكنها العودة
إلى الميدان بسهولة تحير العقول »

نابليون

من مذكراته في سانت هيلانه

٦ نوفمبر ١٨١٦

الفصل الأول

المسألة الشرقية وحرب القرم

القسم الأول : المسألة الشرقية الحديثة (١٨٠٤ — ١٨٥١)

فى نهاية القرن الثامن عشر بدأت المسألة الشرقية تتخذ شكلا جديدا ، وقد أثرت عليها عدة عوامل أهمها :

ا — ازدياد ضعف تركيا فى القسطنطينية .

ب — نهوض عدة شعوب مسيحية صغيرة فى شبه جزيرة البلقان .

حـ — تأثير العاملين السابقين فى سياسة الدول الكبرى .

فمنذ سنة ١٧٨٨ حتى سنة ١٧٩١ أخذت كل من الروسيا والنمسا تهاجم تركيا ، فقد أخذت روسيا تتقدم حتى وصلت ميناء (أوشاكوف) على البحر الأسود بدعوى حماية المسيحيين فى الامبراطورية التركية ، بينما كانت سياسة بريطانيا فى ذلك الحين المحافظة على عظمة الإمبراطورية التركية ، والتوجس من تقدم روسيا إلى البحر الأسود ، وفى عام ١٧٩١ تحققت كل من بريطانيا والنمسا أن خطر تركيا كامن فى ضعفها لا فى قوتها .

وفى فجر القرن التاسع عشر أخذت روسيا تزحف نحو شاطىء البحر الأسود وهدفها الأساسى هو القسطنطينية ، أما النمسا فقد كان موقفها غامضاً ، فهى تنتظر اشتباك روسيا مع تركيا ، بينما أخذت بريطانيا تلاحظ تطورات الحالة من بعيد وهى مصممة على حماية مصالحها التجارية فى شرق البحر الأبيض المتوسط وحماية القسطنطينية .

وقد بدأت العراقيل بقيام بعض شعوب البلقان الصغيرة مطالبة باستقلالها عن تركيا ، وتدخل الدول الكبرى لتنظيم أو تحسين العلاقات بين هذه الشعوب وبين

تركيا ، أما رد تركيا على هذه الثورات فكان ذبح هؤلاء الثائرين ، وكلما ازداد ضعف تركيا ازدادت هذه المذابح .

ورغم أن تركيا قد تعهدت لبعض هذه الشعوب بامتيازات وبما يشبه الحكم الذاتى ، إلا أنها كانت لا تعترف بهذه التعهدات بينها وبين نفسها ، ولا توافق على انفصال أى دويلة عن امبراطوريتها ، لأن هذه التعهدات كانت نتيجة لضغط الدول الكبرى عليها .

أهم عناصر المشكلة

١ — قيام حكومة تركية فى أوربا وسوء إدارتها لملايين المسيحيين وازدياد ضعفها .

٢ — وجود عدة دول كبرى تحاول هدم الامبراطورية التركية ولاسيما روسيا .

٣ — نهوض عدة شعوب مسيحية منظمة ومثقفة تحاول أن تطرد تركيا من بلادها .

وقد نتج عن هذا الموقف أن حدثت خلال القرن التاسع عشر ثورات كثيرة ضد سلطان تركيا ، وثلاثة حروب روسية تركية ، وحربان اشتركت فيهما كل من انجلترا وفرنسا وروسيا ضد تركيا .

ثورة الصرب عام ١٨٠٤

وقد كانت الصرب أول الشعوب التى ثارت على تركيا لتحرير البلقان ، وقد بدأت الثورة عام ١٨٠٤ بقيادة « كارا جورج » أو جورج الأسود ، واستمرت المذابح بين الصرب وتركيا مدة ٨ سنوات حتى استطاعت الصرب الحصول على وعد بالحكم الذاتى ، وذلك فى المعاهدة التركية الروسية عام ١٨١٢ .

وفى سنة ١٨١٣ هزم جورج وفر من بلاده ولكن منافسه وعدوه « ميلوس ابرنوفيك » قام بقيادة الثورة مرة أخرى ، ونجح فى تحقيق استقلال الصرب ، وبعد عدة سنوات استطاع أن يضع دستورا للبلاد وأن ينادى بنفسه أميرا للصرب

ثورة اليونان عام ١٨٢٠

وفى عام ١٨٢٠ قامت اليونان بثورة ضد تركيا ، وقد أقلق ذلك الدول الكبرى واستاءت روسيا لإعدام بطريرك القسطنطينية ولمذابح اليونان ، وكان يخشى أن تقوم بينهما حرب ، أما بريطانيا والنمسا فقد اتفقتا فيما بينهما على مبدأ تسوية مشكلة اليونان بدون تدخل الدول الكبرى ، فقد وجدتا أن تدخل روسيا سيتيح لها ابتلاع كل من تركيا واليونان .

وقد استمر هذا الموقف حتى عام ١٨٢٥ حينما استنجد السلطان بمحمد على باشا والى مصر الذى أرسل بابنه ابراهيم باشا على رأس جيش منظم إلى المورة ، وقد كان لانتصاره أثر كبير مما حدا بروسيا إلى أن تعلن عزمها على التدخل لحماية اليونانيين من هذه المآسى ، وقد اعتزمت روسيا وبريطانيا الضغط على تركيا ، أما النمسا فقد وقفت موقفا محايدا ، وفى عام ١٨٢٦ وقعت كل من الروسيا وبريطانيا اتفاقا ينص على قيام هدنة بين تركيا واليونان على أن تعطى تركيا اليونان بعض الامتيازات للحكم الذاتى ، ولكن تركيا لم ترضخ لذلك الاتفاق وبقى الموقف كما هو حتى عام ١٨٢٧ ، حينما وقع الحلفاء معاهدة لاستعمال القوة ضد تركيا إن لم توافق على الهدنة ومنح اليونان الحكم الذاتى .

موقعة نافارين

وقد أدى ذلك إلى معركة نافارين فى ١٢ أغسطس عام ١٨٢٧ ، حيث دمر الأسطولان البريطانى والفرنسى أسطولى مصر وتركيا ولم تؤد تلك المأساة إلى منح اليونان الحكم الذاتى فحسب بل منحتها الاستقلال التام .

اعلان الحرب على تركيا

وفى سنة ١٨٢٨ أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، الأمر الذى حاول كاننج منعه ، وفى سنة ١٨٢٩ وصل الجيش الروسى إلى أدرنة ، وبالرغم من صغر حجمه وضعف روحه المعنوية إلا أن قائده ديبتش استطاع أن يعتبر نفسه غازيا وأملى على الأتراك معاهدة أدرنة .

معاهدة أدرنة ١٤ سبتمبر ١٨٢٩

استولت روسيا بمقتضاها على أراض تركية جعلتها تتوغل فى القوقاز، إلا أنها لم تستطع أن تستولى على شبر واحد من أوربا فبقيت حدودها مع تركيا كما هى ، أى نهر بروت شمال مولداڤيا ، إذ أن سياسة روسيا فى أوربا كانت التوغل السلمى.

وقد خشيت كل من بريطانيا وفرنسا أن تصبح اليونان تحت نفوذ روسيا ، فاقترح كل من ولنجتن وابردين تقسيمها حتى تصبح صغيرة وضعيفة بقدر المستطاع ، ولم يصادف اقتراحهما نجاحا فحصلت اليونان على استقلالها التام عام ١٨٣٢ بمساعدة كل من بالمرستون وجراى .

وكان من نتيجة إستقلال اليونان أن اتسعت حدودها فشملت أرتا ، وفولا ، ثم اعترفت كل من روسيا وتركيا وفرنسا باستقلالها .

سياسة روسيا

لم تنجح روسيا فى بسط نفوذها فى مقاطعتى مولداڤيا والشيا ، لأن الرومانيين كانوا يكرهون الروس ، أما فى الصرب فقد حاول أميرها الحاكم ميلوس ابرنوڤيك، أن يستعمل روسيا كمخالب القط فى نزاعه مع الأتراك .

وكانت سياسة روسيا بعد عام ١٨٢٩ ولمدة عشرة أعوام على نقيض سياستها السابقة فى الضغط على تركيا واغتصاب أكثر ما يمكن من أراضيها ، ففى عام ١٨٢٩ أرسل القيصر نيقولا لجنة سياسية لبحث النتائج التى تترتب على تمزيق الإمبراطورية التركية ، وقد قررت اللجنة ـ على عكس سياسة روسيا التقليدية ـ أنه من المستحسن أن تحتفظ تركيا بكيانها ، لأنه لو إنهارت تلك الإمبراطورية فإنه ستقوم على انقاضها عدة دول فى البلقان لا يمكن لروسيا أن تبسط عليها نفوذها ، علاوة على أن للروس حاليا وبموجب المعاهدات حقوق وامتيازات فى تركيا ، ونفوذ يمكن توطيده وزيادته بالتدخل السلمى وزيادة العلاقات الإقتصادية ،ولم يقابل القيصر هذا التقرير بالرضا ولكنه عمل به ، وأصبحت سياسته لمدة عشرة أعوام هى العمل على تقوية تركيا تؤيده فى ذلك النمسا ، ولكن بريطانيا كانت تعتقد أن روسيا تحاول ضم مدينة القسطنطينية واحتلال الدردنيل .

سياسة فرنسا

أما فرنسا فإنها أخذت تتجاهل تركيا من ١٨٣٠ إلى ١٨٤١ واحتلت الجزائر وشجعت محمد على على القيام ضد السلطان وذلك تحقيقا لمطامعها فى البحر الأبيض المتوسط ، وكانت تلك السياسة بعكس سياسة بريطانيا وهى المحافظة على الإمبراطورية التركية ، ولذلك فإن سياسة الدولتين كانت على الدوام متعارضة .

محمد على يهاجم تركيا

أما فى مصر فإن محمد على كان قد ساعد السلطان فى إخضاع اليونان ، وأصبح بالفعل واليا على كريت ويأمل أن يضم سوريا ودمشق لمصر ، ولكن السلطان كان يحقد عليه ويشك فى ولائه ، فأخذ يعمل بمشورة بعض مستشاريه وكانوا أعداء شخصيين لمحمد على .

وقد خشى محمد على على نفسه من الخلع ، ووجد نفسه فى خطر ففكر فى مهاجمة السلطان ، واحتلال سوريا ودمشق ، وأرسل ابنه إبراهيم معلنا حربا وقائية على السلطان .

ففى نوفمبر ١٨٣١ دخل إبراهيم فلسطين عن طريق البحر بجيش صغير ولكنه مدرب ، وسلك نفس الطريق التى سلكها اللنبى فيما بعد عام ١٩١٨ فسقطت يافا وغزة وبيت المقدس بالتتابع ، وتعطل عند عكا كنابليون ولكنه احتل المدينة فى مايو ١٨٣٢ ، ثم سقطت دمشق فى يونيو ، وحلب فى يوليو من نفس السنة ، ثم عبر جبال طوروس .

وفى ديسمبر ١٨٣٢ أرسل السلطان محمود آخر جيوشه ضد إبراهيم فانتصر عليها فى قونية ، ومن ثم أصبح السلطان تحت رحمة محمد على .

وقد توصل السلطان لبريطانيا طالبا المساعدة ولكنها لم تكن راغبة فى ذلك ، وفى الوقت الذى هزمت فيه جيوش السلطان فى قونية وصلت إلى القسطنطينية بعثة روسية ، فطلب السلطان المساعدة من عدوته روسيا فاستجاب القيصر لطلبه ، وفى ٢٠ فبراير ١٨٣٣ وصلت بعض الوحدات البحرية الروسية إلى القسطنطينية ،

وفى إبريل أنزل حوالى ٦٠٠٠ جندى على الشاطىء الأسيوى المقابل للقسطنطينية وبذلك أصبح السلطان فى أمان ، ومنذ ذلك الوقت أخذت كل من انجلترا وفرنسا تضغط على تركيا ، لتتنازل لمحمد على عن بعض هذه الممتلكات ، وكانت النتيجة أن تنازل له السلطان عن فلسطين وسوريا وحلب ودمشق وسمح له باحتلال أطنة عام ١٨٣٣ ثم انسحب إبراهيم إلى سوريا وابتدأت القوات الروسية تنسحب من آسيا ولكن السلطان قبل انسحابها وقع مع روسيا معاهدة سرية هى « هنكار اسكله سى » فى ٨ يوليو ١٨٣٣ .

معاهدة هنكار اسكله سى

تعهدت روسيا أن تقدم المساعدات العسكرية لتركيا فى مقابل قيام الأخيرة بسد الدردنيل فى وجه جميع سفن الحرب وذلك إذا طلبت روسيا ؛ ومن حسن الحظ أن هذه المعاهدة لم يعمل بها ، فلو فرض أنها نفذت لأصبحت تركيا خاضعة لنفوذ روسيا ، علاوة على أن دخول روسيا بأسطولها الحربى فى مياه الدردنيل معناه قيام الحرب بين بريطانيا وفرنسا من جانب ، والروسيا من الجانب الآخر .

خيانة السلطان لمحمد على

وكان السلطان محمود مستعدا للغدر بمحمد على كما غدر بروسيا ، فرأى أنه إذا استطاع قواده ضرب الجيش المصرى من الجنب فإن سوريا ربما تثور ضد إبراهيم ، وقد نفذ تلك الخطة فعلا ، ففى إبريل ١٨٣٩ أرسل جيشا تركيا إلى البير على نهر الفرات وعبره من اليسار إلى الشاطىء الأيمن ، وقد مكنه ذلك من ضرب خطوط مواصلات إبراهيم بين فلسطين وبين موانى اطنة .

وقد أزعج ذلك الدول الكبرى ، ووافقت على إرسال أسطول بريطانى فرنسى إلى البوسفور إذا ما دخلت روسيا تركيا .

وقد تحرك الأتراك لمهاجمة إبراهيم فى أوائل يونيو ، وقد ضربهم إبراهيم ثلاث ضربات متوالية :

١ — ففى ٢٤ يونيو قضى إبراهيم على الجيش التركى فى نصيبين ، وقبض على ١٥,٠٠٠ أسير بمدافعهم ومهماتهم .

٢ — وفى أول يوليو مات السلطان محمود وخلفه عبد المجيد، وكان لا يزال فى السادسة عشرة جاهلا بالأمور .

٣ — وبعدذلك مباشرة أبحر الأسطول التركى إلى الأسكندرية وسلم نفسه لمحمد على.

وقد ظن محمد على وهو مزهو بالنصر أن فى استطاعته أن يحتفظ بقوته وثمار انتصاراته ، ولكنه لم يقدر الموقف تماما فإن تجاهله لأوربا وتركيا كان مناسبا ، أما تحديه لبالمرستون الذى كان بمفرده قوة كامنة لها حسابها فقد غير مجرى الحوادث .

وقد اعتمد بالمرستون على عزيمته وعلى قوة بريطانيا البحرية ، وأمر بالحصار البحرى على الإسكندرية ولكن فرنسا رفضت التعاون مع بريطانيا .

مؤتمر لندن ١٨٤٠ (بالمرستون)

ولما شكت بريطانيا فى نية فرنسا لمساعدتها مصر ، وقع بالمرستون معاهدة مع كل من النمسا وبروسيا وروسيا ، وذلك فى لندن فى ١٥ يوليو ١٨٤٠ ومن شروطها :

١ — أن يصبح محمد على واليا على مصر ويخلفه ورثته من بعده .

٢ — أن يصبح محمد على واليا على عكا مدى الحياة .

٣ — إذا لم يقبل هذه الشروط فى ظرف ١٥ يوما ويخلى جميع البلاد التى فتحها ، فإن عكا ستنتزع منه .

ولكن كانت هناك صعوبتان تعترضان تنفيذ قرارات هذا المؤتمر ؛ أولاهما أن فرنسا لم تشترك فيه ، والثانية أن هذه القرارات فرضت على محمد على بالقوة ، ولكن بالمرستون بعزيمته القوية كان مستعدا لأن يواجه أكثر من ذلك ، فقد أعلنت فرنسا صراحة أن علاقتها الطيبة ببريطانيا قد توترت بعد هذا المؤتمر ، ولكن بالمرستون كان يعتقد أن فرنسا لا يمكن أن تشن حربا ضد بريطانيا ، وقد تحقق ظنه فعلا ، فما أن أتى « سولت » وتولى رئاسة الوزارة فى أكتوبر حتى أعلن أن الحرب مع بريطانيا معناها مأساة عظمى وبذلك ضمن بالمرستون حياد فرنسا .

قبول محمد على للشروط

رفض محمد على قبـــول شروط الدول الكبرى فى بادىء الأمر ، ولكن فى ١١ أغسطس ظهرت فى مياه بيروت بعض قطع الأسطولين الفرنسى والبريطانى وطلبت من الجيش المصرى إخلاء سوريا .

وفى ٩ سبتمبر ضرب الأميرال ستبفورد المدينة وأنزل قوات تركيا ، وفى ٩ أكتوبر سقطت بيروت ، وفى هذا الوقت ثارت سوريا بأجمعها وتحرك الأسطول البريطانى إلى عكا ، فاستولى عليها ستبفورد فى ساعات ثلاثة .

وقد قرر إبراهيم الانسحاب وإخلاء سوريا بعد أن قدر أهمية القوة البحرية ، وخطورتها على مواصلاته ، وعندئذ تشجع السلطان عبد المجيد وأمر بخلع محمد على ، الذى قابل هذا النبأ بهدوء ، إذ كان الرابع من نوعه ، ولكن ظهور الأميرال نابيير بأسطوله فى الإسكندرية أجبر محمد على على السكوت .

وفى ٢٥ نوفمبر وقع محمد على تعهدا بأن يخلى سوريا ، إذا ضمنت له الدول أن يصبح هو وخلفه ولاة لمصر بالوراثة ، وقد وافقت تركيا والدول الكبرى على ذلك وخصوصاً فرنسا .

مؤتمر الدردنيل ١٨٤١

وقد تمت انتصارات بالمرستون بتوقيع قرارات مؤتمر الدردنيل فى ١٣ يوليو ١٨٤١ من الدول الكبرى ، فقد تعاهدت هذه الدول مع السلطان على ألا تسمح تركيا بدخول أى أسطول حربى أجنبى مياه الدردنيل والبوسفور .

أما روسيا فكانت تعتقد باستمرار سريان معاهدة هنكار اسكلة سى ، ولكن القيصر كان مخطئا فى تقديره ، فقد أجبرت تركيا على هذه المعاهدة وهى فى خطر .

وقد حاولت روسيا أن تتفاهم مع بريطانيا وتتقرب إليها ، فدارت محادثات بين القيصر ولورد أبردين عام ١٨٤٤ ، وأظهرت روسيا فيها وجهة نظرها ، وهى أن تركيا كالرجل المريض آخذة فى الانحلال ، وأنها ترى أن تستولى على القسطنطينية

وتترك لبريطانيا كريت أو مصر ، حسبما تشاء ، ولكن وقوع حرب القرم أوقف تلك المحادثات .

وكانت آراء القيصر حكيمة ودلّ على أنه سياسى بارع ، فقد تحققت مقترحاته عام ١٩١٥ ، ووافق السير ادورد جراى على أن تأخذ روسيا القسطنطينية ، وكان هذا لسبب ظاهر ، فقد أصبحت مصر محمية بريطانية ، وقبرص من ممتلكات التاج وأصبح الطريق إلى الهند فى يد بريطانيا .

القسم الثانى : حرب القرم

شغلت حرب القرم حيزا ملحوظا من تاريخ أوربا فى القرن التاسع عشر ، وقد كانت آخر الحروب التى نشبت قبل إستعمال مبتكرات العلم الحديث .

أسباب الحرب

لهذه الحرب كأية حرب أخرى أسباب عديدة متفرعة أهمها :

١ — الحالة فى شبه جزيرة البلقان . كان نفوذ تركيا يشمل جميع أنحاء شبه الجزيرة فيما عدا اليونان ، ولم يكن حكم الأتراك قاسيـــا إلا حين تتحداهم إحدى الدويلات ، وكان مظهر ذلك النفوذ حامية احتلال تحفظ النظام ، وتجبى الضرائب ، وقد تركوا لرعاياهم حرية اختيارهم لطريقة حياتهم الإجتماعية ، وحرية عقيدتهم الدينية .

ولكن تركيا كانت آخذة فى الضعف ، متخلفة عن ركب الحضارة ، ولم تتأثر بتقدم العلوم والصناعات الذى أثر فى دول أوربا تأثيرا محسوسا ، وكلما أخذت تركيا فى الضعف ، أخذ القلق يزداد بين رعاياها فى البلقان ، وقد ثارت اليونان فعلا ، وحصلت على استقلالها بالقوة ، وكان الشعب فى مقاطعتى موارقيا ووالشيا — التى أصبحت بعد انضمامها إلى بعضها فيما بعد رومانيا — يتمتع بما يشبه الحكم الذاتى ، بناء على معاهدات حربية ، ولكن أهلها كانوا يطمعون فى المزيد .

أما فى الصرب فلم يقنع الصربيون بما حصلوا عليه وما زال أهل الجبل الأسود محتفظين باستقلالهم ومعتصمين بجبالهم المنيعة .

أما البلغاريون والألبانيون والمقدونيون ، فلا يزالون يفكرون فى الانفصال عن تركيا ، ولكن وجود مشاغبات فى أراضيهم جعلهم فى خلاف دائم مع حكامهم.

٢ — مطالب روسيا الدينية . وقد كان للدين أثر فعال ، فرغم أن عدد المسلمين المندمجين فى شعوب البلقان كبير ، إلا أن الغالبية كانت من الأرثوذكس ، وروسيا زعيمة الكنيسة الأرثوذكسية ، وقد كانت للدين فى البلقان قوة السياسة ، وكانت الحالة فى البلقان فى اضطراب مستمر ، وكانت الثورة متوقعة بين حين وآخر .

وكانت الدول الكبرى شمال الدانوب تراقب الحالة فى حذر وقلق .

ولم تكن النمسا تخشى قوة تركيا بقدر ما كانت تخشى القوة التى ستحل محل تركيا فى البلقان ، ولم تكن طامعة فى امتلاك أرض ، ولكنها كانت راغبة فى بسط نفوذها فقط ، ولذلك فإنها تخشى مطامع روسيا ومطالبها فى البلقان ، فروسيا تعتبر أكبر دولة سلافية ، ومعظم شعوب البلقان تتكلم السلافية ، ورغم أن البلغار ليسوا سلافيين كلهم إلا أنهم يتكلمونها أيضا . وذلك علاوة على حق روسيا فى التدخل الدينى فى عضوية الكنيسة الأرثوذكسية .

معاهدة كتشك كينارجى ١٧٧٤

سمحت تركيا لروسيا بموجب هذه المعاهدة ببناء كنيسة فى غلطة ، وهى جزء من القسطنطينية ، وأن تكون هذه الكنيسة تحت حماية روسيا دائما ، وتعهدت تركيا أيضا بحماية هذه الكنيسة وحماية المسيحيين فى ممتلكاتها ، وبأن تسمح للسفير الروسى بأن يرسل ممثلين له فى الكنيسة فى غلطة .

وبموجب هذه المعاهدة أصبح للروسيا حق التدخل لحماية الجماعات المسيحية فى البلقان .

مقترحات القيصر

وقد وجد القيصر نيقولا أن واجبه المقدس يحتم عليه أن يحمى أولئك الذين يعتنقون دينه ، ويتكلمون لغته ، ففى يناير ١٨٥٣ دخل فى محادثات مع السفير البريطانى ، وكانت للقيصر صلة صداقة برئيس وزراء بريطانيا لورد ابردين .

وفى هذه المحادثات عبر القيصر عن وجهة نظره ، وهى أن تركيا ذلك الرجل

المريض الذى يدب إلى الفناء ، يجب أن يسلم أنفاسه على يدى بريطانيا والروسيا ، وأن تسوى المشاكل بدون حرب ، واقترح أن تمنح دول البلقان استقلالها ، وتبقى تحت حماية روسيا ، وأن تحتل روسيا القسطنطينية ، فى نظير إطلاق يد بريطانيا فى مصر ، ومعنى ذلك أن الممتلكات التركية ستقسم بينهما دون أن تحصل فرنسا على نصيبها .

ولكن نظرا لأن سياسة بريطانيا التقليدية كانت فى ذلك الحين المحافظة على قوة تركيا وعظمتها ، فإن هذه المحادثات أحدثت هزة عنيفة فى العلاقات بين بريطانيا وروسيا .

٣ — مشكلة الأراضى المقدسة . وقد نشأت هذه المشكلة عن نظام إدارة مناسك الحج المقدسة فى بيت المقدس ، ولا سيما كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، وكانت تركيا تحافظ على النظام ، وتسوى بين مطالب اللاتينيين أو الروم الكاثوليك ، وبين منافسيهم الأرثوذكس أو اليونان والروس المسيحيين .

وقد كان لفرنسا حقوق تقليدية فى حماية المسيحيين فى الشرق ، ويرجع ذلك إلى الحق التقليدى المكتسب من أيام الحروب الصليبية ، ولكن نظرا لتطور قوة روسيا ، فإنها أخذت تنادى بطلب هذا الحق ، وقد ازدادت المنافسة ، وازداد الرأى العام استياء ، عندما طالب الروس بمفاتيح كنيسة بيت لحم ، وقد ازداد الموقف توترا عند ما أرسل القيصر بالبرنس منشكوف إلى القسطنطينية ، لا للمطالبة بهذه الأمور فحسب ، بل للاعتراف بحق روسيا فى حماية المسيحيين بالبلقان .

وقد اقنعت بريطانيا تركيا بالتنازل لروسيا عن مطالبها فى الأماكن المقدسة ، ولكنها شددت عليها بعدم الاعتراف لروسيا بحق حماية المسيحيين بالبلقان ، لأنها كانت تخشى بسط النفوذ الروسى على هذه الدويلات ، وقد عاد منشكوف إلى روسيا بعد معارضة إنجلترا فى الأمر .

وبانسحاب منشكوف من القسطنطينية ازدادت الحالة سوءا ، ولا سيما بعد أن عبر الجيش الروسى نهر بروت فى يوليو ١٨٥٣ ، واحتل مولداقيا ووالشيا ، ولا يعد هذا العمل الذى قامت به روسيا عملا حربيا ، إذ كان لها امتيازات كبيرة فى هاتين المقاطعتين ، وقد حاولت الديبلوماسية منع الأعمال العدائية ، وأخذت النمسا ترقب مجرى الحوادث باستمرار وبانتباه شديد ، حيث أن تلك الأحداث كانت تجرى

على حدودها ، وعلى أرض للنمسا فيها مطالب ومطامع ، وقد دعت إلى عقد مؤتمر في ڤينا لبحث مسألة حماية المسيحيين بالبلقان ، بدون تدخل روسيا ، وكان هناك أمل فى المحافظة على السلم فى ذلك الحين، ولكن تركيا رفضت التصريح بشكله البسيط ووافقت عليه الروسيا بعد أن فسرته ، وكيفته تكييفا خطرا ، وأخذت العلاقات تزداد توترا بين الدولتين حتى أعلنت تركيا الحرب على روسيا فى ٤ أكتوبر ١٨٥٣ .

تدخل دول أوربا

أما من ناحية دول أوربا ، فإنها سوف لا تسمح بتقصير أمد الحرب بين روسيا وتركيا فقط ، فالنمسا أخذت تراقب مجرى الحوادث باحثة عن الوقت المناسب لتدخلها ، ولكنها لم تتدخل .

أما بروسيا فقد فقدت ثقتها بنفسها ، بعد هزائمها المتوالية فى مدة الانقلاب وكان من رأى بعض ساستها ، ومنهم بسمارك ، أن الفرصة سانحة لأن تلعب بروسيا دورا هاما ولكن ملك بروسيا لم يكن من عشاق المخاطر ، وعليه فإن تأثيرها على الحرب لم يكن محسوسا .

وأما بريطانيا فإن سياستها التقليدية كانت مساعدة تركيا ، والحقد على روسيا وكراهيتها ، إذ أن انتشار نفوذ الروس فى البحر الأبيض المتوسط سوف يهدد انجلترا فى مصر ، وكذلك الطريق إلى الهند . أما فرنسا فإن أمبراطورها نابليون الثالث قد أعلن سياسته بصراحة وهى «السلم لقيام الأمبراطورية»، ولكنه دخل الحرب مدفوعا بعدة عوامل منها :

١ — رغبته فى الاحتفاظ بمركز فرنسا فى الشرق .

٢ — اعتماده على الكاثوليك والهيئات الدينية فى فرنسا .

٣ — رغبته فى أن يظهر بالنسبة لفرنسا كإمبراطور عظيم يحمل لها النصر .

وفى نهاية اكتوبر سنة ١٨٥٣ دخل الأسطول البريطانى الفرنسى إلى الدردنيل لمساعدة تركيا ، وبينما كان ذلك الأسطول بالقرب من القسطنطينية ، دمر الأسطول الروسى جزءا من الأسطول التركى بالقرب من سينوب ، وقد اعتبرت كل من انجلترا

وفرنسا هذا العمل تحديا واهانة لها ، فما كان منهما إلا أن اعلنتا الحرب على روسيا فى مارس عام ١٨٥٤ .

حصار سلسترا

كان الروس لا يزالون موجودين بمقاطعتى مولداڤيا ووالشيا ، وكان هم الحلفاء الأول هو طردهم منها ، وكان الروس قد ضربوا الحصار على سلسترا ، وقد ظنوا أنهم يمكنهم المرور منها إلى البلقان ، ثم التقدم إلى القسطنطينية ، ولكن دفاع المدينة كان قويا ، فرفعت روسيا الحصار عنها وانسحبت من المقاطعات ، فأرسلت النمسا حامية لإدارتها حتى انتهاء الحرب .

وبعد أن دارت عدة محادثات بين الدول الكبرى والنمسا ، صار الاتفاق على أربعة نقط تلخص برنامج الحرب وهى :

١ — إلغاء الحماية الروسية على ولايات الدانوب .
٢ — حرية الملاحة فى الدانوب .
٣ — مساواة تركيا بدول أوربا .
٤ — إعلان روسيا بعدم أحقيتها فى حماية المسيحيين بالبلقان .

حصار سيباستبول

صمم الحلفاء على مهاجمة سيباستبول مأوى الأسطول الروسى ، فنى سبتمبر عام ١٨٥٤ أنزل الحلفاء (تركيا وفرنسا وبريطانيا) قواتهم عند أوباتوريا شمالى سيباستبول ، وبدأت القوات فى الزحف نحو المدينة نفسها ، وفى ٢٠ سبتمبر التقوا بالقائد الروسى منشكوف فى الجانب الشمالى من نهر آلما ، وبعد قتال عنيف بين الجيشين الفرنسى والبريطانى والقوات الروسية هزمت الأخيرة ، وأصبح الطريق مفتوحا إلى سيباستبول .

وقد أخطأ الحلفاء خطأ كبيرا حينذاك ، فبدلا من مهاجمة المدينة توا ، وقد كانت فى حالة لاتسمح لها بالمقاومة ، وبدلا من ضرب حصار فى الناحية الشمالية من النهر ، حيث تقع المدينة ، سلكت قوات الحلفاء طريقا طويلا صعبا إلى جنوب المدينة ، وانشأت لها معسكرا هناك حتى سبتمبر عام ١٨٥٥ ، وقد انتفع القائد الروسى بهذه المدة (من سبتمبر ٥٤ إلى سبتمبر ٥٥) ، فى تدمير تحصينات محاصريه عند الخليج .

بعض مميزات الحصار

١ — لم يكن عمل الحلفاء حصارا بالمعنى المفروض . إذ أنه لم تعمل أية محاولة لقطع المواصلات بين المدينة وبقية الروسيا ، فرغم أن الإمدادات الروسية كانت تهاجم أحيانا ، إلا أنها كانت تصل فى النهاية إلى سيباستبول ، بعد أن تقطع رحلة طويلة من روسيا ، وكان منشكوف يقود جيشا مدربا فى الجبال شرقى المدينة ، فكان بذلك يهدد قوات الحلفاء التى تحاصرها ، وقد سبب فعلا خسائر جسيمة لهذه القوات فى أوقات متفرقة .

٢ — كانت خطة الحلفاء لاحتلال سيباستبول ، لا بمحاصرتها حتى تسلم جوعا ، ولكن بضربها والهجوم المباشر عليها ، وكان أساس هذه العملية هو قوة الحلفاء البحرية ، ولكن عملها كان ضعيفا فلم تتمكن من إحداث خسائر بالأسطول الروسى فى بحر البلطيق ولا فى البحر الأسود .

وكان الأسطول الروسى أيضا عند مدخل سيباستبول ، فلم يتمكن أسطول الحلفاء من الدخول ، ولذلك لم تصل مرامى مدافعهم إلى المدينة .

الصعوبات التى قابلت الحلفاء فى قتالهم عند سيباستبول

١ — لم يظهر بين قواد الحلفاء قائد عبقرى ، فقد قاد اللورد راجلان القوات البريطانية حتى توفى فى يوليو عام ١٨٥٥ ، وكان قد اشترك فى معركة ووترلو ، ولكنه لم تكن لديه خبرة بالمعارك الحديثة ، ثم خلفه فى القيادة الجنرال سمبسون فلم يكتسب سمعة طيبة كسلفه ، وقد ازداد الموقف سوءا وتعقدا عندما نشأت مشكلة توحيد القيادة بين الفرنسيين والبريطانيين ، واختلاف وجهات نظرهما.

وعلى العموم فلم يظهر قواد الحلفاء أى نوع من العبقرية أو الابتكار ، بعكس القائد الروسى تودلبين الذى كان فى الأصل مهندسا ، ثم أصبح قائدا ذا عبقرية وعزيمة .

٢ — ظهور الكوليرا بشكل مرعب ، ومهاجمتها سيباستبول ، وازدياد حالات الوفيات ، مما سبب نقص عدد القوات إلى درجة خطيرة ، وأضعف الروح المعنوية

٣ — حلول الشتاء الروسى القاسى ، ولم يكن الحلفاء قد فكروا فى عمل ترتيب لاستقباله ، أو احتاطوا له .

وقد أثرت هذه العوامل ، من وباء ،وحياة خنادق فى درجة التجمد ، وخيام بالية ، فى الروح المعنوية للجنود ، ومع أن هذه الصعوبات قد أثرت بدورها فى الروس ، إلا أن عزائمهم القوية قد جعلتهم ينالون إعجاب عدوهم ، وقد استمر القتال بطيئا بعكس ما كان متوقعا ، فأخذ الحلفاء فى ضرب سيباستبول بين ١٧ و ١٣٠ كتوبر عام ١٨٥٤ ، ولكن دفاع الروس لم يتأثر . فتأكد الحلفاء أنهم باقون حتى الشتاء ، وفى أثناء الشتاء نشطت الدبلوماسية ، وكانت الرغبة كبيرة فى إرسال قوات جديدة إلى الحلفاء فى الميدان .

ثم عقد فى نهاية هذا النشاط الدبلوماسى والمحادثات ، مؤتمر فى ڤينا انتهى فى مايو ١٨٥٤ ، وكان قيصر روسيا قد توفى أثناء الحصار وخلفه اسكندر الثانى ، الذى أرسل ممثلا إلى ذلك المؤتمر ، وقد وافقت روسيا على النقط الأربعة التى قررها مؤتمر ڤينا كما سبق ذكره كأساس للمفاوضات ، وقد رأت النمسا أن ذلك كاف من ناحية روسيا ، ولم تدخل الحرب ، بينما صممت كل من فرنسا وتركيا وبريطانيا على مواصلة القتال ، وقد وجدوا لهم حليفا جديدا فى مملكة سردينيا ، فقد كان كافور رئيسا للوزراء فى ذلك الحين ، ولم يكن لإيطاليا أية مصلحة فى دخول الحرب ، ولكن كافور كان ينظر إلى الحرب بمنظار آخر ، فقد كان شديد الرغبة فى أن يرى ملك سردينيا ملكا لولايات إيطاليا المتحدة ، وإرساله بقواته إلى القرم يحقق مطلب المساواة بالدول الكبرى ، وكان كذلك يطمع فى مساعدة فرنسا لإيطاليا فى اتحادها ، علاوة على اكتساب حق إرسال مندوبين فى مؤتمر الصلح بعد انتهاء الحرب ، ولذا فقد أرسلت سردينيا ١٥٫٠٠٠ مقاتل إلى القرم .

وبعد انتهاء الشتاء تجدد الهجوم على الحصون ، وحصل الحلفاء على بعض النجاح ، إلا أن الهجوم المشترك الذى رتب ليكون فى العيد المئوى لمعركة ووترلو قد فشل فشلا ذريعا ، وقد اخرت الهجوم الأخير وفاة اللورد راجلان ، وهجوم الروس على خطوط الحلفاء فى معركة كرنايا ، ففى ٥ سبتمبر قام الحلفاء بضرب الحصون ضربا شديدا لمدة ثلاثة أيام ، ثم بدأ الهجوم فى ٨ أكتوبر ، وقد فشل

البريطانيون فى هجومهم على حصن ريدان ، ولكن الفرنسيين نجحوا فى احتلال مالاكوف ، التى تسيطر على المدينة ، فانسحبت القوات الروسية من المدينة واتصلت بقوات منشكوف ، ثم دخلت قوات الحلفاء فاحتلت الحصون والميناء ، وغنمت عددا وفيرا من المدافع ، ووجدت كثيرا من المستشفيات التى تعج بالجرحى والمرضى من الروس ، وقد تعذر على الحلفاء اخلاؤهم حتى ٨ سبتمبر ١٨٥٥ .

ولم يضع سقوط سيباستبول حدا للحرب ، فقد حصل الروس على نجاح جزئى عندما احتلوا حصن القرص فى آسيا الصغرى ، ولكن خسائرهم واضطرابهم المالى جعلهم يرغبون فى السلم ، علاوة على رغبة القيصر فى إنهاء الحرب ، فبعد عدة مفاوضات كانت النمسا فيها الوسيط ، دعى إلى عقد مؤتمر فى باريس .

معاهدة باريس ١٨٥٦

كانت العلاقات بين بريطانيا وفرنسا ليست على ما يرام ، لاختلافهما على قيادة العمليات ، ونقد كل منهما لسياسة الأخرى ، ولكن لم يحدث بينهما شىء خطير ، ففى مؤتمر باريس كان شعور امبراطور فرنسا نحو حليفته بريطانيا فاترا ، بعكس حماسته وعطفه على عدوه القديم روسيا .

وكان من نتيجة هذه المعاهدة إعلان القانون البحرى ، الذى كانت بريطانيا تحاربه ، وألغت هذه المعاهدة الامتيازات البحرية ، وأصبحت معدات العدو المحملة فى سفن محايدة لا يمكن الاستيلاء عليها ، وكان من أهم نصوص المعاهدة النص الخاص بمستقبل تركيا ، والذى أوقف تقدم روسيا فى الأراضى التركية ، وأصبح البحر الأسود محايدا ، لا يمكن أن يرفع به أى علم حربى ، أو تنشأ به منشآت حربية أو بحرية ، كما أن الدردنيل أصبح مغلقا فى وجه أى قطعة بحرية .

وقد ضمنت هذه المعاهدة أيضا استقلال تركيا ، فلم يعد لأى قوة حق التدخل بين السلطان ورعاياه ، وضمنت كذلك امتيازات مولداڤيا ووالشيا والصرب ، تحت السيادة التركية ، وبذلك انتهت الحرب ونجت تركيا من خطر انحلالها وتدميرها .

فشل تركيا فى اصلاحاتها

لم تكن تركيا تعتقد أن إدخال بعض الإصلاحات ضرورى لبقائها ، وكانت المساواة

بين الرعايا من جميع الأديان هي سياستها المأخوذة عن الدين الإسلامي ، وقد تعهدت تركيا بالمساواة في الخدمة العسكرية بين جميع الرعايا ، ولكن معظم المسيحيين كانوا يكرهون الخدمة العسكرية ، ويفضلون دفع البدل ، وكان الأتراك يفضلون أموالهم على تأديتهم الخدمة العسكرية .

وفى سنة ١٨٦١ جلس السلطان عبد العزيز على عرش تركيا ، ووعد بعدة اصلاحات ، منها تقليل نفقات المعيشة ، والقضاء على الفوضى ، والقضاء على تعدد الزوجات ، ولكن سرايه كانت تعج بحوالى ٩٠٠ زوجة تكلف الدولة مالا طاقة لها به .

التطور فى اليونان

تمتعت اليونان بالاستقلال عشرين عاما ، ولكنها لا تزال طموحة ، فأراضيها لا تزال صغيرة الرقعة ، وحدودها غير مأمونة ، وذلك بالإضافة إلى حماسة أهلها ورغبتهم فى استعادة سالف مجدهم .

وقد كان الملك أوتو مخلصا لبلاده ، ولكنه لم ينجح فى كسب صداقة الشعوب وعطفها ، ففى خلال حرب القرم كان شعور اليونان مع الروس أكثر من الحلفاء .

وفى ١٨٦٢ قامت ثورة اليونان ، ووجد أوتو أن من المصلحة أن يتخلى عن عرشه لجورج ، وكان من أصل دانوبى ، ورحبت بريطانيا باعتلائه العرش فى اليونان ، وأهدت إليه بهذه المناسبة الجزر الأيونية ، وقد قابل الملك الجديد عدة صعوبات ، فالجيش فى فوضى ، والحالة السياسية فى البلاد غير مستقرة .

استقلال الصرب

أما فى الشمال الغربى من شبه الجزيرة ، فقد حاول الأهالى الحصول على استقلالهم التام ، فالصرب ضمنت لها معاهدة باريس حكما ذاتيا ، تحت سيادة السلطان ، ولكن لما كانت لا تزال هناك حاميات تركية فى حصون بلغراد وغيرها من البلاد . فقد صمم الصربيون على الحصول على استقلال تام ، مستمدين العون من عزيمتهم وقوتهم ، ففى أثناء حرب القرم كان يحكم الصرب اسكندر كار جورج ، وقد فشل

فى إدخال الحريات الدستورية إلى وطنه ، فتخلى عن الإمارة لخلفه ميلوس ابر نوفيك الذى أعلن استقلاله عن السلطان ، وجعل الملك وراثيا فى أسرته ، فلما توفى ١٨٦٠ خلفه ابنه ميشيل الذى قام بالإصلاحات التالية :

١ — نظم الحكومة والجيش وجعل الصرب تظهر كدولة أوربية محترمة .

٢ — اهتم بالزراعة والتعليم ونقحت اللغة فى عهده .

٣ — جمعت الوثائق التاريخية فأصبحت مفخرة للشعب الصربى .

ولكن أهالى الصرب كانوا يلتمسون الاستقلال بانسحاب الترك ، وقد ساعدت الظروف الصرب ، فقد قتل الجنود الأتراك بعض الصربيين ، وضربت مدينة بلغراد ، فتدخلت الدول الكبرى ؛ وسحبت جميع القوات التركية من الصرب ، ولم يعد لتركيا من مظاهر السلطان فى الصرب إلا رفع العلم التركى بجوار الصربى على دور الحكومة فى بلغراد ، وقد اعتقد البعض من السياسيين أن الروسيا والنمسا ربما تخلفان تركيا فى الصرب ، ولكن الصربيين لم يكونوا ليرضوا بسيادة أخرى .

الجبل الأسود

كان يسكن الجبل الأسود شعب من الجنس الصربى ، وقد صمت حيال هذا الاضطراب وحافظ على استقلاله ، رغم عدم اعتراف تركيا به ، فقد هزمت تركيا فى جبالها ولكن هذا الشعب كان معرضا دائما لغزو المغتصب .

وكان ميشيل ملك الصرب يأمل فى ضم الصرب والجبل الأسود تحت تاج واحد ، ولكنه اغتيل ١٨٦٨ ، وقد كان ميشيل طموحا وقد تحققت خططه فيما بعد ، فتكون اتحاد البلقان للعمل ضد تركيا .

اتحاد رومانيا

كان نفوذ تركيا فى مقاطعتى مولداڤيا ووالشيا أضعف من نفوذها فى الصرب والجبل الأسود ، وقد انتقلت الحماية من تركيا إلى الدول الكبرى مجتمعة ، بموجب معاهدة باريس ، وكان رأى الساسة أن تبقى المقاطعتان منفصلتين ، حتى لا تتحدى

سيادة تركيا ، ولكن وطنية أهلها وروحهم العالية غيرا من مجرى الحوادث ، رغم اختلافهم فى التكوين وطريقة الحياة .

وبموجب معاهدة باريس تقرر أن تبقى المقاطعتان منفصلتين ، كل بدستورها ، وكان السلطان قد رفض اتحادهما معا باسم رومانيا ، ولكن الرومانيين نفذوا رغبتهم رغم أنف تركيا وأوربا ، فاختارت كل مقاطعة زعيما لها ، وقد انتخبا نبيلا من مولدافيا اتخذ لقب اسكندر الأول ، وأصبح أميرا لرومانيا ، فأعلن ميلاد الدولة الرومانية ، وانضم برلمانا المقاطعتين معا ، وكان أمام أوربا من المشاكل ما يشغلها ، ولذلك قبلت الوضع ، وأصبحت بوخارست عاصمة رومانيا .

اصلاحات اسكندر الأول

١ — نقل نظام الغرب الاجتماعى وخصوصا عن فرنسا وكانت سياسته وأساليبه مماثلة لسياسة نابليون الثالث .

٢ — وجد جزءا كبيرا من أراضى رومانيا فى أيدى رجال الكنيسة فحولها جميعا إلى الأعمال الدنيوية ، وقد منح رومانيا فى ذاك الوقت درجة كبيرة من الاستقلال الدينى .

٣ — ثم جاء دور مشكلة ملاك الأراضى ، وقد عارض البرلمان فى مقترحاته ، فطرد جميع أعضائه ، وخير الشعب بينه وبين البرلمان ، فأيدته أغلبية ٦٨٢,٠٠٠ ضد ٩٠٠٠ .

٤ — جعل التعليم إجباريا بالمجان .

الفصل الثانى

روسيا والمسألة الشرقية

١٨٥٦ - ١٨٨٦

سياسة روسيا الخارجية

كانت سياسة روسيا الخارجية فى نهاية القرن التاسع عشر ، متركزة تحت فكرة بارعة ، ففى آسيا كان توسعها يتلخص فى ضم الممتلكات ، والطموح العسكرى والاغتصاب ، أما فى أوربا فكانت سياستها هى التقدم المضطرد نحو القسطنطينية مستخفية تحت ستار الوطنية وحماسة الجيش .

وكان هذا الستار هو اتخاذ روسيا شعار السلافية ، الذى جعلها دولة عظيمة ، وقد أخفت طموحها ومطامعها تحت ستار هذا الشعار ، وقد مكنها اتخاذه من جمع شمل كل سلافى خارج نطاق ممتلكاتها ، تحت لواء واحد هو لواؤها .

وكان أول من استخدم هذا الشعار حكومة روسيا أيام اسكندر الثانى .

السلافية

ولم تظهر السلافية فى روسيا فحسب ، بل فى الإمبراطورية الهنغارية أيضاً ، ففيها سبعة أجناس من أصل سلافى ، وكانت لدى هذه الشعوب فرصة التعلم وتنوير عقولهم ، وربما لم تتوفر هذه الفرصة لروسيا نفسها ، وكانت جميع هذه الشعوب السلافية تحلم أن ترى نفسها يدا واحدة ، وروحا واحدة ، وكانت لا تزال متفرقة مشطورة وكان للشعراء بشعرهم الحماسى أكبر الأثر على عقول هذه الشعوب .

وفى سنة ١٨٤٨ عقد فى براغ مؤتمر من جميع الشعوب السلافية ، وحضره ممثلون عن كل منها .

وقد كان العام الثانى من الأعوام التى لا تنسى ، إذ أنه عندما اتحدت كرواتيا الكاثوليكية ، مع الصرب الأرثوذكسية تحت رأية النمسا لمهاجمة المجر وأرسل

القيصر نيقولا قوات روسية ضد النمسا ، اعتبرت الشعوب السلافية ، أن روسيا هى زعيمة السلافية ، وقربها ذلك إليها ماعدا بولندا . وقد دخلت روسيا حرب القرم فى تلك الآونة حيث هزمت .

وحتى ذلك التاريخ كانت روسيا تتجاهل فكرة السلافية ، إلى أن هزمت فى حرب القرم ، فوجد اسكندر الثانى — بعد ضغط فرنسا وانجلترا عليه — أنه بهـــذه الدعاية يمكنه أن يجعل من الشعوب السلافية فى البلقان توابع تدور فى فلك الروسيا .

ففى ١٨٥٨ هزمت الجبل الأسود تركيا عند جراهوفو ، وكان شعور شعبها طيبا نحو الروس ، ولكن استقلالها كان مهددا من الأتراك فى السنين التالية ، فقدمت إليها الروسيا يد المعونة .

ورغم أن رومانيا لم تكن دولة سلافية ، إلا أن روسيا ساعدتها على الاتحاد عام ١٨٦١ ، وفى ١٨٦٧ تدخلت روسيا لإجلاء الحامية التركية عن بلغراد ، وبعض الحصون الصربية الكبرى ، وبذلك وثقت من ارتباطها المتين مع الصرب ، وقد فشلت روسيا فى كسب بولندا التى ثارت ضدها عام ١٨٦٣ .

وفى ١٨٦٧ عقد اجتماع فى سانت بطرسبورج ، حضره مندوبون عن جميع الشعوب الســـلافية ، حيث خاطب القيصر بنفسه من حضروا الاجتماع قائلا « إخوانى السلاف » .

وفى ١٨٧١ تنكرت روسيا لبنود معاهدة ١٨٥٦ الخاصة بالبحر الأسود ، وأعلنت أنها لن تقتصر فقط على استعادة سيباستبول ، الحصن الحصين لجنوب روسيا بل ستعيد إنشاء البحرية الروسية على بحر قزوين .

زعامة بلغاريا الدينية

وقد تميز عام ١٨٧٠ بخطوة هامة بالنسبة لروسيا . فقد كان مسيحيو البلقان السلافيون كالصرب والبلغار ، حتى ذلك العـــام تحت الزعامة الدينية لبطريرك القسطنطينية ، وكان الدين فى هذه الفترة هو المحرك للسياسة فى الشرق ، وقد وجد

ساسة الروسيا أن فى مكنتهم تقوية العنصر السلافى فى الإمبراطورية التركية ، إذا تمكنوا من تنصيب بطريرك سلافى ، يحرر السلافيين من زعامة اليونان والبطريركية اليونانية ، وقد وجدت روسيا مرادها فى بلغاريا ، فقد كان يسكن مقدونيا يونانيون وصرب وبلغار ، وكان البلغار أكثرهم عددا ، ولذا طالبت إنشاء كنيسة سلافية وتنصيب زعيم دينى لها ، فأصدر السلطان فى ١٠ مارس ١٨٧٠ فرمانا يعترف فيه بالسلافيين ، كشعب دينى قائم بذاته ، له زعيم دينى مستقل عن البطريركية اليونانية بالقسطنطينية ويعرف بالأكسرخس .

وقد خيل لروسيا أنها كسبت الكثير من وراء ذلك العمل ، ولكن الواقع أن تركيا هى التى أظهرت حكمتها بقبولها هذا الطلب ، إذ كان شعارها « فرّق تسُد » ، وكانت رغبتها الأكيدة هى التفرقة بين اليونان والسلاف فى مقدونيا .

ولم تمض فترة قصيرة إلا وقد دب الخلاف بين بطريرك اليونان وأتباعه ، ورئيس الكنيسة السلافية البلغارية وأتباعه ، فأخذت تركيا تفرك يديها سرورا بأن ترى البلغاريين مختلفين ، وأخذت تغذى هذا الخلاف بوسائلها المختلفة ، وبالإضافة إلى ذلك فإن هذه التى أقامت مانعا سلافيا قويا ضد نفوذ اليونان ، لم تقتصر على ذلك فحسب ، ولكنها فرقت بين السلاف أنفسهم ، فقد كان أتباع الكنيسة السلافية بين صربيين وبلغاريين ، وكان الصرب يكرهون بطريرك اليونان بقدر كراهيتهم لزعامة بلغاريا الدينية ، ولذلك كانت هذه السياسة مدعاة انقسام ، لا بين البلغار واليونان فحسب ، بل بين الشعوب السلافية نفسها ، مما جعل روسيا تواجه صعوبات عديدة فى سياستها الخارجية نحو البلقان ، ولكن هذه الصعوبات سرعان ما تلاشت ، إذ كانت قوة الصرب فى مقدونيا ضعيفة جدا إذا ما قيست إلى قوة بلغاريا .

ثورة البوسنة

وقد ظهرت أول بوادر الثورة فى البوسنة والهرسك حيث معظم السكان يجرى فى عروقهم الدم الصربى ، وهم غير نظاميين ، ولكنهم ميالون إلى الحرب بطبيعتهم ، وقد انضم الثوار إلى الجبل الأسود ، حيث خلق السكان وطنهم بحربهم

هذه ضد تركيا ، وقد قام أهالي الجبل الأسود بعدة غارات لمساعدة الثوار في الهرسك.

وكان الحكم التركي آخذا حينذاك في الاضمحلال ، إذ كانت تركيا تعاني أزمة مالية حادة ، أوشكت أن تكون إفلاسا ، فلم تستطع عمل احتياطات أو تسليح حامياتها ، وكانت في الوقت نفسه تفرض ضرائب جديدة ، أو تزيد من مقدار الضرائب القديمة ، بينما كان دافعو الضرائب يعتبرون أنفسهم موضع اضطهاد تركيا ومن سوء حظ تركيا أن المحصول كان سيئا عام ١٨٧٤ ، فأدى ذلك إلى الثورة في البوسنة والهرسك .

وقد أبدت الدول الكبرى رغبتها في إنهاء الثورة محليا ، والقضاء على أسباب الشكوى ، فقدم الكونت اندراس وزير خارجية النمسا مذكرة ، وافقت عليها الدول الكبرى وتركيا ١٨٧٦ ، وتنص هذه المذكرة على أن تتعهد تركيا بتنفيذ الإصلاحات المقترحة ، وألا تعود إلى استعمال طريقتها في التعنت وكبت رعاياها .

ثورة البلغار

وقد شجعت زعامة بلغاريا الدينية على يقظة الشعور القومي ، فقامت الثورة بمنتهى البساطة ، ولكن تبعتها مذابح شنيعة ، قتل فيها آلاف البلغاريين نساء وأطفالا وقد حدث ذلك في أبريل ، ولم تعلم انجلترا بهذه الحقائق إلا بعد انقضاء فترة طويلة

سياسة دزرائيلي

وبذلك واجه دزرائيلي رئيس الوزارة البريطانية في ذلك الوقت أزمة سياسية خطيرة ، فقد كان دائما يتطلع نحو الشرق ، وكان يبذل مساعيه لإتمام صفقته الرابحة وهي شراء نصيب خديوي مصر من أسهم قناة السويس ، تحقيقا لسياسته نحو الهند وكانت نظرته إلى الأتراك غير صادقة ، فقد كان ينظر إليهم على أساس زيارة قديمة قام بها إلى شرق البحر الأبيض ، وكان يقدر العرب ، وربما خلط بينهم وبين الأتراك ، وكان التركي فعلا يستطيع أن يحكم ، فظن دزرائيلي أن تركيا تستطيع أن تتقدم وتقاوم ، وقد نسي أن أقل دولة من دول البلقان تستطيع أن تشق طريقها ، وتضع حدا للمذابح التي يقترفها الأتراك فيها ، ولم يكن يقدر أن دولة أسيوية تذبح

رعاياها ولا تتخذ أى خطوة فى سبيل الإصلاح أو التقدم ، ستكون مصدر خطر متزايد على أوربا .

تقرير غلادستون

وقد استعمل دزرائيلى نفوذه فى التقليل من المذابح وكان من رأيه أن ماحدث من المذابح لم يكن إلا لإخماد الثورات ، أو القضاء عليها ، وذلك لأسباب سياسية ، وهى منع تقدم روسيا فى البلقان ، وكان يؤيده فى ذلك الرأى سفير بريطانيا فى القسطنطينية (غلادستون) ، ولكن الصحف وأحد موظفى السفارة البريطانية فى القسطنطينية ، كتبوا عن مذابح بلغاريا مقالات مطولة، أسموها فيها « بأشنع جريمة فى القرن الحالى » ، وعلى أثر ذلك استدعى دزرائيلى سفيره غلادستون وطلب منه طبع كتاب عن « الأهوال فى بلغاريا » ، وقد ختم ذلك الكتيب بعد أن حمل على تصرفات تركيا بأنه لا بد على الأقل أن تسحب تركيا حامياتها من الدويلات التى روت أرضها بدماء أبنائها ، واقترفت فيها أشنع المذابح البشرية .

وقد علق على ذلك اللورد ستراتفورد دى ردكليف بأنه لا يمكن حل مشاكل البلقان إلا بحماية البلقانيين التابعين لتركيا بأجمعهم لا حماية البلغاريين فقط .

اشتباك البلغار والجبل الأسود

كانت الحالة غير مستقرة فى روسيا ، والسياسة السلافية قلقة ، وكان الجبل الأسود وصربيا فى حالة لا تحسدان عليها ، وفى ٣٠ يونيو ١٨٧٦ أجبرت الصرب على الحرب ضد تركيا ، وكذلك الجبل الأسود اشتبك معها فى أول يوليو ، وقد حصل الجبل الأسود على نجاح كبير رغم هزيمة الصرب هزيمة منكرة فى أواخر أكتوبر ، ولم يمنع تركيا من التقدم إلى بلغراد إلا إنذار من روسيا .

وكان الساسة فى ذلك الوقت يعيدون النظر فى سياسة تركيا نحو السلاف ، ففى نهاية أكتوبر أبلغت بريطانيا قيصر الروسيا أنها رغم إحساسها بطغيان تركيا ، إلا أنه من الضرورى أن تحمى مصالحها فى قناة السويس والقسطنطينية .

وقد أعلن اسكندر الثانى فى ٢ نوفمبر أنه ليس فى نيته أن يستولى على بلغاريا

أو القسطنطينية ، وقد ظل دزرائيلي رغم ذلك على سياسته المعادية لروسيا ، ففي ٩ نوفمبر أعلن رأيه في صراحة في مجلس الوزراء ،وقال إنه لا يثق بالقيصر أو بتعهداته وقد رد القيصر في اليوم التالي معلنا أنه سوف يعمل مستقلا عن الدول الأوربية ، طالما أنها لن تضمن حماية الرعايا المسيحيين لتركيا في المستقبل .

مؤتمر القسطنطينية

وقد رتب بعض مهدئي الخواطر لمؤتمر يعقد في القسطنطينية ، من الدول ذات الشأن ، وقد أرسلت بريطانيا لورد سالسبوري ممثلا لها ، وهو الرجل الذي كان يفهم المشكلة على حقيقتها ، ويعرف كيف يشق طريقه .

وفي نهاية أغسطس اعتلى عبد الحميد العرش ، ورغم حداثة سنه فقد أدهش العالم أجمع بحسن تصرفه وحكمته ، في اليوم السابق لانعقاد المؤتمر منح السلطان عبد الحميد تركيا دستورا ، وأعلن كسلطان دستوري أن تركيا أصبحت الآن دولة صالحة للحكم، وأنه يجب على الدول ألا تطلب منه التنازل عن حقه في حكم رعاياه في الوقت الذي يدعو فيه هؤلاء الرعايا للاشتراك في حكومته ، ولذلك فقد انفض المؤتمر دون أن يقوم بعمل شيء .

روسيا تعلن الحرب على تركيا

وكان واضحا أن عبد الحميد لم يقم بهذا العمل إلا لاعتقاده الراسخ بأن بريطانيا ستكون ساعده الأيمن ضد روسيا ، كما سبق أن حدث في حرب القرم ، وقد كانت بعض القطع البحرية البريطانية لا تزال في خليج بسكاي ، ولكن يبدو أنه لم يحسن تقدير الموقف .

في ابريل قدمت كل من الروسيا وبريطانيا مقترحاتهما المشتركة إلى تركيا ، فرفضتها ، فلم يكن من الروسيا إلا أن أعلنت الحرب على تركيا ، وقد انضمت رومانيا إلى روسيا بعمل تحالف معها ،. أما الجبل الأسود فقد استأنف الحرب ضد تركيا .

ولم تدخل القوات الروسية الرومانية بلغاريا قبل شهرين من تاريخ إعلان

الحرب ، فقد استطاع القائد العبقرى التركى عثمان باشا أن يوقف تقدم هذه الجيوش عند بلفنا ، وبفضل صلابة الأتراك فى الدفاع ، استطاعوا أن يصدوا هجمات العدو مدة خمسة شهور . ولكن القائد الروسى العبقرى تودليبن ، بطل سيباستبول ، ظهر أخيرا ، ولم تستطع القوات التركية أن تصمد أمامه ، فاستسلم جيش عثمان باشا فى ديسمبر ١٨٧٧ ، وفى نهاية يناير ١٧٧٨ كان الطريق إلى أدرنة مفتوحا أمام الجيش الزاحف ، وقد انتهزت الصرب فرصة تقهقر الأتراك ، فاستأنفت الحرب واحتلت مركزا استراتيجيا هاما فى نيش ، كما احتل الأمير نيقولا أمير الجبل الأسود سبيزا ودولكنجو .

وكان النصر أيضا حليف الروس فى آسيا ، فقد كانت فى أيديهم حصون القرص وأردهان وارضروم المنيعة . بل كانت كل أرمينيا فى يد الروس ، ولذا فقد أجبر عبد الحميد على قبول السلم ، وتم الاتفاق على الهدنة فى ٣١ يناير ١٨٧٨ .

ورغم أن السلم قد استقر بين روسيا وتركيا ، إلا أن استقراره بين روسيا وانجلترا لم يكن مؤكدا ، ففى ٢٣ يناير صدرت الأوامر إلى الأسطول البريطانى أن يتحرك من خليج بسكاى ، وأن يتقدم إلى القسطنطينية ، وتقدمت القوات الروسية بدورها إلى القسطنطينية ، وكانت الأعصاب متوترة ، وشرر الحرب يتطاير ولكن حالة روسيا كانت تدعو إلى اليأس ، فجيوشها منهوكة ممزقة ، وقد نضبت مواردها الغذائية ، وحالتها المالية فى اضطراب ، ولم يكن فى طوق القيصر أن يدخل فى حرب مع عدو جـــديد ، فقد كان من المحتمل أن يضطر لمحاربة النمسا برا وبريطانيا بحرا .

معاهدة سان استفانو

وقد سلكت روسيا مسلكا حكيما يتلاءم مع ظروفها ، ففى ٣ مارس وقعت صلحا منفردا مع تركيا فى سان استفانو ، وبذلك أمكن لروسيا أن تحتفظ بمكاسبها دون مهاجمة انجلترا ، واقترحت إخلاء أدرنة .

وقد اقترحت روسيا فيما يختص بالأراضى الأسيوية ، أن تضم إليها القرص وأردهان ، وأن تخلى بدورها أرضروم ، ولم يكن هذا الطلب جائرا ، أو يعطى لها السيطرة على أرمينيا .

أما فى أوربا فإن ما كسبته كان لا يتعدى جزءا من بسارابيا . التى سبق أن تنازلت عنه لرومانيا عام ١٨٦٥ ، وتقدمها نحو مصب الدانوب .

وقد اقترحت روسيا أن تعوض رومانيا بإعطائها ثلثى دبروجة القاحلة ، ولم يكن ذلك منتظرا بالنسبة لحليف محارب ، ولكن رومانيا كانت دولة لاتينية وليست سلافية ، حتى تعمل على نهوضها وتقويتها .

وقد سببت السلافية كثيرا من المشاكل لروسيا ، فقد تورط اسكندر فوعد فرانسوا جوزيف بضم البوسنة والهرسك إلى النمسا ، ولكن الصرب كانوا يحلمون بضمها إليهم ، فهى أرضهم ، ولذلك فقدت روسيا الصرب نتيجة لهذا العمل .

ولم تستطع روسيا رغم إصرارها على توسيع حدود الصرب ، أن تفعل شيئا أكثر من إيعازها للصرب بأن تعتمد على النمسا فى المساعدات السياسية ، أما الجبل الأسود فقد عملت روسيا الكثير من أجله ، فقد مكنته من امتلاك أراضى واسعة ، وساعدته على الحصول على استقلاله عن النمسا .

وكانت ضربة روسيا الديبلوماسية الحاسمة فى بلغاريا ، فقد صممت على تقويتها إلى أقصى حد ، ولم تكن بلغاريا حينئذ هى الموجودة حاليا ، بل ضم إليها الساحل اليونانى الممتد غربا من كافالا إلى سالونيكا ، وكذلك الجزء المعروف بالصرب المقدونى .

وكانت خطة روسيا أن ترى بلغاريا قوية محررة، وخاضعة لنفوذها فى المستقبل فتصبح فى يدها جميع الطرق المؤدية إلى سالونيكا والقسطنطينية ، وبذلك يمكنها فى المستقبل إذا انتعشت قوتها البحرية ، أن تهاجم القسطنطينية بمعاونة حليف برى على جانب تركيا .

محادثات سالسبورى

أما وجهة النظر البريطانية فكانت معارضة مشاريع الروسيا ، وكانت وزارة دزرائيلى حينئذ لا تزال فى الحكم . فاستعد وزير خارجيتها لورد سالسبورى لمعارضة مشروع بلغاريا الكبرى ، فقد كان يعتقد أن ذلك المشروع ما هو إلا خطوة تمهد لزحف الروسيا إلى القسطنطينية . فبعد توليه وزارة الخارجية مباشرة ، كتب مذكرة

بهذا المشروع وابتدأ فى التفاوض مع روسيا ، وكانت بريطانيا والنمسا حينئذ قد طالبتا بعقد مؤتمر أوربى ، لإعادة النظر فى شروط معاهدة سان استفانو ، وقد قبل سالسبورى شروط هذه المعاهدة إذا تعهدت روسيا بما يأتى :

١ — أن تتجنب إثارة موضوع بلغاريا الكبرى فى المؤتمر القادم .

٢ — أن تنقص مساحة بلغاريا إلى ثلث مساحتها التى استقر الرأى عليها فى مؤتمر سان استفانو ، وأن تمتد تقريبا من الدانوب إلى البلقان .

٣ — أن تعاد مقدونيا بساحلها الجنوبى إلى تركيا .

٤ — أن يكون الجزء الجنوبى من البلقان دويلة تسمى الروميلى الشرقيـة ، وتصبح تحت إدارة تركيا .

وكان قبول هذه المقترحات يعتبر نصرا عسكريا حاسما ، فباحتلال تركيا لمنطقة الروميلى الشرقية حتى البلقان ، تكون قد احتلت سلسلة من الجبال المنيعة ، التى تقف سدا يمنع تقدم روسيا من الدانوب نحو القسطنطينية وأدرنة .

ولما كانت روسيا قد قامت بهذه المحادثات قبل المؤتمر فيما بينها وبين انجلترا ، لذلك قبلت انجلترا أن تضم هذه المباحثات إلى أعمال المؤتمر الذى سيعقد من دول أوربا .

دزرائيلى وقبرص

يتضح مما سبق أن دزرائيلى قد أمّن تركيا فى أوربا بمحـادثاته الأولية مع روسيا ، بدون علم تركيا ؛ أما فى آسيا فقد أمّـن تركيا وكذلك طريق بريطانيا إلى الهند بمفاوضاته المباشرة مع تركيا ، بدون علم روسيا ، وقد أراد دزرائيلى أن يقابل اقتراح روسيا بضم باطوم والقرص وأردهان إليها ، بأن تضم بريطانيا إليها إحدى الجزر أو المحطات البحرية على شاطىء آسيا الصغرى ، حتى تستطيع صد خطر روسيا فى أرمينيا .

وكانت قبرص المفتاح الغربى لآسيا ، بل هى مكان يصلح ميناء ، وهى بعد ذلك قريبة من الاسكندرونة ، ولذلك وقعت معاهدة سرية بين السلطان وبريطانيا ،

تعهدت فيها تركيا أن تضم بريطانيا قبرص إلى ممتلكاتها ، إذا ضمت الروسيا إليها باطوم والقرص وأردهان ، وأن تتعهد بريطانيا لتركيا فى نظير ذلك بحماية ممتلكات السلطان الباقية فى آسيا من اعتداء الروسيا ، وتعهد السلطان أن يعمل على إدخال اصلاحات ، وفى ٤ يونيو وقعت المعاهدة الرسمية .

وقد وقعت بريطانيا أيضا اتفاقا سريا مع النمسا ، تعهدت فيه للنمسا بضم البوسنة والهرسك ، ومن ذلك نجد أن بريطانيا عقدت اتفاقا سريا مع كل من الروسيا وتركيا والنمسا ، دون أن تعلم إحداها باتفاق بريطانيا مع الأخرى ، فلم تعلم روسيا والنمسا باتفاق قبرص ، كما لم تعلم تركيا باتفاق البوسنة .

مؤتمر برلين

وقد قابل دزرائيلى بسمارك بعد ذلك ، وأخذ منه وعدا بأن يكون أول عمل المؤتمر هو النظر فى مشكلة بلغاريا ، أما باقى الأشياء فقد اتفق عليها مبدئيا ، ولذا فإن هـذا المؤتمر يعتبر من المؤتمرات الناجحة ، نظرا للاتفاق على مواضيعه قبل انعقاده .

وقد اقترح بسمارك أن يكون مقر المؤتمر برلين ، وأن يكون هو حكما عادلا ، ولـكن هواه كان مع النمسا ويميل إلى مساعدتها .

وكان من نتائج هذا المؤتمر أن احتلت النمسا البوسنة والهرسك سياسيا ، ونفق سنجق نوفيبازار عسكريا ، فتقلصت رقعة الجبل الأسود عما كان مقررا فى معاهدة سان استفانو ، وذلك لتحالفها مع روسيا ، وأصبحت الصرب تحت نفوذ النمسا .

وقد حصلت كل من الصرب والجبل الأسود ورومانيا على استقلالها ، أما مشروع بلغاريا الـكبرى فقد حاولت روسيا رغم تعهداتها قبل المؤتمر بتجنبه ، أن تمنع تركيا من إرسال حاميتها إلى الروميلى الشرقية ، ولـكن انجلترا لم توافق على ذلك ، وأصبحت بلغاريا مجزأة ممزقة ، وقد استعادت روسيا بسارابيا من رومانيا وعوضتها بثلثى دوبروجة .

علاقة روسيا ببلغاريا

أظهرت روسيا كثيرا من عدم الحكمة والكياسة فى معاملتها لبلغاريا فى وضعها الجديد ، ففى أبريل ١٨٧٩ أصبح اسكندر أمير باتنبرج وابن اخت اسكندر الثانى قيصر روسيا أميرا لبلغاريا ، ولم يكن لديه من التجربة ما يؤهله لمباشرة الحكم ، علاوة على خضوعه لروسيا ؛ ثم تلا ذلك تعيين أحد القواد الروس رئيسا لحكومة بلغاريا ، وكذلك أحد الوزراء الآخرين ، وقد حاول هؤلاء أن يضيعوا بلغاريا ، ولكن سرعان ما استيقظ الشعور القومى فى الشعب ، ففى ١٨٨٥ دبرت مؤامرة فى الروميلى الشرقية ، وخلع الثوار البلغار حاكمهم التركى . وطالبوا باتحادهم مع بلغاريا ، وطلبوا أن يكون اسكندر حاكمهم .

وقد أصبحت سياسة روسيا عدائية بالنسبة لهذه الحركة ، ولكن ستمبلوف رجل الساعة البلغارى ، هدد اسكندر بالنفى إذا لم يقبل الاتحاد ، فقبله مرغما ؛ فاستاءت روسيا وسحبت جميع ضباطها من الجيش البلغارى .

وقد سر البلغاريون لذلك ، ولكن روسيا توسلت للدول الكبرى أن تمنع اتحاد بلغاريا بالروميلى الشرقية ، فلم تظهر النمسا اى معارضة لهذا الاتحاد لعلمها أنه ضد سياسة روسيا .

أما انجلترا فرغم أنها خالقة الروميلى الشرقية ، وقد غامرت من أجل ذلك بالحرب ١٨٧٨ ، إلا أنها وافقت على اتحاد بلغاريا ، وذلك بعكس ما كان منتظرا من مساعدتها لروسيا فى طلبها ، فهى تعلم بأن السلم الدائم لا يمكن أن يتحقق إلا بهذا الاتحاد ، الذى سيقف فى وجه الزحف الروسى إلى القسطنطينية .

اتحاد بلغاريا

ورغم اتحاد بلغاريا فانها لم تنج من غضب الروسيا ، وحسد الشعوب السلافية المجاورة لها ، فقد رأت الصرب أن تتدخل ، وكان من العيوب الظاهرة فى مؤتمر برلين تجاهل مطالب الصرب ، التى سبق أن طلبت منها الروسيا أن تعتمد سياسيا على النمسا ، وفى ١٨٨١ وقعت مع النمسا اتفاقا سريا جعل الصرب تابعة للأخيرة .

وقد أعلنت الصرب الحرب على البلغار فى ١٤ نوفمبر ١٨٨٥ ، وحصل البلغار على نصر حاسم فى معركة سليفنيكا ، وبدأ تقدم جيشهم نحو الصرب عندما أرسلت النمسا إنذارا إلى اسكندر بالعودة ، فرضخ لهذا الإنذار وعاد إلى وطنه .

وفى أغسطس ١٨٨٦ اختطف الروس البرنس اسكندر ، واقتيد إلى أراض روسية ، ثم أجبره ستمبلوف والوطنيون فى بلغاريا على التنازل عن العرش ، وخلفه الأمير فرديناند عام ١٨٨٧ ، وكانت سياسته معارضة لروسيا .

الفصل الثالث

أزمة البوسنة

كان بعض بعيدى النظر من الصحافيين والسياسيين ، يتنبأون منذ عام ١٨٧٨ بقيام حرب فى البلقان ، ولكن ثلاثين عاما مرت فى تنبؤات كاذبة ، ولم تقع الحرب إلا عام ١٩٠٩ ، فقد سببت البلقان لأوروبا مشاكل عديدة بعد عام ١٨٧٩ لعدة أسباب واضحة ، فقد رفضت بلغاريا أن تقبل نفوذ الروس وزحفهم نحوها ، وثارت الصرب بعد أن أجبرت على تقبل فرض النفوذ النمسوى عليها ، وذلك فى نهاية القرن ، ثم تغير التوازن في البلقان ، فقد أصبحت رومانيا فى الجانب الألمانى والنمسوى ، بينما انضمت بلغاريا والصرب والجبل الأسود إلى الجانب الروسى .

وفى عام ١٩٠٣ كانت تركيا تسرع الخطى نحو الفناء ، وكان حكمها لمقدونيا من أسوأ ما عرف التاريخ ، وقد أصبح عبد الحميد مسنا ، وفقد الهيبة القديمة التى كانت له .

وكانت الروسيا والنمسا قد اتفقتا فيما بينهما عام ١٨٩٧ ، على عدم تغيير وضع دول البلقان ، وأن تقدما لبعضهما المعاونة المتبادلة لتجنب خلق المشاكل ، وكانت الثورة التى قامت فى مقدونيا قد تسببت عنها مذابح كثيرة ، وتدخلت بريطانيا تدخلا محسوسا فى الموضوع ، وبعد جهد قبلت كل من روسيا والنمسا اقتراح الدول الكبرى بإنشاء بوليس دولى فى مقدونيا ، وقد تبع ذلك محاولات لورد لاندسون فى أوائل عام ١٩٠٥ لضمان نظام جباية الضرائب فى مقدونيا تحت إشراف دولى .

ولم تمنع هذه الاحتياطات من وقوع مصادمات ، إلا أن روسيا والنمسا وافقتا عليها ، ولكنهما عارضتا سير ادوارد جراى ، عندما حاول عام ١٩٠٧ أن يزيد من نفوذ البوليس الدولى . وفى يناير ١٩٠٨ توترت العلاقات الطيبة بين امبراطورية النمسا والمجر وروسيا ، نتيجة للحوادث فى البلقان ، فأعلن اهرنتال وزير خارجية النمسا فجأة انه فى النية إنشاء خط حديدى يمر بسنجق نوفيبازار ، ليتصل بنهاية

الخط التركى فى متروفيكا ، وبذلك تتصل فينا مباشرة بسالونيكا بالسكك الحديدية وتصبح الصرب منفصلة عن الجبل الأسود أكثر من ذى قبـــل ، وقد اقترح ايزفولسكى وزير خارجية روسيا الجديد ، اقتراحا مضاداً لاقتراح النمسا، بمشروع مد الخط الحديدى من شرق حدود الصرب على الدانوب إلى سانت جيوفانى دومدوا ، وقد قبلت النمسا مشروع روسيا ، ولكن لم تنشأ أى السكتين .

حزب تركيا الفتاة فى الحكم

وفى هذه اللحظات الحرجة حدث الانقلاب التركى ، وكان سبب التعجيل به ، هو خوف الأتراك من عقد اتفاق ودى بين انجلترا وروسيا ، وقد نشأت جمعية للاتحاد والترقى اسمها تركيا الفتاة ، وهى جمعية سرية ، وكان غرضها الأساسى هو إحداث الانقلاب بين ضباط الجيش التركى .

وفى أوائل يوليو رفع نيازى وأنور راية العصيان على السلطان عبد الحميد ، وطالبا بالدستور ، وقد رضخ هذا الطاغية بعد صراع عنيف بين الفريقين ، واعترف بأنه سيكون ، كما سبق له ، من أعدل الملوك الدستوريين ، وكان جنــــود الثورة مشبعين بفكرة الحرية وروحها وكان من مبادىء الثورة أن تصبح الشعوب المسيحية كالصرب والبلغار واليونان حرة تحت العلم التركى ، وأن تتآخى مع المسلمين ، وقد أثمرت هذه الفكرة فاتحد اليونان مع الأتراك ، وتآخى كل من الصرب والبلغار ، وسار كلاهما فى ركاب الأتراك ، وتخلت الدول الكبرى فى الحال عن الاصلاحات المقترحة فى مقدونيا ، على أساس أن تركيا الفتاة أصبحت حرة وتستطيع أن تدبر شئونها بنفسها .

أزمة بلغاريا والبوسنة

وفى أبريل قام ازفولسكى بمفاوضات شاذة مع اهرنتال وزير خارجية النمسا ، وتوصل إلى اقتراح حاسم ، بأن تسمح روسيا لإمبراطورية النمسا والمجر بضم البوسنة والهرسك والسنجق ، إذا ساعدت بدورها على فتح المضايق فى القسطنطينية أمام السفن الحربية الروسية، وقد وافق اهرنتال على ذلك ، وجعل ألمانيا وإيطاليا

تحذوان حذوه ، وقد قطعت المفاوضات مرحلة كبيرة حتى سبتمبر ، حينما اقترح ازفولسكى استبدال تلك المفاوضات بمؤتمر أوربى ، وقد أخطره اهرنتال بأن لديه نية أكيدة فى ضم البوسنة فى بداية أكتوبر ، وقد صمم اهرنتال على ذلك بعناد وشرع يضرب ضربته بأسرع ما يستطيع ، فدعا فرديناند أمير بلغاريا إلى فينا ، فاستقبل استقبالا ممتازاً ، وأعلن فى ٥ أكتوبر نفسه ملكا على بلغاريا ، مديرا ظهره لسيادة السلطان ، وأعلن استقلال بلغاريا ، وفى ٧ أكتوبر أصدر امبراطور النمسا بيانا يعلن فيه أن البوسنة والهرسك التى احتلتهما النمسا مؤقتا منذ ١٨٧٨ ، أصبحت الآن منفصلة رسميا عن تركيا ، وتضم إلى امبراطورية النمسا والمجر .

محادثات جراى وازفولسكى

وقد أحدث صدور هذه التصريحات دويا هائلا ، فقد كان واضحا أن فرنسا وانجلترا لم تكونا على علم بها من قبل ، ولم تشكا فى نوايا النمسا والمجر من هذه الناحية ، وقد ارتاع ازفولسكى عندما ثار الشعور فى الصرب ، فطالب بعقد مؤتمر أوربى لمعالجة الحالة ، فقد كان يأمل فى الحصول على حرية مرور السفن الروسية فى المضايق ، كتعويض لها فى مقابل ضم النمسا للبوسنة والهرسك ، وكان ازفولسكى فى انجلترا فى ذلك الحين ، فتمكن من أن يؤثر على السير ادوارد جراى ، وأن يقنعه بوجهة نظره ، وكان من سوء حظ بريطانيا أن وزير خارجيتها كان لا يعلم الكثير عن الشرق الأوسط ، فصدم من حركة النمسا وبلغاريا ، واعتبر تصرفهما هـذا نقضا وخيانة لمعاهدة برلين ١٨٧٨ ، وكان جراى قد طالب فى ٧ أكتوبر قبل مقابلته لازفولسكى بعقد مؤتمر أوربى ، وعقب محادثاته مع الوزير الروسى أعلن رسميا أن كلا من انجلترا وروسيا متفقتان على عقد مؤتمر أوربى ، ولم يكن جراى فى مركز يسمح له بأن يعيد المؤتمر النظر فى مسألة المضايق ، لأنه لا يمكن أن يصدق على أى خرق لمعاهدة ١٨٧٨ قبل انعقاد المؤتمر .

تحدى أهرنتال

كانت كل من انجلترا وروسيا على بعض الخلاف مع الأخرى ، ولم تكن

فرنسا تشتهى أن تتورط مع الروسيا فى حرب لم تستشر فيها من قبل ، وقد عالج اهرنتال الموقف بمنتهى الحكمة ، فقد كان من غير المحتمل محاربة التحالف الروسى الفرنسى ، وكانت ألمانيا قد وعدته بالمساعدة ، ففى أكتوبر أعلن اهرنتال أن النمسا سوف لا تنضم إلى أى مؤتمر ، مالم تتفق مبدئيا على الاعتراف بما ضمته النمسا إليها .

وفى ٢٥ ديسمبر صرح ازفولسكى فى حديث صحفى له ، أنه لا يفكر إلا فى الحرب .

وبذلك اوضح اهرنتال أن المؤتمر سوف لايفى بأى غرض ، وأنه ليس من المحتمل أن يعين روسيا فى مطلبها الخاص بالمضايق ، ولكنه فى النهاية عرض حلا ، لكى تتخلى الدول الكبرى عن طلب عقد ذلك المؤتمر ، فاقترح أن تدفع النمسا تعويضا للسلطان قدره مليونين ونصف من الجنيهات نظير البوسنة ، وأن تدفع بلغاريا لتركيا مبلغ ٥ ملايين جنيه نظير خروجها من سيادتها ، ونظير نصيبها فى سكة حديد الشرق .

وفى هذه اللحظة تدخل ازفولسكى ، وعرض أن تتنازل روسيا لتركيا عن غرامة الحرب التى قررت لروسيا ، ولم تكن دفعت بعد ، ووقع بين الدولتين فى عام ١٩٠٢ اتفاق ، وتبعه تحالف بمعاهدة سرية فى شهر ديسمبر ١٩٠٩ ، وبذلك نجد أن كلا من انجلترا وروسيا قد هزمتا فى محاولتهما عقد مؤتمر أوربى ، ولكن تركيا قد نالت بعض التعويض وكانت بلغاريا غير راضية والصرب غير مستقرة .

مقاومة الصرب

كان الموقف غير عادى ، فأصبحت الصرب تابعة لروسيا كبلغاريا ، وشعرت أنها لم ترتكب خطأ نحو تركيا ، ورغم أخطاء النمسا نحوها ، إذ أنه قد سمح للنمسا عام ١٨٧٨ باحتلال البوسنة والهرسك ، تلك الأراضى المتفقة مع الصرب فى اللغة والدم ، وكان معنى ذلك أن ينفصل مليون صربى عن وطنهم ، وأن يتحد الخمسة ملايين من الصرب وكرواتيا ، التى كانت لا تزال تحت الحكم النمساوى أو البلغارى ، فغلى دم الصرب وظنوا أن الدول الكبرى قد تآمرت على مستقبل بلادهم وقد قابلت الدول الكبرى ذلك ومنها روسيا بقلة اكتراث ، فقد أخبر ازفولسكى

مندوب الصرب فى باريس ، أن اخلاء النمسا للسنجق يعتبر نصرا ، إذ أن ذلك سيسد أمامها طريق التقدم إلى سالونيكا .

وقد بدأت الاضطرابات فى الصرب بقيادة جورج أمير صربيا ، وكان متهوسا ولكن الشعب كان يمجده ، وقد قارنت الصحافة بينه وبين نابليون ، وكان يشيد بأن جورج السابق حرر الصرب من الأتراك ، وأن سليله وسميه سيحررهم من هابسبورج .

وفي ١٧ مارس اقترحت ألمانيا حلا للمشكلة ، أن يعلن اهرنتال أن تركيا قد وافقت على ضم البوسنة والهرسك للنمسا ، كما اقترح أن تتبادل الدول المذكرات لحل جميع المشاكل ، بدلا من عقد مؤتمر ، ورغم أن روسيا قد طلبت عقد المؤتمر ، إلا أنها أجبرت فى النهاية على الاعتراف بمشروع ضم البوسنة والهرسك ، وقد قبلت كل من إيطاليا وفرنسا اقتراح ألمانيا تحت ضغط ، ولكن السير إدوارد جراى أعلن أن الاعتراف بعمل النمسا يجب أن يتبع تسوية المشكلة بين الصرب والإمبراطورية النمساوية ، ولذلك فان كل شيء كان يتوقف على الصرب .

سلوك الصرب

سبب سلوك الصرب ازعاجا كبيرا للنمسا ، فقد كان الإمبراطور فرانسوا جوزيف ميالا للسلم ، ولكن فرانز فرديناند ولى عهده ، والقائد العام للجيش ، كان متفقا مع كونراد رئيس أركان حرب الجيش على الحرب ، وكان يرى أن الفرصة سانحة لمحاربة الصرب فورا ، وأن أى تأخير ستكون نتيجته سيئة على الإمبراطورية النمساوية ، ولكن الشعور تغير فى آخر لحظة ، واتجه نحو السلم فقد أعلن فرانز فرديناند أنه لا يميل إلى الحرب ، وأوعزت انجلترا إلى اهرنتال وزير خارجية النمسا أن يؤجل إنذاره بالحرب إلى نهاية مارس ، أما فى الصرب نفسها ، فقد ثار الشعور ضد الروسيا عند إعلان رضوخ ازفولسكى لما اقترحته ألمانيا، وقام الغوغاء بمهاجمة السفارة الروسية ، وحطموا نوافذها ، ولكن مؤيدى الحرب فى الصرب وعلى رأسهم أمير الصرب ، ضربوا ضربة قاضية حينما أعلن ولى عهد الصرب أنه قد تنازل عن مطالبه ، ليخلف والده على العرش .

وأخيرا قبلت الصرب الوضع وانتهت على الآتى :

١ — أعلنت الصرب أن ضم البوسنة للنمسا لا يتعارض مع مطالبها .

٢ — وافقت على انقاص الجيش إلى ما كان عليه عام ١٩٠٨ .

٣ — تعهدت أن تقبل الوضع القائم ، وأن تعيش مع جارتها النمسا فى صداقة وسلام . وبذلك انتهت تلك المشكلة ، التى اثارت فى أوربا أزمة من الأزمات بالغة الخطورة على النظام الأوربى .

نتائج أزمة البوسنة

١ — ظهر أن المعاهدات عديمة الجدوى ، فقد كان السير ادورد جراى يبنى سياسته على نقطتين هامتين : هما احترام المعاهدات ، وطلب عقد مؤتمر أوربى ليبحث أى نقض للمعاهدات ، ولكن وجهة نظره لم تجد من يحبذها ، لا سيما ألمانيا التى كانت تعتبر المعاهدات قصاصات ورق .

٢ — انتصر الاتحاد الالمانى النمساوى ، على الاتفاق الودى الثلاثى بين روسيا وانجلترا وفرنسا . إذ أعلن امبراطور النمسا بعد مرور عام أنه يفخر بحليفته المخلصة المانيا ، التى قدمت له المعونة فى أحرج الأوقات ، وأخذ يوبخ الروسيا ، وكان لكلا التصريحين أثره المميت لروسيا ، وقد كان لفشل الاتفاق الودى أثر كبير فى قرب خطر الحرب ، فقد عوملت المانيا فى مؤتمر الجزيرة بمنتهى الظلم ، وقد هزمت روسيا هزيمة منكرة فى مشكله البوسنة ، وعرفت المانيا كيف وأين تغمد سيفها فى الوقت المناسب .

٣ — أصبح من المهم بالنسبة للنمسا أن تكون علاقتها بالصرب طيبة ، ففى الصرب يوجد ثلاثة ملايين من الصرب الاحرار المستقلين ، وعلى حدودها خمسة ملايين من الكروات والصرب ، وحوالى المليون فى البوسنة ، ينتظرون تحريرهم من طغيان هابسبرج ، وفى هذه اللحظة الحرجة التى كان اهرنتال يفكر فيها فى الحرب ، حصل على بعض الوثائق التى استطاع بمقتضاها أن يحاكم بعض السياسيين من الصرب والكروات ، بتهمة تآمرهم مع الصربيين فى الصرب ، وكان لهذه المحاكمة الشائنة الأثر الأكبر فى اسراع اتحاد يوغوسلافيا واظهار إجرام النمسا .

الفصل الرابع

الفترة من اتحاد البلقان حتى الحرب

العالمية الأولى ١٩١٤

كان لحرب البلقان ١٩١٢ - ١٩١٣ أثر محسوس فى قيام الحرب العالمية الأولى، وقد زاد من حدة الموقف أزمات الجزيرة والبوسنة وأعادير ، لأنها أثرت فى توازن القوى الدولية فيما بعد ، وكان الانقلاب التركى الخطر الأكبر المباشر ، لأنه أثر على توازن القوى الدولية وقت حدوثه .

وقد ظهرت الصرب وبلغاريا واليونان ورومانيا كدول غازية عسكرية ، وهزمت تركيا المتحالفة مع ألمانيا شر هزيمة ، وقد ضمت الصرب إلى سكانها مليون نسمة ، فانتقمت لاغتصاب البوسنة ، والتهمت البوسنة ودلماشيا ، وظهرت الصرب كدولة منتصرة ذات بأس ، وكما انبثقت إيطاليا من بيد مونت ، فقد قامت دولة يوغوسلافيا من الصرب .

اتحاد البلقان

إن بداية حرب البلقان كانت مسألة بسيطة ، فقد صالحت الروسيا بين الصرب وبلغاريا ، ولكن كلا منهما تأكدت أن روسيا لم تكن صادقة النية ، فى مساعدتهما على تحرير أبناء جنسهما من الاستبداد التركى ، ووجدتا كذلك أن الدول الكبرى لا تعطف عليهما ، فلم تحاول إحداها أن تمنع تركيا الفتاة من إعدام وطنى البلقان فى مقدونيا ، وكانت هذه المذابح لا تقل قسوة عما كان يقترفه عبد الحميد ، ولذلك فكرت الصرب وبلغاريا فى أن تعملا سويا ، وانضمت إليهما اليونان فكونوا اتحاد البلقان ، وقد هزم هذا الاتحاد تركيا ، وتحدى دول أوربا ، وأدى بتوازن القوى الدولية إلى الإختلال . علمت حادثة البوسنة الصرب والبلغار أن روسيا ولو أنها لم تستطع مساعدتهما ، إلا أنها ستحاول ذلك فى المستقبل ، وكانت فكرتهما الأولية أن تهاجما الأتراك بينما تقوم فرنسا والروسيا بمنع النمسا وألمانيا من التدخل

ومنذ ١٩٠٩ كان الصرب يقومون ببث دعايتهم لدولة يوغوسلافيا فى امبراطورية النمسا ، لتمنع أى تدخل فى البلقان عند مهاجمة الصرب لتركيا ، ولم تصغ بلغاريا إلى هذه الدعاية حتى خريف ١٩١١ ، حين وجدت أن منع تركيا الفتاة من إعدام مسيحى مقدونيا لا يمكن إلا بتدخل خارجى، وفى أغسطس ١٩١١ أوضح ڤنزيلوس رئيس الوزارة اليونانية للبلغاريين ، أن عقد تحالف دفاعى بين بلغاريا واليونان يضمن وقاية كل منهما ، وحماية مسيحى البلقان فى مقدونيا .

وفى أكتوبر ١٩١١ بدأ البلغار مفاوضاتهم مع الصرب ، ووقعت بينهما معاهدة فى مارس ١٩١٢ ، تضمن لكل منهما الاستقلال ، وتتعهد فيها كل منهما بالمساعدة المتبادلة ، إذا ما فكرت أى دولة من الدول الكبرى فى احتلال أى أراضى تحت الحكم التركى ، ثم تبع ذلك مؤتمر فى أبريل ١٩١٢ ، وفى ٢٩ مايو عام ١٩١٢ وقعت بلغاريا معاهدة تحالف دفاعية مع اليونان ، تبعها أيضا مؤتمر عسكرى فى سبتمبر ، ثم انضمت إلى التحالف أيضا مملكة الجبل الأسود الصغيرة بصفة إسمية .

نشوب حرب البلقان

فى أواخر ١٩١٠ كان سازانوف وزير خارجية روسيا يطمع فى السيطرة على كل مَن الصرب وبلغاريا ، فأنذرهما بأن حكومته لا توافق على اتخاذ أى عمل عدائى ضد تركيا ، أما بوانكاريه رئيس الوزارة الفرنسية فكان ينظر إلى الأمور نظرة أكثر حكمة من الوزير الروسى، فقد كان بعيد النظر ، وقد أوضح أن هذه الاتفاقات تحمل فى طياتها بذور الحرب ، لا ضد تركيا فقط بل والنمسا أيضا ، وأن هذه الاتفاقات عبارة عن مؤتمر حربى ، لا لإظهار طموح الصرب والبلغار فقط ، بل لتشجيعهما على ذلك .

وقد كان المسيو بوانكاريه سديد الرأى ، صادق النظرة ، فإن كراهية شعوب البلقان لتركيا ، وعدم التعاون بين الدول الكبرى، كان الرباط الذى يوثق بين دول البلقان فى هذا الاتحاد .

وكانت النمسا قلقة من الأزمة المنتظرة ، ولكنها لم تقم بأى عمل لمنع وقوعها ،

وفى منتصف سبتمبر فكر سازانوف بعد أن شاهد الاستعداد الحربى لدول الاتحاد فى أنه لا بد من تدخل الدول الكبرى ولكن تفكيره كان متأخرا .

وفى ٧ أكتوبر أبلغت الدول الكبرى اتحاد البلقان أنها لا تسمح بتاتا بأى احتكاك مع تركيا ، ولا تسمح بأى تغيير سياسى فى دول البلقان ، ولكن حدث فى يوم ٨ أكتوبر ، أن أعلنت الجبل الأسود الحرب على تركيا ، متجاهلة هذا الإنذار ، فالتهب البلقان من أقصاه إلى أقصاه .

وكانت الدول الكبرى وتركيا تعتقد أن هزيمة اتحاد البلقان أمر لا شك فيه ، ولكنهم كانوا مخدوعين ، ففى ٢٢ أكتوبر انتصر البلغاريون على تركيا فى كيرك كليسى ، وفى ٢٦ فتح الصرب الطريق إلى مقدونيا بانتصارهم عند كمانوفو ، أما اليونان الذين توقفوا مؤقتا عند فلورينا فلم يجدوا أمامهم عند استئناف تقدمهم إلا فلول الأتراك الهاربين ، وفى ٨ نوفمبر دخلت القوات اليونانية مدينة سالونيكا ، وكان ذلك إيذانا بنهاية الإمبراطورية التركية فى مقدونيا .

وفى ٩ أكتوبر أعلن مستر اسكويث فى خطاب له فى مجلس العموم ـ متجاهلا تهديد الدول الكبرى للاتحاد « إن الدول الكبرى ليس أمامها إلا أن تعترف بالتغيير الجغرافى الذى حدث واكتسب بالدم والتضحية » .

الهدنة بين تركيا واتحاد البلقان

لم يكن موقف الاتحاد قويا ، وكذلك موقف الدول الكبرى لم يكن قويا . كما كان ظاهرا ، فقد وصل الصرب إلى دورازو على الساحل الألبانى ، وأعلنت النمسا أنها سوف لا تسمح للصرب باغتصاب أى موانىء البانية ، وساعدتها على ذلك إيطاليا ، وفى ٣ ديسمبر وقعت الهدنة بين الأتراك والاتحاد واستمرت حتى ٣ فبراير ١٩١٣ .

وفى نهاية العام كان الأتراك لا يزالون محتلين ثلاثة حصون قوية : «سكوتارى» فى ألبانيا أمام الصرب والجبل الأسود ، وجانيا فى أبيروس أمام اليونان ، وأدرنة فى التراس أمام البلغار ، اما باقى تركيا الأوربية فكان فى يد إتحاد البلقان ، حتى خطوط شطالجة التى تبعد عن القسطنطينية بحوالى ٣٠ كيلو مترا ، وهنا أوقف البلغار أكبر

الجيوش التركية ، ولكن سازانوف أنذرهم بعدم دخول القسطنطينية .

وقد حاولت كل من فرنسا وألمانيا أن تقدم المساعدة المتبادلة للمحافظة على السلم وأن يكون التشاحن محليا فى البلقان ، دون تدخل من الدول الكبرى ، وفى ديسمبر كان كونراد راغبا فى مهاجمة الصرب ، ولكن إمبراطور النمسا العجوز رفض التورط فى حرب ، بالإضافة إلى موقف ألمانيا السلبى ، وقد أيدت إيطاليا ألمانيا فى موقفها ، وكان ساسة روسيا وفرنسا وانجلترا غير راضين عن حركة البلقان وقد حاول السير ادوارد جراى أن يحل المشكلة بمؤتمر أوربى ، فلم تكن أى دولة من الدول الكبرى راغبة فى دخول حرب مع الأخرى ، ولذا كان من الصعب الضغط على هذا الاتحاد الصغير المنتصر ، الذى تحدى المؤتمر المقترح .

الاتحاد يستأنف العداء

وفى ٣ فبراير استأنف الاتحاد العداء نحو تركيا ، وأصبح التشاحن بين الدول الكبرى منتظرا فى أى لحظة ، فعبأت النمسا قواتها لتهديد الصرب ، وكذا روسيا فى القوقاز لتهديد تركيا .

وفى ٢٤ يناير ١٩١٣ أقال أنور باشا حكومة تركيا السلبية ، وقتل القائد العام ، وأصبح شبيها بدكتاتور عسكرى ، وسرعان ما ألغى إجراءات المؤتمر الذى عقد فى ديسمبر ، وحضره سفراء الدول الكبرى ، واستأنف الأعمال العدائية نحو اتحاد البلقان ، وكانت النتائج فى البداية سيئة بالنسبة لتركيا ، فقد استسلمت كريت لليونان ، ورفعت العلم اليونانى ، وسقطت مدينة سكوتارى الألبانية فى يد نيقولا ملك الجبل الأسود ، ورفض الانسحاب منها ، ولكن النمسا تدخلت وأثرت على الدول الكبرى ، بالضغط على الجبل الأسود ، بمظاهرة بحرية لإخلاء المدينة ، ثم سقط حصن يانينا المنيع أمام اليونانيين ، وكذا أدرنة أمام مدافع الصرب وجيش البلغار

ويمكن تلخيص الموقف العام فى مارس كالآتى :

١ — البلغاريون يحتلون مقدونيا الشرقية شرق سالونيكا وتراقيا كلها حتى حدود شطلجة .

٢ — اليونان يحتلون أسبيروس كلها وجنوب مقدونيا بما فى ذلك سالونيكا .

٣ — أصبحت منطقة نوفيبازار وما يجاورها من مقدونيا فى يد الصرب .

معاهدة لندن مايو ١٩١٣

صممت الدول الكبرى مبدئيا على أن ألبانيا يجب أن تحصل على استقلالها ، وكان لقوتها أكبر الأثر فى التأثير على الصرب والجبل الأسود ، لإخلاء الأراضى الألبانية ، وقد أجبرت النمسا الدول الكبرى على التدخل ، وطردت الجبل الأسود من اسكوتارى .

وكانت الدول الكبرى قد حددت مبدئيا الحدود الشمالية لألبانيا ، ولكن هذه الحدود التى اقترحت كانت منافية للمنطق السليم ، بل إنها كانت تهدد بالمشاكل والمشاحنات فى المستقبل بين الصرب وألبانيا ، وكانت ألمانيا والروسيا تعلمان بذلك ، رغم أن السير أدوارد جراى كان يظهر جهله بهذا الموضوع ، وكان يعتقد أن المؤتمر الأوربى أنسب طريقة لحل المشكلة .

وبذلك حلت مشكلة ألبانيا ، وقررت الدول الكبرى فى المؤتمر استقطاع بعض الأراضى التركية ، وتحت بعض الضغط والتهديد وقعت معاهدة لندن فى ٣٠ مايو ، بين تركيا واتحاد البلقان ، ويمكن تلخيص نتائجها فيما يلى :

١ — استقطاع كل الأراضى التركية غرب الخط الواصل بين اينوس وميديا ، واستبقاء ركن صغير لها لا يتعدى القسطنطينية تقريبا .

٢ — تتنازل تركيا عن هذا الجزء المستقطع للاتحاد مشتركا .

٣ — تضم جزيرة كريت وحدها إلى اليونان ، ويترك مصير الجزر التركية الأخرى « ساموس ولمنوس . . الخ » لتقرره الدول الكبرى مستقبلا .

٤ — عملت اليونان جهدها لا للحصول على سالونيكا فحسب ، بل للحصول على جزء من مقدونيا الجنوبية يقطنه كثير من البلغاريين .

٥ — حصلت الصرب على وسط مقدونيا وشمالها .

٦ — كان على بلغاريا أن تحصل على تراقيا وساحل بحر إيجه .

وقد لاقت الدول الكبرى اعتراضات كثيرة من دول البلقان ، فلم تكن إحداها راضية عن هذا الوضع ، فسرعان ما مزقت كل منها تلك المعاهدة بعد ذلك بقليل .

خيانة البلغاريين لحلفائهم

لم يكن لدى بلغاريا أي استعداد للتنازل عن سالونيكا لليونان ، أو عن منطقة مقدونيا المزدحمة للصرب ، ولكن هذين الشعبين استمرا فى احتلال المناطق المختلف عليها ، وتوقعا رفض البلغاريين ، ولذا قررا الاستعداد للطوارىء فعقدا بينهما تحالفا.

وقد أصدر الملك فرديناند ملك بلغاريا أمرا سريا إلى أحد جيوشه بمهاجمة الصرب فى مقدونيا ، وزحف جيش آخر نحو سالونيكا ، ففى ٢٩ يونيو هاجم البلغار الصرب فى منتصف الليل ، وقد عارض رئيس الوزارة البلغارية معلنا أن الهجوم البلغارى غير مشروع ، وأنه قد صــدرت الأوامر للجيوش البلغارية بإيقاف الأعمال العدائية ، ولكن شعور الصرب واليونان ثار ضد حليفتهما الخائنة ، واستأنفا الحرب ضدها ، فأسر الملك قسطنطين على رأس جيش البلغار فى سالونيكا ، وقام بحملة فى وادى استروما ، وهزمت الصرب البلغاريين عند بريجالنيكا ، وبعد ستة أسابيع كانت الخسائر فى جيش الصرب واليونان حوالى ٥٠٫٠٠٠ قتيل ، ولكن انضمام عضوين جديدين إلى الاتحاد حسنا الموقف ، فأرسلت تركيا جيشا تحت قيادة أنور باشا ، تحرك من شطلجة واسترد ادرنة ، وفى نفس الوقت عبأت رومانيا ـــ التى كانت مستاءة من تقسيم معاهدة لندن ـــ جيوشها وغزت بلغاريا البائسة ، واستولت على نقط استراتيجية هامة وهددت صوفيا.

معاهدة بوخارست

وفى أغسطس وقعت بلغاريا معاهدة بوخارست ، مع كل من الصرب واليونان ورومانيا ومن شروطها :

١ ـــ أجبرت بلغاريا أن تتنازل لرومانيا عن حصن سلسترا الذى يسيطر على الدانوب ، والجزء الجنوبى من دوبروجة البلغارية .

٢ ـــ استردت الصرب جميع شمال مقدونيا ، ومنطقة مقدونيا المزدحمة ، وموناستير التى كانت تميل للبلغار .

٣ ـــ استرد اليونان جنوب مقدونيا من فلورينا حتى حدود تراقيا الغربية .

٤ — حصل اليونان على ميناء قولة المنفذ الممكن أمام بلغاريا على بحر إيجة ، وكذا المنطقة الداخلية منه الغنية بالدخان .

٥ — تحتفظ بلغاريا بتراقيا الغربية والطريق المتواضع الموصل إلى ديداجتش ميناثها الوحيد على بحر إيجة .

نتائج المعاهدة

١ — وبذلك تجاهلت الصرب واليونان ورومانيا الدول الكبرى فى كل شيء عدا ألبانيا .

٢ — تجاهل الأتراك بقيادة أنور باشا معاهدة لندن واسترداد أدرنة ، التى قررت الدول الكبرى أن تكون بلغارية .

٣ — رفض كل من الأتراك واليونان كل قرار من الدول الكبرى ، خاص بمستقبل الجزر مثل لمنوس وساموس وغيرها .

مطالب دول البلقان

١ — ضمت الصرب حوالى مليون نفس إلى سكانها ، أو بمعنى آخر حوالى ١٠٠,٠٠٠ جندى إلى جيشها ، وكذلك اليونان .

٢ — حصلت رومانيا على بعض الميزات الاستراتيجية ، وحتى بلغاريا اكتسبت بعض الأراضى .

خسارة الأتراك

١ — إن استقلال ألبانيا قد حرم تركيا من مصدر عظيم للتجنيد ورجال الإدارة ، إذ أن معظم وزراء وحكام تركيا كانو ألبانيين .

٢ — إن هزيمة الأتراك فى الميدان كانت درسا قاسيا لهم ، مما جعلهم ينظمون جيشهم فى أول فرصة ، وقد أثبت جدارته فى الحروب التالية .

وأحسن تعليق على حرب البلقان ١٢ — ١٩١٣ ونتائجها ، هو أن كلا الطرفين المحاربين سواء كان منهزما أو منتصرا ، لم يكن يعتقد أن قرارات التقسيم

ستكون مستديمة ، فقد كانت صربيا والجبل الأسود يعلمان تمام العلم أنه لا بد من محاربة النمسا ، لكى تضعا أيديهما على ما اكتسبتاه ، وقد حاولت بلغاريا المنهزمة أن تتحالف مع تركيا والنمسا ، لتنتقم من حلفائها السابقين .

ولذلك كانت جميع دول البلقان تتوقع حربا قريبة ، وكانت تعتقد أن أية معاهدة وقعت عام ١٩١٣ لم تكن إلا قصاصة ورق .

سلوك روسيا

كان سلوك روسيا بعد حرب البلقان من الأمور الهامة ، فقد كانت تسيطر على صربيا ، وقد أخذ نفوذها يزداد فى رومانيا ، ولكنها تخلت عن بلغاريا ، وأخذ الضعف يدب إلى تركيا ، مما جعل روسيا تنتهز كل فرصة لتجاهلها ، وفى أبريل توسلت تركيا لألمانيا لترسل لها ضابطا كفئا لإعادة تنظيم جيشها ، واتفق على ألا يصل إليها إلا بعد الصلح ، وكانت ألمانيا ترغب فى بناء إمبراطورية تركية فى آسيا ، وعين الجنرال ليمان فون ساندرز قائدا عاما للجيش .

وفى ١٧ نوفمبر أعلن سازانوف وزير خارجية روسيا قلق بلاده ، وعدم موافقتها على تعيين ليمان قائدا للجيش التركى فى القسطنطينية ، وقد تأيد هذا التصريح بزيارة رئيس وزراء روسيا لبرلين ، وحينئذ توسلت روسيا لحلفائها ، واقترحت إرسال مذكرة تهديد توقعها بالاشتراك مع فرنسا وإنجلترا .

وقد وافق جراى مبدئيا على ذلك ، ولكنه اقترح تأجيل القيام بأى عمل إيجابى فى الحال ، لأن وضع انجلترا كان مماثلا لألمانيا ، إذ قد أرسلت الأولى أميرالا بحريا إلى القسطنطينية ، فى بعثة مشابهة لبعثة ليمان فون ساندرز ، وأخيرا أرسل وزير خارجية ألمانيا لسفيره فى القسطنطينية ، للوصول إلى اتفاق مع تركيا ، وقد كانت فرنسا بجانب الروسيا فى موقفها من الرغبة فى الحرب ، أما إنجلترا فكانت تميل إلى السلم ، وفى آخر يوم من عام ١٩١٣ حصل بتمان على قبول القيصر لحل مقترح ، وهو أن يعين ليمان فون ساندرز مفتشا عاما للجيش التركى ، وترك منصب قيادة الجيش التركى الأول ، وبذلك انتهت المشكلة .

روسيا والمضايق

عقدت روسيا مجلسا استشاريا فى سانت بطرسبرج ، وقررت ألا تتورط فى حرب مع ألمانيا ، خصوصا وأن موقف انجلترا غير واضح ، وفى ٢١ فبراير عقد مجلس آخر أهم من الأول ، نوقشت فيه مشكلة المضايق ، حيث قرر المجلس أنه يجب على روسيا أن تحاول ضمان سيطرتها على البوسفور والدردنيل ، وأن هذا الضمان لا يمكن الحصول عليه بدون حرب أوربية ، لا بالتشاحن مع تركيا محليا ، ويجب أن يخلق مبدئيا جو مناسب من الناحية السياسية ، حتى يؤدى إلى احتلال المضايق .

ومما لا شك فيه أن هذا القرار كان قرارا خطيرا ، إذ أن القيصر أعلن صراحة للسفير الفرنسى بعد ذلك بقليل ، « أنه سوف يستعمل القوة لإعادة فتح المضايق » ورجاه أن يصل إلى حل سريع مع انجلترا .

مفاوضات جراى مع ألمانيا

أما السير إدوارد جراى فإنه لم يكن يفكر فى أى اتفاق مع روسيا ، أو فى استعمال القوة ، فإنه كان لا يزال يعتقد أن مؤتمرا أوربيا كفيل بحل المشاكل وتحقيق السلم ، وكان يعتقد أن اشراك ألمانيا فى مؤتمر أوربى ، أضمن طريق للمحافظة على السلم ، ولذلك كان سلوكه نحو ألمانيا سليما ، وفى شتاء ١٩١٣ والنصف الأول من ١٩١٤ دارت محادثات بين انجلترا وألمانيا حول المستعمرات البرتغالية ، وسكة حديد بغداد ، ووصلا إلى حل مناسب اتفقا عليه ، وقد أرسلت ألمانيا معاهدة بغداد إلى لندن فى ٢٢ يوليو لتوقيعها ، أما مستعمرات البرتغال فلأسباب مطولة لا داعى لذكرها أوقفت مؤقتا فى مارس ، ولكن فى ٢٨ يوليو ١٩١٤ كانت ألمانيا مستعدة لاستئناف المفاوضات .

المحادثات الروسية البريطانية البحرية

كانت كل من انجلترا وألمانيا تحاول حل مشاكلها مع الأخرى , ولكن لسوء الحظ حدثت حادثة ذات أثر سىء ، فى أبريل بينما كان السير ادوارد جراى

مصطحبا الملك جورج فى زيارته لباريس ، أن ضغطت عليه فرنسا للدخول فى محادثات بحرية مع روسيا ، وقد طلب من فرنسا أن تضع الاقتراح الذى سوف يربط بين الثلاثة ارتباطا متينا .

وكانت بريطانيا حينئذ على علاقة غير طيبة مع روسيا ، ولكنها كانت مستعدة لإرضائها ، ولذلك بدأت المحادثات البحرية ، التى سرعان ما أعلنت على صفحات الصحف ، وقد استاءت لذلك ألمانيا التى كان لديها معلومات سرية عن سير هذه المحادثات ، علاوة على المحادثات العسكرية بين بريطانيا وفرنسا التى تمت فى سنة ١٩١٢ .

وقد أنكر السير ادوارد جراى وجود أى محادثات ، بل وأكد لألمانيا ذلك وإنه لمن الصعب أن تصدق ألمانيا تأكيدات السير ادوارد جراى بهـــذا الخصوص .

لودندورف والتوازن الدولى

كان لعلامات التغير الحقيقية ، التى طرأت على التوازن الدولى بعد حرب البلقان ، أثر كبير على الرجال العسكريين ، ففى ١٢ ديسمبر ١٩١٢ أرسل لودندروف مذكرة إلى رئاسة هيئة أركان حرب الجيش الألمانى ، يقول فيها إن عدم توازن القوى الدولية سيكون نتيجته الحرب ، وأظهر شكه فى انضمام إيطاليا للتحالف الألمانى والنمساوى ، وصرح بأن انجلترا لا بد أنها ستنحاز إلى جانب فرنسا وروسيا ، وأصر على تعزيز القوة الألمانية العسكرية ، خصوصا تحصين الحدود الروسية ، وأن يدرج المبلغ المطلوب فى ميزانية الدولة .

وفى ٢٨ مارس سنة ١٩١٣ عرض المبلغ المطلوب أمام الريخستاغ لأخذ الأصوات على عقد قرض بمبلغ ١٥ مليون جنيه ، وسرعان ما أصبح الموضوع معروفا للجميع ؛ وفى ٢٩ مارس أعلن أن قوة ألمانيا فى السلم ستزداد إلى ١٢٠ ألف جندى ، وفى نفس الوقت عقدت عدة اجتماعات فى مجلس النواب البلجيكى لزيادة الجيش البلجيكى ، وكانت الحكومة الفرنسية قد أعدت مشروعا بزيادة مدة الخدمة العسكرية من سنتين إلى ثلاثة وقد عجل ساسة ألمانيا وفرنسا بعرض هذا الموضوع

على البرلمان لأقراره ، ثم عدل قانون التجنيد فأنقص سن المقترعين من ٢١ إلى ٢٠ سنة ، وزيادة أقصى السن من ٤٥ إلى ٤٨ سنة ، فكان من نتيجة ذلك أن استطاعت فرنسا تجنيد أكبر عدد ممكن من الرجال .

ولم تقف روسيا مكتوفة اليد ، بل زادت قوتها في بحر سنة ١٩١٣ إلى ١٣٥٠٠٠٠ جندي، كما زيدت مدة الخدمة العسكرية ثلاثة شهور، وكان لودندورف قد كتب في أواخر سنة ١٩١٢ مذكرة بأن روسيا لا تزال متأخرة في تنظيم وإعداد قواتها العسكرية ، ورغم قوتها العددية فإنه لا يخشى منها بأس ، وكان كل يوم يمر تزداد روسيا قوة ، مما كان له الأثر الكبير على أعصاب ألمانيا .

وفي ٢٤ فبراير ١٩١٤ أخبر مولتكه ، رئيس هيئة أركان حرب الجيش الألماني ، ياجو وزير خارجية ألمانيا ، بعزيمة روسيا على زيادة جيشها، وفي الوقت ذاته أبلغ رئيس أركان حرب الجيش الايطالي نفس الموضوع ، مما أقلق كلا من ألمانيا وإيطاليا رغما من اعتقادهما أن روسيا لا تستطيع أن تقوم بحرب هجومية .

وقد وصل تقرير من سفير ألمانيا في روسيا يصف سازانوف بأنه سلمي ، ولكنه ضعيف ، وأن القواد في روسيا يعملون ضده ، ولكن في يونيو أعلن مولتكه بعد علمه بالتحضيرات الروسية الفرنسية ، أن ألمانيا مستعدة ، وأن موقفها سيكون أحسن وأكثر موافقة .

موقف رومانيا

كان أسوأ موقف هو سلوك رومانيا ، وخروجها من التحالف الألماني النمساوي ، فقد كانت مرتبطة معهما بمعاهدة سرية لا يعلم بها غير الملك وبعض الوزراء ، وكان من المحتمل ألا تحوز رضى مجلس الوزراء أو البرلمان والشعب ، لأن حوالي ٣ مليون روماني كانوا يعيشون في المجر ، ويلقون كل تعذيب واضطهاد من حكومة المجر .

وقد لفت لودندورف الأنظار إلى الخطر العسكري من خروج رومانيا من التحالف ، وذلك في أواخر ١٩١٣ وكان كلما زاد اضطهاد المجر للرومانيين ، ازداد ابتعاد الأمل في انضمام الرومانيين للتحالف الألماني النمساوي .

وفى مارس ١٩١٤ زار القيصر وليم ڤيينا ، ووجد أن كلا من الامبراطور فرانسوا چوزيف إمبراطور النمسا ، وبرشتولد وزير خارجيتها يعتقد أن رومانيا قد ماتت فعلا .

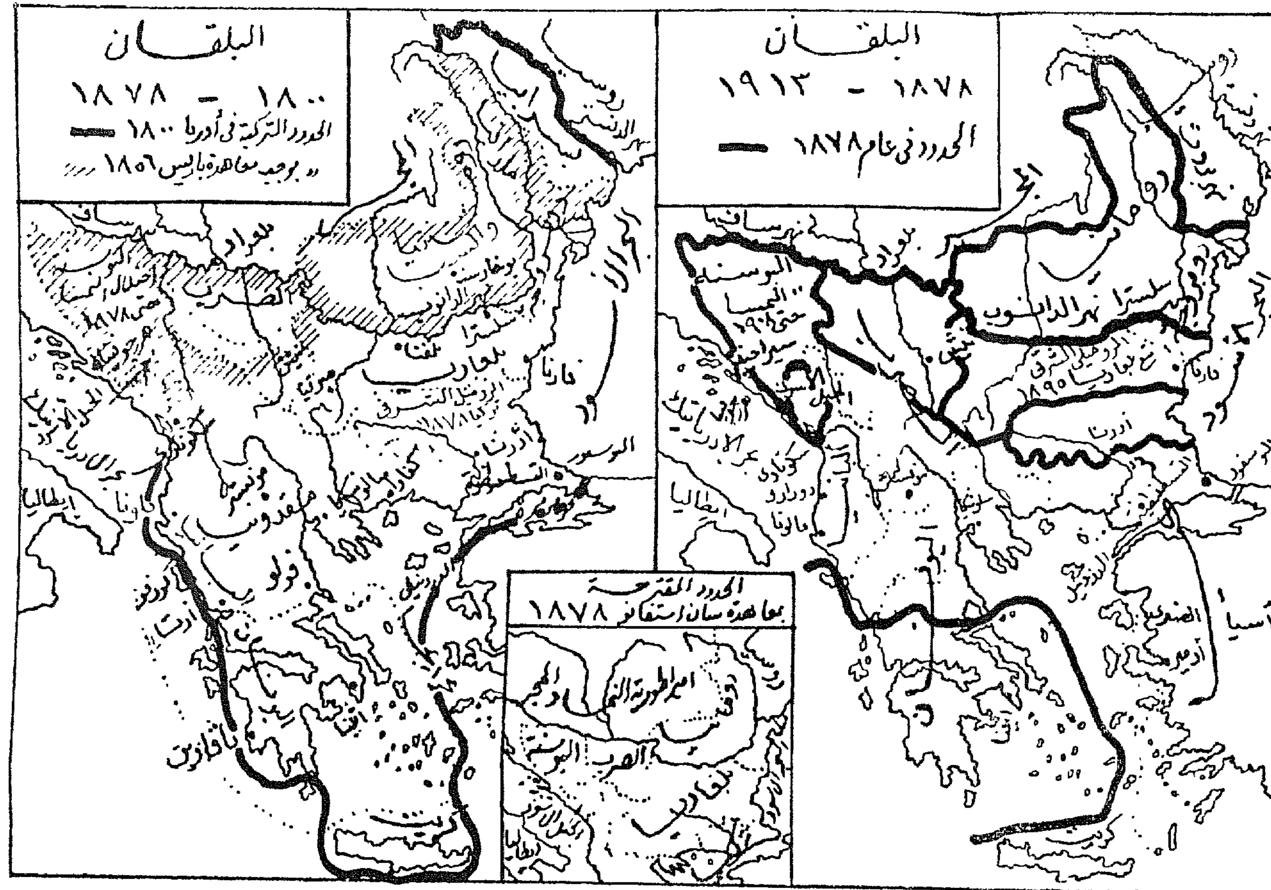
وبعد أيام قليلة تحدث مع فرانز فرديناند وريث عرش النمسا ، الذى كان ينتقد سياسة برشتولد ، وكان يهاجم المجر لسوء معاملتها لرعاياها الرومانيين ، ثم ازداد الموقف سوءاً عندما زار القيصر وليم قيصر ألمانيا زيارة ثانية فى ١٢ يونيو ، إذ أن الرعايا الرومانيين كانوا فى الفترة بين زيارتيه قد أعلنوا سخطهم على سلوك تيزاتزا رئيس وزراء المجر ، وألقيت قنبلة على مبنى مجلس الوزراء .

وقد أعلن فرانز فرديناند استياءه من المجر . واقترح بوجوب تسوية العلاقات الرومانية المجرية ، ورأى أيضاً أن من الضرورى عقد تحالف مع بلغاريا من الناحية السياسية .

الاضطراب فى الصرب وكرواتيا

ومع أن امبراطورية النمسا قد عانت الكثير داخليا وخارجيا من الخطر الرومانى ، إلا أنه لا يقارن بما لقيته من الصرب ، ففى ١٩٠٩ كانت الصرب قد تعهدت أن تعيش كجارة للإمبراطورية النمساوية ، وأن تكون علاقتها معها طيبة ، وتتخلى عن أى دعاية ضدها ، ولم تكن الصرب راغبة فى خوض غمار حرب جديدة لا فى ١٩١٣ ولا فى ١٩١٤ ، فإن تسليحها لم يكن بالكفاءة المطلوبة ، وأراضيها الجديدة تحتاج إلى تنظيم ، وروسيا غير مستعدة لدخول الحرب حتى ١٩١٤ .

وكان بالصرب حوالى أربعة ملايين من الصربيين ، وبكرواتيا ثمانية ملايين فدعا الصربيون الموجودون بكرواتيا الملايين الأربعة الآخرين للانضمام إليهم تحت تاج هابسبورج ، ورغم أن الحكومة الصربية كانت راغبة فى ذلك ، إلا أنها كانت تجد صعوبة كبيرة من الدعاية المنتشرة فى أنحاء البلاد ، وكانت الرقابة على الصحف معدومة ، وكانت تنشر ما تشاء مستندة إلى قانون حرية الصحافة .


البلقان
١٨٠٠ - ١٨٧٨
الحدود التركية فى أوربا ١٨٠٠
« بموجب معاهدة باريس ١٨٥٦
البلقان
١٨٧٨ - ١٩١٣
الحدود فى عام ١٨٧٨
الحدود المقترحة
بمعاهدة سان استفانو ١٨٧٨
بلغراد
البوسفور
إيطاليا
سلستريا
نهر الدانوب
أدرنة
فارنا
الروملى الشرقى

وقد وصل الاضطراب فى الصرب إلى قمته عام ١٩١٣ — ١٩١٤ ، وقد نادى الصرب بالاتحاد ثم ساد الاضطراب بعد ذلك فى البوسنة ودالماشيا وكرواتيا ، وأخذ كثير من الطلاب يحلم بيوغوسلافيا المتحدة ، ويؤمنون بأن كل فرد يجب ألا يتردد فى التضحية بحياته لتحرير يوغوسلافيا .

وفى سنة ١٩١٠ حاول أحد الطلاب قتل حاكم البوسنة ، ثم انتحر قبل القبض عليه ، وكانت آخر جملة تفوه بها «أترك ذلك لأبناء الصرب للانتقام لى» ، وتلا ذلك سلسلة اعتداءات على حاكم البوسنة خلال السنوات حتى ١٩١٤ ، وكان ذلك نتيجة للدعايات المنتشرة فى جميع أنحاء البلاد ، وللشعور السائد نحو مولد يوغوسلافيا .

وكان آخر هذه الاعتداءات فى ٢٨ يونيو ١٩١٤ حينما اغتال صربى من البوسنة فرانز فرديناند وزوجته فى سراجيفو ، وكان ذلك الصربى قد حضر خصيصا من بلغراد لتأدية هذه المهمة .

معاهدة فرساى ١٩١٩

يوغوسلافيا الحديثة

كان من نتيجة الحرب العالمية الأولى ، أن تمت دولة الصرب وتحولت إلى دولة جديدة ، عرفت بيوغوسلافيا .

وكان الملك اسكندر قد قاد الجيش اليوغوسلافى أثناء الحرب ، وأظهر إقداما وعبقرية . وحصل على مكافأته ، فأصبحت مملكته ثلاثة أمثال ما كانت عليه ، فقد أضيفت على الصرب الجبل الأسود ودالماشيا والبوسنة وسلوفانيا ، وزادت دولة الصرب القديمة ذات الأربعة ملايين نسمة إلى حوالى ٣٠ مليونا ، وكانت جزءا من النمسا ، أما الباقى فقد تنازلت عنه المجر راضخة .

وكان الشعب الجديد فى الدولة الجديدة معظمهم يوغوسلاف تقريبا ، من نفس الدم ويتكلمون نفس اللغة ، علاوة على أن الثلاثين مليونا كان منهم ١٢ مليونا من

أصل يوغوسلافى ، وكان من الصعب فى الماضى ايجاد اتحاد لكل اليوغوسلافيين ، بل كان من الضرورى التغلب أولا على المشاكل الدينية واختلاف الطباع .

وقد كان البرلمان محل نزاع وتشاحن بين الأحزاب المختلفة المتعددة ، ووصلت هذه النزاعات إلى حالة تنذر بالخطر ، مما جعل الملك اسكندر يلغى الدستور فى سنة ١٩٢١ ، ويحكم حكما دكتاتوريا ، ومنذ عام ١٩٣١ حاول أن يكون حكومة تمثل الأغلبية فى الدولة ، مما يتوقف عليه نجاح الحكم ، ولكنه اغتيل فى عام ١٩٣٥ وخلفه الأمير پول .

رومانيا الحديثة

استولت رومانيا أيضا نتيجة للحرب العالمية الأولى على مكاسب مادية ، على حساب المجر ، وقد كانت أسعد حظا لأنها دخلت الحرب متأخرة ، وأجبرت على السلم فى أواخر عام ١٩١٧ . ثم استأنفت الحرب ثانية فى أواخر عام ١٩١٨ .

وقد أظهر ساستها فى مؤتمر الصلح منتهى العزيمة وتحدى الدول الكبرى ، ففى عام ١٩١٩ دخلت القوات الرومانية بودابست ، وقد حصلت رومانيا على مكاسب عديدة بعد عقد المعاهدة التى تلت ذلك مع المجر ، فأصبح فى يدها ترنسلفانيا الغنية بالذهب والغابات ، وكذلك مدينة تمزفار ، وجزء كبير من أراضى المجر الخصبة التى تنتج القمح ، وعلاوة على ذلك استمادت رومانيا بوكوفينا من النمسا ، وكذلك ولاية بسارابيا العظيمة من روسيا ، وبذلك ضاعفت رومانيا حجم أراضيها وسكانها وزادت تعداد شعبها حوالى ٨ ملايين نسمة جديدة ، وكان معظمهم من الرومانيين ، ومع أن رومانيا الحديثة قد قويت ونظمت إلا أنها لم تكن دولة نموذجية حقا ، فإن رعاياها لم يحاولوا أن ينسوا الخلافات التاريخية ، ولم يكن موقع بوخارست مناسبا كعاصمة ، والحكومة فى اضطراب مستمر ، ولكن رومانيا قامت بعمل حكيم ، فرغم معارضة طبقة النبلاء فى تقسيم الأراضى ، فقد أصرت على توزيع الأرض إجباريا على الفلاحين ، وقد قامت بذلك فى جميع أنحاء رومانيا ، وكان غرضها الأساسى من ذلك هو درء الخطر البلشفيكى الذى كان يهدد أوربا .

الفصل الخامس

مصالح روسيا فى الشرق الأوسط

إن ما يقال عن مصالح روسيا فى الشرقين الأوسط والأدنى ، إذا لم يكن مساويا لمصالح بريطانيا فى الحيوية فلا أقل من أن يساويها فى الأهمية ، فإن اهتمام الدولتين بذلك الإقليم إنما يرجع إلى أسباب واحدة ، هى المواصلات والموارد الطبيعية والأمن ، ولكن الفارق هو أن بريطانيا موجودة فى المنطقة فعلا ، وهى تجاهد جهاد اليائس للاحتفاظ بما تملكه ، أما روسيا فلا تزال فى الخارج ، وهى تحاول الدخول.

أما بالنسبة لبريطانيا . فإن الشرق الأدنى يعتبر مفتاح موقعها كدولة كبرى ، وروسيا تغار من حقوق بريطانيا فى هذه المنطقة ، على حداثة عهدها ، مع أن روسيا قديمة فى هذا الأقليم ، وبقاء ملتقى الطرق العالمى تحت سيطرة أجنبية على هذا النحو ، سيظل مصدر خطر دائم على روسيا ، ولقد حاولت روسيا كثيرا أن تخرج من نطاق إمبراطوريتها البرية المقفلة ، ومن هنا كان اتجاهها نحو الشرق الأدنى ، الذى كان بمثابة المغناطيس الذى ظلّ يجذبها عشرات السنين ، ولقد اصطدمت ببريطانيا كثيرا من جراء ذلك ، وروسيا اليوم فى موقف يسمح لها بالسيطرة على ذلك الممر القريب منها ، والذى يؤدى إلى « جسر » الشرق الأدنى ، ولكن روسيا لن يهدأ لها بال ، إلا إذا سيطرت على الجانب الآخر من ذلك «الجسر» ، وأخضعته لنفوذها ، لأنها تعتبر نفسها منهزمة طالما أن البريطانيين يسيطرون على هذه المنطقة الحيوية .

ولا نستطيع القول بأن بريطانيا تنوى اتخاذ خطوات عدائية ضد الروس فى الشرق الأوسط ، ولكن الذى نستطيع أن نقطع به ، هو أن بريطانيا لن تسمح بإضعاف مركزها المتين فى تلك المنطقة ، ولذا فإن مشاركة روسيا السوفيتية لبريطانيا فى نفوذها فى هذه المنطقة سيحد من مركزها ، ولقد بعدت الشقة بين هاتين الدولتين بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية ، نظرا لشك كل منهما فى نوايا الأخرى نحو الشرق الأوسط .

والموقف الحالى لا يختلف فى جوهره عن الموقف خلال القرن التاسع عشر ، فسياسة حكومة العمال نحو الشرق ، لا تختلف عن سياسة حكومة المحافظين ، وكذلك سياسة السوفييت لا تختلف عن سياسة حكومة القيصر ، أما الذى اختلف فهى الوسائل ، فقد كان الدردنيل هو الغرض الأساسى لسياسة روسيا التوسعية ،ولكن الحرب الأخيرة أبعدت البلقان، فلم يعد خطا أماميا للسياسة الدولية ، وقد أظهرت كذلك أن المضايق قد أصبحت شيئا ثانويا بالنسبة للمصالح العالمية ، فإن حرية المضايق وحدها لا تكفى لجعل روسيا قوة كبرى ، فإن سيطرة بريطانيا على مخارج البحر الأبيض المتوسط يجعل روسيا محصورة كما هى، فلن تفر فى هذه الحالة إلا من بحيرة مقفولة إلى بحر قد قفله البريطانيون ، ولذلك فإن روسيا قد طالبت صراحة بالوصاية على طرابلس وأريتريا ، ومعنى ذلك أن مصالح روسيا قد امتدت فشملت بحر إيجة والبحر الأبيض ، بل وتعدتهما إلى المحيط الهندى .

ولا تزال كل من تركيا وإيران محتفظة بأهميتها التقليدية بالنسبة لروسيا ، رغم اختلاف سياستها نحوهما الآن ، وإنما يرجع اهتمامها بهما اليوم لأنها تريدهما كمحطتين فى طريقها ، بدلا من أن يكونا أغراضا نهائية ، كما كانا فى الماضى بالنسبة لها.

وقد أصبحت أهداف روسيا نحو المطالبة بموانىء دافئة وحقول للبترول ، وإيران أول أهدافها ، قد أصبحت مسألة ثانوية من الناحية الإستراتيجية ، ومن ناحية المصالح ، فقد أثبت الخبراء أن روسيا تمتلك فى أراضيها أحتياطيا من البترول يكفى مطالبها ، وإن كانت مناطقه لا تهيىء موانىء قريبة مناسبة ، كما هو الحال فى الأراضى المحيطة بالخليج الفارسى ، ومصالح روسيا فى البترول الإيرانى والعربى تبدو سلبية من هذه الناحية ، فهى تحاول أن تقصر استغلال هذه الموارد على أهل البلاد ، حتى تمنع الأجانب من استغلالها ، وتثبيت أقدامهم فى الإقليم عن هذا الطريق ، يضاف إلى ذلك بقاء النفوذ الروسى الإنجليزى فى إيران مدة طويلة ، قبل الانقلاب الروسى الأخير عام ١٩١٧ ، وإخفاق الروس فى الحصول على تفوق حاسم على البريطانيين فى هذه الجهات ، وما يقال عن موقف الروس من إيران يمكن تطبيقه من الوجهة النفسية على مطالبهم بضم القرص واردهان إلى أرمينيا السوفيتية ، لأن هاتين المنطقتين كانتا تتبعان روسيا فى

الماضى ، والكرامة القومية الروسية اليوم تقتضى أن تدخل هاتان المنطقتان مرة أخرى فى الاتحاد السوفييتى ، ولو أن الحكومة السوفييتية الأولى قد تنازلت عنهما لتركيا بمحض رغبتها .

وقد يعترض على هذا الكلام ، بأن لا يمكن الحديث فى ثقة عن أهداف روسيا ، التى تقبع فى غموضها خلف الستار الحديدى ، ولكن هذا الاعتراض كان يصح حتى منتصف عام ١٩٤٣ ، بالنسبة لسياسة روسيـــا فى الشرقين الأوسط والأدنى . ولكن منذ ذلك التاريخ بدأت تظهر دلائل الاهتمام الروسى بذلك الأقليم فقد اقتنع الساسة الروس بأنهم لن يستطيعوا جذب العرب إليهم إلا إذا اتصلوا بهم مرة أخرى ، وتحقيقا لتلك الفكرة أعادت روسيا تبادل التمثيل السياسى مع مصر زعيمة العالم العربى فى عام ١٩٤٣ ، ثم تلت هذه الخطوة بتبادل التمثيل مع العراق وسوريا ولبنان عام ١٩٤٤ ، ثم تلا ذلك زحف سياسى تبعا لخطة موضوعة، حلت محل سياسة الترقب والانتظار التى كانت روسيا تتبعها من قبل ، وكان الزحف موجها إلى الأجناب لا إلى القلب ، وكان من دلائل هذا الزحف الجديد مطالبة روسيا بالوصاية على إحدى المستعمرات الإيطالية السابقة فى افريقيا الشرقية ، وفى تأخير موعد انسحاب قواتها من إيران ، ومن يمعن النظر فى اتجاه هذا الزحف السياسى ، يجد خطوطه تتجه إلى قلب العالم العربى ، ولا نظن روسيا بحاجة إلى اتخاذ حركات مباشرة بعد هذا لبسط نفوذها فى العالم العربى ، بعد هذا التطويق ، إذا قدر لخطتها النجاح .

وإذا كانت روسيا عازمة على اتخاذ سياسة إيجابية نحو العالم العربى، فلن تعوزها الأسلحة التى تستخدمها ضد كل من فرنسا وبريطانيا ، فإن لديها من العوامل التاريخية والاجتماعية والنفسية احتياطيا كبيرا مضادا لها ، نظرا لماضيهما الاستعمارى الطويل فى العالم العربى . وسيجد الروس من العرب استعدادا لمعاداة الاستعمار الغربى ، ومن هذا السبيل يمكن للروس أن يرثوا مخلفات ذلك الاستعمار، دون أن يظهروا بمظهر الأنانيين ، ولكنهم سيظهرون بمظهر المنقذ .

والكثرة الغالبة من الشعوب فى الشرق الأوسط لا تدرك العيوب الإجتماعية والإقتصادية للنظام الروسى ، ولا يؤمنون بخطره على بلادهم ، ويستغل دعاة الروس

حالة الفقر والجهل السائدة فى الشرق الأوسط عامة لبث دعايتهم ، مضافا إلى ذلك أن روسيا بها حوالى الخمسة وعشرين مليونا من المسلمين ، الذين يقيمون فى جمهوريات تحكم حكما ذاتيا ، فلم يعد صعبا على الروس إذن أن يستغلوا هذه الحقيقة فى الدعاية لمذاهبهم ، مستغلين التشابه الظاهرى بين الإسلام والإشتراكية ، وتجد دعايتهم هذه آذانا مصغية أكثر مما تجد المقارنة بين الإسلام والديموقراطية .

وتعتبر الأقليات فى الشرق الأوسط سلاحا فعالا فى يد الروس ، ففى العراق حوالى ثلاثة أرباع المليون من الأكراد ، وما يماثل هذا العدد فى إيران ، بينما يقيم منهم مليون ونصف فى تركيا ، فالأكراد موزعون على هذا النحو بين دول ثلاثة ، ذلك مما يدفع هذه الملايين الثلاثة من المحاربين الجبليين إلى المطالبـــة بالوحدة ، وبتكوين دولة لهم يحكمونها بأنفسهم ، والروس الذين يتكلمون لغة كردية الأصل يقومون بدور المحرر بالنسبة للشعب الكردى ، وقد اعتاد الزعماء الأكراد أن يقوموا برحلات قصيرة داخل الإتحاد السوفييتى للاتصال بالدوائر الروسية .

وبالمثل فإن ثلاثة ملايين من الأرمن موزعون بين القوقاز وأنحاء الشرقين الأوسط والأدنى ، وهناك حوالى ربع المليون من هؤلاء الأرمن موزع فى ربوع سوريا ولبنان ، ومثل هذا العدد موزع بين تركيا وإيران ، وجميعهم من المسيحيين التابعين للكنيسة الأرمنية الأرثوذكسية ، والأرمن يتمتعون بحرية دينية كبيرة فى الأقطار الإسلامية ، وفكرة اتحاد أرمينيا تراود الكثيرين من الأرمن الموزعين فى أنحاء الشرق الأوسط ، ولعل مذبحة الأرمن فى تركيا لم تبرح الأذهان ، فلم يمض على حدوثها وقت طويل ، والأرمن يريدون العودة إلى أرمينيا السوفيتية ، وهى الجمهورية التى وقعت معاهدة القرص مع تركيا فى أكتوبر ١٩٢١ ، والتى أعيدت القرص واردهان إلى تركيا بموجبها ، ويبدو أن التعاون مع روسيا قد اكتسب ميزات لم تكن له من قبل فى نظر الأرمن المقيمين بالشرق الأوسط ، فقد هاجر الكثيرون منهم من سوريا ولبنان ومصر إلى أرمينيا ، ويفكر الكثيرون فى اللحاق بهم ، ومن هنا كان اعتماد روسيا على الأرمن كعامل من عوامل تنفيذ سياسة زحفهم السياسى فى ذلك الأقليم .

وكان هناك فى وقت من الأوقات اتصال بين الروس وبين بعض الدول العربية

مثل سوريا والعراق ولبنان وفلسطين وقت الانتداب ، وذلك عن طريق الأحزاب الشيوعيـــة الضئيلة فى تلك البلاد ، وقد ألغيت أخيرا تلك الأحزاب وقضى على دعاتها نهائيا ، وكانت تلك الأحزاب قد نظمت على أساس قومى فى ظاهرها ، لكى لا تتهم بالخيانة ، ولكى تسهل التدخل الروسى فى البلاد ؛ ولكن هذه اللعبة الفجة لم تجز على المسلمين المحافظين ، الذين ما زالوا يكرهون الشيوعية والإلحاد ويقاومونهما ، وقد استغل بعض الزعماء العرب هذه الصلات الضئيلة كسلاح يشهرونه فى وجه الدول الغربية وقت اللزوم ، ويهددونهم بالانحياز إلى الجانب الروسى إذا لم تجب مطالبهم ، وقد هدد الزعماء السوريون بذلك أثناء نضالهم المرير ضد الفرنسيين عام ١٩٤٥ . وارتفعت صيحات مشابهة فى مناسبات أخرى ، ولقد كان من العسير منع ذلك الاتصال بين الروس والعرب فى فترة الحرب .

وهكذا فإن روسيا كانت فى عام ١٩٤٥ فى موقف يمكنها من تحدى بريطانيا فى سيطرتها على الشرق الأوسط ، وقد تقدمت روسيا تلك الخطوات الجريئة التى كلفتها كثيرا من الناحيتين التكتيكية والنفسية ، فإن انسحاب القوات الروسية من إقليم أذربيجان الايرانى : الواقع شمال شرق العراق ، لم يكن الحالة الجدية الأولى التى امتحنت بها هيئة الأمم المتحدة فحسب ، ولكنه كان من الناحية الأخرى اختبارا لأهداف وأساليب روسيا السوفيتية فى الشرقين الأوسط والأدنى ، ولو كانت روسيا قد أصرت على بقاء قواتها فى إقليم أذربيجان الايرانية ، فإن ذلك كان كفيلا بإساءة سمعتها عند العرب ، ولكن إعلان روسيا أنها ستسحب جميع قواتها من الأراضى الإيرانية فى موعد معين ، إنما كان حركة ذات مدلول فى لعبتها السياسية الكبرى ، ولكنها حركة تبعث الخوف فى النفوس ، احتمالا لما قد يتبعها من خطوات ، ومن ذلك التحليل يتضح أن روسيا ليس لديها ما يبعث على استخدامه ضد الشرق الأوسط ، وإنما يعتبر الأرمن المقيمون فى البلاد العربية أداة للدعاية السوفيتية ، وكذلك الحال فى أذربيجان التى تقيم بها أقلية كردية تريد الاتحاد مع بقية الأكراد ، بينما بقية سكان أذربيجان يطمعون فى الاتحاد مع أذربيجان السوفيتية .

ولقد جعلت تلك المناورات الروسية بقية البلاد فى الشرق الأوسط تتساءل ،

متى يأتى دورها ليلتهمها الدب الروسى ، وقد فقدت روسيا كثيرا من تأثيرها النفسى على العامة فى البلاد العربية نتيجة لتلك المناورات ، ونتيجة لموقف الروس من تأييد الصهيونيين فى فلسطين ، ضد العرب المجاهدين من أجل بلادهم ودينهم وأماكنهم المقدسة .

وشعور العرب نحو روسيا اليوم مزيج من الخوف والرهبة فإن الأراضى الروسية تعتبر متاخمة للشرقين الأوسط والأدنى ، وقوة روسيا تتضخم فى أذهان العرب ، وسيلاقى الروس متاعب كثيرة من هذه الناحية إذا دخلوا فى صراع مع الكتلة الغربية حول هذا الاقليم ، والعالم ببواطن الأمور لا ينخدع بكلمات العطف على بريطانيا التى نسمعها فى الشرق الأدنى هذه الأيام ، فإنها لا تعنى أن العلاقات قد تحسنت بين العرب وبريطانيا ، ولا شك أن الروس يقدرون الموقف فى هذا الأقليم حق قدره ، فإنه موقف خليق بضمان التوازن الدولى فى العالم ، ولكن المحافظة على هذا التوازن تحتاج إلى ساسة ذوى أعصاب باردة من الجانبين .

الباب السابع

الشرق الاوسط

بعد الحرب العالمية الأولى

« لقد هزنى الحنين إلى الوطن ، وضجرت من حياتى الشريدة المنبوذة بين هؤلاء العرب ، إذ أنا أستغل مثلهم العليا السامية ، وأسخر حبهم للحرية ، جاعلا منهم أداة وآلة للنصر البريطانى »

كولونيل لورنس

من كتابه «أعمدة الحكمة السبعة»

الفصل الأول

الثورة العربية

كان العرب كأفراد على قدر كبير من الشجاعة والنخوة ، ولكنهم مختلفون ومشتتون ؛ وكان من الصعب أن يوحدوا أو ينظموا لغرض واحد هام ، وكانوا يفكرون فى بعث أمجاد العرب ، ولكنهم كانوا يحتاجون إلى زعيم يقودهم ، وقد وجدوا ضالتهم فى رجل مسن فى مكة هو الشريف حسين .

العرب والشريف حسين

لم تسمح تركيا إبان حكمها بأن يكون أى منصب فى الجزيرة العربية وراثيا إلا منصب الشريف حسين حاكم مكة ، ومكة مسقط رأس النبى عليه الصلاة والسلام ، وكان الشريف ينتسب إليه ، وبذلك فهو أشرف دم عربى ؛ وكان العرب يتساءلون دائما عن أحقية السلطان بالخلافة ، ويرون أن هذا أولى بالحسين منه ، فهو من نسل الرسول عليه السلام ، فلما قامت الحرب بدأ الانجليز فى صد الأتراك عن قناة السويس واحتلال البصرة .

وكان الشريف حسين يحلم بطرد الأتراك إلى الأناضول ، وبذلك يمكنه أن يرسل فرسانه حتى دمشق المدينة العربية القديمة ، وقد اعتمد على ولديه عبد الله (الملك عبد الله) وفيصل (ملك العراق الأسبق) ، وكان أولهما اداريا عظيما ، والآخر صاحب تأثير كبير على رؤساء القبائل ، وأخيرا أرسل الشريف خطابا سريا إلى البريطانيين بالقاهرة يعرض عليهم الثورة وتحرير جميع الشعوب العربية ، من الخليج الفارسى حتى العراق والموصل ، ومن البحر الأحمر إلى بيروت ودمشق ، وطلب مساعدة بريطانيا فى مشروعه الكبير .

تعهدات بريطانيا للشريف حسين

كان الانجليز يعلمون بكراهية العرب للأتراك ، فرأوا أن يتخذوا من الشريف

أداة ضد تركيا فشجعته بريطانيا على الثورة ، ووعدته بالمال والسلاح ، والأمداد والطائرات والمدربين ، وإن احتاج الأمر إلى قوات بريطانية ، ولم ينشر الرد البريطانى ، وكان الحسين قد طالب باستقلال جميع الشعوب العربية ، فادعت بريطانيا أنها احتفظت بمسألة استقلال فلسطين وسوريا ، ولكن الشريف حسين ادعى أن بريطانيا قد وعدته باستقلال جميع الشعوب العربية .

وقد قام بتنفيذ المشروع الكولونيل لورنس ، فأصبح صديقا لفيصل بطل العرب وأمير مكة ، وقد اختار الحسين موعد الثورة فجاءت فى صالح البريطانيين ، ففى إبريل ١٩٢٦ دهش العالم لاستسلام ٣٠٠٠ جندى بريطانى ، ٦٠٠٠ هندى للأتراك عند كوت ، ولكن فى مايو نسيت هذه الحادثة حين قام الحسين بالثورة فى الحجاز ، وأعلن أحقيته بالخلافة وتحرير بقية الشعوب العربية .

وقد لعب الذهب البريطانى دورا كبيرا فى سوريا والعراق ، وفى مارس ١٩١٧ انتقم البريطانيون لكوت ودخلوا بغداد منتصرين ، وفى خريف ١٩١٨ قضوا على آخر جيش تركى فى العراق واحتلوها كلها ، أما فى المنطقة السورية الفلسطينية فقد كان الجواسيس العرب منتشرين ، وقد دربوا بواسطة البريطانيين على أعمالهم ، وقاموا بأعمال نافعة ضد الأتراك .

وقد قدر اللنبى قيمتهم عندما دخل بيت المقدس عام ١٩١٧ ، ولما حصل على انتصاره الباهر فى المجيد فى خريف ١٩١٨ ، أرسل لورنس وفيصل ليعملا كجناح أيمن له ، شرق نهر الأردن .

قومية العرب

وقبل أن يصل فيصل إلى دمشق نادى به بعض محبذيه ملكا على جميع العرب ، وساد الشرق الأوسط تيار من القومية العربية ، وقد تضارب ذلك مع طموح دولتين أوربيتين كبيرتين ، ولكن لم يتدخل أحد فى استقلال شبه جزيرة العرب نفسها .

وكانت انجلترا قد غزت العراق والموصل ، وفلسطين وسوريا ، أما فرنسا فإنها كانت تحلم منذ أيام لويس الرابع عشر بدمشق وبيروت ، وقد تسلمت ما غزته بريطانيـــا من سوريا ، وكذلك مصطفى كمال قد عدل معاهدة سيفر فيما يتعلق

بالأراضى الفرنسية ، فإنه تبعا لمعاهدة سيفر كانت الحدود الفرنسية التركية تمتد من شمال الإسكندرونة مباشرة حتى منطقة الموصل البريطانية .

وقد دفع مصطفى كمال بالحدود الفرنسية قليلا إلى الجنوب ، تبعا لمعاهدة لوزان ١٩٢٣ .

وفى ١٩٢٠ طردت فرنسا فيصل من دمشق ، لأنه حاول تكوين مملكة عربية هناك ، وأخيرا أصبحت سوريا منطقة انتداب فرنسية ، وشملت دمشق وحلب وبيروت ، وفى الجنوب احتلت انجلترا فلسطين ، وأصبحت منطقة انتداب بريطانية مع بعض الالتزامات بإنشاء وطن قومى لليهود ، مع إرضاء الأهالى العرب الذين يكونون أغلبية .

ونظم شرق الأردن ليكون دولة تحت الحماية البريطانية ، وعين الأمير عبد الله بن الحسين أميرا لها ، ولم يستقر الموقف فى أى دولة من هذه الدول ، فقد حدثت اضطرابات كثيرة فى دمشق وبيروت ، وكذلك حدثت ثورات فى فلسطين ، واصطدام العرب باليهود فيها ، وقد اعتبر العرب أن البريطانيين والفرنسيين ليسوا محررين لهم ، ولكنهم طغاة مستعمرون .

الموقف فى العراق

أما الموقف فى العراق فكان أكثر استقرارا ، فإن فيصل لما وجد أن مملكته فى سوريا قد تبخرت ، أوجدت له انجلترا بدلا منها فى العراق ، وقد ازدهرت فى عهده ، وزادت قوة وثروة ، وكذا فى عهد خلفه الملك غازى ، ثم انتهى عهد الانتداب وأصبحت على أبواب الاستقلال ، ولكن الخطر لم ينته فربما نزل مصطفى كمال بقواته إلى الموصل ، وطرد غازى من بغداد ، ولكن ذلك لم يكن محتملا إلا إذا كانت علاقة بريطانيا بتركيا غير طيبة ، أو كانت فى حرب مع دول أخرى .

الملك حسين وابن السعود

بدأ العرب فى القيام ضد الأتراك ، كما انتهوا بالقيام ضد الملك حسين نفسه ، ففى عام ١٩١٥ بعد أن قامت بريطانيا بمساومتها مع الحسين ، رأت أنه من المناسب

أن تعمل مساومة أخرى مع زعيم عربي آخر ، وقد وجدت بغيتها فى ابن السعود الذى كان يحكم الوهابيين ، وهى قبائل شهيرة فى داخل شبه الجزيرة (نجد) ، ولم يكن أحد يعتقد أن ابن السعود يستطيع أن يطرد حسين من مكة فى مدى عشر سنوات ، فبينما كان الملك حسين يحارب تركيا بمساعدة بريطانيا ، كان ابن السعود يحارب القبائل فى الداخل معتمدا على نفسه وموارده ، وفى ١٩٢٤ انتهى من مهمته ، وصمم على التقدم إلى مكة ؛ الحصن الحصين للملك حسين .

ومنذ ألغيت الخلافة فى تركيا ، ادعى الملك حسين أنه الخليفة ، حتى ظهر له ابن السعود برجاله الأشداء ، وكانت المقاومة ميئوسا منها ، فهرب حسين من مكة ، ودخلها ابن السعود ، ولأول مرة منذ قرون أصبحت شبه جزيرة العرب تحت حكم رجل واحد ، وكان مصير الشريف حسين غريبا ، فقد ظفر أحد أبنائه بشرق الأردن ، والثانى بالعراق ، أما الأب نفسه فقد أصبح ملكا فى المدينة المقدسة ، التى حكمها أسلافه منذ سبعة قرون ، ثم أصبح خليفة لمدة ستة شهور ، وطرد بعد ذلك من مكة على يد غزاة من الصحراء ، وأخيرا لجأ إلى بيت المقدس ليموت ويدفن بها .

الفصل الثانى

تركيا الجديدة

١ — تركيا عقب الحرب الأولى

كانت التسوية فى المعاهدة التركية بعد الحرب تنقسم إلى ثلاثة أجزاء :

١ — التسوية فى أوربا وخصوصاً فى تراقيا مما كان له أكبر الأثر على كل من اليونان وتركيا وبلغاريا .

٢ — دولية المضايق والقسطنطينية وهذا يخص تركيا وانجلترا وفرنسا وإيطاليا.

٣ — مشاكل آسيا الصغرى والعراق ، وفلسطين وسوريا ، وشبه جزيرة العرب ، وهذا يخص كلا من اليونان والأتراك ، والعرب واليهود ، وقد أيقظ ذلك شعور القومية فى الشرق .

معاهدة سيفر ١٠ أغسطس ١٩٢٠

كان البلغاريون قد أقاموا فى بلغاريا الأصلية ، وتراقيا ومقدونيا لعدة قرون ، فاحتكوا مع اليونان جنوبا ، ومع الأتراك شرقا ، واشتبكوا بهم ، وكان ذلك فى كلتا الحالتين شديد الإيلام ، ولكن فى مؤتمر الصلح كان موقف الأتراك والبلغاريين موقف العدو المنهزم ، أما اليونان فكانت فى موقف المنتصر الذى يملى شروطه ، وفى تلك الآونة ظهر على المسرح ڤنزيلوس رجل الساعة لليونان ، وعاد إلى الحكم . وكان مركزه مأمونا وكان ڤنزيلوس قد طالب بكثير من الممتلكات ، مما جعله مشهوراً فى اليونان .

وقد أجبرت بلغاريا على التنازل عن بعض النقط الاستراتيجية الهامة ليوغوسلافيا ، وكذلك تنازلت عن تراقيا الغربية لليونان ، وبذلك حرمت من أى منفذ على بحر إيجه ، وعلاوة على ذلك فقد حصل ڤنزيلوس على أدرنة وتراقيا

الشرقية من تركيا بموجب معاهدة سيفر ، وبذلك أصبحت اليونان على بعد عدة أميال من القسطنطينية ، كما أصبحت المضايق من الدردنيل حتى بحر مرمرة دولية غير مسلحة ، وكان ذلك فى الواقع لتمكين الأسطول البريطانى أو أى أسطول حليف ، من الوصول إلى مدينة القسطنطينية بدون أية صعوبة فى حالة الحرب ، ولم تكن هذه المكاسب لتكفى ڤنزيلوس ، فقد كان يطمع فى بعض الممتلكات فى آسيا الصغرى ، وكانت القوات اليونانية لا تزال تحتل أزمير منذ مايو ١٩١٩ ، وقد فكر ڤنزيلوس فى أن يكوّن ولاية يونانية فى هذه المنطقة وما حولها ، وقد استطاع أن يدمج هذا التنازل فى معاهدة سيفر التى عقدها مع تركيا .

وقد لازمت ڤنزيلوس علامات سوء الطالع منذ توقيع معاهدة سيفر ، فقد رفضت كل من الولايات المتحدة ويوغوسلافيا وملك الحجاز توقيعها ، أما الأتراك فقد أجبروا على توقيعها تحت الضغط الشديد ، وأصبح موقف الجيش التركى فى آسيا الصغرى ينذر بالخطر ، ولم يكن موجوداً بها من ينفذ المعاهدة .

وبعد فترة وجيزة سقط ڤنزيلوس من الحكم ، وهرب من اليونان ، وكان لسقوطه أكبر الأثر فى حرمانها من عطف الحلفاء عليها ، فقد عاد الملك قسطنطين من منفاه إلى اليونان ، وكان موالياً لأعداء الحلفاء ، وبذلك حرمت اليونان من المطالبة بولايات أسيوية .

مصطفى كمال واليونان

لقد حطم مصطفى كمال معاهدة سيفر من أساسها ، فقد كان جندياً شجاعاً ، وكان من خلفه الوطنيون فى تركيا .

كان سلطان تركيا اليائس ووزراؤه يقيمون فى القسطنطينية ، مهددين بمدافع الأسطول البريطانى ، وكانوا قد أجبروا على توقيع معاهدة سيفر ، ولكن وجود اليونانيين الذين يكرههم الوطنيون الأتراك فى أزمير قد زاد من شعور العداوة لليونانيين ، وقد كانت الأناضول ملجأ هؤلاء الوطنيين ، ومنها أمكنهم أن يتحدّوا الحلفاء .

وقد أثار مصطفى كمال الجيش عند الدردنيل ، ولكن ڤنزيلوس هزمه فى بداية الأمر ورده على عقبيه ، وفى أوائل عام ١٩٢١ عقدت جمعية وطنية فى أنقرة ، عرفت « بميثاق أنقرة » ، وقد قررت الجمعية سيادة السلطان ، واتحاد جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية تحت السيادة التركية ، وكان معنى ذلك رفض نصوص معاهدة سيڤر ، واستعداد جنوده لغزو أى منطقة بالقوة إذا لم تستسلم .

لم يحاول ڤنزيلوس أن يخاطر بتوغله بعد الساحل لمهاجمة الأتراك ، ولكن قسطنطين الملك العائد لعرشه فكر أن يهاجم العدو فى الوسط ، وأن يتوغل نحو أنقره عاصمة مصطفى كمال ، حيث يملى الصلح فى جبال آسيا الصغرى ، وكانت خطته سديدة لو أمكن تنفيذها ، ورغم أن قسطنطين كان قائدا ذائع الصيت ، إلا أن الخبراء العسكريين ومنهم سير هنرى ولسن وفوش ، أعلنوا عدم استطاعته تنفيذ مشروعه ، ولكن قسطنطين صمم على المحاولة ، وقد شجعه على المضى فى تنفيذ مشروعه ، المساعدة المادية والمعنوية التى قدمها له لويد چورج .

أما القوات الفرنسية فى سلستيا فقد توسطت ، وأعلنت أنها سوف لا تهاجم الكماليين ، وأنها ربما أرسلت إليهم الأمداد والأسلحة .

مصطفى كمال يطرد فلول اليونانيين

كان مصطفى كمال واثقاً من الموقف ، فقد أعلن أنه ربما ينهزم أمام اليونانيين ، ولكن ذلك ليس معناه أن يحاصر ، فإنه سوف ينسحب إلى مناطق لا يستطيع اليونانيون أن يستمروا فى القتال بها حتى يستسلموا ، وفى ١٩٢١ بدأ أكبر هجوم يونانى ، ودفع إلى الأمام بمنتهى الشجاعة فوق أراض صعبة ، ولكن لم تستطع شجاعة أى مخلوق ، أن تخترق الهضبة الجبلية العديمة المياه حول أنقرة .

خمد الهجوم اليونانى قبل أن يصل إلى أنقرة ، ووقف الجيش اليونانى أمام جبهة خطيرة تمتد رأسياً فى آسيا الصغرى ، وكانت السواحل قد سيطرت عليها أو حمتها قوة بحرية ، كما سيطرت أنقرة على الداخل ، ولم يستطع اليونان التقدم أو الانسحاب ، وكانت النتيجة التى لا يمكن تجنبها . . .

ففى أغسطس ١٩٢٢ نزل مصطفى كمال بجيش كبير من الجبال ، وضرب القوات اليونانية فى عدة نقط ، ودفع أمامه بالقوات اليونانية التى حدث بها اضطراب كبير ، وفى سبتمبر سقطت أزمير فى يد مصطفى كمال ، ولم يكن ذلك نهاية لممتلكات اليونان فى آسيا الصغرى فحسب ، بل كان نهاية إقامتهم بها أيضا .

وقد قاد مصطفى كمال بعد ذلك قواته الظافرة نحو المضايق ، حيث وجدها محتلة فى عدة مناطق ، بقوات بريطانية وإيطالية وفرنسية ، وكانت القوات البريطانية لاتزال تحتل القسطنطينية ، وكانت القطع الحربية البحرية راسية فى بحر مرمرة .

وقد انسحبت القوات الإيطالية والفرنسية ، ولكن البريطانيين وقفوا ثابتين ، وأعلن لويد چورچ أنه سوف يدافع عن حرية المضايق ، ولكنه لم يكن ذا عزيمة ، كما كان واضحا من تصريحه ، فقد سبق أن أبلغ مصطفى كمال أن تراقيا الشرقية يمكن إعادتها لتركيا .

معاهدة لوزان يوليو ١٩٢٣

وقد أنتج هذا الموقف الهدنة فى ١١ اكتوبر عام ١٩٢٣ ، وبعد عام من ذلك التاريخ وقعت معاهدة لوزان فى ٢٤ يوليو عام ١٩٢٣ ، وأهم شروطها :

١ — استعادت تركيا أدرنة وتراقيا الشرقية من اليونان .

٢ — طرد جميع اليونانيين سواء كانوا رسميين أو أفرادا عاديين من آسيا الصغرى .

٣ — نقصت مساحة المنطقة المحايدة فى المضايق .

مصطفى كمال وتركيا الجديدة

وبانتصار مصطفى كمال عسكريا رفض أن يخضع لأى تحديد فى التسليح ، وبذلك أصبحت تركيا القوة المعادية الوحيدة التى لم يحدد تسليحها أو عدد قواتها ، وقد كانت معاهدة لوزان فى صف تركيا ، فإنه عدا البند الخاص بالمضايق ، فإن مصطفى كمال كان فى موقف قوى يؤهله لتحدى الدول الكبرى .

ولكى يستمر فى تحديه نقل عاصمته من القسطنطينية المعرضة إلى أنقرة ،

وقد ضرب لتركيا مثالا للحاكم النموذجى ، فمنذ ١٩٢٣ قام بالأعمال الآتية :

١ — طرد جميع الأجانب من تركيا .

٢ — ألغى الخلافة عام ١٩٢٤ فلم تكن تتمشى مع خططه ومشروعاته .

٣ — أصبحت تركيا جمهورية وأخذت من أخلاق الغرب وارتدت ملابسه .

٤ — عمم التعليم فى جميع أنحاء البلاد .

٥ — ألغى حجاب المرأة واندمجت فى التعليم .

المأساة الأرمنية

إن مأساة أرمينيا تعتبر من أسوأ ما عرف التاريخ ، وعلى رجال مصطفى كمال تقع مسئولية المذابح البشرية ، والأعمال الأرهابية التى نفذت فى هذه الحركة .

لم يمكن حتى الآن حصر عدد الأرمن الذين ذبحوا ، ولكن يمكن إجمالا معرفة أن حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ أرمنى قد افنوا عن آخرهم ، وذلك من ٢٠٠ر٠٠٠ر١ هو تعداد الأرمن .

ولكن هذه الأهوال لم تضع حدا لمأساة أرمينيا ، فإن الروس كانوا قد احتلوا ارضروم عام ١٩١٦ ، ولكن قيام الثورة عام ١٩١٧ جعل الجيش الروسى يصبح فى حكم المعدوم .

وقد استعاد الأتراك بالتدريج لاما يخصهم أصلا من أرمينيا ، ولكنهم دخلوا باطوم والقرص واريڤان ، وكان أنور قد ذهب بعهده ، ولكن مصطفى كمال ومن خلفه ، لم يكن يعمل بجهل ، فكان تقدمهم مصحوبا بضريبة الدم من الأرمنيين ، فنى سيلشيا ذبح كل من بقى فيها من الأرمنيين .

وحتى اريڤان نفسها قلب أرمينيا الروسية وعاصمتها ، كان عليها أن تدفع ضريبة الدم لوحشية الأتراك ، وأخيرا أضيف حوالى ١٠٠ر٠٠٠ نفس آخرون إلى قائمة الموت .

تاريخ أرمينيا

كان الأرمنيون منبوذين من العالم كالبلاشفة ، وكانت القوات البريطانية بعد

الهدنة تحافظ على النظام فى شرق القوقاز ، حينما قامت جمهوريات جورجياواريڤان واذربيجان ضد تركيا ، وأخيرا تدخل البلشفيك لإغاثتهم ، وقد حسن تدخلهم الموقف بعض الوقت ، ووقعوا بعد ذلك معاهدة مع الأتراك فى ١٦ مارس١٩٢١ وبهذه المعاهدة سلمت روسيا فى باطوم والقرص ، وبذلك ضاع ثلثا أرمينيا منها ، أما ما تبقى من جمهورية أرمينيا فقد عرف بجمهورية أريڤان ، وانطوى تحت نفوذ السوفييت .

وكان الأتراك قد وافقوا فى معاهدة سيفر على إبقاء وطن قومى للأرمنيين ، وكان الرئيس ولسن قد عين حكم لتعيين الحدود ، فحدد الحدود لمسافة بعيدة . حتى وصل إلى ارزنجان فى الغرب، ولكن هذا لم يكن إلا اتفاقا على الورق ، وقد تجاهل مصطفى كمال هذا الجزء من معاهدة سيڤر ، حينما دخل فى معاهدة لوزان ١٩٢٣ ، وقد اعترفت الدول باتفاق مصطفى كمال مع السوفييت ١٩٢١ ، وأنكرت أى اتفاق آخر يخص أرمينيا .

وكانت نتيجة ذلك أن أصبح الأرمن جميعا خارج الحدود التركية ، ولكن لا يزال هناك بعض منهم داخل الحدود الروسية الجديدة ، وكانت جمهورية اريڤان السوفيتية ، الخاضعة للنفوذ السوفييتى ، آخذة فى الإنتعاش فحفرت الترع واستخرج النحاس الخام ، وعملت التجارب لزراعة القطن بها ، أما باقى الجيش الأرمنى رغم أنه كان لا يتعدى المليون — فكان يستعد لاظهار حيويته وشجاعته ، وقد تقوى بعد ذلك بمهاجرين ولاجئين من الخارج ، وساعدتهم بعد ذلك معونة روسيا .

وقد ازداد عدد السكان بشكل سريع لم يعرفه التاريخ ، فتمكنوا من وقاية أنفسهم أخيرا ، بعد عدة قرون عاشوها فى أهوال واضطراب .

إن محاولات مصطفى كمال وأنور إفناء شعب بأكمله ، تعتبر جريمة لا مثيل لها فى التاريخ ، وإن القسوة التى وضعت بها الخطط ونفذت ، كان الغرض منها مقاومة أى انتقاد ، ولكن التاريخ لا ينسى : فقد سجلت تلك الفظائع على الأتراك ، وأثبت عليهم أولئك الضحايا ، الذين ماتوا على أيديهم ، وحشية لا تليق بالحيوانات ، بله الإنسان المتحضر :

٢ — تركيا الكمالية

فى عام ١٩٢٣ ، بعد عشرة أعوام فى حروب مستمرة ، فى ليبيا وحروب البلقان ، والحرب العالمية الأولى ، ثم فى آسيا الصغرى بعد ذلك ، خرجت تركيا ممزقة الأوصال ، وفقدت غالبية أراضيها التى كانت تتبع الإمبراطورية العثمانية .

وبالرغم من أن تركيا اليوم محدودة فى آسيا الصغرى وأرمينيا وتراقيا الشرقية ، فإنها لا تزال تحتفظ بأساس الإمبراطورية العثمانية ، وكان الأتراك قد أقاموا على سواحل آسيا الصغرى ، وهضاب الأناضول فى العصور الوسطى ، وهى لا تزال إلى اليوم موطن المزارعين الأتراك .

وإن تركيا لتعتبر فى الواقع من منطقة البحر الأبيض ، إذ أنه على الرغم من أن معظم أراضيها قارى أكثر منه بحرى ، إلا أن المناطق الأكثر سكانا وإنتاجا تقع خلف شواطىء بحر إيجة ، والبحر الأسود ، وشرق البحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من تطور الصناعة الحديثة فى تركيا ، فإن اقتصادياتها لا تزال تعتمد على الزراعة والرعى ، فإن نصف البلاد تقريبا جبال وصحارى وهضاب ، ولكنها قد أصبحت تنتج الحبوب وبعض مواد التغذية الأخرى ، وتنتج الدخان والتين والعنب للتصدير .

وتركيا تمتلك مصادر معدنية قيمة ، لم تستغل بعد الاستغلال الصحيح ، فإنها أحد المصادر الرئيسية لإنتاج الكروم ، كما أنها تنتج فحما كافيا لحاجتها ، وكذلك النحاس والحديد ، وقد استعملت حديثا بعض آبار الزيوت ، ويمكن استغلال القوى المائية ، كما أن لتركيا مصدرا طبيعيا هاما هو الغابات ، ولا سيما التى تقع فى الجبال الشمالية على سواحل البحر الأسود .

وبالنسبة لطول سواحل تركيا ، فإن موقعها يجعلها مناسبة للتجارة ، وأزمير أهم موانيها وقاعدتها البحرية الأولى ، والقسطنطينية ميناء هام لتراقيا الشرقية ، علاوة على عدة موانىء هامه تتزايد فى البحر الأسود .

ومنذ أن أصبحت تركيا جمهورية عام ١٩٢٣ ، فإنها أخذت تنظم حياتها

الاجتماعية ، وعلاقاتها مع الدول الأخرى ، وكان من الواضح أن الإمبراطورية العثمانية ، التي كانت متحالفة مع « قوى دول الوسط » في الحرب العالمية الأولى قد قضى عليها ، وكان يبدو لمدة معينة أن الأناضول ستقسم بين الإيطاليين واليونانيين ، تبعا لشروط معاهدة سيڤر عام ١٩٢٠ ، ولكن هذا الطالع السيء قد تغير ، بقيام الثورة الوطنية بقيادة مصطفى كمال ، الذى لقب بالغازى ثم « أتاتورك » أى أبى الأتراك ، فقد هزم الفرنسيين ، وكذلك اليونانيين الذين كانوا يحتلون منطقة أزمير بتصديق من الحلفاء وقد توج مصطفى كمال نصره بإجبار اليونانيين على التفاوض معه ، وعقد معاهدة جديدة هى معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ، وكان من نتائج هذه المعاهدة أن أصبح مصطفى كمال رئيساً للجمهورية التركية ، التى تشمل آسيا الصغرى وتراقيا الشرقية ، وأصبحت أنقرة عاصمة لها ، وبموجب معاهدة لوزان تم إبدال حوالى المليون من اليونانيين ، الذين كانوا يقيمون فى القسطنطينية وأزمير ، بحوالى نصف مليون من الأتراك الذين يعيشون فى اليونان ، وبذلك أصبحت تركيا فى عهدها الجديد تركية الجنس إلى حد بعيد .

وباستثناء الأكراد المسلمين دينا ، والفارسيين أصلا ، وبعض الأمريكان المسيحيين ، فإن هناك أقلية من العناصر الإيطالية والروسية واليهودية .

وقد أدخل مصطفى كمال حتى وفاته عام ١٩٣٨ ، كثيراً من الاصلاحات والتطورات على الجمهورية متشبها بالدول الغربية ، فألغى نظام الخلافة عملا بمبدأ فصل الدين عن الدولة ، وحسن التعليم والزراعة والصناعة ، وكان يحتاج بالطبع إلى رأس مال أجنبى للقيام بهذه المشروعات ، وقد رغب فى الحصول عليه دون أن يضحى باستقلال بلاده ، لعلمه أن الإمبراطورية العثمانية كانت ضحية رأس مال الدول الغربية .

وكان لابد لنجاح سياسته من أن يسود السلام تركيا لفترة طويلة ، ولذلك دخل فى مفاوضات مع الدول المجاورة ، انتهت بميثاق البلقان عام ١٩٣٤ مع رومانيا ويوغوسلافيا واليونان ، ثم ميثاق الشرق الأوسط (سعد آباد) مع العراق — وإيران — وأفغانستان عام ١٩٣٧

وقد بدأت علاقة تركيا مع جارتها روسيا حسنة ، وظلت كذلك، وكان لحسن حظ تركيا أن ثورة الأتراك القومية وجدت العون فى الثورة البلشفية ، إذ كان محور سياستهما عداء لبريطانيا ، ولكن رغم هذه البداية السيئة ، فإن العلاقات التركية البريطانية قد تحسنت فى السنوات الأخيرة ، ولا سيما بعد الحرب الحبشية الإيطالية ، التى أظهرت خطورة إيطاليا ، وأثبتت لتركيا أن انجلترا ذات أهمية خاصة ، بوصفها دولة ثابتة الأركان فى البحر الأبيض ، وكانت تركيا على خلاف مع فرنسا حول سنجق الاسكندرونة ، ولكن هذا الخلاف قد حل سلمياً ، ومصالح تركيا فى هذه المنطقة تقوم على اعتبارين :

١ — الأتراك أكثرية بين السكان .

٢ — ميناء الأسكندرونة ذو قيمة استراتيجية خاصة ، فهو المخرج الطبيعى إلى كيليكيا الشرقية .

وفى خطاب للسنيور موسولينى أشار إلى احتمال توسع إيطاليا فى آسيا ، مما جعل القلق يسود دوائر أنقرة ، رغم أن السنيور موسولينى عاد فوضح بعد ذلك أنه يعتبر تركيا دولة أوربية .

وفى النهاية فإن تركيا ظلت على علاقة طيبة مع ألمانيا، التى أصبحت فى السنوات الأخيرة عميلها الرئيسى ، وأرسلت إليها ضباطا ألمان لتدريب الجيش التركى، وتركيا اليوم عضو قوى معترف به فى المحافل الدولية ، فإن جيشها الكفء ، وموقعها الاستراتيجى الهام ، يبين لنا مدى تأثير علاقة تركيا بالدول الكبرى على سياستها الخارجية .

أهمية تركيا الاستراتيجية

وأهمية تركيا كعامل مؤثر فى السياسات الدولية ، ناتج عن موقعها الجغرافى ، ففى أراضيها يمر مضيق الدردنيل ، وبحر مرمرة ، والبسفور ، التى تصل البحر الأبيض بالبحر الأسود ، علاوة على أن تركيا الآسيوية تكون أرض عبور بين أوربا من جهة ، والشرق الأوسط وأفريقيا من جهة أخرى .

كما أنها تقع على الطريق البرى من وسط أوربا إلى مصر والخليج الفارسى ، ومما تقدم لا يصعب علينا أن نفهم أهمية هذه الاعتبارات مجتمعة بالنسبة للدول الكبرى ، ولذا فإن ألمانيا إذا استمرت فى سياسة الزحف نحو الشرق ، ونجحت فى الوصول إلى شواطىء البحر الأسود فى أوكرانيا الروسية ، فإن تركيا يمكن أن تعتبر عائقاً ضد تقدمها نحو الخليج الفارسى والمحيط الهندى .

ويجب ألا ننسى أن المضايق التركية ممرات هامة ، حيث أنها تؤدى إلى أراضى الدانوب الواطئة فى رومانيا وبلغاريا ، وكذا إلى الأراضى الخصيبة ذات الإنتاج فى روسيا السوفيتية .

وإذا تذكرنا التعهدات البريطانية الحديثة لكل من رومانيا وتركيا ، وأدخلنا فى اعتبارنا حقيقة أن محور روما — برلين كان يصنع حاجزاً أرضياً ، يفصل بين أوربا الغربية من جهة وبين روسيا وبولندا ورومانيا من ناحية أخرى ، وكذلك فى البلطيق يمكننا أن نقدر بسهولة الأهمية الاستراتيجية لهذه القوى فى وقت الحرب ، إذا ما حصلت على حرية المرور فى المضايق التركية .

الفصل الثالث

إيران

ميدان الصراع بين الدول الكبرى

كانت إيران فى القرن التاسع عشر ، بمثابة السد المنيع الذى يقف فى وجه أعداء بريطانيا، ويحول دون وصولهم الى الهند، والجبال والصحارى الإيرانية والأفغانية، تكون خطاً دفاعياً طبيعياً عن الممتلكات البريطانية ، وكان السبيل الوحيد للدول المعادية لبريطانيا ، إلى مستعمراتها فى الهند ، هى ايران وافغانستان ، ولا مفر لهذه الدول — مهما اختلفت طرق الزحف — من المرور عبرها ، وقد أخفق نابليون والقيصر ولهلم الألمانى فى حملتهما على الهند ، وحاول القيصر بول الروسى فى عام ١٨٠١ الزحف على الهند أيضاً ، عن طريق تركستان وأفغانستان ، فلم يحقق تماماً لأنه توقف حيث وصل وتوسع جنوباً .

والقسم الشمالى من إيران الحديثة يقع بجوار الروسيا ، وهو أكثر أقسامها تقدماً وعمراناً وسكاناً ، والجنوب فقير ومعظمه صحارى قاحلة ، وأكبر المدن الإيرانية واقعة فى الشمال، ومنها العاصمة طهران ، وتجارة ايران منعشرات السنين قبل الحرب العالمية الأولى ،كانت تتجه شمالا الى روسيا ، وهناك علاقات ثقافية بين القوقاز وإيران ، وكان التقدم السياسى فى إيران فى تلك الفترة يسير تبعاً لروسيا ،

وكانت بريطانيا تقوم بدور الغريم لروسيا ، خلال القرنين التاسع عشر والعشرين فى إيران ، وفى عام ١٩٠٧ عقد البريطانيون والروس اتفاقاً يضع حداً للمنافسة بينهما ، وقد قسم هذا الاتفاق إيران إلى منطقتى نفوذ : الشمالية منهما تخضع للنفوذ الروسى ، اما الجنوبية فتخضع للنفوذ البريطانى ، وقد تركت منطقة فاصلة بين منطقتى النفوذ ، خاضعة للنفوذ الإيرانى الحق ، وذلك منعاً لحدوث اصطدامات أو اضطرابات ، وذلك رغم أن الحكومة الأيرانية المسلوبة الحق ، قد ظلت تحكم البلاد كلها صورياً منذ توقيع تلك الاتفاقية .

وقد تمت تجزئة إيران عام ١٩١٥ ، وكان الاتفاق الانجليزى الروسى متعلقا بالمعاهدة السرية الخاصة بالدردنيل ، وقد طلبت بريطانيا — فى مقابل مطالب الروسيا فى تركيا — بسط نفوذها على المنطقة المحايدة فى شمال إيران ، فأجيبت إلى طلبها ؛ بشرط أن تجرى حكومة القيصر تحسينات فى حدودها الإيرانية الداخلية .

وبعد إعلان الثورة فى روسيا ، وحدوث الانقلاب فيها عام ١٩١٧ ، جلت الجيوش الروسية عن إيران ، واحتلت بريطانيا المناطق الشمالية ، واخضعت كذلك قسما من القوقاز ، وفى عام ١٩١٨ وعام ١٩١٩ ، كانت بريطانيا سيدة الموقف من باكو إلى الخليج الفارسى ، وكان النجاح البريطانى أكثر مما كان متوقعا فقد أنهار أعداء بريطانيا جميعا : تركيا وروسيا وألمانيا .

ولكن النجاح لم يبلغ ما كان مقدرا له ، فقد شبت ثورة داخلية فى إيران ، متأثرة بالانقلاب الذى حدث فى جارتها روسيا ، وكذلك بحركة مصطفى كمال فى تركيا ، وقد نادى الثوار بإلغاء الامتيازات ، ومنع التدخل الأجنبى فى شئون إيران ، وفسخ المعاهدات المجحفة بحقوق إيران ، وتحريرها من سيطرة الجيوش الأجنبية ، وكانت تلك الحركة موجهة بالطبع إلى بريطانيا .

وفى عام ١٩٢٠ نزلت القوات الروسية من جديد على الأرض الإيرانية ، فى بهلوى على بحر قزوين ، فانسحب الجيش البريطانى القليل العدد من المنطقة الشمالية ، فاحتلها الروس مرة أخرى وأقيمت حكومة إيرانية للثوار تحت إشراف الروس فى رشت ، وظل الجيش الأحمر فى الشمال مدة طويلة ، ولم يغادر إيران إلا بعد إخلاء البريطانيين للمناطق الوسطى .

وقد تغير الحال بالنسبة لبريطانيا ، فى أوائل العقد الثانى من القرن العشرين ، بعد النجاح العظيم الذى نالته عام ١٩١٨ وعام ١٩٢٠ ، وقد انسحبت بريطانيا من المواقع التى احتلتها تلبية لداعى السياسة ، فانسحبت من الجزء الذى سبق أن احتلته من القوقاز ، ولم تكره تركيا الكمالية على تنفيذ معاهدة سيفر التى أكرهت عليها ، وتنازلت كذلك عن بعض الامتيازات لأفغانستان ، التى تناضل من أجل استقلالها .

وحينما قبلت بريطانيا إلغاء معاهدة الصلح مع إيران ، وقعت إيران فى نفس الوقت معاهدة مع روسيا ، تنازلت بمقتضاها عن جميع حقوقها الاقتصادية ، فأجازت للروس إنشاء طرق وسكك حديدية فى الأراضى الإيرانية ، ومنحتهم امتياز البترول وحق استثمار خطوط التلغراف والتليفون ، وإنشاء الموانىء ، وحق إنشاء بنك روسى .

وكان يقود الثورة فى إيران قائد من قادة الجيش هو رضا خان ، وسرعان ما تولى الحكم ، وفى عام ١٩٢٣ فر الشاه السابق إلى أوربا ، وفى عام ١٩٢٥ خلع عن العرش وحل محله بعد شهور قلائل رضا شاه خان بهلوى ، فأبطل جميع الامتيازات الأجنبية فى إيران عام ١٩٢٧ ، وقام بإصلاحات جريئة فى شتى المرافق .

وقد خسرت روسيا المركز الممتاز الذى اكتسبته فى مستهل العقد الثالث من القرن الحالى ، وزادت الشركة الإنجليزية الإيرانية إنتاجها ، واحتلت إيران المرتبة الرابعة بين الدول المنتجة للبترول ، وربحت الخزينة الإيرانية كثيرا من ضريبة الامتياز ، وقد أثارت الاتفاقات التجارية مع روسيا السخط العام ، وعدم الارتياح بين الإيرانيين .

وفى هذه الفترة كانت دولة ثالثة تتغلغل بنفوذها إلى اقتصاديات إيران ، وهى ألمانيا ، ويرجع هذا النفوذ إلى بعدها عن مسرح المنازعات الدائمة بين روسيا وبريطانيا ، وإلى موارد ألمانيا وكفاءتها الاقتصادية ، وكان هذا النشاط تجديدا أو بعثا لمشروع ألمانيا القديم (الزحف نحو الشرق) ، فى سبيل الحصول على البترول لحروبها الوشيكة الوقوع ، وفى أوائل العقد الثالث كانت تجارة ألمانيا مع إيران فى المرتبة السابعة ، ثم قفزت إلى الثانية فى عام ١٩٣٨ ، وتضاءلت فى نفس الوقت تجارة بريطانيا مع إيران ، عند اندلاع نيران الحرب الأوربية ، وتقدمت ألمانيا لتحتل المرتبة الأولى ، وذلك فى عام ١٩٣٩ وعام ١٩٤٠ ، وسطع نجمها هناك فى عام ١٩٤١ ، وقد حشدت روسيا قسما من جيوشها فى القوقاز وتركستان ، لمقاومة المتاعب التى يسببها الألمان هناك .

وقد حققت روسيا بجيوشها ما عجز هتلر عن تحقيقه عام ١٩٤١ ، فقد احتلت قواتها شمال إيران ، كما احتلت الجيوش البريطانية جنوبها ، وخلع الشاه ونفى إلى

جزر الموريشيوس حيث توفى ، وتولى السلطة ولى عهده محمد رضـــا شاهبور ، واستقالت الحكومة الإيرانية على الأثر ، وحولت إيران إلى ممر للمواصلات ، لنقل الإمداد إلى الروسيا من الحلفاء .

وقد كفلت الاتفاقية الموقعة بين بريطانيا وروسيا عام ١٩٤٢ استقلال إيران ووحدتها ، وتعهدت الدولتان بالجلاء بقواتهما المسلحة بعد ستة شهور من انتهاء الحرب ، ولم تشترك الولايات المتحدة لأنها لم تكن دخلت الحرب بعد ، ولكنها تعهدت بذلك فى مؤتمر طهران .

وامتيازات البترول تلعب أدوارا متباينة ، فى سياسة كل من الدول الكبرى حيال إيران ، فبريطانيا والولايات المتحدة تطمعان فى البترول، والضمانات السياسية هى النتائج الطبيعية ، أما موسكو فتطمع فى إمتيازات سياسية ، والبترول ثانوى بالنسبة لهـا ، لتوفر موارده لديها ، وخصوصا بعد اكتشاف حقوله الجديدة خلف الأورال .

وقد ظلت روسيا ترقب وسائل زيادة إنتاج البترول ، التى تتبعها كل من بريطانيا والولايات المتحدة منذ عام ١٩٤٢ ، بينما هى تسعى لمد نفوذها السياسى ، أما موقف الإيرانيين فإنه موقف المشمئز من السياسة الروسية ، ويفضلون منح امتيازات للشركات البريطانية والأميركية .

وفى ٢ سبتمبر عام ١٩٤٤ ، قررت إيران — بعد مشورة بريطانيا — رفض جميع الطلبات للحصول على امتيازات البترول ، طالما بقيت الجيوش الأجنبية داخل الحدود الايرانية ، وقد تكونت شبه جبهة من إيران وبريطانيا وأميركا ، مما جعل روسيا تحتج على موقف إيران منها .

وفى مطلع عام ١٩٤٥ نشطت العناصر الموالية للروس فى إيران ، وقامت مظاهرات طالبت الحكومة بالاستقالة ، وقيام حكومة جديدة ، وطالب رئيس الحزب الموالى للروس بمنح امتيازات بترول لروسيا ، وعقد ميثاق تعاون معها ، وقد اتضح فى مؤتمرسان فرنسيسكو ميول الحكومة الإيرانية للتعاون مع الروس ، وفى ٢٢ ابريل من نفس العام استقالت وزارة السيد حكيمى ، بعد أن طلبت جلاء جميع القوات الأجنبية من إيران .

وقد أعلن الروس بعد ذلك أنهم سيجلون عنها فى موعد محدد ، وقد تم ذلك الجلاء ، وقد أحرج ذلك مركز البريطانيين فى إيران ، فاضطروا للجلاء بدورهم ، رغم مصالح الأميرالية البريطانية فى بترول عبادان .

وقد حاول الروس — ولا يزالون يحاولون — تغيير النظم فى إيران ، حتى يطمئنوا إلى وجود دولة موالية على حدودهم ، وكانت آخر المحاولات ذلك الانقلاب الذى حدث فى أذربيجان ، ولكن الحكومة الإيرانية أعادت الأمن إلى نصابه مرة أخرى ، لأن تدخل الروس لم يكن مباشرا ، وإنما كان تشجيعا ، ومدداً بالمعونة غير المباشرة .

ويمكن القول بأن إيران خاضعة فى هذه الآونة للنفوذ الإقتصادى الأميركى ، والسياسى البريطانى ، ولعل الروس يقفون موقف المترقب حتى تحين فرصتهم للانقضاض بمعونة العناصر الموالية لهم .

الفصل الرابع

البلقـــان

شبه جزيرة البلقان مقسمة جغرافيا إلى جزئين هامين :

المنطقة القارية فى الشمال ، التى تمتد بين الأدرياتيك والبحر الأسود ، وتنتمى إلى وسط أوربا ، والمنطقة الأخرى التى هى عبارة عن شبه جزيرة اليونان ، المحصورة بين بحراليونان وبحر إيجة ، وتتبع هذهالمنطقة إقليمالبحرالأبيض المتوسط.

وشبه جزيرة البلقان وطن لعدة شعوب حصلت على استقلالها من الإمبراطورية العثمانية ، ونظمت دولها بعد حروب البلقان من ١٩١٢ — ١٩١٣ ، ثم الحرب العالمية الأولى ، فإنه بعد الحرب الكبرى مباشرة ، وخلال تسويات السلم ، زادت رقعة كل من رومانيا واليونان ، وتحولت الصرب إلى يوغوسلافيا الحديثة ،ونقصت مساحة بلغاريا ، واستعادت ألبانيا مركزها ، وفى الخمسة عشر عاما الأخيرة قامت هذه الشعوب بقيادة نفسها قيادة حكيمة ، ووطدت علاقاتها الدولية إلى حد ما ، وينبغى أن نذكر هنا أن مطامع الدول الكبرى وتدخلها فى البلقان ، هو السبب فى عدم استقرار الحالة فى البلقان .

كما أن انهيار الإمبراطوريات فى المجر وروسيا ، والإمبراطورية العثمانية ، قد أقنع أهالى البلقان أن بلادهم يجب أن تكون لهم وحدهم ، وقد أثبت التدخل الإيطالى المسلح فى ألبانيا أن المشاكل فى البلقان ، إنما مرجعها إلى تدخل الدول الكبرى فى شئون البلقان .

رومانيا

وبالاختصارفإن رومانيا تقع خارج شبه جزيرة البلقان، عدا منطقة دوبروجة الصغيرة ، جنوب دلتا الدانوب ، فهى تقع فى حوض الدانوب الأدنى ،وهى تتبع

إقليم البحر الأبيض المتوسط من ناحية واحدة ، هى أن مخرجها البحرى يقع فقط عبر البحر الأسود ، ثم إلى البحر الأبيض .

وبالرغم من أن رومانيا تتمتع بأساس قومى متين ، فإن حوالى ثلث سكانها من جاليات أجنبية ، ويكونون أقليات معظمها من المجريين — والألمان — والبلغار واليهود .

وهناك نقطة ضعف أخرى نتجت من امتداد حدودها لمسافة طويلة، وتعرضها إذ أنها تحد بخمس دول ، منها اثنتان هما المجر وبلغاريا ، المحتمل انضمامهما لألمانيا فى حالة وقوع أى تعد ، ورومانيا مهمة إقتصاديا لما تنتجه من البترول والحبوب «قمح وذرة» ، ويستبدل معظمه بالبضائع الألمانية ؛ علاوة على أن رومانيا بجنوب بولندة ، تقع على الطريق من ألمانيا إلى أكرانيا الروسية ؛ وقبل تعهدات بريطانيا الحديثة فى مساعدتها لرومانيا فى حالة أى اعتداء ، فإن سلامتها كانت غير مضمونة .

وقد تحالفت رومانيا مع بولندة تحالفا متبادلا ، كان الغرض الأولى منه أن يكون عائقا فى وجه روسيا ، كما أنها عضو فى ميثاق البلقان ، الذى لا يضمن مساعدة الدول المشتركة فيه إلا إذا هاجمتها إحدى دول البلقان .

يوغوسلافيا

بالرغم من أن معظم يوغوسلافيا تقع فى شبه جزيرة البلقان ، فإن هذه الدولة تتبع حوض الدانوب ، إذ أن معظم أراضيها المأهولة والمنتجة تقع فى الشمال ، وهى تحد إيطاليا والنمسا ، والمجر ورومانيا ، بينما فى الجنوب لها ثلاث دول مجاورة : اليونان — بلغاريا — ألبانيا ، وبالرغم من أن يوغوسلافيا تمتلك ساحلا ضيقا ممتدا على بحر الأدرياتيك ، ورغم أنها تستخدم الدانوب لنقل حبوبها إلى البحر ، فإنها مرتبطة بأواسط أوربا سياسيا واقتصاديا ، أكثر من البحر الأبيض المتوسط ويوغوسلافيا تتكون من عدة أجناس من جنوب سلافيا ، وكرواتيا والصرب ، فإذا اختلفا فى اللغة ، فلا شك هم مختلفون فى الدين والعادات ، والثقافة والتاريخ القومى ، ولذا فإن يوغوسلافيا ظلت معرضة للاضطرابات الداخلية ، وخصوصا بين السلافيين والكرواتيين ، ولكن تحت ضغط الحوادث الحديثة ، مثل زحف

ألمانيا نحو الجنوب الشرقى ، وحركة إيطاليا فى ألبانيا ، سهلت من تسوية المشاكل بين الصرب وكرواتيا ، وأصبح من المحتمل جدا أن تقف يوغوسلافيا متحدة مع بعضها ، إذا ما هاجمتها إحدى الدول القوية المجاورة لها .

وإذا كانت يوغوسلافيا تتكون من عدة أجناس ، وهذا يضعفها ، علاوة على طبيعتها الجبلية التى تحد من اتحادها بعض الشىء ، فإن بها كذلك بعض الأقليات الأجنبية ، من المجريين والألمان والألبانيين ، وهذه الأقليات قد تسبب بعض المشاكل الدولية ، وقد تحسنت علاقاتها مع إيطاليا بموجب معاهدة عقدت معها عام ١٩٣٧ ، تعهد فيها الطرفان بعدم الدخول فى حرب ضد الآخر ، كما أن يوغوسلافيا عضو فى ميثاق البلقان ، ولكن علاقاتها الإقتصادية مرتبطة ارتباطا وثيقا مع ألمانيا عميلها الأكبر ، فى الحبوب والبوكسيت (خام الكبريت) .

ويجاور يوغوسلافيا سبعة دول ، منها ثلاثة هى إيطاليا ـ وهنغاريا ـ وبلغاريا ، وكان لها مطالب قديمة فى تعديل حدودها على حساب يوغوسلافيا ، علاوة على أنها ليس لها مخرج على البحر الأبيض المتوسط تسيطر عليه ، ولذا فإن موقع يوغوسلافيا الآن لا تحسد عليه .

فإذا فرض أن يوغوسلافيا كانت يوما ما غرضا لهجوم قوات معادية ، فإنها سوف لا تكون محمية ، إذ أن الإيطاليين فى شمالها الشرقى ، وكذلك فى ألبانيا ، علاوة على وجود الألمان فى النمسا مع بلغاريا والمجر ، كل ذلك يجعلها محاطة من جميع الجهات .

بلغاريا

إن انضمام بلغاريا فى الحرب العالمية إلى الوسط ، جعلها تعانى الكثير نتيجة هذه الحرب ، ورغم أن البلغاريين كالصرب ، لهم تاريخهم القومى المجيد فى العصور الوسطى ، فإن دولتهم لا تزال صغيرة ، حيث أنها لم تحصل على استقلالها من الإمبراطورية العثمانية إلا منذ عام ١٨٧٨ ، وقد أظهر حلفاؤها (رومانيا ـ الصرب اليونان ـ الجبل الأسود) لها العداوة ، وانضموا إلى عدوتهم تركيا ، وهزموا بلغاريا فى حرب البلقان عام ١٩١٣ ، وفى الحقيقة فإن مساحة بلغاريا قد نقصت

قليلا بعد الحرب الكبرى عما كانت عليه بعد حرب البلقان الثانية .

وقد فشلت بلغاريا فى استعادة دوبروجة ، وخسرت كثيرا من المراكز الاستراتيجية التى استولت عليها يوغوسلافيا ، وتركت بدون مخرج إلى بحر إيجة .

إن بلغاريا مملكة محدودة السكان والموارد، وأى محاولة هجومية تحاول بلغاريا أن تقوم بها لاستعادة حدودها القديمة ، سيقف فى طريقها ميثاق البلقان ، الذى لم تنضم إليه بلغاريا ، فى حالة اعتدائها على إحدى دوله ، ستجد نفسها محاطة بدول معادية لها ، ويجب أن نبين أن بلغاريا مرتبطة إقتصاديا مع روسيا ، وأنه فى حالة أى حرب لا بد لبلغاريا من أن تنضم إلى قواتها .

اليونان

حصلت اليونان على إستقلالها بمساعدة الرأى العام البريطانى ، فقد ثارت ضد حكامها الأتراك ، ومنذ ١٨٢٩ وأراضيها فى ازدياد مستمر ، وتشمل اليونان الآن شبه الجزيرة ، علاوة على كريت وجزر اليونان ، وكثير من جزر بحر إيجة مع بعض الأجزاء من مقدونيا وتراقيا الشرقية ، التى احتلتها بموجب معاهدة لوزان عام ١٩٢٣ ، وهذه الممتلكات أحسن ما لدى اليونان ، إذ أن معظم أراضيها جبلية ، وغير منتجة ، وبالرغم من أن كثيرا من المعادن موجود فى اليونان ، فإن معظمها لا يعتبر إنتاجا مناسبا ، والذى يزيد عن حاجة البلاد هو الدخان والعنب والتين .

ولكن اليونان ذات أهمية كبيرة فى مسائل البحر الأبيض المتوسط ، بالرغم من قلة مواردها فإنها ذات سواحل طويلة ممتدة ، مليئة بالموانى الصالحة والجزر ، فإن جزيرة كورفو تواجه أسفل اليونان ، وبها ميناء جيد ، ولكنها على مرمى نيران المدافع من الساحل الألبانى ، وفى الحقيقة أن كريت تفتقر إلى الموانىء الهامة ولكن هناك الكثير من الموانىء فى بحر إيجة مثل لمنوس وميتيلين ، وتسيطر ميناء سالونيكا على الطرق المتفرعة إلى الشمال نحو صوفيا وبلغراد ، ثم للغرب إلى إلى دورازو فى ألبانيا ، وللشرق نحو استامبول ، ومن ذلك تظهر أهمية اليونان بالنسبة للعمليات الحربية البرية والبحرية .

وقد عرضت حركة إيطاليا فى ألبانيا عام ١٩٣٩ اليونان إلى خطر مباشر جديد ، ولكن هذا الخطر لا يختص باليونان وحدها ، إذ أنه يهدد التوازن الاستراتيجى فى شرق البحر الأبيض المتوسط بالاختلال .

وتعتبر رومانيا وبلغاريا داخلتين فى النطاق الروسى . فقد حدث فيهما انقلاب شيوعى عقب الحرب العالمية الثانية ، أما يوغوسلافيا فرغم أنها تدين بمبادىء الروس ، إلا أنها تحاول التحرر من سيطرة موسكو برياسة الماريشال تيتو ، ومساعدة الإنجليز والأميركيين .

وتتعرض اليونان فى هذه الفترة لمحنة الحرب الأهلية ، بين الشيوعيين بقيادة ماركوس ، وبين قوات الحكومة تعاونها قوات الولايات المتحدة ، فى هيئة بعثات عسكرية — بناء على طلب اليونان — ويتلقى ماركوس المعونة من الدول الشيوعية المجاورة ، مثل ألبانيا ، ولا يزال الوضع مغلقا هناك ، والصراع فى البلقان يدور الآن بين الكتلة الشرقية والكتلة الغربية .

الباب الثامن

الشرق الأوسط والحرب العالمية الثانية

« إنى أشك فى أنه كان باستطاعتنا
القيام بحملة شمال أفريقيا ، وإتمامها
بنجاح ، لولا المساعدات التى قدمها لنا
العرب بمحض اختيارهم » .

إرنست بيفن

الشرق الأوسط والحرب العالمية الثانية

لعب الشرق الأوسط فى الحرب العالمية الثانية دورا هاما ، بل وكان مسرحا لعمليات حربية فاصلة ، ولذا لم تتجاهل الحلفاء أهميته الحيوية فى سير دفة الحروب والتى انتهت بانتصار الديمقراطية ، وسنتناول فى هذا الفصل أهم الحوادث التى دارت فى دول الشرق الأوسط ، وتأثيرها على بقية الدول .

ويجب ألا يغرب عن بالنا أهمية مصر من النواحى السياسية والاستراتيجية والاجتماعية ، فإن تأثيرها على العالم العربى ، ومركزها كملتقى للمؤتمرات السياسية ومنطقة تجمع للجيوش المتحالفة ، جعل الحلفاء يقدرون أهميتها . ويضعون نصب أعينهم أهمية الاحتفاظ بصداقتها .

اعلان ايطاليا الحرب

فى ١١ يونيو ١٩٤٠ أعلنت إيطاليا الحرب على كل من بريطانيا وفرنسا ، فقطعت مصر علاقاتها معها تنفيذا لمعاهدة ١٩٣٦ ، وبعد جلسة سرية طويلة فى البرلمـــان ، أعلن مجلس النواب سياسة الحكومة بازاء الحرب ، وهى تقديم كل مساعدة ممكنة للدول الديمقراطية ، التى تحارب للعدل والحق ، ثم وافق مجلس الشيوخ على تلك السياسة فى اجتماع سرى آخر ، وأصدر بيانا رسميا بين فيه أن مصر سوف لاتدخل الحرب ، إلا إذ هوجمت بإحدى الوسائل الآتية :

١ ــ إذا غزت الجيوش الإيطالية أرض مصر .

٢ ــ إذا ضربت المدن المصرية بقنابل الطائرات .

٣ ــ إذا ضربت الأغراض العسكرية المصرية بالقنابل .

ورغم تباين وجهات النظر بين الأحزاب المختلفة فى البلاد ، إلا أن الحكومات المتعاقبة لم تورط البلاد فى حرب لا نفع من ورائها .

وفى ٢٦ يونيو قدم على ماهر باشا استقالته من رياسة الوزارة ، وأعلن أسباب

استقـــالته ، وهى إصرار البريطانيين على دخول مصر الحرب ، ولكن انجلترا انكرت جميع تلك الشائعات ، وأعلنت أنها لاتطلب إلا التعاون معها فقط .

وبعد اجتماع جلالة الملك بزعماء البلاد للتشاور ، قبل استقالة على ماهر باشا وأسند رياسة الوزارة إلى حسن صبرى باشا ، الذى ألفها فى ٢٧ يونيو ١٩٤٠ ، ورغم حرج الموقف فقد قبل حسن صبرى الوزارة ، مظهرا ولاءه للعرش الكريم فى هذه الفترة العصيبة ، وقد عارض حزب الوفد فى ذلك ، وأعلن أنه لا بد أن تتولى الأمر حكومة محايدة ، وأن حكومةصبرى باشا ضعيفة ، ولاتستطيع مواجهة الموقف ، ولكن الواقع أن وزارة صبرى باشا علاوة على ما أنجزته من الأعمال الهامة ، فقد قدمت كثيرا من المساعدات للحليفة ، وظل حسن صبرى مستمرا فى نشاطه إلى أن سقط ميتا فى البرلمان ، وهو يلقى خطاب العرش فى ١٤ نوفمبر ١٩٤٠ وبموته حرمت مصر من سياسى قدير مخلص يعتمد عليه ، وحرمت بريطانيا كذلك من صديق مخلص لها .

وقد قامت حكومته بإنجاز كثير من الأعمال ، فقد وقع فى عهدها الاتفاق المصرى البريطانى ، الخاص بشراء بريطانيا لجميع محصول القطن المصرى بأثمان مناسبة ، وقامت بعمل نظام التموين بالبطاقات ، كما ساعدت بريطانيا باعتقال كثير من الإيطاليين والأجانب غير المرغوب فيهم .

غزو بريطانيا

كان موقف بريطانيا فى نهاية السنة الأولى للحرب لا بأس به ، فإن نجم ألمانيا وإيطاليا لم يكن ساطعا كالعام المنصرم ، وكانهتلريعتقدأنه باجتياح بلجيكا وفرنسا ، وبالاستيلاءعلى الأسطول والجيش الفرنسيين ، يستطيع أن يشن هجومابحريا وجويا على الجزر البريطانية ، من شواطىء القنـال الانجليزى والمحيط الأطلنطى ، وقد اعتمد فى تقديره للموقف ، على أن الشعب البريطانى سوف تنهار معنوياته نتيجة لهذا الهجوم .

وكان الدور الذى ستؤديه إيطاليا يتلخص فى التدخل فى البحر الأبيض المتوسط وتحطيم الأسطول البريطانى ، وغزو مصر وقطع طريق المواصلات الإمبراطورى

عند السويس ، ثم تعمل مركزا للاتصال بين قوات جرازيانى ودوق أوجستا فى شرق إفريقيا .

وبذلك يمكن لهتلر التقدم بعد ذلك إلى العراق وإيران والهند ، ولكن هذا الأمل لم يكن إلا أضغاث أحلام ، فإن الأسطول الفرنسى الذى كان هتلر يحلم بالحصول عليه ، قد استولى الأسطول البريطانى على جزء منه ، بينما أصبح الجزء الباقى معطلا عديم التسليح ، ولم يستطع الأسطول الإيطالى الضعيف أن يمنع حتى ضرب القواعد الليبية من البحر .

التأهب لمواجهة الغزو

تحولت بريطانيا فى الفترة من يونيو إلى أغسطس عام ١٩٤٠ إلى بركان ثائر ، فقد أخذت بريطانيا بأقصى ما عرف عنها من حيوية ونشاط ، تعد أسلحة المقاومة والنصر ، لجندت جميع منشآتها وعبقرياتها ومواردها للدفاع عن الإمبراطورية ، وقد بدأت بعد ذلك حرب الاستنزاف التى ستطول ، وذلك بعد أن انتهى أجل الحرب الخاطفة التى أعلنها المحور ، وقد تنبأ العالمون ببواطن الأمور بفشل الديكتاتورية للأسباب التالية :

١ — إزدياد قوة بريطانيا على مر الأيام ، علاوة على الخطر الذى ينتظر الإيطاليين فى إفريقيا ، وخصوصا بعد استمرار المستعمرات الفرنسية فى الانضمام إلى حركة الجنرال دى جول .

٢ — أن قوة السوفييت الجوية ستمنع المحور من توجيه كل قوته الجوية إلى بريطانيا ، لأنهم سيضطرون إلى حماية أجنابهم أثناء الهجوم ، ولذا يجب أن يحتفظوا بنصف قوتهم الجوية كاحتياط .

٣ — ضعف الأسطول الإيطالى وعدم تمكنه من القيام بالواجب المكلف به .

٤ — مساعدة الولايات المتحدة للحلفاء ، فقد ألقت بكل انتاجها الصناعى إلى أحضان بريطانيا .

تحطيم الاسطول الفرنسي عند وهران

وفى ٤ يوليو ١٩٤٠ دمر الأسطول البريطانى القطع البحرية الفرنسية الراسية فى ميناء وهران ، وكان السبب المباشر لتلك الخطوة ، هو خوف انجلترا من استيلاء المحور على باقى الأسطول الفرنسى ، لاستخدامه فى غزو بريطانيا ، علاوة على أن قائد الأسطول الفرنسى الأدميرال جنسول رفض التفاوض مع الأدميرال البريطانى سمرفيل . أما القطع الفرنسية الراسية فى الإسكندرية ، فقد بقيت راسية هناك متجمعة ، وقد بقيت ثلاث سنوات دون أن تشترك فى أى عملية .

مشكلة قناة السويس

قطعت حكومة فيشى بعد ذلك علاقتها ببريطانيا ، وقد نتج عن ذلك مشكلة قناة السويس ، وقد كان المسئولون عن إدارة قناة السويس يقدمون لبريطانيا كل معونة ممكنة ، وكانت الإمدادات تمر بانتظام ، ورغم أن القناة مفتوحة لجميع المحاربين وفقا للمعاهدات المختلفة ، إلا أن إيطاليا قد تحاشت الاقتراب من القناة ، فقد كانت القوات المصرية والبريطانية تحرسها ، يعاونها الأسطول والسلاح الجوى البريطانى .

ورغم أن الألمان كانوا قد استولوا — نتيجة غزوهم لفرنسا — على كثير من ممتلكاتها ، التى يحتمل أن يكون ضمنها سندات شركة القناة ، إلا أن ذلك لم يكن له أى تأثير حربى على القناة .

ويرجع حياد القناة فى وقت الحرب أولا إلى فرمان الامتياز عام ١٨٥٤ ، الذى أصدره الخديو محمد سعيد باشا ومنحه لفرديناند ديلسبس ، ثم أيد ذلك مؤتمر القسطنطينية الدولى عام ١٨٨٨ الذى قرر حرية الملاحة فى وقت الحرب حتى للسفن المحاربة .

تكوين الجمعية الفرنسية الوطنية بمصر

وفى ٢٤ يوليو بعد مرور شهر على الهدنة الفرنسية ، تكونت الجمعية الفرنسية الوطنية بالقاهرة ، تحت رياسة مسيو راؤل بونيتو ، وكان الغرض الأساسى منها

هو جمع الفرنسيين على اختلاف ميولهم الحزبية للاستمرار فى مقاومة العدو ، وقد صرح مستر ايدن وزير الخارجية البريطانية فى أحد اجتماعات الجمعية بما يلى (أن وجود حركة فرنسا الحرة يضمن لبلادكم الحق فى التكلم يوم يزول نظام هتلر وموسولينى المخيف) .

وقد عاون هذه الحركة اللورد كليرن السفير البريطانى وعقيلته ، وحضر الجنرال كاترو من الهند الصينية ، وعين مندوبا للجنرال ديجول ، وقد وجد أن الحالتين المادية والمعنوية تسمحان بخلق قوات محاربة برية وجوية ، أظهرت كفاءتها فى معارك الحبشة ، والصحراء الغربية ، والحملة السورية .

القوات الإيطالية تدخل اليونان

وفى ٢٦ أكتوبر ١٩٤٠ دخلت القوات الإيطالية اليونان ، فقد اتهمت إيطاليا اليونان بأن سياستها نحو الشعب الألبانى كانت سياسة إرهاب ، مع أن ذلك لم يكن صحيحا ، وقد طلبت إيطاليا من اليونان ضمانا لحيادها ، أن تمنحها الأخيرة بعض النقط الاستراتيجية الهامة فى أراضيها ، لتحتلها قواتها المسلحة طول مدة الحرب ، فلما رفضت اليونان هذه المطالب ، أعلنت إيطاليا الحرب عليها ودخلتها .

وكانت الخطة المبدئية للقوات الإيطالية هى مفاجأة الجيش اليونانى ، قبل أن يكون لديه الوقت الكافى للتجمع فى ابيروس ، ثم الزحف بسرعة حتى نهر كالاماس .

وقد دارت المعركة بين الفريقين . وكان النصر فى جانب اليونانيين ، وانسحب الإيطاليون متكبدين خسائر فادحة إلى الأراضى الألبانية فى اليوم الثانى عشر للمعركة ، ورغم أن القوات الإيطالية قد تولى قيادتها ثلاثة من القواد (فيكونت براسكا — سودو — موسولينى) ، فإن زحف القوات اليونانية كان ناجحا للغاية ، تحت قيادة ميتاكساس وباباجوس .

معركة تارنتو

فى ١١ نوفمبر ١٩٤٠ حصل الأسطولان الجوى والبحرى البريطانى على نصر حاسم ، فقد استطاع التوغل حتى دفاعات ترنتو القاعدة البحرية ، ودمرت عدة

سفن إيطالية كانت راسية فى الميناء ، وكانت النتيجة أن بقيت ثلاث قطع فقط صالحة بالميناء ، وقد كان لهذه المعركة تأثير كبير على توازن القوى البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، بل تعدى تأثيرها إلى الموقف البحرى فى العالم أجمع ، وقد رفع ذلك الروح المعنوية عند الشعبين المصرى واليونانى .

هجوم جرازيانى

كان الغزو الإيطالى لمصر متوقعا فى يونيو ، وما أن انتصف سبتمبر حتى أصبح على وشك التنفيذ ، فقد زحف فولان ميكانيكيان للعدو لا يستهان بقوتهما على الشريط الساحلى للصحراء الغربية ، وتوغلا فى الأراضى المصرية ، ثم احتلت القوات الإيطالية سيدى برانى .

وقد كبد السلاح الجوى البريطانى العدو خسائر فادحة عند سيدى برانى وبقبق ، كما قام الأسطول بضرب تجمعات الإيطاليين على الساحل ، وكان يبدو أن الهجوم سيفشل لأن زحف جرازيانى كان بطيئا وعلى نمط واحد ، وكانت الحملة المكونة من عربات ديزل كبيرة أغراضا واضحة للسلاح الجوى ، رغم أن استراتيجية الفاشيست كانت بسيطة وواضحة ، إلا أن الهجوم لم يجر بعزيمة ، ويجب ألا ننسى ما عانته القوات الغازية من الملاريا والدوسنتاريا وعدم توفر المياه ، فقد كان مرتب الجندى ثلثى جالون من الماء ، هذا علاوة على انتشار الحمى الصفراء .

تأثير توغل جرازيانى فى الأراضى المصرية

ولقد أثار توغل الإيطاليين فى الأراضى المصرية ، مسألة إعلان مصر الحرب على إيطاليا ، ولكن عبد الحميد باشا سليمان وزير الدولة المصرى ، صرح بأن دخول القوات الإيطالية أرض مصر لن يغير من سياسة الحكومة نحو الحرب .

وقد خالفه فى الرأى كثير من زعماء البلاد ، وعلى رأسهم المغفور له أحمد ماهر باشا رئيس الهيئة السعدية ، وأصر على إعلان الحرب ، ولكن اسماعيل صدقى باشا كان من المناصرين للحكومة فى عدم دخول الحرب ، وكان رأيه فى الحرب « أنها دائرة بين فريقين على أرض فريق ثالث لا شأن له فيها » .

هجوم ويفل (ديسمبر عام ١٩٤٠)

كان النصر الذى حازته القوات البريطانية عند سيدى برانى ، دليلا على أنها أكفأ وأصلب عودا من العدو الذى يواجهها ، وأصبح من الواضح أن القوات الإيطالية فى شرق ليبيا ، قد عرضت نفسها لموت محقق لا نجاة بعده ، ففى ثمانية أسابيع تمكن ويفل — بعد دراسة واستعداد دقيقين — أن يزحف بقواته حوالى ٤٠٠ ميلا ، واستطاعت القوات البريطانية أن تدمر القوات الإيطالية عن بكرة أبيها ، وكان عددها حوالى ١٥٠,٠٠٠ ، وبذلك أصبحت برقة فى يد الحلفاء ، وقد كان لهذا النصر الحاسم تأثير كبير على الموقف فى الشرق الأوسط ، فإن مصر وقناة السويس قد أصبحا آمنين ، علاوة على أن بنغازى قد ظلت طوال مدة الحرب ميناء بحريا ، وقاعدة جوية استراتيجية هامة ، وقد ثبت للعالم أجمع أن الاستعداد الحربى الإيطالى لا يعتد به ، وأن إيطاليا ليست إلا شوكة يغص بها المحور .

أزمة العراق

زحف فيلق إفريقيا (الألمانى) فى الأراضى المصرية فى ٣٠ ابريل عام ١٩٤١ ووصلت قوات المحور إلى الحدود المصرية ، وفى ذلك الوقت حدثت أزمة العراق ، نتيجة لحركة قام بها رشيد عالى الكيلانى رئيس الحكومة العراقية ، بمعاونة أربعة من القواد العراقيين ، وقد عارضوا فى نزول القوات البريطانية إلى الأراضى العراقية مما زاد الأمر تعقيدا .

وكان الغرض الأساسى من هذه الحركة ، هو إعداد الأمر للألمان ليجدوا كل شىء مهيأ ، بمجرد وصولهم إلى العراق ، تبعا للخطة الموضوعة ، وقد هاجمت القوات العراقية مراكز السلاح الجوى البريطانى فى الحبانية ، وسرعان ما أرسلت إمدادات من الهند ، فأنزلت عند البصرة وزحفت داخل الأراضى العراقية ، فقضت على الحركة قبل أن تستفحل ، وقد قام السلاح الجوى البريطانى من قواعده بالقطر المصرى وفلسطين بمعاونة القوات التى نزلت فى البصرة .

وقد تدخل مجلس الوزراء المصرى لحل المسألة ، فطالب من الحكومة العراقية

أن توقف النشاط الجارى فى العراق ، مراعاة للسلم فى هذه الظروف ، ولكن العراق رد بأن تركيا قد توسطت ، وأن هناك مفاوضات جارية فى هذا الشأن فعلا ، وبذلك توقف نشاط المحور فى العراق .

غزو كريت

وفى نهاية مايو ١٩٤١ بدأت المعركة البحرية الجوية فى كريت ، وبعد صراع عنيف تمكن جنود المظلات الألمان من الاستيلاء على الجزيرة ، رغم ما تكبدوه من خسائر فادحة ، وبذلك أصبح الشرق الأوسط مهددا من جهات ثلاث ، هى الشمال والغرب والجنوب .

سوريا وحكومة فيشى

بعد أزمة العراق واجه الحلفاء مشكلة أخرى ، وهى سياسة حكومة فيشى فى سوريا ولبنان ، وكان يمثلها الجنرال دنتز ، وقد حضر إلى مصر الجنرال ديجول فى تلك الفترة ، وأصدر تصريحا عبر فيه عن وجوب طرد قوات هتلر من سوريا ، وعدم السماح للعدو باتخاذ قاعدة فى منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط .

وقد أظهر الجنرال دنتز ولاءه للمحور ، رغم مناشدة السفير البريطانى بمصر والمارشال ويفل لحكومة فيشى ، ألا تتعاون مع المحور ، ولذلك فقد بدأت الأعمال العدائية بين قوات فيشى والحلفاء فى ٩ مايو ١٩٤١ ، وزحفت قوات الحلفاء إلى سوريا ، من قواعدها فى العراق وفلسطين ، وفى ١٠ مايو طلب دنتز الهدنة ، عندما أصبحت قواته فى موقف حرج ، وقد وافق على جميع طلبات الجنرال ولسن القائد العام .

تعيين ليتلتون وزيرا الدولة فى الشرق الأوسط

وفى أوائل يوليو ١٩٤١ عين مستر أوليفر ليتلتون وزيرا للدولة فى مصر ، وأصبح ممثلا لوزارة الحرب فى الشرق الأوسط ، وقد كانت هذه الخطوة من الأهمية بمكان كبير ، فقد أظهرت أن بريطانيا تنوى بسط نفوذها على منطقة الشرق

الأوسط ، ولم يكن اختصاص وزير الدولة يتعلق بالمسائل المصرية البريطانية ، فقد كانت من اختصاص السفير ، وإنما من اختصاصه المشاكل الناتجة عن الحرب ، وكذلك المسائل السياسية التى كان القائد العام يعالجها فيما مضى ، وقد قام وزير الدولة بكثير من الأعمال ، التى كانت ملقاة على عاتق القائد العام ، والتى كانت ذات صبغة سياسية وليست من المسائل الحربية ، وكان من أبرز هذه المسائل علاقة الحكومة البريطانية بالجنرال ديجول والفرنسيين الأحرار ، وإمبراطور الحبشة ، وكذلك إدارة أراضى العدو المحتلة .

البعثة العسكرية الامريكية

وفى ٢٤ نوفمبر ١٩٤١ وصلت أول بعثة أمريكية عسكرية ، برياسة الجنرال مكسويل إلى القاهرة ، للإشراف على المساعدة الحربية الممكن تقديمها إلى الحلفاء فى الشرق الأوسط ، كما وصل إليها الجنرال ادلر وأنشأ أول قاعدة جوية تنفيذا لقانون الإعارة والتأجير ، وبذلك أصبحت مصر على بعد ستة أيام من الولايات المتحدة .

الحملات الحربية فى شرق أفريقيا

ثورة الحبشة

رغب الميجور جنرال ونجت والكابتن توماس همفرى فى إعادة حركة لورنس والعرب فى الحبشة ، فنظما العصابات الحبشية الكثيرة ، والتى قدمت مساعدات كبيرة للجنرال ويفل وقواته ، ففى ١٥ يناير ١٩٤١ عبر الإمبراطور هيلاسلاسى الحدود من الخرطوم ، فى قاذفة قنابل من السلاح الجوى البريطانى ، واعتصم بالجبال انتظارا للحظة الحاسمة ، للقيام بهجومه بعد أن جمع أعوانه وقواته .

هجوم الحلفاء

وقد كانت خطة الحلفاء القيام بهجوم كبير من كسلا ، بالقرب من حــــدود

السودان، وكانت قوات الحلفاء قد استعادتها وزحفت فى أراضى العدو، وشن هجوم آخر فى الوقت نفسه على أرتريا، بينما تجمعت قوات جنوب أفريقيا فى كينيا للتقدم شمالا.

وقد استمر الزحف فأصبح العدو فى موقف الدفاع عن ثلاث جهات، فإن الهجوم أصبح مقبلا من الصومال وأريتريا والحبشة، وكان العدو قد حفر مواقعه عند كرن، ليستر الطريق الموصل إلى أسمرة، وكان على قوات الأمبراطورية أن تشق طريقها فى أرض يزيد ارتفاعها عن ٦٠٠٠ قدما، تحت أشعة الشمس المدارية المحرقة، ولكن ويڤل استطاع بعزيمته الحديدية أن يجبر العدو على الاستسلام.

وقد احتل الحلفاء قسمايا، الميناء الهام فى الصومال الإيطالى فى ١٥ فبراير. وفى ٢٢ مارس أسر حوالى ٩٠٠٠ جندى من العدو، كما استعيدت بربرة عاصمة الصومال البريطانى فى منتصف مارس، وفى ٢٧ مارس سقطت كرن وهرر نهائيا فى يد البريطانيين، وتلا ذلك استسلام مصوع فى التاسع من أبريل. وفى العاشر منه أعلنت أديس أبابا مدينة مفتوحة.

وفى مايو ١٩٤١ دخل النجاشى عاصمة ملكه مزهوا بانتصاره، وكان يوم دخوله موافقا مرور العام الخامس، على دخول الغزاة الفاشيست أرض وطنه.

زحف الألمان فى البلقان

استطاعت اليونان أن تطرد الإيطاليين من أراضيها، ولكن ألمانيا لم تكن لتستطيع الوقوف مكتوفة الأيدى إزاء ذلك، فإنها كانت مصممة على احتلال رومانيا فى المستقبل القريب، وهذا هو السبب فى النشاط الألمانى المتزايد فى صوفيا وبخارست، وكانت بلغاريا قلقة، وتخشى أن تظن تركيا أن مجرد انضمامها إلى المحور يعنى أنها ستعتدى عليها مستقبلا، ولذلك وقعت مع تركيا إتفاقا وديا، تعهدت فيه كل منهما بعدم الإعتداء على جارتها، ثم تلا ذلك إعلان إنضمام بلغاريا إلى المحور، وكان هتلر مستعدا للهجوم على اليونان ويوغوسلافيا من رومانيا وبلغاريا.

وفى هذه الأثناء كانت المحادثات جارية بين بريطانيا وتركيا، لعقد تحالف بينهما، وكان لهذه المحادثات أثر كبير فى الدول المجاورة، وقد أعلنت تركيا أنها ستقاوم بكل قوة أى اعتداء أجنبى يمس استقلالها.

ولقد بذلت محاولات كثيرة لإبعاد بلغاريا عن المحور ، ولكن تمسك فيولف بالمحور ، جعل بريطانيا تقطع علاقاتها مع بلغاريا ، وتلا ذلك دخول قوات الألمان الأراضى البلغارية .

موقف يوغوسلافيا

كانت تحكم يوغوسلافيا حكومة محايدة ، وكان الملك بطرس الثانى قاصرا وتحت الوصاية ، وكان الوصى عمه الأمير بول ابن عم الملك بطرس ، وقد اتهم سيموفتش الأمير بول بأنه يخدم أعداء الوطن لحسابه الخاص، وأنه خالف السياسة التى كان يسير عليها الملك الراحل الكسندر، وقد تأثرت يوغوسلافيا بوجود الألمان فى الأراضى البلغارية والرومانية ، وكان عليها أن تختار بين أمرين :

١ — إما أن تقف فى ثبات بجانب بريطانيا واليونان وتركيا .

٢ — أو تشارك بلغاريا ورومانيا مصيرهما .

ويبدو أنها فضلت الأمر الثانى ، فقد وقع مندوبوها فى ڤينا اعترافا بتمسكهم بالمحور .

ثورة يوغوسلافيا

وفى الوقت الذى كان هتلر وموسولينى يعتقدان فيه أنهما سيطرا على يوغوسلافيا دون أن يطلقا طلقة واحدة ، إذا بالشعب اليوغوسلافى يثور ويطرد الحكومة ، وفى صباح ٢٧ مارس ١٩٤١ شكلت وزارة جديدة برياسة الجنرال سيموفتش ، وقد بدأ أعماله باعتقال الوزراء الذين وقعوا اتفاق ڤينا ، وأخيرا شبت نيران الثورة ، وبدأت الأعمال العدائية من جانب المحور ، بضرب بلغراد فى السادس من أبريل.

معركة رأس ماتاپان

فى أواخر مارس ١٩٤١ ، بينما كان الملك الصغير بطرس يستعد لمواجهة هجوم المحور فى يوغوسلافيا ، إذا بضربة قاصمة توجه إلى المحور ، فقد قامت طائرات

الأسطول البريطانى بإغراق وإتلاف سفن من الأسطول الإيطالى ، حمولتها ٧٠,٠٠٠ طن عند رأس ماتاپان .

وكان لهذه المعركة تأثير كبير على توازن القوى البحرية فى البحر الأبيض المتوسط ، فقد تخلت إيطاليا عن اعتقادها فى أنها تسيطر على البحر الأبيض ، الذى كان ضروريا لسير دفة الحرب فى إفريقيا ، كما أن البحر الأبيض أصبح خاليا من قطع العدو البحرية ، فاعتبرت أمريكا البحر الأحمر وخليج عدن منطقة خارج حدود المناطق الخطرة ، فصرحت لسفنها التجارية بسلوك هذا الطريق ، لتوزيع تجارتها اعتبارا من ١١ أبريل ١٩٤١ .

الهجوم الألمانى على اليونان ويوغوسلافيا

وفى ١٣ أبريل زحفت القوات المدرعة الألمانية (الپانزر) فى الأراضى اليونانية ، فقابلتها مقاومة عنيفة من اليونانيين ، والاستراليين والنيوزيلنديين فى مقدونيا ، وكان العدو يزحف بسرعة فى يوغوسلافيا فى نفس الوقت ، ورغم شجاعة القوات اليوغوسلافية واستبسالها ، إلا أنها لم تستطع وقف التقدم ، وانسحبت إلى الجبال ، وقد صممت القوات اليوغوسلافية على طرد الإيطاليين من ألبانيا ، وعمل حلقة إتصال مع اليونانيين ، لكى يحتفظوا بخط انسحابهم مفتوحا ، ولكن هذه الخطة لم تفلح نظرا لقوة الألمان الساحقة ، وبعد مقاومة مستيئسة استمرت ١٢ يوما ، استسلمت القوات اليوغوسلافية ، وقد كلفت هذه الحملة هتلر كثيرا ، فقد أجبرته على تأجيل المعاونة الجوية التى كانت مفروضة لفيلق إفريقيا ، وشلت خطته الخاصة بغزو تركيا ، وأجبرته على غض النظر عنها فى ذلك الوقت .

وفى ١٨ ابريل انتحر رئيس وزراء اليونان مسيو كوريتشوس ، وأصدر الملك چورچ ملك اليونان بيانا ، معلنا انتقاله مع حكومته إلى كريت ، للاستمرار فى الصراع مع العدو ، وفى ١٧ ابريل دخلت أولى طلائع الجيش الألمانى أثينا ، وبذلك تغلب هتلر على مقاومة اليونان والحلفاء معا .

الموقف فى الشرق بعد غزو اليونان ويوغوسلافيا

أصبح من المحتمل جدا بعد غزو اليونان ويوغوسلافيا ، أن يقوم هتلر بالهجوم

على سوريا وتركيا ، وأصبح موقف الأسطول البريطانى فى البحر الأبيض حرجا ، وأصبح على عاتقه واجبات جديدة ، وكان أمام المحور ثلاثة طرق ، وهى أن يرهب تركيا باحتلال الجزر القريبة من الدردنيل ، ثم يغرى إسبانيا بالانضمام إليه فى مهاجمة جبل طارق ، ثم يزحف بعد ذلك على قناة السويس .

وقد استخدمت تركيا مهارتها الديبلوماسية أكثر من استخدام قوتها العسكرية فلم تورط نفسها فى الحرب ، وكان ذلك فى صالح بريطانيا ، فلو أن تركيا دخلت الحرب عام ١٩٤١ ، فإن ألمانيا كانت تستطيع بعد احتلال اليونان أن تحتل الدردنيل ، وربما تمكنت أن تفتح لها طريقا فى آسيا الصغرى وسوريا ، ولكن حياد تركيا جعل الجانب الأيمن لبريطانيا فى البحر الأبيض محميا ، وقد تحول الهجوم الألمانى إلى روسيا .

الموقف قبل أزمة ايران

كانت استراتيجية هتلر وسياسته قبل أزمة إيران ، هى أن يهاجم تركيا فى الربيع ، ولكن حملة يوغوسلافيا غير المتوقعة ، هى التى سببت تغيير الخطة .

وفى منتصف أغسطس ١٩٤١ ، قام الأدميرال كناريس رئيس إدارة المخابرات السرية الألمانية بزيارة استنبول وأنقرة ، وكان ذلك دليلا كافيا على أن محاولات برلين السياسية قد قربت من نهايتها .

ولم تقف حكومتا موسكو ولندن مكتوفتى الأيدى إزاء ذلك ، فقد أصدرتا فى ١٠ أغسطس تصريحا تعهدتا فيه باحترام سيادة تركيا ، واستعدادهما لتقديم المعونة إليها فيما لو اعتدت عليها أى دولة أوروبية أخرى ، وبذلك تمكن الحلفاء من إحباط محاولات هتلر لضم تركيا إلى جانب المحور .

أزمة ايران

نشأت أزمة إيران نتيجة للجالية الألمانية الكبيرة التى كانت تعيش بإيران ، وكان أفرادها يعملون كخبراء أو موسيقيين ، وكانت هذه مصدر خطر كبير على البلاد التى تعيش فيها ، وكانت الحكومة قد أحصتهم فبلغ عددهم ٥٠٠٠ من الألمان ،

ولقد لفتت أمريكا نظر إيران إلى هذه المسألة ، وحذت حذوها كل من روسيا وانجلترا ، ولكن إمبراطور إيران (رضا شاه بهلوى) ، رفض فى عناد أن يتخلى عن سياسة الحياد ، التى كانت فى صالح المحور ، وينتهزها وكلاؤه للصيد فى الماء العكر .

وقد أعلن مبعوثو الإمبراطور فى واشنجطن ، أنه لا يوجد فى طهران أى طابور خامس ، وأكدوا عدم وجود ألمان فى بلادهم ، وكان الحلفاء يخشون من تدمير منشآتهم بواسطة الطابور الخامس ، ولا سيما المطارات، وقد دخلت القوات الروسية والبريطانية إيران فى وقت واحد من الشمال والجنوب .

وفى النهاية وافقت حكومة إيران على طلبات الحلفاء ، فأعلقت الملحقيات العسكرية الألمانية والإيطالية والمجرية والرومانية ، واعتقل رعايا المحور، وخصوصا الذين كانوا يعاونون رشيد عالى ، وقد اتهم الشاه بولائه للمحور ، فبعد جلسة سرية عقدت فى ١٠ أغسطس ، أعلن رسميا أن الشاه قد تنازل عن العرش ، وخلفه على عرش إيران ابنه الأكبر (شاهبور) .

وفى ١٨ أكتوبر وصل الشاه السابق ومعه حاشيته إلى جزيرة الموريشيوس ، حيث رئى إبقاؤه هناك إلى أن تنتهى الحرب .

وبذلك تمكن الحلفاء من منع دعاية المحور بوساطة الطابور الخامس ، وأصبحت المواصلات من البصرة إلى بحر قزوين مفتوحة ، فأمكن إرسال إمدادات تبلغ حوالى ١٠٠٠٠٠ طن شهريا إلى روسيا ، بل إن هذه الحركة كان لها تأثير لا حد له على الشرق الأوسط والهند ، علاوة على تأثيرها السياسى على تركيا ، التى لم تكن قد انضمت إلى أحد الفريقين المحاربين .

الصراع على السيادة فى البحر الأبيض

تحولت الحرب قرب الخريف إلى حرب جوية وبحرية ، فبينما نجد القوة الجوية للمحور جادة فى ضرب مصر وفلسطين بقنابلها ، إذا بنا نجد السلاح الجوى البريطانى يحاول الاحتفاظ بالسيادة الجوية فى البحر الأبيض المتوسط .

هجوم اوكنلك

وفى ١٨ نوفمبر ١٩٤١ ، بدأ الجيش الثامن زحفه تحت قيادة كننجهام ، وكان على مدرعاته أن تشق طريقها بين قولات المحور ، التى كانت تحت قيادة روميل ، وقد وصلت قوات الجيش الثامن إلى سيدى مرزوق فى ٢٠ نوفمبر ، واشتركت الدبابات فى معركة حامية الوطيس استمرت اسبوعين ، واستطاعت القوات الموجودة فى طرق أن تتصل بالنيوزيلنديين ليلة ٢٥ نوفمبر ، ولكن القوات الألمانية نجحت فى منع ذلك الإتصال ، بتدخلها فى ميدان المعركة .

وكان اوكنلك قد تقدم بنفسه يوم ٢٤ إلى مركز رئاسة المعركة ، وعين ريتشى قائدا للجيش الثامن بدلا من كننجهام ، وفى نهاية ديسمبر وصل الجيش الثامن إلى بنغازى ، وقد كان ذلك نصرا مبدئيا ، تبعه عدة ضربات متوالية ألحقها روميل بقوات الحلفاء ، وانتهت بمعركة العلمين التاريخية الشهيرة .

بيان كاترو

وفى سبتمبر ١٩٤١ أصدر الجنرال كاترو البيان التالى ، وأسقطه على بيروت ودمشق بالطائرات ..

« إلى أهالى سوريا ولبنان : فى الوقت الذى تدخل فيه قوات فرنسا أراضيكم ، مع قوات الإمبراطورية البريطانية ، أعلن أن لى سلطة وحق تمثيل فرنسا فى شرق البحر الأبيض المتوسط .

وبوصفى مسئولا عن هذا المركز ، أعلن انتهاء الإنتداب الفرنسى . وأنادى بكم أحرارا مستقلين ، ولكم الخيار فى أن تكونوا دولتين منفصلتين ، أو تندمجوا فى دولة واحدة ، وفى كلا الحالتين فإن إستقلالكم ستضمنه معاهدة ، تحدد فيها علاقاتنا المتبادلة » .

ثم وضح الجنرال بعد ذلك أن حملة سوريا ضرورية، لطرد قوات هتلر من سوريا ومنع المحور من إتخاذ شرق البحر الأبيض المتوسط قاعدة له ، وكانت مصر أولى الدول المناصرة لاستقلال سوريا ولبنان ، فهما بالاشتراك مع فلسطين ، يكونان الحصن الذى يحرس المسالك المؤدية إلى وادى النيل .

زيارة ديجول لمصر

وفى أوائل ابريل قام الجنرال ديجول بزيارة القاهرة ، بعد أن قام برحلته فى أفريقيا الفرنسية الشرقية وأفريقيا الإيطالية الشرقية ، وكان يصحبه الجنرال سبيرز وقد أدلى بتصريح للصحف قال فيه : « إن وجودى هنا معناه أن فرنسا ستشترك فى هذه المعمعة الكبرى ، بجزء من أراضيها وقواتها ونفوذها فى العالم » وفى تلك الأثناء كانت فيشى تلعب دورها المرسوم ، وكان دارلان يجتمع بهتلر مؤكدا ولاءه للمحور .

وفى ٢٧ يوليو غادر ديجول القاهرة إلى بيروت ، وصرح قبل سفره بما يلى : « لقد جئت إلى مصر لأتمم تنظيم العوامل المادية والمعنوية ، اللازمة لمواصلة الصراع ضد عدونا . وأستطيع أن أؤكد لكم أن مجهودات فرنسا الحربية فى الشرق كاملة تماما ، أما من الناحية العسكرية فإن لنا فى ميدان المعركة قوات هامة ، سبق أن خاضت معارك كثيرة ، وفازت بنصر حاسم ، وإنى لفخور بالروح المعنوية لتلك القوات » .

تصريح تشرشل

وكان من العوامل التى طمأنت أهالى سوريا ولبنان ، التصريح الذى أصدره مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ، فى مجلس العموم البريطانى فى سبتمبر ١٩٤١ ، وأعلن فيه أن بريطانيا ليست لها أطماع استعمارية فى شرق البحر الأبيض المتوسط ، وأنها لاتفكر فى أن تحل محل فرنسا هناك .

القاهرة مركز عالمى

أصبحت القاهرة خلال عامى ١٩٤٠ ، ١٩٤١ من المدن العالمية الكبرى ، وقد احتلت فى تلك الفترة مكانة كتلك التى احتلتها استانبول قبل عام ١٩١٤ ، فقد أصبحت القاهرة مقصدا لبعض كبار الشخصيات العالمية فى أثناء محنتهم ، فقدم إليها الملك جورج الثانى ملك اليونان مع أسرته ، بعد أن غزا الألمان اليونان ، وكذلك الملك بطرس الثانى ملك يوغوسلافيا ، وقد أقام بها امبراطور الحبشة ، والمارشال

سمطس ومستر إيدن وغيرهم لمـــدد قصيرة ، والخلاصة أن القاهرة كانت مركزا للنشاط العالمى فى تلك الفترة ، فقد عقدت بها عدة مؤتمرات سرية دولية بنجاح ، وذلك بفضل الرقابة المصرية واستتباب الأمن .

هجوم روميل

وفى ٢٧ مايو ١٩٤٢ ، أعلنت القيادة العامة للحلفاء « أن روميل قد حرك فيلق أفريقيا للهجوم فى الليلة الماضية » ، وكانت ألمانيا تريد نصرا بأى ثمن ، لتعوض الخسائر الجمة التى عانتها قواتها فى الجبهة الروسية ، وكانت قوات روميل أكبر عددا وتسليحا ، وقواته الجوية لها السيادة ، وكان غرضه هو تدمير قوات الحلفاء ، واحتلال طبرق ، وكانت خطته هى احتلال مواقع الحلفاء الدفاعية عند بير حكيم التى كان يحتلها الفرنسيون الأحرار ، ثم يمر فيلق أفريقيا بعد ذلك جنوب بير حكيم ويهاجم فى النهاية مواقع الحلفاء من الشاطىء عند غزالة إلى طريق كابوتزو .

وقد تمكن فيلق أفريقيا من الوصول حتى سيدى رزق ليلة ٢٦ / ٢٧ مايو ، ولكن قوات الحلفاء المدرعة تمكنت من طرده ؛ وفى نفس الليلة حاول العدو إنزال قوات من البحر ، ولكن البحرية البريطانية منعت ذلك ؛ وتمكن الفرنسيون الأحرار من تكبيد القوات الإيطالية التى هاجمت بير حكيم خسائر فادحة .

وأخيرا وبعد عدة معارك حامية الوطيس، تمكنت قوات المحور من الوصول إلى مرسى مطروح فى ٢٦ يونيو ، فى الوقت الذى كانت الإمدادات تتدفق فيه على القوات البريطانية ، وكان ضعف القيادة من العلامات المميزة لهذه المعارك التى دارت فى صيف ١٩٤٢ ، ولذلك اخلى الجنرال اوكنلك ريتشى من القيادة ، وتولى بنفسه القيادة فى ٢٥ يونيو .

العلمين

وفى أول يوليو كان البريطانيون وحلفاؤهم يحتلون خطا دفاعيا قويا ، يمتد من العلمين حتى منخفض القطارة ، ويعتبر هذا الخط من الخطوط الدفاعية النموذجية ، فعلى جانبيه يمتد البحر فى الشمال ، ومنخفض القطارة الذى لاتسمح رماله الزئبقية

بمرور الدبابات فى الجنوب ، ولذلك تحتم أن تكون مهاجمة هذا الخط بالمواجهة ، وهذا ما فعله رومل ؛ ففى ٢ يوليو قام بهجوم عام ، ولكن هجوم الحلفاء المضاد بقواتهم المدرعة تعاونها قوة جوية كبيرة ، أجبرت رومل على الانسحاب ، دون أن يحدث أى تصدع فى الخط الدفاعى .

وفى ٣ يوليو إتخذ البريطانيون خطة الهجوم ، وهاجموا العدو أثناء محاولته التقدم نحو خطوطهم ، وفى ٦ يوليو استمرت المعركة ، وابتدأ الموقف يتحول فى صالح الحلفاء ، وانتقلت المبادأة إلى الجيش البريطانى ، وكان ذلك أساسا لنصر متتابع فى شمال أفريقيا .

تشرشل فى الصحراء الغربية

وفى ١٨ يوليو ، كان تشرشل فى طريقه إلى موسكو للاجتماع بالماريشال ستالين فى أول المؤتمرات الحربية ، فنزل بالقاهرة ، وذهب إلى الجبهة فى الصحراء الغربية للوقوف على حقيقة الموقف ، وأصدر إلى الجنرال الكسندر التعليمات الآتية :

« إن غرضك الأول هو تدمير قوات المحور، أو الاستيلاء عليها بكامل أسلحتها ومعداتها ، سواء فى مصر أو ليبيا » .

ورغم أن الروح المعنوية كانت عالية بدرجة تثير الإعجاب ، إلا أنه رأى أن تستأنف العمليات فى ظل قيادة جديدة ، وبعد استشارة وزارة الحرب ورئيس أركان حرب الإمبراطورية والجنرال سمطس (ثعلب الإمبراطورية العجوز) ، تقرر أن يخلف الجنرال الكسندر اوكنلك ، وتولى الجنرال جوت قيادة الجيش الثامن ، ولكنه قتل فخلفه الجنرال مونتجمرى .

علاقة مصر بحكومة فيشى

كررت بريطانيا طلبها السابق من مصر ، وهو قطع العلاقات مع حكومة فيشى ، لأن ممثلها فى مصر قد أصبحوا مصدر خطر على القوات الموجودة بالبلاد ، وكانت الأسباب التى بنت عليها بريطانيا طلبها ، هى أن الاتفاق بين حكومة فيشى والمحور، ينص على تبادل المساعدة . ذلك فى الوقت الذى تحتاج قوات فرنسا الحرة بقيادة ديجول إلى تشجيع حركتها .

ولكن مصر قررت أن تؤجل ذلك ولم تقطع علاقتها بفيشى للأسباب الآتية :

١ — أن معاهدة التحالف بين مصر وبريطانيا ، لا تنص على اتخاذ مثل هذا الإجراء مع دولة ليست فى حالة حرب مع حليفتها بريطانيا .

٢ — لم تصل أى معلومات من فرنسا تفيد أن الرعايا المصريين يلقون معاملة قاسية .

٣ — لم تسلك الجالية الفرنسية فى مصر أى سلوك شائن .

٤ — كانت العلاقات التاريخية بين مصر وفرنسا طيبة دائما .

الوفد فى الحكم

كانت الحالة فى مصر تحتاج إلى تعاون وثيق بين الأحزاب كلها ، لمواجهة الخطر الداهم ، ورغم ما قامت به وزارة حسين سرى باشا من أعمال حكيمة ، فقد اتهمها السفير البريطانى بأنها لا تتعاون مع الديموقراطية ، وكانت نتيجة ذلك أن استقالت هذه الحكومة فى ٢ فبراير ١٩٤٢ .

وفى ٤ فبراير ذهب السفير البريطانى يصحبه الجنرال ستون ، قائد القوات البريطانية فى مصر ، فى مظاهرة عسكرية إلى سراى عابدين ، وطلبا إلى جلالة الملك أن يسند الوزارة إلى الوفد ، برياسة النحاس باشا ، وكان ذلك فى صورة تبليغ ؛ وقد اجتمع جلالة الملك بالزعماء مرتين فى ذلك اليوم للتشاور ، وقد رفض النحاس باشا تأليف وزارة قومية ، وأصر على أن تكون وفدية بأكملها ، فأسندت إليه الوزارة فى ٤ فبراير ؛ وفى اليوم التالى كتب النحاس باشا إلى السفير البريطانى ، يذكره بمعاهدة التحالف ومركز مصر كدولة مستقلة ، وانهما لا يسمحان بأى تدخل بريطانى ، وكان رد السفير على ذلك بكتاب يؤيد فيه رأى النحاس باشا .

وقد أجريت الانتخابات بعد ذلك بستين يوما ، ولم تدخلها الأحزاب الأخرى ، نظرا لفرض الرقابة والأحكام العرفية ، وقد أجريت الانتخابات فى مارس ١٩٤٢ ، وحاز الوفد بطبيعة الحال على أغلبية ساحقة ، بلغت ٢٣٤ كرسيا ،

وترك ثلاثون فقط للأعضاء المستقلين ، وكان من نتيجة ذلك أن تمتع النحاس بما يشبه الحكم المطلق لمدة عامين فى تلك الآونة العصيبة .

وكانت النتيجة الحتمية هى إبعاد الوفد عن الحكم فى أكتوبر ١٩٤٤ ، وقد بين النحاس باشا فى خطاب العرش سياسة حكومته التى كان أهمها :

١ — تأمين النظام الديموقراطى .

٢ — الالتفات إلى المشاكل الاقتصادية مثل توفير الخبز فى أنحاء البلاد ، والإكثار من الاستيراد مع تحديد التصدير ، وشراء الحكومة لمحصول القطن بثمن مناسب ، وإعفاء صغار المزارعين من الضرائب ، وتنسيق القوانين الخاصة بالتصرف فى ممتلكات رعايا العدو ، وتحسين الإنتاج الصناعى .

٣ — التوسع فى التعليم بجميع مراحله .

٤ — تقوية الجيش .

٥ — ادخال تحسينات اجتماعية جديدة .

٦ — تقوية الروابط المصرية البريطانية والتعاون مع الدول العربية .

تعيين مستر كايسى وزيرا للدولة

وفى مايو وصل مستر كايسى إلى القاهرة ، وخلف مستر لتلتون كوزير الدولة فى الشرق الأوسط ، وكان عليه أن ينسق المجهودات الحربية فى تلك الآونة العصيبة ، وقد درس الموقف الحربى ومشاكل التموين ، وأسباب قلة المحصول ذلك العام ، تبعا للجراد ؛ وصمم على عقد مؤتمر بالقاهرة ، يكون بمثابة مؤتمر تغذية للشرق الأوسط ، حيث يحضره مندوبون من تركيا وسوريا وشرق الأردن ، وفلسطين ومصر والسودان ، وأريتريا والحبشة والمملكة العربية السعودية ، والعراق وأفريقيا الشرقية ، وكان الغرض الأساسى منه توزيع واستبدال المحاصيل المختلفة فيما بين هذه الدول لتسهيل المجهود الحربى .

حملة مدغشقر

وفى ٥ مايو ، سبقت بريطانيا اليابان فى الاستيلاء على جزيرة مدغشقر . وكان

لذلك تأثير كبير على سير مجرى الحرب ، فإن اليابان تستطيع باحتلالها لا أن تهدد فقط الطريق البحرى الحيوى ، الذى يصل البحر الأحمر برأس الرجاء الصالح ، وإنما يمكنها أيضا أن تستعملها كمظلة لها ، تق أى محاولة لغزو ساحل أفريقيا الشرقية من البحر ، كما أنها تصبح على مسافة قريبة من جنوب أفريقيا ، ويمكن لطائراتها أن تهددها ، وبذلك أصبح الطريق الساحلى الطويل ، الذى يبلغ حوالى ٢٥٠٠ ميلا ، وكذلك الطرق الموصلة إلى موانيه ، آمنة من أى تهديد من العدو .

نقط التحول الثلاثة

فى الحرب العالمية الثانية

العلمين — نزول الحلفاء فى شمال أفريقيا — ستالينجراد

فى اللحظة التى كان الجيش الثامن يتقدم فيها للهجوم عند العلمين ليلة ٢٢ / ٢٣ أكتوبر ، كان جيش الانقاذ الروسى يتقدم بقيادة الجنرال رود ينتسف ، لتخليص حامية المدينة الصناعية الهامة ستالينجراد ، وكانت تصارع وتقاوم بشجاعة وبسالة وفى نوفمبر ١٩٤٢ ، بينما كان مونتجمرى تتوالى انتصاراته بعد كسره لدفاعات فيلق أفريقيا ، إذا بحدث عظيم يقع وهو نزول الحلفاء فى شمال أفريقيا ، الذى أظهر قوة الحلفاء ، وكان بداية انتصارات شتتت شمل المحور .

ولكن أنظار الروس كانت لا تزال مثبتة على الفولجا ، حيث كانت رحى القتال لا تزال دائرة بشدة ، وكان موقف الألمان فى الجبهة الروسية فى نهاية ديسمبر سيئا للغاية ، وكان يؤكد أن استسلامهم متوقع بين حين وآخر ، وقد أعلن ستالين بعد ذلك بشهرين ، أن النصر الحاسم قد انتقل إلى أيدى الجيش الأحمر ، الذى استطاع القضاء على تسعة ملايين من الألمان ، وأسر حوالى أربعة ملايين آخرين ، ومن هذه اللحظة عرف كل من هتلر وموسولينى أنهما قد خسرا الحرب فى الجبهات الثلاثة : روسيا وأفريقيا والبحر الأبيض المتوسط .

والأسباب التى دعت الحلفاء للنزول فى شمال أفريقيا هى :

كانت روسيا قد طلبت من أميركا وبريطانيا فتح جبهة ثانية . لتخفيف الضغط عن الجبهة الروسية ، ولكن هذه الفكرة أجلت لعدم الاستعداد لهذه المخاطرة ، وقد خشيت أميركا وبريطانيا بعد ذلك من احتمال احتلال المحور لأفريقيا ، الذى لو تم لأصبح غرب أفريقيا قاعدة للمحور ، يمكنه الهجوم منها على أمريكا مباشرة وفى الوقت نفسه يقدمان معونة لحليفتهما روسيا ، بتخفيف الضغط عن جبهتها ، وقد أصدر الأميرال دارلان فى بادىء الأمر أوامره لرجاله بالمقاومة ، ولكنه اضطر بعد ثلاثة أيام نتيجة لنجاح عملية النزول، أن يوقع الهدنة ، ويصدر أوامره إلى شمال أفريقيا جميعه بوقف المقاومة ، وبذلك استطاع الحلفاء أن يحتفظوا بشمال أفريقيا فى ثلاثه أيام .

وفى ١٢ مايو ١٩٤٣ انتهت آخر مقاومة للعدو فى شمال أفريقيا عند رأس بون حيث وجدت فلول قوات روميل آخر ملجأ لها .

الباب التاسع

مشاكل

فى الشرق الأوسط

الفصل الأول

مشكلة فلسطين

إن فلسطين بمساحتها الضيقة ، تضم الوطن القديم لليهود ، ومسقط رأس المسيح عليه السلام ، كما أنها تحوى الأماكن المقدسة للمسلمين ، وهذا يبين لنا مقدار التنافس بين الديانات جميعا ، على امتلاك هذه الأرض ، التى توالت عليها الأديان السماوية .

إن مشكلة فلسطين ، التى استنفدت أعواما طوالا ولم تحل ، ليست تشاحنا محليا وقوميا فقط ، بين العرب واليهود ، بل إن لبعض الدول الكبرى ، إن لم يكن لها كلها ، مصالح فى فلسطين .

وفلسطين بلد صغير، لاتزيد مساحته عن ٢٦ ألف كيلومترا مربعا، أى مايقرب من ٠.٣٨٪ من مساحة القطر المصرى ، وأراضيه المنزرعة حوالى ٦٠٠٠ كيلو مترا مربعا ، أى سدس مساحـــة الأراضى المصرية المنزرعة ، وهى مكونة من السهل الساحلى ، وسهل ازدرائيلون الداخلى ، وهضاب سامريا ويهوذا ، ونصف وادى الأردن ، وقد صغرت مساحتها بعد أن سلخت انجلترا منها شرق الأردن . ومعظم أراضى هضاب سامريا ويهوذا ، التى على الميول الشرقية جافة وقاحلة ، ويستغل العرب الأجزاء الخصبة منها ، وتقع أحسن الأراضى الصالحة للزراعة على السهل الساحلى ، شمال غزة ، فى ازدرائيلون ، وكذا فى وادى الأردن شمال أريحا .

ولا تكمن أهمية فلسطين فى الناحية الاقتصادية ، ولكنها بالغة الأهمية بالنسبة للدول الكبرى ، فهى ملتقى قارات ثلاث — أفريقيا وآسيا وأوربا — ، وكانت فيما مضى الطريق المثلى لمرور الجيوش ، وتعتبر إلى الآن مفتاح الشرق ، ويزيد من أهميتها أنها ملتقى طرق المواصلات العالمية ، برية وبحرية وجوية ، وهى حلقة مهمة فى مواصلات الإمبراطورية البريطانية إلى الهند ، وفيها تنتهى أنابيب البترول العراقى إلى البحر الأبيض ، ويستثمر فيها مايزيد عن مائة مليون جنيه .

وتوجد فى فلسطين بحيرة البحر الميت ، وهى غنية بأملاح البوتاسيوم ، وفى يونيو ١٩٢٩ منح امتياز استغلالها لشركة البوتاس الفلسطينية (الصناعات الكيماوية البريطانية) ، وبدأت تستغل موارد البحر الميت الطبيعية .

وتعبر فلسطين أنابيب البترول التابعة لشركة الزيت الإنجليزية الإيرانية ، وشركة بترول العراق ، وهما الشركتان اللتان تشترك فيهما رؤوس أموال بريطانية وفرنسية ، وبلجيكية وأمريكية ، ولشركة البترول العراقية معمل تكرير فى حيفا .

وصادرات فلسطين الرئيسية هى المنتجات الزراعية ـ الموالح ـ ، والمواد الخام مثل البوتاس وأملاح البروم، وتعتبر فلسطين ثانية بلاد العالم تصديرا للموالح

وانجلترا عميلة فلسطين الرئيسية فى تجارتها الخارجية ، لخصتها من صادرات فلسطين ٦٠٫٥ ٪ من مجموع الصادرات لسنة ١٩٣٥ ، وقد استوردت فلسطين من بريطانيا ١٩٫٥ ٪ من مجموع مستورداتها عام ١٩٣٤ .

وهناك مساحات واسعة من الأراضى الفلسطينية الخصبة ، مهملة لا يصلها الرى بشكل كاف أو منظم ، وتهددها باستمرار الأمطار والسيول . والكثبان الرملية الممتدة على طول الساحل ، هذا فى حين أن جميع الخبراء متفقون على أن مياه البلاد ، فى إمكانها أن تروى ليس فقط الأراضى المزروعة حاليا ، والتى تحتاج إلى ماء ، بل وأيضا مساحات واسعة من الأراضى الخصبة ، التى لا يمكن استغلالها لافتقارها إلى الرى .

الهجرة الى فلسطين

ومنذ إعلان الانتداب البريطانى ، تدفق المهاجرون إلى فلسطين ، وكان عددهم يتراوح بين ٤٢٫١٠٠ ، ٦١٫٨٠٠ سنويا ، وفلسطين بمواردها لا تكفى لاستيعاب عدد كبير من المهاجرين اليهود ، ولذلك جاء فى التقرير السنوى لحكومة فلسطين عام ١٩٣٧ « إنه قد ثبت من التجارب الآن أن الحاجة ماسة لتحديد الهجرة إلى فلسطين تحديدا تاما ، ففلسطين لا يمكن أن تستوعب أفواجا كبيرة من المهاجرين ، وأسباب المعيشة لا تكفى فيها لسد حاجات السكان الحاليين » .

وقد اقترنت الهجرة اليهودية بشراء الأراضى الخصبة من العرب ، فاليهود

الذين لم يكونوا يملكون شيئا مذكورا من الأراضى عقب الحرب العالمية الأولى، أصبحوا يملكون الآن ٢١ ./. من أراضى فلسطين الزراعية ، والأراضى الخصبة محصورة كما أسلفنا فى السهل الساحلى ، وسهل مرج بن عامر ، واليهود يملكون ثلاثة أرباع مرج بن عامر ووادى جزرائيل ، وقسما كبيراً من السهل الساحلى الواقع بين يافا وجبل الكرمل ، ومساحة أخرى واقعة جنوبى يافا ، وهذا هو الأساس الزراعى للوطن القومى الصهيونى .

كما أن حكومة فلسطين هى التى نقلت امتيـــاز تجفيف مستنقعات الحولة إلى الصهيونيين ، وأراضى الحولة تبلغ ثلث مساحة الأراضى الخصبة فى فلسطين ، وقد اشترت الجمعيات الصهيونية ٩٠ ./. من هذه الأراضى .

وقد تسبب عداء العرب لليهود ، نتيجة لاطراد توغل الصهيونيين فى فلسطين ، وعلى هذا النحو بدأت المناوشات الدامية بين الفريقين ، مما ثبت مركز البريطانيين فقد أصبح فى يدهم حق يستندون عليه للبقاء فى فلسطين « لإقرار الأمن ووضع حد للأطماع اليهودية ؟ . . . ولحماية اليهود من العنصرية العربية » .

الصهيونية

الصهيونية حركة عنصرية استعمارية ، هدفها الاقتصادى تصدير رأس المـــال اليهودي إلى فلسطين وماجاورها من البلاد العربية ، وجعلها جميعا سوقا للاستثمار وتصريف البضائع ، ومن هنا ينجم أبلغ الضرر والخطر ، لا على فلسطين وحدها بل على الحياة الاقتصادية فى البلاد العربية كلها ، ولا سيما على الصناعة الناشئة فى أى قطر عربى ، وفى لبنان بصفة خاصة لقربه من فلسطين ، وقلة مناعته النسبية ضد الصهيونية .

والصهيونية تعمل تحت ستار اضطهاد اليهود فى أنحاء العالم ، وحاجتهم إلى وطن يجمعهم ويحميهم من هذا الاضطهاد ، ولكن واقع الحال يدل على خلاف ذلك ، فقد اقترنت قوة هجرة اليهود إلى فلسطين بقوة الاضطهاد الموجه إلى اليهود فى أوربا فكانت شديدة بعد فرض الانتداب على فلسطين عام ١٩٢٢ ، ثم هبطت حوالى ١٩٢٦ ، ثم ارتفعت مرة أخرى بعد تولى هتلر الحكم فى ألمانيا عام ١٩٣٣ ،

وجدير بالملاحظة أن ٢٥ ./. من اليهود الذين ذهبوا إلى فلسطين من ١٩٢٢ إلى ١٩٢٩ رجعوا إلى بلادهم الأصلية ، بل إن عدد الراجعين زاد عن عدد الذاهبين بألفين وثلثمائة شخص سنة ١٩٢٧ .

والواقع أن الصهيونية ليست مسألة إيواء اليهود المضطهدين ، أو هجرة اللاجئين والدليل على ذلك أن المؤتمرات الصهيونية المتتالية، رفضت الاقتراحات المختلفة التى عرضت مناطق معينة غير فلسطين — لاستيطان اليهود المضطهدين ، مثل أوغندا عام١٩٠٤، وانجولا عام١٩١٢ ، ومدغشقر والجزر العذراء وروديسيا عام١٩٣٦.

ولكن الصهيونيين يتشبثون بفلسطين باسم « حقهم التاريخى» ، غير مبالين بأن التاريخ لا يصنع بالحقوق القانونية ، إذا كان لليهود حقوق قانونية على فلسطين بعد أن تركوها منذ ألفى عام .

ويفضح أهداف الصهيونية أن ٣٢٥٫٠٠٠ من المهاجرين ، قد جلبوا معهم حوالى ١١٥ مليون جنيه لاستثمارها فى فلسطين .

بريطانيا والصهيونية

وقع الحلفاء فى أواخر عام ١٩١٧ فى مأزق ، بسبب تمرد الجيش الفرنسى وانهيار الجيش الإيطالى ، وبدء خروج الجيش الروسى من الحرب قبل الثورة الروسية ، فلم تجد بريطانيا بدا من ايجاد وسيلة عملية سريعة «لتهدئة» الشرق العربى ولتفسير بقاء القوات البريطانية المساحة قرب قنــــاة السويس ، واجتمعت هذه العناصر كلها ، فأصدرت الحكومة البريطانية يوم ٢ نوفمبر عام ١٩١٧ ، التقرير المعروف بتصريح بلفور ، والذى تسلم اللورد روتشيلد وهذا نصه :

« إن حكومة جلالته تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل أفضل جهودها لتيسر ادراك هذه الغاية ، مع عدم عمل شىء يجحف بما للجاليات غير اليهودية القائمة فى فلسطين ، من حقوق مدنية ودينية ، أو بما يتمتع به اليهود فى البلاد الأخرى من الحقوق أو من المركز السياسى » .

والطريف أن لورد بلفور ذاته ، أرسل برقية بتاريخ ٨ فبراير عام ١٩١٨ إلى الملك حسين باسم حكومة جلالته ، جاء فيها «أن حكومة صاحب الجلالة البريطانية

بالاتفاق مع الحلفاء ، تصرح بأنها ثابتة على موالاتها لكل حركة ترمى إلى تحرير البلاد من الحكم الأجنبى ، وقد قررت تأييد الأمة العربية فى جهادها وصراعها لإحياء الإمبراطورية العربية ، وإزالة الفوارق المصطنعة التى أوجدها الأتراك بين العرب ، وحكومة صاحب الجلالة تؤكد مرة أخرى وعودها السابقة بتأييد استقلال جميع العرب . حسبما جاء فى رسائل السير هنرى ماكماهون ، ومساعدة البلاد العربية التى لم تنل استقلالها بعد ، على الحصول عليه عقب انتهاء الحرب ».

وقد احتضنت انجلترا الصهيونية للأسباب الآتية :

١ — تحتاج بريطانيا إلى الاعتماد على المالية اليهودية الكبرى .

٢ — أهمية فلسطين الإستراتيجية الكبرى التى تتلخص فى :

ا — التصاقها بقناة السويس .

ب — انتهاء خط أنابيب البترول فى حيفا .

حـ — أهمية حيفا كقاعدة بحرية فى شرق البحر الأبيض .

٣ — أهمية وجود وطن قومى لليهود الذين يعادون العرب ، ويضمنون لانجلترا مستعمرة موالية ، تحرس أهم الحلقات فى حياة المواصلات الإمبراطورية .

٤ — قدرة اليهود على وضع ١٠٠٠٠٠ محارب مدرب ومسلح فى خدمة بريطانيا ، يؤيدهم نحو ٤٠٠٠٠٠ آخرون على وجه التقريب .

وقد ساعد اليهود انجلترا على فرض انتدابها على فلسطين ، وفى ١٨ ديسمبر عام ١٩١٨ ، أصدر المؤتمر اليهودى الأمريكى قرارا طلب فيه انتداب بريطانيا على فلسطين ، وقدم مثل هذا الطلب فى المشروع الذى عرضته الجمعية الصهيونية على المجلس الأعلى للحلفاء بتاريخ ٣ فبراير عام ١٩١٩ ، قالت فيه « إننا نلح باختيار بريطانيا العظمى كدولة منتدبة ، لأن ذلك يتفق ورغبة يهود العالم ، وعصبة الأمم يجب أن تعمل فى اختيارها للدولة المنتدبة على تحقيق رغائب ذوى الشأن » .

بريطانيا والعرب

فى عام ١٩١٤ اندلعت نيران الحرب العالمية الأولى ، ووقفت تركيا مع ألمانيا

والنمسا ضد الحلفاء ، وطمعت الدول الاستعمارية الكبرى — انجلترا وفرنسا — فى الولايات العربية ، الواقعة تحت الحكم التركى ولها مراكز استراتيجية غاية فى الأهمية ، وتعاقدت انجلترا وفرنسا وروسيا القيصرية فى معاهدة سايكس بيكو السرية على تقسيم مناطق النفوذ بينهما ، واقترن هذا التعاقد الاستعمارى بمحاولات عديدة لضم العرب للحلفاء تسهيلا للفتح ، فأرسل الكولونيل لورنس إلى الجزيرة العربية ليلقى بالوعود التحريرية يمينا ويسارا ، حتى يثور العرب على الأتراك ، ويقول لورنس فى كتابه «أعمدة الحكمة السبعة» (لقد هزنى الحنين إلى الوطن ، وضجرت من حياتى الشريدة المنبوذة بين هؤلاء العرب ، إذ أنا أستغل مثلهم العليا السامية ، واسخر حبهم للحرية ، جاعلا منهم أداة وآلة للنصر البريطانى) .

ثم كانت المفاوضات المعروفة بين الشريف حسين شريف مكة وسير ماكماهون المندوب السامى البريطانى فى مصر ، والتى كان الحلفاء يتقدمون فيها أو يتقهقرون ، حسب انتصارهم أو انهزامهم فى الجبهة الشرقية ، إلى أن صدمت جيوش الحلفاء صدمة عنيفة فى أغسطس عام ١٩١٥ ، وخاب أمل الحلفاء فى أن يستولوا على استانبول بالسرعة المقررة ، وعندئذ اعترفت بريطانيا باستقلال البلاد العربية فى الحدود التى طالب بها الشريف حسين ، ما عدا لبنان وأجزاء من سوريا ، قبل الشريف أن تكون تحت النفوذ الفرنسى .

وكان يحكم سوريا فى ذلك الوقت جمال باشا ، الذى أحس بتمرد العرب فنظم المجاعة فى بلادهم تنظيما محكما ، فذهب ضحيتها ما يقرب من ٤٠٪ من سكان سوريا ولبنان ، علاوة على من أعدمهم شنقا من الزعماء والمفكرين ، مما زاد العرب استعدادا للثورة .

وفى ١٠ يونيو ١٩١٦ أعلن شريف مكة الثورة ضد الحكم التركى ، فانضم إليه عرب سوريا ولبنان وفلسطين والعراق والحجاز ومصر ، وساهمت سوريا بأكبر نصيب ؛ وأسرف البريطانيون فى وعودهم ، فقد صدر فى ٨ أغسطس ١٩١٦ بيان بريطانى جاء فيه :

« من النقط المهمة التى لا تقبل التغيير والتبديل فى سياسة بريطانيا العظمى ، أن تبقى الأماكن المقدسة — فى فلسطين وغيرها — فى أيدى حكومة إسلامية مستقلة ،

وأعلن لورد اللنبي يوم دخوله القدس فى ديسمبر ١٩١٧ ، بعد صدور وعد بلفور بشهر من الزمان ، « بأن غاية الاحتلال البريطانى هى تحرير فلسطين من النير التركى ، وانشاء حكومة وطنية حرة فيها » .

وفى ٥ يناير عام ١٩١٨ صرح لويد جورج فى خطاب ألقاه على نقابات العمال البريطانية ، بأن بريطانيا العظمى « تعترف بحق فلسطين والجزيرة العربية وسوريا والعراق ، فى الحرية والاستقلال ، وفى تكوين حكومات وطنية حرة فيها » .

وما أن استتبت الأمور للحلفاء فى فلسطين والمشرق والعراق ، حتى أعلن الانتداب على فلسطين والعراق وسوريا ولبنان ، وكانت فرنسا قد طردت الملك فيصل قبل ذلك من دمشق ، وحطمت الجيوش الفرنسية بقيادة الجنرال جورو الدولة السورية العربية ، وهكذا استبدل الأتراك بطراز آخر من المستعمرين ، هم الانجليز والفرنسيون . وذلك بالرغم من إذاعة اللورد اللنبى فى ٧ نوفمبر عام ١٩١٨ فى جميع مدن فلسطين وقراها فى منشور جاء فيه :

« إن غايته هى تحرير الشعوب التى تحت حكم الأتراك ، وتأسيس حكومات وطنية تستمد سلطتها من رغبة السكان الوطنيين ، وتحت اختيارهم ، وأن ليس لبريطانيا العظمى ولا لفرنسا ، أى قصد فى وضع أنظمة خاصة لحكومات هذه الأقطار . . . ؟؟ »

العرب واليهود

ولم يكن لدى العرب ما يمنع من إقامة اليهود فى فلسطين ، والتعاون معهم ، حتى إذا كثر عددهم كونوا ولاية من ولايات المملكة العربية المنتظرة ، فقد كتب الأمير فيصل بن الشريف حسين (الملك فيصل ملك العراق فيما بعد) بيانا فى جريدة « جويش كرونيكل » بتاريخ ١٤ أكتوبر ١٩١٩ ، وهذه الجريدة هى لسان حال الجمعية الصهيونية البريطانية فى انجلترا يقول :

« نحن نسعى لإنشاء إمبراطورية عربية ، تتألف على الأقل من العراق وسوريا وفلسطين ، فأناشد اليهود — وهم ساميون قبل العرب — طالبا معونتهم

لنا فى إنشاء المملكة العربية ، حتى إذا كثر عدد اليهود فى فلسطين يتيسر لنا أن نجعلها ولاية يهودية من ولايات هذه المملكة العربية » .

ولكن الأحوال تطورت بعد ذلك ، وبعد أن نكثت بريطانيا بوعودها للعرب ، وأخذت تغدق على اليهود من الامتيازات والتسهيلات ، فوثق العرب من أن اليهود هم مصدر المتاعب ، وهم حجر عثرة فى سبيل استقلالهم ، ولذلك شهدت فلسطين منذ الاحتلال البريطانى عام ١٩٢٦ سلسلة من الاضطرابات والمذابح بين العرب واليهود .

وكان محور الحركة هو الكفاح ضد الصهيونية ، واستنكار وعد بلفور بعد مضى سنتين من بدئه ، فنى ١٩١٩ احتج وفد من السوريين « المسئولين » ، لدى المندوب السامى البريطانى بالقاهرة ضد هذا التصريح ، وفى ٣١ مايو عام ١٩٢٠ تألفت الجمعية العربية الفلسطينية واحتجت على قرارات مؤتمر « سان ريمو » وعلى تعيين هربرت صموئيل اليهودى الصهيونى مندوبا ساميا بفلسطين ، وقرر المؤتمر السورى الذى عقد فى دمشق فى ٢ يوليه ١٩١٩ ما يأتى :

« إننا نرفض مطالب الصهيونية بجعل القسم الجنوبى من البلاد السورية (أى فلسطين) وطنا قوميا للإسرائيليين ، ونرفض هجرتهم إلى أى قسم من بلادنا ، لأنه ليس لهم فيها أدنى حق ، ولأنهم خطر شديد على شعبنا ، من حيث الاقتصاديات والقومية والكيان السياسى ، أما سكان البلاد الأصليون من إخواننا الموسويين ، فلهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ثم اتخذت الحركة طابع الصداقة لبريطانيا ، كما شهد بذلك أقطاب العرب أمام لجنة بيل ؛ وذلك بعد أن قام عرب فلسطين فى عام ١٩٣٦ بأعظم ثورة فى فلسطين بقيادة القاوقجى ، نتيجة لاستمرار الانجليز فى تطبيق البرنامج الصهيونى على أوسع نطاق ، وقد طلب ملوك العرب وزعماؤهم من الثوار وقف الأعمال الحربية ، ريثما تنتهى لجنة بيل من عملها ، وقد انتهت لجنة بيل من عملها فى عام ١٩٣٧ وأخرجت للعالم أول مشروع بتقسيم فلسطين .

لجنة بيل يناير ١٩٣٧

اقترحت ما يأتى :

١ — تقسيم فلسطين إلى مناطق منها دولة يهودية ودولة عربية .

٢ — إنشاء انتداب دائم تتولاه بريطانيا العظمى على المدن المقدسة .

٣ — الاحتفاظ مؤقتا بالانتداب البريطانى على حيفا وعكا وطبريا .

وقد قررت الحكومة البريطانية فى الكتاب الأبيض رقم ٥٥١٣ عام ١٩٣٧ ، تحقيق هذه الاقتراحات ، مما أدى إلى حدوث اضطرابات من جديد .

مؤتمر بلودان ٨ — ١٠ سبتمبر ١٩٣٧

قررت الدول العربية عقد مؤتمر فى بلودان ، اشترك فيه حوالى الخمسمائة عضو من البلاد العربية ، وقرروا بالإجماع مقاومة مشروع تقسيم فلسطين ، وإلغاء الإنتداب ووعد بلفور ، ووقف الهجرة وإصدار تشريع بمنع إنتقال أراضى العرب لليهود .

ولما لم تجب مطالب العرب ثاروا ؛ وفر مفتى فلسطين إلى لبنان فى ١٣ أكتوبر عام ١٩٣٧ .

لجنة وود هيد أكتوبر ١٩٣٨

فى أكتوبر ١٩٣٨ صدر تقرير لجنة التقسيم الجديدة ، التى جاءت إلى فلسطين بناء على توصيات لجنة بيل ، لتحديد حدود الدولتين اليهودية والعربية فى فلسطين وقد اعترفت اللجنة بأن مشروع التقسيم غير عملى ، « فإننا لو التزمنا شروط اختصاصنا إلتزاما دقيقا ، لم يكن لنا ندحة من القول بأننا لا نستطيع إقتراح حدود من شأنها أن تنطوى على أمل معقول ، بإمكان إنشاء دولتين : إحداهما عربية والأخرى يهودية ، بحيث تكون كل منهما قادرة فى النهاية على سد نفقاتها بذاتها ، ولذلك آثرنا أن نتقدم بمشروع بإسم التحالف الاقتصادى » ، وهذا المشروع يوصى بأن تبقى الدولتان العربية واليهودية تحت سيطرة انجلترا المالية .

وآخر مشروع اتفق عليه أخيرا للتقسيم أطلق عليه إسم مشروع « حـ » تفرقة له عن مشروع بيل « ا » وبيل المعدل « ب » .

والمشروع « حـ » يقسم فلسطين إلى الأجزاء الآتية :

ا — دولة يهودية مقسمة ذاتها إلى جزئين .

ب — دولة عربية تحيطها المناطق تحت الانتداب وملحق بهـا جزء صغير وهو يافا .

حـ — منطقة انتداب دائمة حول القدس ويوصلها بالبحر الأبيض ممر يحيط بيـافا .

ى — منطقتان تحت الإنتداب المؤقت : إحداهما فى شمال فلسطين ، والأخرى فى جنوبها ، والملاحظ أن المنطقة الشمالية تحمى أنابيب البترول التى تأتى إلى حيفا ، وأن للصهيونيين الحق فى شراء الأراضى فى المنطقتين تحت الانتداب المؤقت .

وهذا التقسيم يقطع أوصال الدولة العربية ، ويبعثر أراضيهـا بين الأجزاء المختلفة ، ففى صفحة ١٤٨ من تقرير وودهيد كيفية توزيع العرب وأراضيهم :

	عدد السكان	نسبة الأرض
الدولة العربية	٤٤٤ر١٠٠	٥٠ ٪
الدولة اليهودية	٥٤ر٤٠٠	٧ ٪
مناطق الانتداب	٥٠٢ر٨٠٠	٤٣ ٪

ويختتم التقرير باعتراف اللجنة بفشلها فتقول :

« يجب أن نسلم بأنه لا يوجد فى الواقع حل مرض لهذه المعضلة ، ومن المتعذر إخفاء الحقيقة التالية ، وهى أن الدولة العربية لن تستطيع فى الوقت الحاضر ، ولا فى المستقبل الذى يمكن أن يمتد إليه بصرنا ، أن تقوم بنفقاتها من إيرادتها الخاصة »

وقد قوبلت اقتراحات لجنة وودهيد بالاحتجاج من الجانبين ، العربى واليهودى على السواء ، وقد رأت بريطانيـا ألا تقسم فلسطين ، ودعت العرب واليهود إلى مؤتمر المائدة المستديرة فى فبراير ١٩٣٩ فى لندن ، وقد اشتركت الدول العربية

المستقلة والهيئات الوطنية فى هذا المؤتمر ، ولكنه لم يسفر عن نتيجة ، وفشل فشلا ذريعا ، ولما كان الجو الدولى ينذر بالحرب ، فقد عادت انجلترا إلى سياسة الوعود ، ولذلك صدر الكتاب الأبيض سنة ١٩٣٩ .

الكتاب الأبيض ١٩٣٩

صدر فى ١٧ مايو ١٩٣٩ محاولا تهدئة خواطر العرب ، وقد تعهدت بريطانيا فيه ، بأن تمنح فلسطين الحكم الذاتى فى خلال ١٠ سنوات تمثل فترة انتقال :

« إن حكومة جلالته لا تستطيع فى الوقت الحاضر ، أن تتنبأ بشكل الحكم الدستورى الذى ستصبغ به حكومة فلسطين فى النهاية ، ولكن الهدف الذى ترمى إليه هو إقامة الحكم الذاتى ، وهى ترغب فى أن تقوم دولة فلسطين مستقلة فى النهاية »

وأضافت الحكومة البريطانية إلى ذلك ، وعدها بإيقاف الهجرة اليهودية إلى فلسطين فى نهاية تلك المدة ، وبعد السماح بدخول ٧٥ ألف مهاجر يهودى جديد فى السنوات الخمس الأولى .

وقد رفض اليهود الكتاب الأبيض ، وأظهر العرب ميلهم إليه ، ولكن الانجليز لم ينفذوه لأن اليهود قد رفضوه .

وقد نشبت الحرب العالمية الثانية عام ١٩٣٩ ، فلزم العرب الهدوء ، وانحازت الشعوب العربية إلى صفوف الحلفاء ، وجعلوا ينتظرون تحقيق الوعود الجديدة ، كما انتظروا تحقيق سابقتها من قبل فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ولكنهم فوجئوا بتأييد الولايات المتحدة وكتلة أمريكا اللاتينية لليهود ، بل وطالب الرئيس ترومان رئيس الولايات المتحدة بهجرة مائة ألف يهودى إلى فلسطين فى الحال ، ورشح نفسه فى انتخابات الرياسة على أساس هذا المبدأ ونجح .

وقد أصدرت هيئة الأمم قرارا بتقسيم فلسطين إلى دولتين يهودية وعربية ، وأعلن البريطانيون أنهم سينسحبون من فلسطين فى موعدغايته ١٥ مايو عام ١٩٤٨ وذلك بعد أن مكنوا الصهيونيين من احتلال المناطق التى يريدونها ، فلم يكن من بد للدول العربية من أن تدخل فلسطين بقواتها المسلحة لحماية مصالح العرب ، ووقف أطماع الدولة اليهودية عند حد .

وقد أعلن قيام الدولة اليهودية الجديدة المسماة بإسرائيل فى منتصف ليل ١٥/١٦ مايو، ولم ينقض على إعلان قيامها إلا ثلاث دقائق حتى اعترفت بها الولايات المتحدة وتبعها بعض الدول فى نفس السبيل وقد اعترفت بريطانيا بها على أساس الأمر الواقع.

مصالح بريطانيا فى فلسطين

ومصالح بريطانيا الاستعمارية تتلخص فى الآتى :

١ — وقوعها قرب قناة السويس يجعل منها مخرجا للعراق ومصر المتحالفتين مع بريطانيا.

٢ — فى فلسطين الأماكن المقدسة للأديان الثلاثة، وفى الهند والعالم العربى مسلمون كثيرون، تعمل بريطانيا لهم حسابا كبيرا.

٣ — كما أن كثيرا من الدول يهمها اليهود، مثل الولايات المتحدة وبولندة ورومانيا.

والمركز الاستراتيجى الممتاز، الذى تتمتع به فلسطين فى البحر الأبيض المتوسط والشرق الأوسط، يجعل حل قضيتها شيئا يهم شعوب هذا الشرق باستمرار، لأن قبضة الاستعمار البريطانى على تلك البقعة الصغيرة من البلاد العربية، تمكن بريطانيا من التسلط على مصر والعراق وسوريا ولبنان والجزيرة العربية، وتمكنها من تأمين مواصلاتها الإمبراطورية، وتأمين مصالحها فى الهند والشرق الأقصى.

ولذلك نجد أن بريطانيا تحاول الاحتفاظ بسيطرتها فى فلسطين بطريق مباشر أو غير مباشر ولعلنا نستطيع أن نلاحظ أن بريطانيا هى أصل المشكلة :

١ — فهى التى تقدمت بوعد بلفور.

٢ — وهى التى عملت على فرض انتدابها على فلسطين.

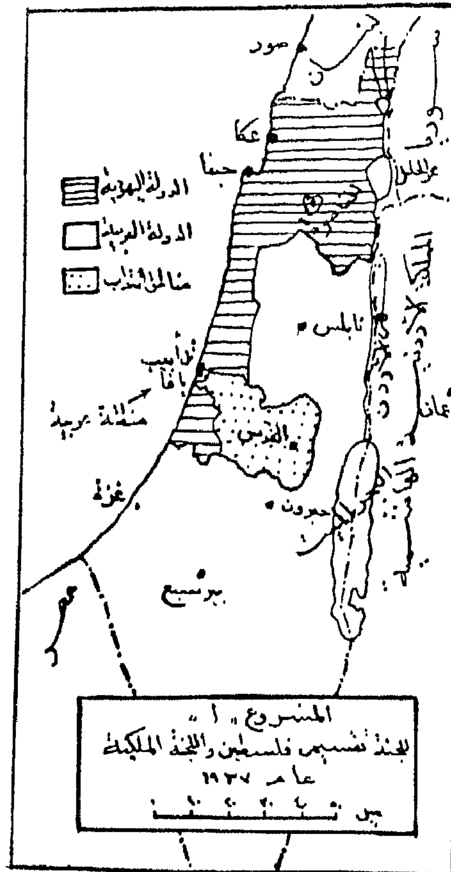
٣ — وهى التى ضمنت صك الانتداب النصوص الخاصة بتنمية الوطن القومى اليهودى.

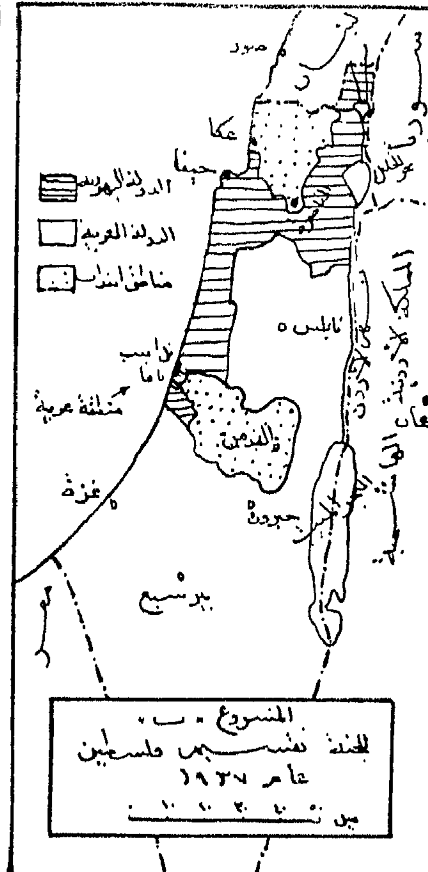
ولعل « مشروع سوريا الكبرى » الذى ينفرد ببطولته نورى باشا رئيس مجلس الأعيان العراقى وهو من دعاة التوسط بين العرب وبريطانيا ، لعل هذا المشروع الذى يقول بتقسيم فلسطين وإعطاء جزء منها للصهيونيين لتأسيس الدولة اليهودية أما الجزء الباقى فينضم إلى سوريا وتتحد سوريا ولبنان والعراق والدولة اليهودية داخل اتحاد سوريا الكبرى صورة من الصور التى تريد بها بريطانيا أن تحتفظ بهذه المنطقة تحت نفوذها .

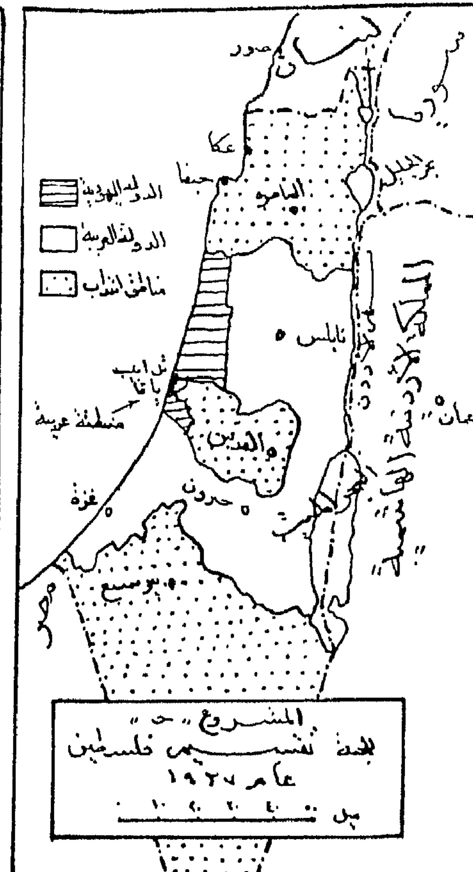
الجيوش العربية تدخل فلسطين

فى منتصف ليل ١٥ / ١٦ مايو ، دخلت الجيوش العربية الأرض المقدسة من عدة جهات ، فدخلت القوات المصرية والسعودية من الجنوب ، والقوات العراقية والأردنية من الشرق ، والقوات السورية واللبنانية من الشمال ، وكان هدفها إقرار الأمن فى أرض السلام ، وتأديب العصابات الصهيونية فى فلسطين ، ولم يحدث أن أعلنت الحرب على إسرائيل المزعومة ، فالدول العربية لم تعترف بوجودها حتى تعلن عليها الحرب .

وما كادت الجيوش العربية تحرز بعض الانتصارات الأولية ، حتى ضج الصهيونيون بالصراخ ، وبدأوا يبذلون نفوذهم وأموالهم للتأثير فى الضمير العالمى ، — إذا كان هناك ضمير عالمى — فأصدر مجلس الأمن قرارا بوقف تصدير الأسلحة للشرق الأوسط ، كما أصدر أمره بوقف القتال بعد أسبوع من بدايته ، وبذلك أفاد اليهود ، فاستوردوا الأسلحة الحديثة المختلفة من دول شرق أوربا الخاضعة للنفوذ الروسى ، وأخذت ألوف المهاجرين — وهم فى الحقيقة محاربون — تتدفق على إسرائيل ، ورغم ذلك فقد طبق قرار حظر تصدير الأسلحة على الدول العربية بأمانة ، وما أن أحس اليهود بقوتهم حتى خرقوا الهدنة غير عابئين بقرارات مجلس الأمن ، التى احترمتها الدول العربية مرغمة ، نتيجة للضغط البريطانى والأميركى عليها ، وقد بلغت الجرأة باليهود أن اغتالوا الكونت برنادوت الوسيط الدولى لحل مشكلة فلسطين ، وقد خلفه الدكتور رالف بونش ، وقد أصدر مجلس الأمن عدة قرارات لم يكن لها قوة التنفيذ ، وكان آخرها القرار الصادر


صور
عكا
حيفا
الدولة اليهودية
الدولة العربية
مناطق الانتداب
نابلس
تل أبيب
يافا
منطقة عربية
القدس
غزة
حبرون
بئر سبع
عمان
المشروع "أ"
لجنة تقسيم فلسطين واللجنة الملكية
عام ١٩٣٧
ميل


صور
عكا
حيفا
الدولة اليهودية
الدولة العربية
مناطق الانتداب
نابلس
تل أبيب
يافا
منطقة عربية
القدس
غزة
حبرون
بئر سبع
عمان
المشروع "ب"
لجنة تقسيم فلسطين
عام ١٩٣٧
ميل


صور
عكا
حيفا
الدولة اليهودية
الدولة العربية
مناطق الانتداب
نابلس
تل أبيب
يافا
منطقة عربية
القدس
غزة
حبرون
بئر سبع
عمان
المشروع "ح"
لجنة تقسيم فلسطين
عام ١٩٣٧
ميل

فى ١٦ / ١١ / ١٩٤٨ ، وهو يأمر الطرفين المتحاربين بتحويل حالة إطلاق النيران إلى حالة هدنة دائمة ، وذلك بالمفاوضات المباشرة ، دون أن يتعرض فى قراراته للأوضاع السياسية ، وقد حدثت مفاوضات فى رودس بين ممثلى الصهيونيين ووفد عسكرى مصرى بإشراف الدكتور بانش ، وقد انتهت تلك المحادثات الطويلة بتوقيع اتفاقية للهدنة يوم ٢٤ / ٢ / ١٩٤٩ ، وتحتوى الاتفاقية بعد الديباجة على ١٢ مادة وثلاثة ملاحق ، وقد أكدت المادة الأولى رغبة الفريقين فى احترام عدة مبادىء أهمها :

١ — احترام توصية مجلس الأمن الخاصة بعدم الالتجاء إلى القوة العسكرية فى تسوية مشكلة فلسطين .

٢ — عدم القيام بعمل عدائى بواسطة القوات المسلحة البرية والبحرية والجوية . ووفقا لهذه المبــادىء وتنفيذا لقرارى مجلس الأمن الصادرين فى ٤ و ١٦ / ١١ / ١٩٤٨ ، نصت المادة الثانية على قيام الهدنة بين القوات المسلحة التابعة للفريقين ، فحلت هذه الهدنة محل نظام إيقاف إطلاق النار السالف الذكر .

وقد نصت أيضا على امتناع أى قوة عسكرية نظامية أو شبه نظامية ، من القيام بأى عمل عدائى أو حربى ضد القوات العسكرية أو شبه العسكرية التابعة للطرف الآخر ، سواء فى البر أو البحر أو الجو ، وعلى امتناع أية قوة من التقدم أو عبور خط الهدنة العسكرية ، المبين بالمادة السادسة ، أو المرور داخل المياه الإقليمية ، أو انتهاك حرمة الجو فى الأراضى الخاضعة للطرف الآخر .

وقد نفذت الاتفاقية وملاحقها فانسحبت حامية الفالوجة ، وتم تبادل الأسرى بين الفريقين ، كما اعتبرت العوجة منطقة دولية وجعلت مقرا لمراقبى الهدنة ، كما انسحب بعض أهالى الفالوجة مع القوات المصرية تنفيذا للملحق الأول ، أما الملحق الثانى فخاص ببيان الخط الذى يفصل بين الجهتين الشرقية والغربية ، والملحق الثالث خاص بتعريف وتحديد القوات الدفاعية المسموح بوجودها فى المنطقة الغربية .

لجنة التوفيق

بعد مقتل الكونت برنادوت ، وحدوث التطورات الأخيرة فى مشكلة فلسطين

استبعدت كل الحلول السابقة ، وألفت لجنة توفيق ثلاثية بواسطة هيئة الأمم المتحدة وهى مكونة من ثلاثة أعضاء أحدهم تركى والآخر فرنسى والثالث أميركى ، واللجنة غير مقيدة بأية قرارات سابقة وأغراض اللجنة هى :

١ — اتخاذ التدابير التى تقتضيها الظروف الحاضرة لحل مشكلة فلسطين ، وذلك للقيام بمهمة الوسيط الدولى بعد انتهائه من مهمته .

٢ — التوسط بين الفريقين المحاربين والاطلاع على أرائهما لمحاولة التوفيق بينهمـــا .

٣ — السعى لحماية الأماكن المقدسة فى القدس والناصرة وغيرهما ، وضمان وصول الحجاج والزائرين إليهما .

٤ — تقدم اللجنة فى اجتماعها التالى إلى الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة ، مقترحات مفصلة عن النظام الدولى للقدس ، مع توصياتها بشأن الأماكن المقدسة الأخرى .

٥ — إخضاع القدس لنظام دولى ، ونزع سلاحها بأسرع ما يمكن .

٦ — القيام بإجراءات من شأنها أن تصلح الحالة الاقتصادية فى البلاد ، وتسهل سبل المواصلات بالجو والبر والبحر .

٧ — تسهيل عودة اللاجئين الذين يريدون العودة إلى بلادهم بأسرع ما يمكن ، وتعويضهم عن خسائرهم .

وقد بدأت اللجنة عملها بزيارة القدس والأماكن المقدسة ، ثم زيارة أعضائها لعواصم الدول العربية المختلفة ، لتعرف وجهـــات النظر المختلفة فيها واستعراض الحلول المقترحة من الجانبين لحل مشكلة فلسطين ، وقد أطالت اللجنة هذه الزيارات عن قصد لتعطى الفرصة للدكتور بانش لإتمام سلسلة الاتفاقيات الخاصة بالهدنة الدائمة ، بين إسرائيل والدول العربية ، والتى كانت أولاها الاتفـاقية بين مصر وإسرائيل .

وقد دعت لجنة التوفيق إلى عقد مؤتمر تمهيدى للسلام فى بيروت ، يعقد فى ٢١ مارس ١٩٤٩ تحت إشرافها ، وقد وافقت الدول العربية على حضور هذا المؤتمر

بعد تبادل البرقيات بين عواصم الدول العربية ، واختيار هذا الموعد لانعقاد المؤتمر قد روعى فيه إنتهاء توقيع إتفاقيات الهدنة الدائمة بين الدول العربية وإسرائيل.

ولا يزال العرب فى إنتظار إجتماع هيئة الأمم القادم ليثيروا فيه مشكلة فلسطين ومشكلة اللاجئين المشردين حتى تجد الهيئة لها حلا .

مؤتمر لوزان (٢٦ أبريل ١٩٤٩)

أسفر مؤتمر بيروت عن الدعوة لعقد مؤتمر لبحث مشكلة اللاجئين ، وقد انعقد فى لوزان إعتبارا من ٢٦ أبريل ١٩٤٩ ، وقد اشتركت فيه مصر ولبنان وشرق الأردن وسوريا ، ولم تشترك العراق والمملكة العربية السعودية .

والمؤتمر ينعقد بإشراف لجنة التوفيق ومن أغراضه :

١ — حل مشكلة اللاجئين العرب .

٢ — محاولة عقد صلح دائم بين العرب وإسرائيل .

وقد قيل إن اليهود عرضوا القيام بعدة مشاريع إقتصادية فى البلاد العربية وتحويلها ، ولهذا الغرض وجهان خطيران :

١ — أن إسرائيل أخذت تحس بوطأة العزلة الاقتصادية فى مطلع حياتها .

٢ — يبين هذا العرض اتجاه إسرائيل إلى السيطرة الاقتصادية على البلاد العربية تحقيقا للأهداف الصهيونية الخبيثة .

وقد رفض المندوبون العرب أن يناقشوا أى مسألة قبل قبول اليهود عودة اللاجئين العرب إلى ديارهم وبعد مناقشات طويلة تمكن العضو الفرنسى من التوفيق بين الطرفين ووقع بروتوكول ابتدائى بذلك ويحتمل أن تكون المسألة التالية بحث وتقرير حدود إسرائيل وخصوصا بعد قبولها عضوا فى هيئة الأمم رغم مابذله العرب من جهود لمنع ذلك .

الفصل الثاني

مشروع سوريا الكبرى

رغم أن مشاكل الشرق الأوسط كثيرة متنوعة ، إلا أن مشروع سوريا الكبرى قد شغل أذهان العرب كما لم تشغلها مشكلة أخرى ، اللهم إلا مشكلة فلسطين ولقد شغل هذا المشروع حيزا كبيرا ، من تفكير الساسة العرب وغير العرب على السواء ، فهو يلاقى اهتماما فى واشنطن ولندن كالذى يلاقيه فى دمشق والقاهرة ، ولقد أفسحت إثارة هذا الموضوع المجال لأذناب الاستعمار أن يعبثوا بوحدة العرب ، وأتاحت للأيدى الخفية التى تعمل لصالح الدول الاستعمارية أن تلعب دوراً هاماً ، ستظهر نتائجه فى المستقبل القريب .

ورغم أن موضوع سوريا الكبرى قد أثير أخيراً فى الصحف العربية ، إلا أن المشروع ليس وليد اليوم ، ولكن جذوره تمتد خمسة وعشرين عاما إلى الوراء ، والمشروع الحالى يختلف عن المشروع الأصلى فى الأهداف والمقاصد ، بل وتشوبه الأطماع الشخصية ، فالمشروع الأصلى ، كان يهدف إلى وحدة العرب واستقلالهم وعزتهم ، ولكن من يهمهم الأمر ينظرون إلى المشروع الحالى بعين الريبة والحذر بل ويرون فيه وفيمن يدعون إليه وسيلة لتحقيق أهداف استعمارية أجنبية .

المشروع القديم

وقبل أن ندخل فى بحث العوامل التى أدت إلى المشروع الحالى ، ينبغى أن نمر مراً سريعاً بتلك الأهداف القديمة التى كان المشروع الأصلى يرمى إليها ، والتى كان لابد لها من المرور بالمراحل التالية لتحقيق الفكرة :

١ — اتحاد شرق الأردن مع سوريا الحالية فى دولة واحدة يرأسها الملك عبد الله الهاشمى .

٢ — إجبار لبنـــان على الاندماج فى هذه الدولة باتباع وسائل الضغط الاقتصادي والسياسى ، بل والتدخل المسلح لو اقتضى الأمر .

٣ — إيجاد نوع من الارتباط الوثيق بين الدولة الجديدة والعراق .

٤ — فى حالة تنفيذ مشروع تقسيم فلسطين يضم القسم العربى منها إلى الدولة الجديدة .

ومن هنا يتضح لنا أهمية هذا المشروع فى تكوين كتلة عربية ، تشمل العراق وسوريا وشرق الأردن وجانبا من فلسطين ، ولقد كانت الظروف مواتية لتنفيذ المشروع ، فالأسرة المالكة فى كل من العراق وشرق الأردن من أصل واحد ، وهو سلالة الشريف حسين ، ويهمهما أن تكون العلاقات وطيدة بين البلدين ، هذا علاوة على أن القسم العربى فى حالة تقسيم فلسطين لايستطيع أن يعيش مستقلا قائما بذاته ، ومن الأصلح له — فى حالة تكوين تلك الكتلة — أن يكون داخلا فيها ، حتى يقوى على مجابهة الخطر الصهيونى الآخذ فى الازدياد .

فهل كان ذلك المشروع القديم يتفق وأهداف الدول الأجنبية فى هذا الإقليم ؟

للإجابة عن ذلك السؤال نعود بالفكر مرة أخرى إلى أيام محمد على ، ذلك العاهل العظيم الذى تألبت عليه الدول الأجنبية بإيعاز من بريطانيا . فأجبرته على التخلى عن محاولته الجريئة لتكوين دولة عربية واسعة ، تمتد من السودان جنوبا إلى الفرات وجبال طوروس شمالا ، ومن هنا يتضح لنا أن كثيرا من الدول الكبرى لاتوافق على قيام كتلة مستقلة قوية فى الشرق الأوسط ، وإنما تريدها خاضعة لنفوذها ، ولاسيما وأن هذا الأقليم معرض لحرب فى المستقبل القريب ، وكذلك الصهيونيون يرون فى قيام مثل هذه الكتلة تحطيما لآمالهم فى إقامة وطن قومى لهم فى فلسطين ، ويحول دون امتداد نفوذهم إلى بقية أجزاء الشرق العربى .

لمحة تاريخية

وسنمر مرا سريعا بالمراحل المختلفة التى مرت بها فكرة تكوين سوريا الكبرى ، فقد أخذت الشعوب العربية تفيق من سباتها خلال القرن الثامن عشر ، وبدأت فى مختلف الأقطار حركات متشابهة ، هدفها العمل على إحياء الأمم العربية وبعث أمجادها ، بعد أن خضعت طويلا لسيطرة آل عثمان ، الذين أغفلوا شأن القومية العربية حتى كره العرب حكمهم .

وقد ظل العرب يتربصون بالحكم العثمانى حتى حانت الفرصة بنشوب الحرب

العالمية الأولى ، فصمموا على التخلص من النير التركى وتحقيق أهدافهم ، وبدأ الاتصال بين الشريف حسين ، شريف مكة ، وبين البريطانيين عن طريق لورد كتشنر العميد البريطانى بمصر ، ثم تبودلت الرسائل بعد ذلك بين الشريف وسير هنرى ماكماهون ، وكان آخرها رسالة ماكماهون بتاريخ ٢٤ أكتوبر سنة ١٩١٥ إلى الشريف حسين ، وهو يؤكد فيها باسم الحكومة البريطانية أنهـا مستعدة للاعتراف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم ، وحماية الأماكن المقدسة من كل اعتداء خارجى ، ومعاونتهم فى تشكيل أفضل أشكال الحكومات فى مختلف البلاد العربية .

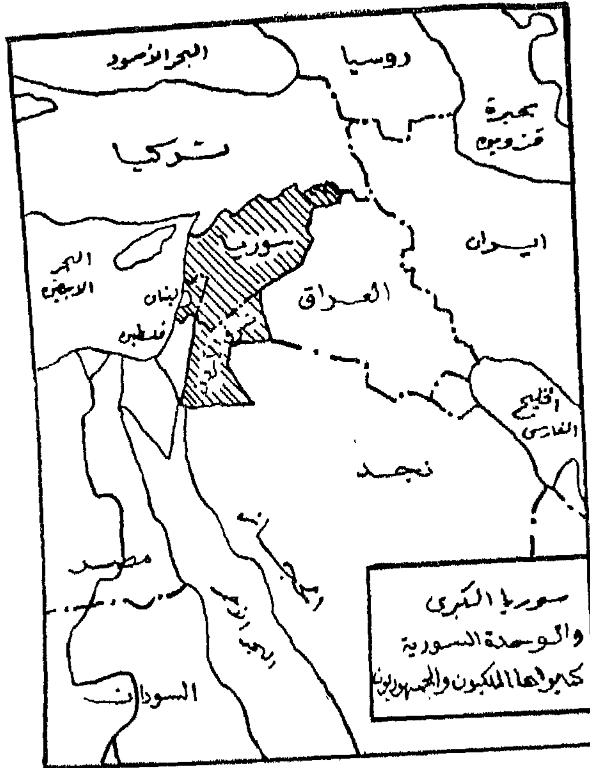
وقد استثنى ماكماهون فى كتابه الأقسام السورية الواقعة غربى دمشق وحمص وحماة وحلب من الدولة العربية ، وأن تؤمن مصالح بريطانيا فى ولايتى البصرة ، وبغداد باتخاذ بعض الإجراءات الإدارية الخاصة .

وقد اعترض الشريف حسين على مسألة الحدود ومسألة العراق ، ولكن ردود البريطانيين ظلت ملتوية وغامضة حتى نشبت ثورة الحجاز فى يونيو عام ١٩١٦ وقد امتد لهيبها إلى سوريا ، وكان العرب عاملا حاسما فى طرد الأتراك ، وتمكين الحلفاء من إحراز النصر فى الشرق الأوسط .

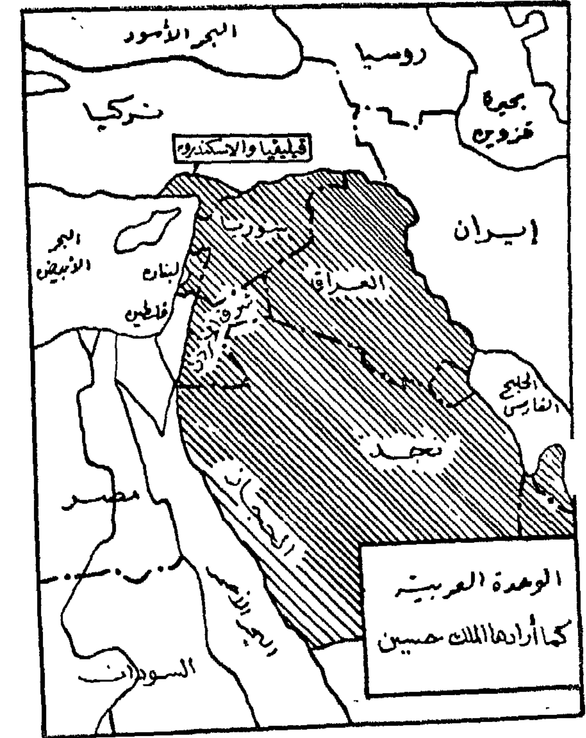
فما الذى كسبه العرب من ثورتهم هذه ؟ لقد تنكر الحلفاء لوعودهم السخية للعرب . ودارت مفاوضات سرية انتهت باتفاقية سايكس بيكو فى مايو عام ١٩١٦ ، وقد قسم الشرق العربى تبعا لها إلى منطقتى نفوذ ، إحداهما للإنجليز فى العراق وفلسطين ، والثانية لفرنسا فى سوريا ولبنان ، ولم يقف الأمر عند ذلك الحد ، فإن انجلترا تعدته بصدور وعد بلفور فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ ، وقد أرسله لورد بلفور وزير الخارجية البريطانية إلى لورد روتشيلد اليهودى يبلغه فيه أن حكومة بريطانيا تنظر بعين العطف إلى مشروع إنشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين .

اعلان استقلال سوريا

وفى ٢ اكتوبر سنة ١٩١٨ وصل الأمير فيصل إلى دمشق ، وأذاع بيانا يعلن فيه « أنه قد تشكلت فى سوريا حكومة دستورية عربية ، مستقلة استقلالا لا شائبة فيه ، باسم السلطان حسين ، وتشمل جميع البلاد السورية » .


البحر الأسود
روسيا
بحيرة قزوين
تركيا
ايران
البحر الابيض
سوريا
لبنان
فلسطين
العراق
الخليج الفارسي
نجد
مصر
البحر الأحمر
السودان
سوريا الكبرى
والوحدة السورية
كما يراها الملكيون والجمهوريون


البحر الأسود
روسيا
بحيرة قزوين
تركيا
ايران
البحر الأبيض
لبنان
فلسطين
سوريا
العراق
الخليج الفارسي
نجد
مصر
البحر الأحمر
السودان
الهلال الخصيب
كما يراه الهاشميون


البحر الأسود
روسيا
بحيرة قزوين
تركيا
قيليقيا والاسكندرون
ايران
البحر الأبيض
سوريا
لبنان
فلسطين
العراق
الخليج الفارسي
نجد
الحجاز
مصر
البحر الأحمر
السودان
الوحدة العربية
كما أرادها الملك حسين

وفى ٨ نوفمبر سنة ١٩١٨ صدر تصريح مشترك تعلن فيه كل من بريطانيا وفرنسا أنهما تشجعان إقامة حكومات وإدارة وطنية للشعوب التى رزحت أجيالا طوالا تحت نير الأتراك ، وأنهما تؤيدان قيام تلك الحكومات فى كل من سوريا والعراق ، وهى الأراضى التى تم تحريرها من الأتراك ، وكذلك فى الأراضى التى لا يزالون يجاهدون لتحريرها .

وقد علق الأمير فيصل على هذا التصريح بقوله « إنه من المستندات التاريخية الهامة ، التى تنبىء عن شعور عالٍ ، وحيثيات إنسانية ، ورغم أن هذا التصريح برىء فى مظهره إلا أن صياغته ملتوية ، تكمن فى طياته تلك السياسة المبيتة بين انجلترا وفرنسا وهى بسط نفوذهما على المشرق .

وقد دافع الأمير فيصل دفاعا مجيدا أمام مؤتمر الصلح المنعقد بباريس فى جلسة ٦ فبراير سنة ١٩١٩ . وطالب الدول الممثلة فى المؤتمر أن تعترف ببلاد العرب وحدة جغرافية مستقلة ، وأن يبرّ الحلفاء بوعودهم للعرب .

ولقد نشطت الحركة الوطنية فى سوريا ، وتألفت عدة أحزاب منها حزب الاتحاد السورى ، الذى ألفه كبار السوريين بمصر وطالب بتكوين دولة سوريا الكبرى التى تحد بجبال طوروس شمالا ، والفرات شرقا والصحراء العربية فمداين صالح جنوبا ، والبحر الأحمر فخط العقبة ورفح فالبحر المتوسط غربا .

وفى الوقت نفسه قام « الحزب الوطنى السورى » فى دمشق ، وطالب بنفس المطالب الأساسية ، وهى استقلال سوريا بحدودها الطبيعية وتوثيق العلاقات القومية والثقافية والاقتصادية بين البلاد العربية .

وجرت بعد ذلك محادثات بين الأمير فيصل والفرنسيين ، ولكنها لم تؤد إلى نتيجة فتقرر عقد مؤتمر وطنى يضم ممثلين من مختلف أنحاء البلاد لبحث الموقف .

اللجنة الأمريكية : (لجنة كراين)

وقد وصلت بعد ذلك بقليل لجنة أمريكية بقصد التعرف على مطالب البلاد وتفهم رغباتها ، وقد استقبلت وفدا يمثل أنحاء البلاد المختلفة ، وتسلمت منه مطالب البلاد وتتلخص فى المسائل الآتية :

١ — الاستقلال السياسى الكامل للبلاد السورية بأجمعها ورفض أى نوع من أنواع الحماية والوصاية .

٢ — قيام حكومة ملكية مدنية نيابية على أساس اللامركزية الواسعة وكفالة حقوق الأقليات ، على أن يكون الأمير فيصل ملكا على البلاد .

٣ — الاحتجاج على المادة الثانية والعشرين من ميثاق عصبة الأمم والتى تنص على وضع سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى مع أنها لا تقل رقيا وتقدما عن الصرب ورومانيا .

٤ — رفض دعاوى فرنسا والصهيونيين الخاصة بفلسطين .

٥ — لا مانع عند السوريين من تقبل المعونة الفنية والاقتصادية من الولايات المتحدة أو بريطانيا على ألا يكون فى ذلك مساس باستقلال البلاد .

٦ — ضرورة دخول لبنان وفلسطين فى حدود الدولة السورية .

٧ — استقلال العراق استقلالا تاما ورفع الحواجز الاقتصادية بينه وبين سوريا .

هذا هو المشروع القديم ، وتلك هى آمال العرب قبل أن تتعرض للضغط الخارجى .

الضغط البريطانى

وما لبث الموقف أن تغير ، وتحول تحولا خطيرا ، فقد تفاهمت بريطانيا وفرنسا من جديد على تنفيذ اتفاق سايكس بيكو الذى سبق ذكره ، وعمدت الحكومة البريطانية إلى الضغط على فيصل حتى يتصل بالفرنسيين مباشرة فقبل مكرها ، وانتهى الأمر باتفاق وقعه الطرفان فى ٦ يناير سنة ١٩٢٠ وينص على قبول الانتداب الفرنسى على سوريا واستقلال لبنان .

ورغم أن الأمير فيصل قد أجبر على قبول الاتفاق ، تحت ضغط الإنجليز ونزولا على حكم الظروف ، على أن يحاول فيما بعد إثارة الموضوع من جديد فى مؤتمر يجمع بين البريطانيين والفرنسيين والأمريكيين ، رغم ذلك كله فقد فيصل الكثير من عطف الشعب ، ورفض زعماء البلاد مشروع الاتفاق رفضا باتا ، حتى ولو أدى ذلك إلى محاربة الفرنسيين بل والإنجليز أيضا .

وفى هذا الجو المضطرب إتخذ المؤتمر السورى قرارا فى ٨ مارس ينص على استقلال سوريا بحدودها الطبيعية بما فى ذلك فلسطين مع منح لبنان الاستقلال الداخلى ، والمناداة بالأمير فيصل بن الحسين ملكا على الدولة يحكمها حكما ديموقراطيا نيابيا .

ولكن قرارات مجلس الحلفاء الأعلى التى صدرت بسان ريمو فى ٢٥ أبريل سنة ١٩٢٠ خيبت آمال العرب فى إقامة سوريا الكبرى ، فقد قضت هذه القرارات بوضع المنطقة العربية المحصورة بين الخليج الفارسى والبحر الأبيض المتوسط تحت الانتداب ، وتقسيم المنطقة إلى سوريا ولبنان وفلسطين مع بقاء العراق كاملا بلا تقسيم .

انذار جورو

تطورت الأحوال بعد ذلك فأرسل الجنرال جورو إلى الملك فيصل إنذارا فى ١٤ يوليو سنة ١٩٢٠ (ذكرى عيد الحرية) يطلب فيه :

١ — تسليم سكة حديد الرياق — حلب للفرنسيين .

٢ — إحتلال الجيش الفرنسى لمدن « الرياق — بعلبك — حمص — حماة — حلب » .

٣ — إلغاء التجنيد الإجبارى وخفض قوة الجيش السورى .

٤ — قبول الإنتداب الفرنسى بلا قيد ولا شرط .

وقد انقسم الزعماء فى موقفهم إزاء الإنذار ، فنادى فريق برفضه مهما تكن النتيجة ، ونصح الفريق الآخر بالقبول لاستحالة المقاومة ، وكانت الوزارة من الفريق الأخير ، وقد قبل فيصل الإنذار وشروطه بلا مناقشة مما أثار دهشة أنصاره وغضبهم ، وحدثت عدة مظاهرات سقط فيها مئات القتلى والجرحى من السوريين ، وواصل الفرنسيون زحفهم إلى دمشق ، وقد دارت بينهم وبين الوطنيين عدة معارك عنيفة قبل أن تسقط دمشق فى أيديهم .

وكان أول عمل للفرنسيين بعد ذلك أن طلبوا إلى الملك فيصل أن يغادر البلاد

فغادر عاصمته فى ٢٨ يوليو إلى إيطاليا ، ثم غادرها إلى لندن بدعوة من الحكومة البريطانية .

ارضاء الهاشميين

أرادت بريطانيا بعد ذلك أن ترضى البيت الهاشمى بعد أن أخلفت كل وعودها مع الهاشميين ، وكان تولى الأمير عبد الله إمارة شرق الأردن نتيجة لذلك ، ثم لم يلبث العراق أن ثار ضد الإنجليز ثورته المعروفة ، وسوى الموقف بتنصيب الملك فيصل ملكا على العراق ، وهكذا رضى الهاشميون مؤقتا ولكن الآمال كانت ولا تزال تساروهم فى إنشاء سوريا الكبرى ..!!

ووضع المشروع على الرف ـ مؤقتا ـ طالما أن سوريا ولبنان قد أصبحتا تحت الانتداب الفرنسى ، ولكن الهاشميين لم ينسوا المشروع وظلوا يترقبون الفرصة المواتية حتى انهارت فرنسا فى أوائل الحرب العالمية الثانية ، وكانت تصرفات حكومة فيشى مبعث ارتياب البريطانيين وشكهم ، ولعل البريطانيين خافوا أن يتخذ المحور من سوريا ولبنان ـ إذا وقعتا تحت سيطرته ـ قاعدة لمهاجمتهم ، فزحفوا على سوريا واحتلوها فى مايو سنة ١٩٤١ ، ثم احتلوا لبنان فى الشهر التالى ، وقد أعلن استقلال البلدين اعتبارا من أول يناير سنة ١٩٤٤ ، ولما وضح أن النفوذ الفرنسى سيتقلص نهائيا من الشرق ، عاود الأمل الهاشميين فى تحقيق مشروعهم القديم ، وأرسل الأمير عبد الله مذكرة سياسية إلى الحكومة البريطانية ، يفصل فيها رأيه فى حل المشكلة السورية بل والمسألة العربية بأجمعها .

مذكرة الامير عبد الله

كانت مذكرة الأمير عبد الله للحكومة البريطانية تشتمل على مشروعين :

المشروع الأول

إنشاء دولة سورية موحدة

ومن أهم أركان هذا المشروع :

ا ـ اعتراف الحلفاء باستقلال سوريا بحدودها الطبيعية واعتبار وحدتها القومية والجغرافية أساسا لنظام الحكم فيها ، على أن يكون نظام الحكم ملكيا دستوريا .

ب — تضم الدولة السورية الموحدة سوريا الشمالية وشرق الأردن وفلسطين ولبنان وتحكمها حكومة مركزية واحدة .

حـ — إلغاء وعد بلفور أو الاكتفاء بالوضع الراهن (حينذاك) ومنع الهجرة اليهودية .

د — تصان المصالح البريطانية والأجنبية فى الدولة السورية الموحدة بمقتضى معاهدة كالمعاهدتين المصرية والعراقية .

هـ — يدعى الأمير عبد الله بن الحسين لرئاسة الدولة السورية لاعتبارات مفصلة بالمشروع .

و — بمجرد إعلان تأسيس الدولة السورية الموحدة يؤسس إتحاد عربى من أراضى الهلال الخصيب (الدولة السورية الموحدة والعراق) بتوحيد الدفاع والثقافة والشئون الاقتصادية .

المشروع الثانى

إنشاء اتحاد سورى مركزى

وأهم أركان هذا المشروع :

ا — قيام اتحاد سورى مركزى يضم حكومات شرق الأردن وسوريا الشمالية ولبنان وفلسطين وتكون دمشق عاصمة الاتحاد .

ب — ينظم الاتحاد المركزى شئون الدفاع والمواصلات والاقتصاد الوطنى ، والسياسة الخارجية ، والثقافة العامة والقضاء الاتحادى مع بقاء الاستقلال الذاتى لكل من الحكومات الاقليمية الأربعة .

حـ — يكون للاتحاد مجلس تشريعى عام بالانتخاب ويمثل الأقاليم المتحدة ، وينتخب رئيس وزراء الاتحاد وأعضاء السلطة التنفيذية طبقا لأحكام الدستور .

د — يتم الاتحاد تبعا لمفاوضات بين الحكومات الإقليمية الأربعة ويبدأ ذلك باتفاق حكومتى سوريا الشمالية وشرقى الأردن .

هـ — يدعى الأمير عبد الله بن الحسين لرياسة الاتحاد السورى المركزى لنفس الاعتبارات الواردة فى المشروع الأول على أن ينيب عنه من يدير شرقى الأردن .

و — تصان المصالح البريطانية والأجنبية فى الاتحاد السورى المركزى بمقتضى معاهدة كالمعاهدتين المصرية والعراقية .

ز — بمجرد إعلان تأسيس الاتحادى السورى يؤسس اتحاد عربى من العراق والاتحاد السورى (الهلال الخصيب) .

ح — يشترط لانضمام فلسطين إلى الاتحاد تحقيق الأمور التالية :

١ — قيام حكومة وطنية دستورية فى فلسطين بحدودها الحاضرة .

٢ — العمل بالكتاب الأبيض (راجع مشكلة فلسطين) مؤقتا إلى أن يحل محله تفسير رسمى لوعد بلفور من الجانب البريطانى يزيل مخاوف العرب .

٣ — تبادل التعاون الاقتصادى بين الاتحاد العربى والمواطنين اليهود .

٤ — تعلن الهيئات اليهودية المسئولة موافقتها على هذا الحل بإخطار الحكومة البريطانية بذلك .

وإذا لم تحل مشكلة فلسطين على هذا النحو تظل خارج نطاق الاتحاد .

أرسل الأمير عبد الله هذه المذكرة إلى الحكومة البريطانية عام ١٩٤٣ ، ولكن الظروف لم تكن مواتية لتنفيذ أحد هذين المشروعين لأن الحرب كانت لا تزال قائمة ، ولذلك وضعا على الرف إلى حين .

المعاهدة الأردنية البريطانية

ولقد كان وضع شرق الأردن بالنسبة لبريطانيا يجعلها موضع ريبة البلاد العربية ، ولا يؤهلها لتنفيذ المشروع مما جعل بريطانيا تفكر فى تعديل ذلك الوضع ولو من الناحية الشكلية ، ولذلك رأيناها تبرم معاهدة صداقة وتحالف مع شرق الأردن تعترف فيها باستقلال الأخيرة كمملكة ذات سيادة وأصبح الأمير عبد الله ملكا على البلاد .

والمعاهدة بين بريطانيا وشرق الأردن لاتمنح الأخيرة استقلالا بالمعنى المفهوم فإن ملحق المعاهدة ينص على ما يلى :

١ — لانجلترا أن تبقى قواتها فى شرق الأردن فى الأماكن التى تشغلها وقت توقيع المعاهدة ، وفى أماكن أخرى يتفق عليها فيما بعد .

٢ — على دولة شرق الأردن أن تقدم لهذه القوات كافة التسهيلات اللازمة لإقامتهـا وحفظ أسلحتها ومهماتها وتخزينها ، بما فى ذلك تأجير الأراضى التى قد يتطلبها الامر .

٣ — تقديم التسهيلات لتنقلات وتدريب القوات الانجليزية فى جميع الأوقات ، وكذلك نقل المؤن والذخائر والوقود ومختلف المواد التى تطلبهـا القوات بطريق الجو أو البر أو السكك الحديدية أو الطرق المائية أو أنابيب البترول عن طريق موانىء شرق الأردن .

ومعنى ذلك أن بريطانيا قد اتخذت من شرق الأردن قاعدة عسكرية ونقطة ارتكاز بدلا من فلسطين ، فلو أن سوريا ولبنان دخلتا فى سوريا الكبرى برياسة الملك عبد الله ، فإن ذلك يعنى أن الدولة الجديدة بأكملها ستتحول إلى منطقة نفوذ بريطانية وتسيطر عليها بريطانيا عن طريق عمان .

ذلك ما يحفز معارضى المشروع للمعارضة ، ويدفعهم إلى عدم الموافقة عليه بصورته الراهنة ، لأن أهدافه قد بعدت الشقة بينها وبين أهداف المشروع الأصلى ذلك بالإضافة إلى أن أهل سوريا ولبنان يرون أن الدستور الأردنى الحالى يعود بهم إلى الوراء ويضيع عليهم حقوقا اكتسبوها فى عهد الاستقلال الجديد ، بعد جلاء الفرنسيين والبريطانيين .

ولقد زاد من نفور السوريين من المشروع ما صرح به الملك عبد الله أثناء زيارته لتركيا ، فقد تعهد بالتنازل عن الإسكندرونة نهائيا لتركيا ، ومن هنا وجد السوريون أنهم الخاسرون ، فالسوريون يطمعون فى استعادة ذلك اللواء الذى ضمته تركيا بموجب اتفاقها مع الفرنسيين فى يونيو سنة ١٩٣٩ .

موقف الدول من المشروع :

يبدو للباحث المدقق أن الهدف البعيد للمشروع هو إنشاء كتلة شرقية تتزعمها تركيا ، وهذا لا يقابل من مصر بالرضى فهى تتزعم جاراتها من الدول العربية بحكم الروابط القوية التى بينها ، علاوة على أن المشروع قد يستخدم فى المستقبل للضغط على مصر سياسيا واقتصاديا ، وقد يترتب على تنفيذ المشروع تكوين كتلة

اقتصادية فى الدولة أو الاتحاد الجديد يكون مصدر خطر على الصناعات المصرية الناشئة .

أما من ناحية المملكة العربية السعودية فإن نظرة إلى التاريخ القريب تكشف لنا عن طبيعة العلاقات بين البيتين السعودى والهاشمى رغم التحسن الأخير، فالمملكة العربية السعودية لا تنظر بعين الارتياح إلى مثل هذا المشروع الذى يكتل قوى البيت الهاشمى مرة أخرى ، وقد تمتد أطماعهم إلى الجزيرة العربية ويحنون إلى العودة إليها مرة أخرى ولو بطريق القوة ، ولا شك أن السعوديين سيقابلون مثل هذه الحركة بالقوة مما يعرض الأمن فى الشرق الأوسط للخطر .

ولا شك أن بريطانيا والولايات المتحدة تباركان المشروع وتنفخان فيه من روحهما وتنتهزان الفرصة لإخراجه إلى حيز الوجود ، أما فرنسا فإنها رغم تقلص نفوذها من المشرق ، فلا تزال لها علاقات ثقافية باقية هناك ، فلو تم تنفيذ المشروع فإن نفوذها الثقافى والاقتصادى سيكون مهددا بالزوال إذ سيحل محله النفوذ الأنجلو ـ أميركى ، ولذلك فإن فرنسا لا تحبذه ، بل وقد حملت عليه الصحف الفرنسية وعزت تحريكه إلى أيد أجنبية استعمارية .

أما روسيا فلا تنظر بعين الرضا إلى المشروع لأنها تعلم من قديم أن بريطانيا تحاول بسط نفوذها على الشرق الأوسط ، ومعنى تنفيذ المشروع هو قيام التفاهم بين الاتحاد الجديد وبين تركيا لتكوين الكتلة الشرقية ، واتمام النطاق المضروب حول روسيا من إيران إلى اليونان ، وبذلك يتم التطويق بعد إمضاء حلف الإطلنطى ، وإذا أضفنا إلى ذلك احتمال اشتعال نيران الحرب القادمة فى الشرق الأوسط ، فإننا نجد روسيا غير مرتاحة إلى تكوين هذه الدولة وبالتالى الكتلة الشرقية فقد تكون لها أغراض هجومية وهذا يهدد الروسيا تهديدا مباشرا .

ومن صالح الصهيونية أن ينفذ مشروع سوريا الكبرى لأنه سيتيح لها تقسيم فلسطين لصالح اليهود ، وبالتالى سيهيء للصهيونيين مد نفوذهم الاقتصادى إلى مختلف البلاد العربية .

الانقلاب الأخير

وقد أثير الموضوع مرة أخرى فى الأيام الأخيرة بمناسبة الانقلاب الذى

حدث فى سوريا . وقد سبق هذا الانقلاب تصريح المسئولين فى وزارة الخارجية الأميركية بأنهم يؤيدون قيام كتلة اقتصادية من دول الهلال الخصيب ، وقد سبق الانقلاب السورى الأخير أيضا رحلات بعض رجال المخابرات البريطانية فى دول الشرق الأوسط ومنها سوريا ولبنان والعراق وشرق الأردن ولكل هذه الرحلات دلالتها عند العالمين ببواطن الأمور .

وقد طرب الملك عبد الله لانقلاب سوريا وكذلك نورى السعيد رئيس وزراء العراق ، وقد سارع الأخير بالسفر إلى دمشق ، واجتمع بمدبر الانقلاب الزعيم حسنى الزعيم ، بحضور بعض العسكريين من العراق وسوريا ، وقد فتح له القصر الجمهورى لأول مرة منذ حدوث الانقلاب ، وقد أثارت هذه الحركة مخاوف مصر والمملكة العربية السعودية وإن وقفتا موقف الحياد حتى تتبين الحالة .

وقد سارع حسنى الزعيم بالحضور إلى مصر فجأة ، وتشرف بمقابلة جلالة الملك فاروق ، مؤكدا عدم اتصال انقلابه بمشروع سوريا الكبرى أو الهلال الخصيب ، وأن الانقلاب إنما تم لحساب سوريا ، وسوريا وحدها . . .

وبعد عودته إلى دمشق عقد اجتماعا صحفيا صرح فيه بقوله إن رحلتى إلى القاهرة قد جاءت مباغتة غير سارة لشرق الأردن ، وكان سادة بغداد وعمان يعتقدون أننى كنت سأقدم لهم تاج سوريا على صينية من الفضة . . . ولكنهم شعروا بخيبة الأمل . . . !!

ولا ترغب الجمهورية السورية لا فى سوريا الكبرى ، ولا فى الهلال الخصيب ، وسوف نناضل بكل قوانا ضد المشروعين المذكورين ، الصادرين عن إلهام أجنبى » .

وبعد حديث طويل عن التدابير العسكرية التى اتخذتها العراق وعمان ، وعن مشاريعه لتعزيز الجيش السورى والسلاح الجوى ، عرج مرة أخرى على موقفه من شرق الأردن فقال :

« أما بالنسبة لشرق الأردن ، الذى هو مقاطعة سورية وسيظل كذلك ، فإنه سينضم من جديد — عاجلا أم آجلا — إلى الوطن ، وسيصبح المحافظة العاشرة فى الجمهورية السورية . . . !!

ولعل التصريح الأخير قد ساء الملك عبد الله ، بقدر ما سره نبأ الانقلاب عقب حدوثه ، فقد خيل له أن الثمرة قد نضجت وحان قطافها ، وإنه لصاحبها ، ولقد ابتسم حين نقل إليه نبأ اعتقال السيد شكرى القوتلى وقال « إننى لا أحبه وهو لا يحبنى . . ! » كما جاء في الصحف فى حينه .

ولا شك أن المشروع بصورته الحالية ، ومع النفوذ الأنجلو ـ أميركى الكامن وراءه ، ليس فى صالح الدول العربية جميعها ، بل وقد يكون أداة للتفرقة بين أعضاء جامعة الدول العربية ، التى بدأت تستقر كمنظمة اقليمية .

وإنا لفى انتظار ما تأتى به الأحداث من جديد ، لتحقق ذلك المشروع — أو ذلك الحلم الهاشمى — القديم .

الفصل الثالث

مشكلة المضايق

« إن موقع القسطنطينية يجعل منها قاعدة للسيطرة العالمية ومركزا لها »

نابليون

مقدمة

للمضايق التركية من حيث كونها ممرات بحرية ، أهمية دولية ظاهرة ؛ لأنها تصل بحر ايجة ـ وهو جزء من البحر الأبيض المتوسط ـ بالبحر الأسود ، وهى قسمان :

البوسفور وهو واقع فى الشمال الشرقى .

والدردنيل ويقع فى الجنوب الغربى .

ويفصل بينهما بحر مرمرة ، ويسميه الأتراك بالبحر الأبيض تمييزا له من البحر الأسود ، وليست المضايق نقطة التقاء بحرين عظيمين فحسب ، فعندها تلتقى قارتان عظيمتان هما أوربا وآسيا ، ويبلغ طول الدردنيل ٦٤ كيلومترا ، ويراوح عرضه بين ١ر٨ ، ٧ كيلو مترا ؛ أما البوسفور فطوله ٢٧ كيلو مترا ، وعرضه ١ر٥ كيلو مترا فى أوسع مناطقه ؛ ويمتد بين المضيقين بحر مرمرة الذى يبلغ طوله ٢٧٥ كيلو مترا ، وعرضه ٨٥ كيلو مترا ، أما بحر إيجة فطوله ٦٠٠ كيلو مترا وعرضه ٤٠٠ كيلو مترا .

والمضايق التركية فى السلم تلعب دورا هاما من الناحية الاقتصادية ، فالسفن التجارية تنقل البضائع المتبادلة بين غرب أوربا وجنوبها الشرقى ، وقد كان النقل البحرى قبل الحرب العالمية الثانية فى أيدى الإيطاليين ، والبريطانيين واليونانيين ، أما الأتراك فكانوا فى المرتبة الخامسة أو السادسة ، وذلك يبين لنا أهمية المضايق من وجهة الاقتصاد الدولى ، والأتراك انما يتذرعون بما للمضايق من أهمية سياسية وعسكرية ، ليحتفظوا لها بالصبغة التركية ، ولا عجب فى ذلك ، فإن الدردنيل

والبوسفور جزء لايتجزأ من الأراضى التركية، وسلامة البلاد تتوقف على سلامتهما.

والمضايق هى الممر الوحيد الذى يمكن للروس أن ينفذوا منه إلى البحار الحرة من البحر الأسود المقفل ، وتتركز أهميتها بالنسبة إلى الروس فى أنها الطريق الوحيد البحرى ، الذى يمكن للدول المعادية أن تهدد منه أغنى المناطق الروسية وأخصبها .

ولقد كانت تجيش فى صدور الروس دائماً مطامع للتوسع نحو الجنوب ، للوصول إلى ميناء دافىء ، وقد كان ميليوكوف وزير الخارجية الروسية عام ١٩١٧ ، آخر من اعترف بها صراحة من الرجال الرسميين ، إذ قال : « لن تحل مشكلة المضايق إلا بإعطائها لروسيا ، لأن جعلها منطقة محايدة ينطوى عن أخطار جمة ، ويضطر روسيا لبناء أسطول بحرى ضخم ، يتولى حماية موانيها على البحر الأسود ، لأن حياد المضايق لن يمنع بوارج الدول المحاربة ، من الوصول إلى بحرنا الداخلى — البحر الأسود — وتهديد سلامتنا .

إن الألمان يطمعون فى المضايق ، لأنها تساعدهم على تحقيق مشروعهم التوسعى المعروف « برلين — بغداد » ، أما نحن الروس فالمضايق ضرورية لصادراتنا ووارداتنا ، وسلامتها تعنى سلامتنا . »

المضايق فى ظل الحكم التركى (القرن الثامن عشر)

حاول الأسطول الروسى فى عهد كاترين الثانية قيصرة روسيا ، أن يقتحم المضايق من الغرب عن طريق البحر الأبيض ، ولكنه أخفق فى هذه المحاولة ، وإن كان قد استطاع تحطيم الأسطول التركى فى خليج شيو (٦ يوليو ١٧٧٠) .

وقد وضعت معاهدة كشك كاينرجى حدا للنزاع ، وضمنت للسفن الروسية حق المرور من البحر الأسود إلى بحر إيجة ، وحق الرسو فى الموانى التركية القائمة على كلا البحرين ، وفى منطقة المضايق نفسها .

وقد حاولت كاترين ثانية إدخال سفنها الحربية إلى الدردنيل بطريق الخداع ، وكاد الطرفان أن يشتبكا ، لولا تراجع الروس وتحديدهم لعدد السفن التجارية التى يحق لها عبور المضايق طوال العام ، بحيث لا يتجاوز المسموح به لكل من بريطانيا وفرنسا .

المضايق في القرن التاسع عشر

اقضت حملة بونابرت على مصر ١٧٩٨ مضاجع العثمانيين ، فاستنجدوا بانجلترا التي يهمها حماية طريق الهند ، وروسيا الدولة البرية القريبة ، التي تستطيع نجدة تركيا ، فعبر الأسطول الروسي البوسفور في سبتمبر ١٧٩٨ ، بينما عمل الأسطول البريطاني على قطع المؤن والإمداد عن بونابرت في مياه مالطة ومصر .

وقد عقدت تركيا مع القيصر اسكندر الأول معاهدة (٢٣ سبتمبر ١٨٠٥) ، نصت على فتح المضايق أمام البوارج الروسية ، وجعلت دخول البحر الأسود محظورا على الأساطيل الأجنبية .

وفي عام ١٨٠٩ عقدت معاهدة صلح بين بريطانيا وتركيا ، وكانت بريطانيا قد وقفت موقفا عدائيا من تركيا عام ١٨٠٧ لتحالفها مع نابليون ، وقد اعترفت هذه المعاهدة بسيادة تركيا على المضايق ، وضمنت بريطانيا اقفالها في وجه السفن الحربية في السلم والحرب ، أي أنها أصبحت حارسة عليها بالاشتراك مع الدول ذات السيادة عليها .

محاولات نيقولا الأول

وقد تجنب مندوبو الدول إثارة مسألة المضايق في مؤتمر فينا (١٨١٤ — ١٨١٥) ، تجنبا لبعث المطامع الدولية في هذه المنطقة ، وقد أثيرت المسألة الشرقية مرة أخرى إبان حرب الاستقلال اليونانية (١٨٢١ — ١٨٢٩) ، فعززت روسيا موقفها من تركيا ، ووقع معها نيقولا الأول « معاهدة أكرمان » « ١٨٢٥ » ، التي ضمنت للسفن التجارية الروسية ، حرية الملاحة التامة في مياه الإمبراطورية العثمانية ، وفي عام ١٨٢٧ اشترك الأسطول الروسي مع زميليه البريطاني والفرنسي في تحطيم الأسطول التركي المصري ، واجتاح الروس البلقان ، فاضطرت تركيا إلى توقيع معاهدة أدرنة (١٨٢٩) ، التي نصت على أن المياه العثمانية منطقة مفتوحة في وجه السفن التجارية الروسية ، ولا يجوز إقفالها بأي حال وإلا اعتبر ذلك عملا عدائيا لروسيا ، تقابله بعمل ثأري لايسبقه إنذار .

وفي عام ١٨٣٢ تعرضت الإمبراطورية العثمانية للخطر ، على يد محمد على والى مصر ، فاستعان السلطان بالقيصر ، فأرسل جيشه وأسطوله إلى المضايق ، ونصب

نفسه حاميا للدولة العثمانية ، وقد أكدت معاهدة « هنكار أسكلة سى » هذه الحماية بجعلها المضايق منطقة مفتوحة دائما أمام الأسطول الروسى ، وتعهد السلطان فى ملحقها السرى بإقفال المضايق فى وجه سفن الدول الأخرى ، إذا طلبت إليه روسيا إقفالها ، وقد احتج الفرنسيون والبريطانيون على ذلك عام ١٨٣٥ ، حينما منعت بارجة أمريكية من عبور المضايق بناء على إيعاز السفير الروسى ، ولكن بدون جدوى .

المضايق تحت الإشراف الدولى

فى سنة ١٨٣٥ نصح القائد البريطانى ولنجتون ، لوزير خارجية بريطانيا بالمرستون ، أن يبلغ روسيا أن بريطانيا متضامنة معها فى الحفاظ على الإمبراطورية العثمانية ، وجعل البحر الأسود بحيرة مقفلة ، وقد قبل الروس المشروع البريطانى على مضض ، فاستردت تركيا سيطرتها الأسمية على المضايق ، وتولت الدول الأوربية الإشراف عليها بين عامى ١٨٣٣ — ١٨٤٠ .

وقد تجدد النزاع بين الباب العالى ومحمد على باشا عام ١٩٣٩ ، وكان من نتائجه عقد معاهدة لندن (١٨٤٠) ، التى تنص على قيام الدول الموقعة عليها — بناء على طلب السلطان — ، باتخاذ التدابير الكفيلة بحماية البوسفور والدردنيل ، على ألا يمس ذلك سيادة تركيا على المضايق ، والنظام الذى يحظر على السفن الحربية الأجنبية دخول البوسفور والدردنيل .

حياد البحر الأسود

بعد أن انتهت حرب القرم ، وبعد انتهاء النزاع بين تركيا وحلفائها من جهة ، والروس من جهة أخرى ، عقد مؤتمر باريس ، فأثار الحلفاء المنتصرون مسألة البحر الأسود والمضايق ، بقصد تجريد روسيا المنهزمة من امتيازاتها فى البحر المذكور ، وقد وقعت معاهدة باريس فى (٣٠ مارس ١٨٥٦) ، وقد اعتبرت المعاهدة البحر الأسود بحرا مفتوحا وحرا ، وأمنت الحرية التامة للتجارة ، وحظرت على تركيا وروسيا إنشاء قواعد بحرية به ، بعد إعلان حياده ، فقد نصت المادة

الحادية عشرة من المعاهدة على : «أصبح البحر الأسود بحرا حياديا مفتوحا فى وجه السفن التجارية فى كل وقت ، أما السفن الحربية فدخولها إليه محظور، سواء أكانت للدول الواقعة على البحر المذكور أم للدول الأخرى » .

الرد الروسى

وسفت روسيا فى اغلال معاهدة باريس خمسة عشر عاما، وكان الروس ينتظرون الظرف المواتى لينقضوا تلك المعاهدة الجائرة ، كما دعاها البريطانيون بعد ذلك ، وقد عرضت تلك الفرصة على أثر هزيمة فرنسا فى الحرب السبعينية .ووافق بسمرك على إعادة النظر فى معاهدة باريس ، ولم يمانع الأتراك فى ذلك ، مشترطين بقاء المضايق مقفلة ، وقد اقترح بسمرك عقد مؤتمر فى لندن ، وقد أسفر عن معاهدة ١٨٧١ ، وقد نصت المادة الثانية منها على أن يظل مبدأ اقفال البوسفور والدردنيل معمولا به ، وفاقا لأحكام معاهدة باريس ، وعلى أن يكون لجلالة السلطان الحق فى فتح المضايق المذكورة فى السلم ، لدخول السفن الحربية الصديقة والحليفة ، وإذا رأى ذلك ضروريا لتنفيذ أحكام معـــاهدة باريس » ، كما نصت المادة الثالثة على « بقاء البحر الأسود مفتوحا فى وجه جميع السفن التجارية » ، وبذلك وضع حدا لحياد البحر الأسود ، أما المضايق فظلت مقفلة مبدئيا فى وجه البوارج ، وترك للسلطان حق فتحها كلما قضت الحاجة .

وفى ٢٢ نوفمبر ١٨٧٧ ، رفع نيليدوف مبعوث القيصر إلى الباب العالى مذكرة جاء فيها ما نصه : « كان هدف سياستنا البحرية ولا يزال تأمين حرية الملاحة بين البحر الأسود ، والبحر المتوسط ، ومنع الأساطيل المعادية من تهديد سواحلنا ، لهذا يحسن بنا وبكم أن نجد حلا ، يضمن بقاء المضـايق مقفلة فى وجه الأساطيل الأجنبية ، على أن تتمتع سفننا وحدها بحرية عبور البوسفور والدردنيل ، فى حالتى السلم والحرب »

وقد حاول القيصر التفاهم مع الباب العالى بالطريق المباشر ، بعد أن اقتربت القوات الروسية من غاليبولى ، ولـكن الأسطول البريطانى سبقها إلى بحر مرمرة ،

رغم معارضة السلطان فى ذلك ، ولم ينسحب البريطانيون إلا بعد ابتعاد الروس عن غاليبولى ، وقد اقترح بسمرك عقد مؤتمر أوربى تمثل فيه تركيا وروسيا فى برلين وتحضره الدول الموقعة على معاهدتى ١٨٥٦ ، ١٨٧١ ، فانعقد المؤتمر فى (١٣ يوليو ١٨٧٨) ، وقد ظل الوضع كما هو فى المضايق نتيجة لمؤتمر برلين .

المضايق فى القرن العشرين

وقد اقترح الروس فى خريف ١٩٠٨ تعديل نظام البوسفور والدردنيل ، ولكن البريطانيين رفضوا هذا التعديل ، إلا إذا شمل أساطيل دول البحر الأبيض وكان يرضى تركيا ، وقد رفض الباب العالى وقتئذ إعادة النظر فى نظام المضايق ، فأغاظ ذلك الرفض روسيا .

وفى أوائل ١٩١٣ وضع السفير بازيلى ، تقريره الشهير عن المضايق ، تلبية لطلب سازانوف وزير خارجية القيصر ، وقد جاء فيه :

« ينبغى لنا أن نفرض سيطرتنا على المضيقين ، لنؤمن لأنفسنا منفذا على البحر الأبيض المتوسط ، أما احتلال البوسفور دون الدردنيل ، فيتيح لنا حماية مصالحنا فى منطقة البحر الأسود .

وعندى أن اعتمادنا على مساعدة اليونان فى احتلال المضايق ، ليس من الحكمة فى شىء ، ذلك بأن اليونانيين يطمعون فى السيطرة على القسطنطينية ، وهو ما نطمح نحن إليه ، أما السعى إلى إنشاء قاعدة روسية على بحر إيجة ، فقد يجر إلى عواقب وخيمة » .

ولما اطلع القيصر على التقرير ، عقد مؤتمرا سريا برياسة سازانوف (فبراير ١٩١٤) ، وقرر المؤتمرون وجوب تعزيز الأسطول الروسى فى البحر الأسود ، واعتبر تعيين الجنرال ليمان فون ساندرس الألمانى مفتشا للجيش العثمانى ، محاولة ألمانية للتدخل فى مسألة المضايق ، وهذا يضيف منافسة أخرى لانجلترا ، وكان الروس يحاولون السيطرة على المضايق بأى ثمن ، فقد قال الأمير تروبتسكوى :

« نحن نفضل أن نبلغ أهدافنا (إحتلال القسطنطينية والمضايق) ، ونحن حلفاء

لفرنسا وانجلترا ، ولكن إذا رفضت الدولتان ، فإننا لن نتردد فى محالفة ألمانيا على نفس الأساس » .

وفى أغسطس ١٩١٤ ، أعلنت ألمانيا الحرب على روسيا فى أوائله ، وقد أكد الصدر الأعظم لممثلى الحلفاء ، أن تركيا ستلزم الحياد الدقيق، ولكنه سمح للبارجتين الألمانيتين جوبن وبرسلو بدخول المضايق ، فلما احتج الحلفاء ، أجابوهم بأن تركيا قد اشترتهما من ألمانيا .

ولما دخلت تركيا الحرب فى أواخر أغسطس إلى جانب ألمانيا ، وقف العمل بمعاهدتى لندن وبرلين ، وأعيدت مسألة المضايق إلى بساط البحث مرة أخرى ، فقد صرح وزير خارجية روسيا فى فبراير ١٩١٥ ، بقوله فى مجلس الدوما :

« المضايق هى مفتاح بيتنا ، فينبغى لنا أن نضع أيدينا عليها ، وعلى الشواطىء المجاورة لها ، كما كتب الأمير تروبتسكوى إلى القيصرة الكسندرا يقول « هناك حل واحد معقول لمسألة المضايق ، وهو أن تصبح القسطنطينية ، والبوسفور والدردنيل ، جزءا من روسيا المقدسة لا يتجزأ ، وكل حل غير هذا يعتبر حلا موقوتا » .

وقد فكر الحلفاء الغربيون فى مهاجمة البوسفور والدردنيل فى أواخر ١٩١٤ ، ووضع تشرشل وزير بحرية بريطانيا خطة الهجوم ، وقد نفذت هذه الخطة بواسطة القوات الفرنسية والبريطانية ، التى شنت الهجوم على المضايق فى (١٨ مارس ١٩١٥) ففشل فشلا ذريعا ، وقد أنزلت بعض القوات فى شبه جزيرة غاليبولى ، ولكنها اضطرت للجلاء عنها بعد سبعة أشهر (نوفمبر ١٩١٥) ، ولم تدخل أساطيل الحلفاء إلى البوسفور ، إلا بعد هزيمة تركيا وتوقيعها على الهدنة (٣٠ أكتوبر ١٩١٨) ، على ظهر طراد بريطانى ، وقد حاول البريطانيون عقب انتهاء النزاع ، أن يخضعوا البوسفور والدردنيل ، والشرق كله لسيطرتهم التامة ، متجاهلين المطامع الفرنسية والروسية ، وهكذا تبخر حلم روسيا التاريخى .

المضايق ومعاهدة سيفر (١٠ أغسطس ١٩٢٠)

حلت معاهدة سيفر مسألة المضايق فى صالح المنتصرين ، وضحّت إلى حد ما

بمصالح دول البحر الأسود ، واعتبرته بحرا حرا ، كما نصت على أن المضايق ممر حر للسفن التجارية والحربية ، فى السلم والحرب على السواء ، كما حظرت استخدام البوسفور والدردنيل فى الحرب (كقاعدة أو هدف) ، كما حظرت فرض الحصار عليهما إلا بقرار من عصبة الأمم .

وقد عهد بإدارة المضايق إلى لجنة دولية ، مكونة من فرنسا — بريطانيا — الولايات المتحدة — إيطاليا — اليابان (لكل منها صوتان) ورومانيا — اليونان (صوت واحد لكل منهما) ، على أن ينضم إليها ممثل واحد لكل من تركيا وبلغاريا وروسيا ، بعد انضمامهما إلى عصبة الأمم كما نزع سلاح المنطقة المحيطة بالبوسفور والدردنيل وبحر مرمرة ، وخمس جزر واقعة خارج الدردنيل .

ولم تنفذ معاهدة سيفر لسقوط فنزيلوس وظهور مصطفى كمال ، الذى تنمر للحلفاء ، وطرد القوات الأجنبية من آسيا الصغرى ، ورفض التقيد بهذه المعاهدة المجحفة .

وقد اعترف السوڤيات بالحركة الكمالية ، وسارعوا بعقد اتفاق سياسى مع الغازى فى ٢٣ أغسطس ١٩٢٠ ، وقد أدرك المراقبون الأجانب أن موسكو وحكومة الغازى اقتنعتا أخيرا بأن للبلدين مصالح مشتركة ، يحسن بهما الدفاع عنها ضد الدول الغربية .

وبعد فشل مؤتمر لندن (فبراير عام ١٩٢١) ، فى ارضاء اليونان والأتراك ، عقد السوڤيات والكماليون معاهدة جديدة ، ورد فى المادة الخامسة منها النص التالى بخصوص المضايق :

« يرى الطرفان المتعاقدان ، رغبة منهما فى تنمية العلاقات التجارية بين الشعوب كافة ، أن تعقد الدول الواقعة على البحر الأسود مؤتمرا ، تكون مهمته وضع نظام للمضايق التركية وللملاحة فى البحر المذكور ، على أن لا تمس أحكام النظام بسيادة الدولة التركية وعاصمتها استانبول » .

وهكذا تخلت روسيا السوڤياتية عن مصالح روسيا القيصرية ، لقاء موافقة تركيا على إقصاء الدول الغربية عن المضايق .

وفى أواخر عام ١٩٢٢ بدأت مفاوضات الصلح فى لوزان ، واجتهد الحلفاء الغربيون خلالها فى استمالة تركيا إلى جانبهم ، أما المضايق فقد عقد بشأنها اتفاق خاص فى أول فبراير عام ١٩٢٣ ، وقد وقعت عليه روسيا وأوكرانيا ، وچورچيا وبلغاريا وتركيا ورومانيا من دول البحر الأسود ، والولايات المتحدة وانجلترا وفرنسا ، وإيطاليا واليابان ، وأسبانيا واليونان ، وكانت وجهة نظر الحكومة السوفياتية فى موضوع المضايق تتلخص فى النقط الآتية :

١ — تفتح المضايق فى وجه السفن التجارية فى السلم والحرب .

٢ — تقفل المضايق فى وجه السفن الحربية فى السلم والحرب باستثناء السفن الحربية التركية .

٣ — يعترف لتركيا بحق تحصين البوسفور والدردنيل .

وقد علق اللورد كيرزون على وجهة النظر السوفييتية بقوله :

« كان هدف السياسة الروسية فى عهد القياصرة ، وما يزال فى عهد السوفيات ، جعل البحر الأسود بحيرة روسية ، تتولى تركيا حراستها ، وقد جاء اقتراح تشيشرين (وزير خارجية السوفيات) ، مؤيدا وجهة النظر التركية فى الظاهر ، ولكنه يرمى إلى تمكين روسيا من الاستئثار بالبحر الأسود » .

وقد وافق المؤتمرون باستثناء روسيا على مشروع اتفاق ، تناول السماح للسفن التجارية بالمرور عبر المضايق فى السلم والحرب . وجواز مرور السفن الحربية فى السلم بشروط معينة ، وتجريد شواطىء البوسفور والدردنيل وجزر بحر مرمرة وبعض جزر بحر ايجة من السلاح ، وهذا هو ملخص اتفاق المضايق لعام ١٩٢٣ ، أو معاهدة لوزان التى أعادت لتركيا السيادة على موانيها ومضايقها ، وجعلت من استامبول قاعدة بحرية تركية .

معاهدة مونترو عام ١٩٣٦

فى ١١ ابريل عام ١٩٣٥ ، بعثت تركيا بمذكرة إلى الدول الموقعة على معاهدة لوزان ، تقترح فيها الشروع فى مباحثات حول نظام المضايق ، وبضرورة تعديل تلك المعاهدة ، حتى يمكن لتركيا أن تدافع عن سلامة أراضيها ، وقد قررت الدول

صاحبة الشأن ، عقد مؤتمر فى مونترو فى صيف عام ١٩٢٦ ، وقد انعقد المؤتمر فى ٢٢ نوفمبر من العام نفسه ، وحضره مندوبون عن استراليا — بريطانيا — بلغاريا — فرنسا — اليونان — اليابان — رومانيا — تركيا — الاتحاد السوفييتى — يوغوسلافيا ، وقد رفضت إيطاليا أن تحضره ، كما استنكفت الولايات المتحدة من الحضور ، ولم تجد تركيا صعوبة فى إقناع المؤتمرين بأحقيتها فى تحصين المضايق .

وقد أصر الوفد البريطانى على اعتبار البحر الأسود بحرا حرا دوليا ، كما عارض فى إعطاء دوله امتيازات خاصة ، أما ممثل السوفيات فقد ردد النغمة الروسية القديمة : « البحر الأسود بحر مقفل ؛ إنه بحيرة روسية تركية — رومانية بلغارية ، لهذا لا يجوز أن تخضع الملاحة عبر المضايق التركية للقوانين الداخلية ، التى تخضع لها سائر المضايق الدولية ، ولما كان البوسفور والدردنيل يؤديان إلى البحار الحرة ، فيحسن بالمؤتمر أن يقرر إقفالها فى وجه السفن الحربية التى تحاول دخول البحر الأسود ، وأن يتركها مفتوحة أمام السفن ، التى تريد الخروج من البحر الأسود إلى البحار الحرة » .

وقد تم الاتفاق على أن يكون للسفن التجارية ، حق المرور بحرية مهما كانت حمولتها ، وفى أى وقت ، وذلك فى زمن السلم ، أما فى حالة الحرب ، فإن السفن التجارية تخضع لبعض القيود ، فى حالة ما إذا كانت تركيا محاربة أو غير محاربة .

أما السفن الحربية ، فتمنح الحرية للسفن الخفيفة ، فتطلب الإذن بالمرور ، وقد استثنيت دول البحر الأسود من هذا الشرط ، وكذلك السفن الحربية التى تقوم بتنفيذ التزامات أو مواثيق إقليمية ، طبقا لميثاق عصبة الأمم ، وقد ألغت معاهدة مونترو اللجنة الدولية للمضايق ، وعهدت باختصاصاتها إلى الحكومة التركية .

وبإلغاء اللجنة الدولية ، وإطلاق يد تركيا فى تحصين البوسفور والدردنيل ، ومنح دول البحر الأسود امتيازات خاصة ، فقدت المضايق صفتها الدولية وطابعها الحيادى .

المضايق فى الحرب العالمية الثانية

عانت تركيا الكثير من المصاعب منذ توقيع معاهدة مونترو عام ١٩٣٦ ، حتى

انتهاء الحرب العالمية ، من جراء التزاماتها فى تلك المعاهدة ، والتى عمدت كل دولة إلى تفسيرها على هواها ، كلما وجدت من أنقرة ميلا إلى تقوية علاقاتها بأى دولة من الدول الكبرى .

وفى ابريل عام ١٩٣٩ ، اضطربت الحالة الدولية ، فلم تتردد تركيا وعلى رأسها عصمت اينونو فى محالفة بريطانيا لتبادل المساعدة « فى حالة نشوب نزاع مسلح فى حوض البحر المتوسط » ، وقد أكدت الدولتان ضرورة المحافظة على الأمن فى البلقان ، ولمحتا إلى رغبتهما فى الحيلولة دون خضوع المضايق والبحر الأسود لسيطرة دولة طامعة .

وقد دخلت موسكو فى مفاوضات مع أنقرة (٢٥ سبتمبر عام ١٩٣٩) ، لعقد ميثاق بينهما ، وتقدم الروس بمطالب بشأن المضايق ، اعتبرها الأتراك مستحيلة التحقيق ، فأخفقت المفاوضات ، وفى اليوم التالى لفشلها عقدت معاهدة تحالف بين تركيا وفرنسا و بريطانيا لمدة خمسة عشر عاما .

و بعد أن وقعت روسيا و بريطانيا اتفاق « العمل المشترك » ، ضـــد ألمانيا وحلفائها فى أوربا فى (١٩ يوليو عام ١٩٤١) ، أعلنتا عن استعدادهما لمساعدة تركيا إذا استهدفت لاعتداء ما ، وأكدتا أنهما لا تنويان التقدم بمطالب تتعلق بالمضايق ، ولا تفكران فى استخدام أراضى البلاد التركية وبحارها وجوها فى أغراضهما الحربية .

المضايق فى الوقت الحاضر

ما أن وضعت الحرب الثانية أوزارها ، حتى أثارت روسيا السوفييتية مسألة المضايق من جـــديد ، ففى ٢٢ يونيو عام ١٩٤٥ ، أبلغ فينو جرادوف سفير السوفيات فى أنقرة ، الحكومة التركية أن حكومته مستعدة لأن تعقد معها معاهدة جديدة ، إذا وافقت تركيا على :

١ ـــ ضم ولايتى القرص وأردهان ومنطقة أروين إلى أرمينيا السوفييتية .

٢ ـــ اشتراك روسيا فى الإشراف على المضايق بإعطائها قواعد على البوسفور والدردنيل .

٣ — إعادة النظر فى معاهدة مونترو .

٤ — تعديل الحدود التركية فى القسم الأوربى .

وقد رفضت تركيا بعد تشاورها مع بريطانيا الدخول فى مفاوضات ثنائية مباشرة بشأن المضايق ، وفى يوليو وأغسطس عام ١٩٤٥ انعقد مؤتمر بوتسدام فطلب الروس إعادة النظر فى معاهدة مونترو . لأن أحكامها لم تعد تلائم مقتضيات العصر ، وقد وافق البريطانيون والأمريكيون على ضرورة تعديلها ، على أن تتصل كل دولة بتركيا مباشرة ، وقد كان من نتائج اشتراك الولايات المتحدة فى إصدار تصريح بوتسدام ، أن أصبحت طرفا جديدا فى مشكلة المضايق .

وفى ربيع ١٩٤٦ زارت استامبول المدرعة الأمريكية ميسورى ، وعدد من القطع البريطانية البحرية ، وقد عد المراقبون هذه البادرة دليلا على اهتمام أمريكا المتزايد بشئون تركيا والمضايق .

وفى ٨ أغسطس ١٩٤٦ ، بعثت موسكو إلى انقرة بمذكرة ، تقترح فيها خمس نقط تعديلا لمعاهدة مونترو :

١ — تفتح المضايق فى وجه السفن التجارية مهما كان نوعها أو جنسيتها .

٢ — تفتح المضايق فى وجه السفن الحربية التابعة لدول البحر الأسود فى الحرب والسلم على السواء .

٣ — لا تفتح المضايق فى وجه السفن الحربية التابعة لدول غير دول البحر الأسود ، إلا فى حالات استثنائية ينص عليها .

٤ — وضع نظام للمضايق ، وتحديد جهة المرور فيها ، يعودان إلى تركيا وسائر دول البحر الأسود .

٥ — أن تركيا والاتحاد السوفييتى هما الدولتان القادرتان على تأمين حرية الملاحة ، والمحافظة على سلامة المضايق ، ورد الاعتداء عنها بوسائلهما الخاصة .

وقد أصدرت الولايات المتحدة تصريحا توافق فيه على النقاط الثلاثة الأولى ، ولكنها لم توافق على المقترح الرابع ، وعدت الخامس اجتراء على سيادة الجمهورية التركية ، التى يجب أن يعود أمر الدفاع عن المضايق إليها وحدها .

وبعد اثنى عشر يوما من التصريح الأمريكى ، أصدرت الحكومة البريطانية تصريحا ، لا يختلف فى معناه عن التصريح الأمريكى ، وفى اليوم التالى أذيع الرد التركى على المذكرة السوفياتية ، وقد جاء مطابقا للتصريحين البريطانى والأمريكى ، واختتمته أنقرة بدعوة موسكو إلى احترام مبادىء الأمم المتحدة ، والاعتماد فى تأمين سلامة روسيا على إقامة علاقات ودية مع تركيا الجارة القوية ، بدلا من السعى للحصول على مركز استراتيجى ممتاز فى المضايق .

وقد حاولت موسكو مرة أخرى الدخول فى مفاوضات مباشرة مع تركيا ، ولكن بريطانيا وأميركا وقفتا لها بالمرصاد ، ولم تعقد حتى يومنا هذا اتفاقات جديدة تختص بالمضايق ، وإن كانت المعونة الأمريكية تنهال على تركيا ، التى أصبحت معسكرا كبيرا ، وقد انسلكت فى الحلف الغربى بطريق غير مباشر ، وسواء عقدت تركيا وروسيا اتفاقا مبدئيا أو لم تعقداه ، فإن مهمة المؤتمر الدولى ستكون شاقة لأنه سيجد نفسه أمام :

١ — روسيا السوفياتية التى صرفت النظر عن مطامع القياصرة ، ولكنها ترغب فى تأمين سلامتها ، وسلامة الدول التى تدور فى فلكها ، وتقول بجعل البحر الأسود بحرا مقفلا ، وتطالب بإشراكها فى الدفاع عن المضايق مفتاح البحر الأسود .

٢ — تركيا التى تدور فى فلك الدول الغربية ، وتؤيد وجهة نظرها تلك الدول وتقول تركيا إن البحر الأسود بحر حر ، وأن حماية المضايق أمر يخص تركيا وحدها ، لأنها الدولة ذات السيادة على المضايق .

أى أن مهمة المؤتمر ستكون التوفيق بين حرية الملاحة ، وحق دول البحر الأسود فى حفظ كيانها ، دون أن يترتب على ذلك الحق وتلك الحرية أى مساس بالسيادة التركية .

الفصل الرابع

مشكلة البترول فى الشرق الأوسط

« لقد طفا الحلفاء إلى النصر
على بحر من الزيت »
كليمنصو

أصبح زيت البترول ، وعلى الأخص فى السنوات الأخيرة ، ذا أهمية بالغة فى السياسة الدولية ، وصار التسابق على امتلاك موارده والسيطرة عليها طابع العصر ، وهو تسابق تستخدم فيه كافة الأسلحة والأساليب ، من ضغط سياسى واقتصادى ، إلى تغلغل باسم التجارة وإجراء البحوث العلمية ، أو التقرب إلى الأمم التى تملك منابعه ، والسعى لنيل امتيازات استنباطه واقتسام المناطق الغنية به ، وتحت ستار الامتلاك أو الوصاية أو المشاركة ، أوعن طريق المعاهدات المؤبدة .

والتنافس بين الدول العظمى التى يهمها الأمر سواء كان خفيا أو علنيا ، يؤدى بها إلى حرب عنيفة من أجل زيت البترول ، وستشتد هذه الحرب فى قابل الأعوام ، وستتميز بطابع القسوة والعنف . ولا يستبعد أن يكون زيت البترول من العوامل الحاسمة فى نشوب حرب عالمية ثالثة ، لأن التنافس سيشتد على موارد منطقة الشرق الأوسط من البترول ، وسيتغير توازن قوى الدول والهيئات الاحتكارية من جراء هذا التنافس .

مناطق البترول فى العالم

البترول متركز فى مناطق أربعة محدودة هى :

١ — القارة الأمريكية شمال وجنوب بحر الأنتيل ، بين تكساس وبيرو ، وهى أغنى المناطق جميعا ، وأهم الجهات المنتجة له هى الولايات المتحدة ، وفنزويلا

والمكسيك وبيرو والأرجنتين ، وقد بلغ إنتاج هذه المنطقة عام ١٩٤٣ أربعة أخماس الإنتاج العالمى تقريبا .

١ — آسيا الغربية وبلاد العرب والقوقاز ، وهى تنتج نحو ١٦٪ من الإنتاج العالمى .

٢ — المنطقة جنوب شرق آسيا . وقد أنتجت جزر الهندالهولندية ٨ ملايين طن عام ١٩٤٣.

٣ — إقليم الكربات فى القارة الأوربية .

احتياطى البترول فى العالم

ولعل من المفيد هنا أن نورد إحصائية لإنتاج بعض دول العالم من البترول فى عام ١٩٤٥ :

البلد	الإنتاج بملايين الأطنان	البلد	الإنتاج بملايين الأطنان
الولايات المتحدة	٢٠٤	رومانيا	٤ر٥
الاتحاد السوفييتى	٢٥ر٥	العراق	٤ر٧
فنزويلا	٢٥	الأرجنتين	٣ر٤
إيران	١٧	جزيرة ترينيداد	٣
جزر الهند الهولندية	٨	بيرو	١ر٩
المكسيك	٥ر٩	مصر	١ر٣

ولو نظرنا فى الاحتياطى المختزن فى باطن الأرض حسب تقدير الخبراء ، لأدركنا العلة فى اهتمام الدول العظمى ، (الولايات المتحدة — وبريطانيا — والاتحاد السوفييتى) بمنطقة الشرق الأوسط على وجه الخصوص .

وفيما يلي بيان بذلك الاحتياطي كما قدره الخبراء بملايين الأطنان :

المنطقـــة	مقدار الاحتياطي
الولايات المتحدة	٢٫٧٠٠
سواحل البحر الكاريبي	٦٫٠٢٥
الشرق الأوسط	٢٫٢٠٠
الاتحاد السوفييتي	١٫١٦٥

بترول الشرق الأوسط

الشرق الأوسط هو المنطقة الثانية فى العالم ، من حيث الأهمية فى إنتاج البترول . وهذا البترول هو نقطة الخطر فى محيط السياسات ، وموضع الخلافات والمنافسات بين الدول ، ومعمل البارود الذى قد ينفجر يوما ، فإذا بالعالم انغمر فى حرب ثالثة ، لا يستطاع التكهن بنتائجها .

وقد أدى وجود البترول فى الشرق الأوسط إلى شبكة من خطوط الأنابيب ، تمتد عبر قارات بأكملها ، وإلى إقامة معامل للتكرير على أحدث طراز ، وهذه الأنابيب والمعامل تتطلب حماية خاصة ، فإن الزيت الذى يجرى فيها من أجل الدول العظمى ، وكان نصيب الشرق الأوسط من هذه الخطوط ما يلى :

١ — خط من الموصل يتفرع إلى فرعين ، وينتهى أحد طرفيه عند طرابلس للفرنسيين ، وعند حيفا للإنجليز لا للعراقيين والسوريين والفلسطينيين ، وهناك معمل للتكرير فى حيفا .

٢ — من الأهواز إلى عبادان للأميرالية البريطانية لا للإيرانيين.

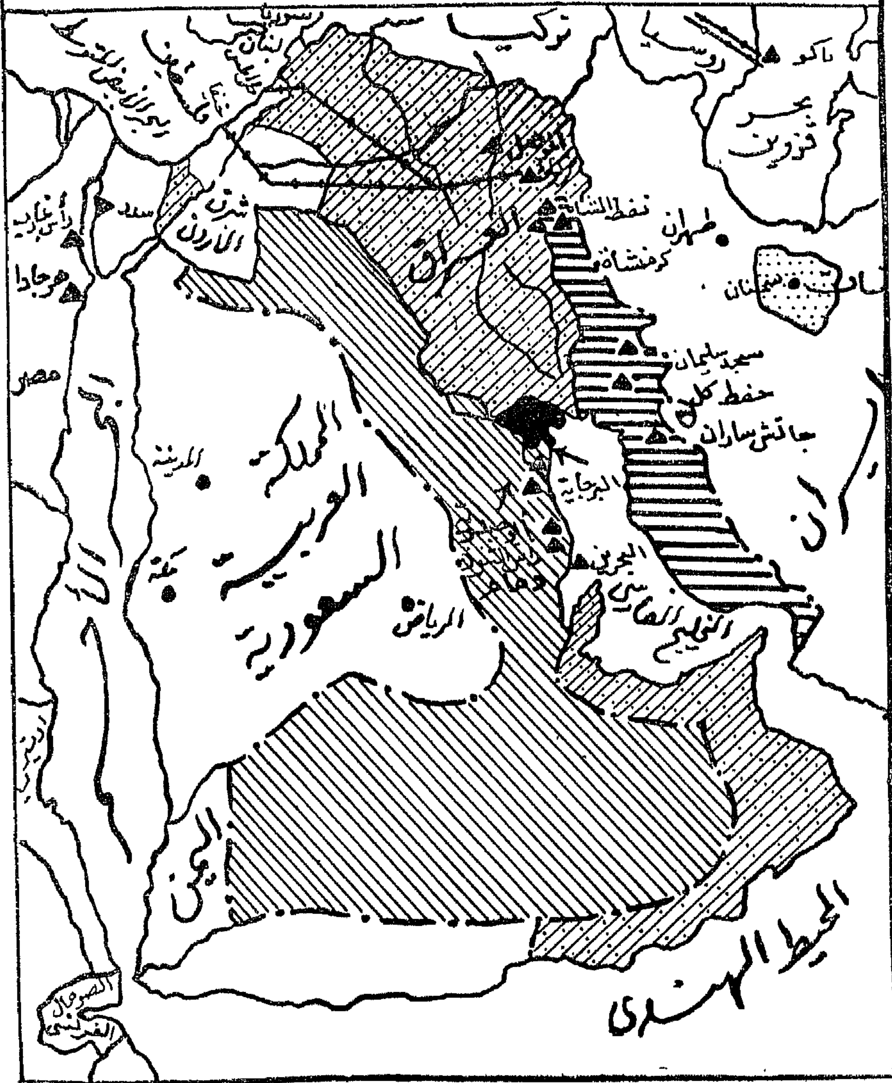
٣ — من البحرين إلى سترا للأميركيين لا للعرب .

وشركات البترول التى حصلت على امتيازات استنباط البترول فى تلك المناطق ، قد اتسع نفوذها حتى أصبحت دولة داخل الدولة ، لها إدارتها وأسطولها الجوى ، وجيشها الصغير ، وأموالها ومستشفياتها ومرافقها .

مناطق النفوذ البترولي
في الشرق الأوسط

منطقة نفوذ بريطانية
" " أمريكية
" " مختلطة
" " روسية
" " أنجلوأمريكية

خط أنابيب
حقل بترول



موارده ومناطق استخراجه

إيران

أهم المناطق التى يستغل بترولها فى الوقت الحاضر وهى :

١ — مسجد سليمان وحفط كل وهذان الحقلان فى عربستان ، وهى الولاية الجنوبية الغربية ، وهناك أنبوبة ممتدة فى وادى قارون ، من مسجد سليمان إلى عبادان ، وتتصل بها أنبوبة أخرى عند كوت عبد الله ، وهى الآتية من حفط كل .

٢ — نفط الشاه بالقرب من حدود العراق .

وقد أقامت شركة البترول الإنجليزية الإيرانية فى مدينة عبادان ، مصنعا لتكرير البترول ، يعد من أحدث وأعظم المصانع من نوعه فى العالم أجمع .

وتعد إيران اليوم ثالث دولة لإنتاج البترول فى العالم وثانى مصدر (بعد فنزويلا وجزر الهند الهولندية) ، يمد الإمبراطورية البريطانية بحاجتها من الزيت ، وقد كان الإنتاج قبل نشوب الحرب العالمية عشرة ملايين طن فى السنة ، وقد زاد الآن إلى سبعة عشر مليونا من الأطنان كل عام ، وتدل الأبحاث التى قام بها الروس أخيرا ، على توافر مقادير كبيرة فى القسم الشمالى من إيران ، ويعتقد البعض أنها أوفر محصولا من المنابع التى هى موضع الاستغلال الآن .

العراق

يتوافر زيت البترول فى مناطق متعددة بحوض نهرى الدجلة والفرات ، وأهم ما اكتشف فى كركوك جنوبى الموصل ، وهناك معمل تكرير فى الواند وهناك خط أنابيب يبدأ فى كركوك ، وله نهايتان : إحداهما فى حيفا والأخرى فى طرابلس.

وهناك حقل آخر فى غربى دجلة ، أما بترول الموصل فلم يستغل بعد ، وقد ذكرت إحدى الصحف العراقية الصادرة عام ١٩٤٦ ، أن إنتاج العراق من البترول قد وصل إلى ٤٫٧٠٠٫٠٠٠ طن ، فى مقابل ٤٫١١٦٫٠٠٠ طن عام ١٩٣٩ ، وينتظر أن يصل الإنتاج إلى ١٢ مليونا من الأطنان فى بحر خمسة أعوام ، إذا استغلت بقية الحقول .

جزر الخليج الفارسى

١ — زيت جزر البحرين ويستغله الأمريكيون ، وقد بدأ الإنتاج قبل الحرب الأخيرة ، وهناك معمل للتكرير حديث الطراز ، وينقل البترول إلى سترا ثالثة جزر البحرين ، عبر شريط ضيق من البحر ، وكان الإنتاج اليومى ٢٥٫٠٠٠ برميل (مع العلم أن الطن = ٦٫٢٨٩٨ برميلا) .

٢ — الحقل الكبير فى دامان دوم ، وكان إنتاجه فى السنة ٦٧٫٠٠٠ طن عام ١٩٣٨ .

٣ — ويقول الخبراء بوجود البترول فى إمارات الخليج الفارسى وحضرموت وجزر فارازان ، والبعوث الأمريكية لا تزال تنقب فى المملكة السعودية ، ويقدر انتاج هذه المنطقة بمليونى طن سنويا .

تركيا

اكتشف فى عام ١٩٤٠ حقل بجبال امان فى منطقة بشيرى ، فى منتصف المسافة بين سرت وديار بكر ، فى الجزء الجنوبى الشرقى من الأناضول ، ولم يستغل بعد على نطاق واسع .

ويقدر الخبراء احتياطى البترول الموجود بمنطقة الشرق الأوسط بنحو ٢٫١٢١٫٠٠٠ مليون من الأطنان .

مصر

وسيأتى الكلام عنها بتفصيل فيما يلى .

الامتياز الأول فى بلاد فارس

ونلم فيما يلى ببعض شروط الامتياز الأول ، الذى عقد فى إيران ، لنتبين مقدار الغبن والاستغلال ، الذى يقع على البلاد التى تتقيد بمثل هذه العقود المجحفة :

١ — مدة الامتياز ٦٠ عاما منذ ابتداء الامتياز فى كافة أنحاء البلاد .

٢ — استثنى الاتفاق المناطق الشمالية (أذربيجان - جيلان - مازنداران - استراباد - خراسان) .

٣ — اصاحب الامتياز وحده حق مد أنابيب البترول فى بلاد فارس بدون استثناء ، فى الساحل الجنوبى أو الأنهار الجانبية .

٤ — تتعهد الحكومة بتنفيذ نصوص الامتياز وحماية ممتلكات الشركة وأرواح وكلائها وعمالها .

٥ — تحصل الحكومة على ١٦ ٪ من صافى أرباح أية شركة تتكون تنفيذا لعقد الامتياز .

ومعنى ذلك أن الاتفاق جعل من جنوب البلاد منطقة نفوذ بريطانية .

تكوين شركة الزيت الانجليزية الفارسية

تكونت فى ١٤ إبريل ١٩٠٩ لاستثمار موارد الزيت ، الذى تفجر بمقادير كبيرة فى سهل النفط ، برأس مال قدرة مليونان من الجنيهات ، وأحسن وصف لأهمية المشروع بالنسبة لبريطانيا ، ما قاله السير كارجيل مدير شركة بورما للزيت « إن هذا العمل لايقتصر على استحواذ شركة بورما للزيت ، على مايبدو أنه من أغنى آبار الزيت فى العالم ، بل إنه ضمن للإمبراطورية موردا طبيعياً ، يشعرون أن الأيام ستثبت أنه ذو أهمية عظمى للشعب ، وفى الوقت نفسه حال هذا العمل دون وقوع هذا المنبع الطبيعى للثروة ، فى أيد أجنبية غير بريطانيا » .

وقد ثبت فيما بعد أن البترول الفارسى من نوع ممتاز ، فقد بلغت نسبة البنزين فى ناتج بعض الآبار ٥٥ ٪ ، علاوة على موقع الآبار الجيد ، ورخص أجور العمال مما يقلل نفقات الإنتاج .

وقد ساهمت الحكومة البريطانية فى الشركة عام ١٩١٤ بنصف الأسهم ، لأنها كانت تعتمد على شركة استاندارد أويل ، ولكن لا يجوز للبحرية البريطانية أن تظل تحت رحمة هذه الشركة ، فقد تنشأ ظروف تحول دون إمدادها بكافة مايلزمها ، علاوة على ارتفاع ثمنه ، ولذلك كان يجب على البحرية البريطانية ، أن تعتمد على

البترول الموجود فى بلاد أقرب إلى وضع المستعمرات البريطانية ، وتكون لانجلترا فيها مصالح قوية ، ولها اليد العليا فى أمورها ، وقد ارتبطت الأميرالية مع الشركة باتفاق ينص على أن تمدها بمقدار معين من الزيت لمدة ثلاثين عاما .

وبمساهمة الحكومة البريطانية فى الشركة ، أصبح لها فعلا السيطرة الاقتصادية على منطقة الامتياز .

وقد أنشأت الشركة أو ضمت إليها عدداً من الشركات الأخرى ، مثل شركة بختيارى للزيت التى أسست عام ١٩٠٩ لاستغلال الآبار البعيدة وسط مناطق الزيت الجنوبية ، وشركة بريتش تانكر كومبانى ليمتد عام ١٩١٥ ، وتنقل الزيت إلى أوربا بسفنها ، وكذلك استولت الشركة من الماليين الألمان على معظم أسهم شركة بريتش هومليت أويل كومبانى ، وشركة البترول ، وهما تبيعان الزيت فى أوربا وبريطانيا .

شركة البترول التركية

تكونت فى ٢٣ أكتوبر ١٩١٣ ووزعت أسهمها كالآتى :

١ — ٢٥ ./. للبنك الألمانى نيابة عن سكة حديد بغداد الألمانية .

٢ — ٢٢٫٥ ./. لشركة البترول الأنجلوسكسونية ، وتمثل شركة رويال دتش وشل .

٣ — ٤٧٫٥ ./. لبنك تركيا الوطنى ، وهو مؤسسة انجليزية .

٤ — ٥ ./. للمستر جلبنكيان ، وهو مالى دولى لعب دورا هاما فى اتمام المشروع .

وقد دعت قلة الإنتاج وكثرة النفقات ، بنك تركيا الوطنى (الإنجليزى) ، أن ينقل ماله من مصالح إلى الشركة الانجليزية الفارسية (بإيعاز من انجلترا) .

وسرعان ماحصلت شركة البترول التركية على وعد كتابى من الحكومة العثمانية ، بامتياز يشمل منطقتى الموصل وبغداد .

من ذلك يتبين أن الحكومة البريطانية ، أصبحت ذات النفوذ الأعلى والمصلحة

الغالية ، وضمنت بذلك موارد جديدة لبحريتها ، بجانب ماسيطرت عليـــه فى الإمبراطورية الفارسية .

البترول فى القطر المصرى

تتركز مواطن البترول فى مصر فى الإقليم الساحلى للبحر الأحمر ، عند اتصاله بخليج السويس ، وقد بدأت أعمال البحث والتنقيب قبل الحرب العالمية الأولى ، بأن حصلت ثلاث شركات على تصريح بالبحث عن البترول فى منطقة جمسة ، وقد اندمجت هذه الشركات الثلاثة فى شركة آبار الزيت المصرية ، ثم اتسعت المناطق المصرح بالبحث فيها ، بموجب اتفاق بين الشركة والحكومة فى سبتمبر عام ١٩١٣ وللحكومة بمقتضاه أن تحصل على ٥ ٪ من الإنتاج ، و ١٠٠٫٠٠٠ سهم يرمز إليها بالحرف (ح) ثم عقد اتفاق آخر عام ١٩٣٧ تعطى الشركة بمقتضاه أربعين ترخيصا بالبحث نظير ١٤ ٪ .

وقد فقد مورد البترول فى جمسة عام ١٩١٨ قيمته ، لنفاد كمية الزيت به ، ولكن الشركة كانت قد استكشفت آبارا أخرى فى هرجادة بالغردقة ، ثم فى رأس غارب وقد تزايد إنتاج الشركة على مر السنوات ، وتبعا لظروف الحرب كما يظهر فى البيان الآتى ، والكميات الموضحة به من زيت البترول الخام مقدرا بالأطنان .

السنة	مقدار الإنتاج
١٩٣٩	٦٦٦٫٤١٩
١٩٤٠	٩٢٨٫٩٥٧
١٩٤١	١٫٢٢٠٫٥٥٧
١٩٤٢	١٫١٨١٫٨١٠

ولكى نقدر ضخامة هذه الشركة التى تستغل موارد البترول فى مصر ، نذكر أن رأس مالها فى عام ١٩٤٢ ١٫٨٠٨٫٠٠٠ جنيها إنجليزيا ، وأن ميزانيتها عن عام ١٩٤٢ ، كانت ٨٫٨٣٧٫٠٣٦ جنيها إنجليزيا .

ومستقبل البترول فى مصر يدعو للتفاؤل ، فإن أعمال التنقيب تجرى فى جهات

متعددة عند البحر الأحمر وشبه جزيرة سينا ، وقد اكتشف أخيرا بئران غنيتان بالبترول ، فى سدر ورأس محمد ، ولا شك أن غيرهما فى طريق الاكتشاف ، وتهتم مصر فى هذه الأيام بالمشروع الأميركى لمد خط أنابيب ، من المملكة العربية السعودية إلى ساحل البحر الأبيض ، مارا بمصر أو بسوريا ، فإذا علمنا أن مصر تستهلك حوالى ٩٠٠ر٠٠٠ طن من منتجات البترول المكررة ، علاوة على نصيبها من الإنتاج المحلى ، لأدركنا قيمة مثل هذا المشروع ، بالإضافة إلى إنشاء صناعة البترول ، وزيادة الإيرادات الجمركية ، وتشغيل الأيدى العاملة ، وغير ذلك من الفوائد ولكن خلف هذه الفوائد التى لا شك فيها يكمن شبح الاستعمار الأميركى الذى بدأ يزحف نحو الشرق الأوسط فاغرا فاه .

الاتفاقات السرية بخصوص الشرق الأوسط أثناء حرب ١٤ — ١٨

١ — اتفاق فرنسا وروسيا (مارس ١٩١٥) وبمقتضاه تعطى الأستانة لروسيا.

٢ — معاهدة سازانوف — باليولجيو (أبريل ١٩١٦) ، وقد عينت الحدود بين نصيبى الروسيا وفرنسا فى آسيا .

٣ — إتفاق سايكس بيكو (مايو ١٩١٦) بين انجلترا وفرنسا وينص على :

ا — احتفاظ فرنسا بمعظم سوريا وجانب كبير من الأناضول ومنطقة الموصل بالعراق .

ب — حدد نصيب انجلترا بمساحة تمتد من جنوب سوريا إلى العراق ، ثم تنتشر بشكل مروحة ، فتشمل بغداد والبصرة ، والمنطقة بين الخليج الفارسى والمنطقة الفرنسية ، وكذلك حيفا وعكا .

حـ — نظام دولى فى جزء معين من فلسطين .

وقد نص فى الاتفاق على أنه لا يحق لأحد الطرفين أن يتنازل عن جزء من نصيبه لدولة أخرى ، إلا بموافقة الطرف الآخر ، وقد خالفت فرنسا هذا النص ، وتنازلت لتركيا عن منطقة الموصل تحت تأثير مصطفى كمال ، ولكن انجلترا تدخلت فى الموضوع تدخلا حاسما ، واستردت هذه المنطقة باسم العراق .

تغلغل الشركات الأمريكية فى الشرق الأوسط

كانت انجلترا فى بداية الأمر وحدها فى الشرق الأوسط بلا منافس ، وكانت تملك حقوق وامتيازات استثمار البترول ، الموجود فى بعض أنحاء المملكة العربية السعودية ، ولكنها — لغير ما سبب مفهوم — تنازلت عن هذه الحقوق للأمريكيين ، فى أوائل العقد الرابع من القرن الحالى .

ولقد حاولت شركات ألمانية ويابانية ، أن تحصل على امتيازات بترولية فى هذا المكان ، ولكنها لم توفق ، وصارت الغلبة للمصالح الأمريكية ، ومما ساعد الأمريكيين وقوع هذه المناطق فى دائرة النفوذ البريطانى ، وادعاء الأمريكيين أنهم بعيدون كل البعد عن الأطماع الاستعمارية ، كما أن الشركات الأمريكية غنيـة ، وقد وعدت بالقيام بإصلاحات زراعية واسعة النطاق ، ممـا أغرى أولى الأمر فى المملكة العربية السعودية بقبول الاتفاق .

وفى عام ١٩٣١ نالت شركة استاندارد أويل بكاليفورنيا ، حق البحث عن البترول واستخراجه فى جزر أرخبيل البحرين الثلاثة ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح إنتاج هذه الجزر كله ، ملكا لشركة بترول البحرين .

وكذلك وجهت الشركات الأمريكية اهتمامها إلى لبنان ، حيث قيل بوجود مقادير من الزيت فى بعض جهاته ، وقد طلبت بعض الشركات الأمريكية الترخيص لها بأعمال التنقيب والاستغلال فى تركيا ، مقابل أن تضع ثلثى الإنتاج تحت تصرف الحكومة التركية .

ولكن النجاح الأكبر للأمريكيين كان فى المملكة العربية السعودية ، فقد حصلوا على أول امتياز عام ١٩٣٥ ، فى قسم كبير من إمارة الحسا لشركة كاليفورنيا أريبيان استاندارد أويل ، وكذلك حصلوا فى نفس العام ، على امتيـاز آخر على ساحل البحر الأحمر فى العسير والحجاز .

وفى مصر حصل الأمريكيون فى عام ١٩٣٧ على امتيـازات فى منطقة واسعة ، مساحتها ٦١٠٠٠ كيلومتر مربع شرقى قناة السويس ، وقد ظهرت أخيرا فى هذه

المنطقة (وادى فيران ووادى عسل) عدة آبار يبلغ تصرف أحدها ٥٠٠٠ طن فى اليوم والباقى فى طريق الاكتشاف .

وقد تمت للأميركيين السيطرة على جميع موارد البترول فى المملكة العربية السعودية ، ما ظهر منها وما بطن ، حينما تنازلت بريطانيا عما لها من حقوق وامتيازات فى الجهات الواقعة على البحر الأحمر .

وقد استطاعت أيضا أن تشترى نصيب شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، فى شركة بترول العراق ، وبذلك أصبح لمجموعة استاندارد أويل الأمريكية ، ٧١¼٪ من أسهم الشركة الأخيرة ، كما حصلت على ٢٥٪ من أسهم شركة البصرة للبترول ، ومعنى ذلك أنها أصبحت تسيطر على إنتاج البترول فى العراق أيضا ، ولم يفلت من هذا الزحف إلا شركة البترول الإنجليزية الإيرانية ، لأن الأميرالية البريطانية ليست مستعدة للتفريط فى هذا المورد بالذات .

تنسيق السياسة البترولية الأنجلوأمريكية

وبتدخل الحكومة الأميركية فى سياسة البترول فى الشرق الأوسط ، اتجه التفكير إلى عقد اتفاقات بين بريطانيا وأمريكا ، وخصوصا بعد تكوين شركة بتروليم رزرفز كوربوريشن ، ويرأسها سكرتير الداخلية فى يونيو ١٩٤٣ ، وقد جرت مفاوضات بين كوردل هل سكرتير الدولة مع لورد بيفربروك مندوب بريطانيا ، ووقع اتفاق خاص بالبترول فى وشنطن فى ٨ أغسطس ١٩٤٤ .

وقد اعترف الاتفاق « بمصالح دول أخرى تنتج البترول وتستهلكه » ، ومنها روسيا ، ورأى تأليف (مجلس بترولى دولى) ، من الأمريكيين والبريطانيين فقط ، لكل منهما أربعة أعضاء ، ثم سحبت الحكومة الأمريكية المشروع من مجلس الشيوخ لإعادة النظر فيه ، وتم ذلك فى فبراير ١٩٤٥ ، ونوقش مع لندن واعتبر اتفاقا مبرما أكيدا .

وفى عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ أصبحت أسواق البترول فى قبضة أمريكا وبريطانيا ، أقوى من أى وقت مضى ، واشتباك مصالح البلدين يجعلهما تستأثران باحتكار تجارة البترول العالمية ، وخصوصا بعد أن خرجت كل من فرنسا

وهولندا من الحرب ضعيفة ، وكان لها مصالح بترولية ، وقد أصبحت موارد البترول ومعامل التكرير وخطوط الأنابيب فى الشرق الأوسط موزعة بين الأمريكيين والبريطانيين على النحو الآتى :

الشركات البريطانية	٦٠ ٪ من موجودات البترول فى الشرق الأوسط
الشركات الأمريكية	٣٣ ٪ « « « « « «
الشركات البريطانية	٨٠ ٪ من أجهزة التكرير
الشركات الأمريكية	٢٠ ٪ « « «
الشركات البريطانية	١٠٠٪ من الأنابيب

وامتيازات البترول تلعب أدوارا متباينة فى سياسة كل من الدول ، فبريطانيا وأمريكا تطمعان فى البترول ، وتأتى بعده الضمانات السياسية ، أما روسيا فتطمع فى امتيازات سياسية ، والبترول ثانوى عندها ؛ لأن لديها الموارد الكافية منه ، وخصوصا بعد اكتشاف الآبار الجديدة ، التى تمتد فى منطقة طويلة بين الفولجا وجبال الأورال ، علاوة على الموارد القديمة فى القوقاز والتركمان والقرغيز ، والآبار الجديدة تغل سبعة ملايين من الأطنان فى العام (١٩٣٩) ويسمونها باطوم الجديدة .

ولذلك نجد أن روسيا ترقب وسائل زيادة انتاج البترول منذ ١٩٤٢ ، بواسطة بريطانيا وأمريكا ، بينما هى متحفزة لبسط نفوذها السياسى .

الباب العاشر

منظمات عالميـــة وإقليمية

« إذا أريد لهيئة الأمم المتحدة أن
تنهض بمهمتها بنجاح ، وجب البحث
عن وسيلة ما ، تجعل قرارات مجلس
الأمن ملزمة ، وجديرة بالاحترام ،
ويجب علينا أن نقبل هذه القرارات ،
سواء كانت لنا أو علينا »

إرنست بيفن

الفصل الأول

هيئة الأمم المتحدة

ترتبط أجزاء العالم اليوم ببعضها ارتباطا محكما ، ويتوقف مصير كل بلد على مصير غيره من البلاد ، فليس يستطيع أن يعتزل المعترك العالمى ، ويحيا فى نطاق من العزلة ، متجاهلا ما يجرى حوله من أحداث ، وينطبق هذا الكلام بصفة خاصة ، على المناطق التى تحتل موقعا جغرافيا متوسطا كالشرق الأوسط ، مما يجعل منها ميدانا لتلاقى الأطماع الاستعمارية والتوسعية ، والتيارات الثقافية والاجتماعية .

وهيئة الأمم منظمة من دول العالم ، تحاول تنظيم الشئون العالمية . خلفا لطيبة الذكر « عصبة الأمم » ، ورغم أنها محاولة ناقصة ، ورغم خضوعها لأهواء الدول الكبرى ، ورغم أن قراراتها تصدر دائما فى جانب القوة لا فى جانب الحق والمبدأ ، ورغم أننا عانينا منها نحن العرب شرا كثيرا ، وخصوصا فى مسألة فلسطين ، إلا أنه ليس من الخير أن نتجاهلها ، لأنها أمر واقع ، ومن الخير أن نلم بأحوالها ، وأحوال سواها من المنظمات العالمية ، حتى نكون على بينة من الأمر .

كيف تكونت الهيئة

كان نشوب الحرب العالمية الثانية ، أكبر دليل على فشل عصبة الأمم فى تأدية مهمتها ، وهى ضمان السلم العالمى ، ولا مجال هنا لسرد الحوادث التى أدت إلى ذلك ، ولكن اليأس ليس من طبيعة الإنسان ، ففى عنفوان الحرب العالمية الثانية ، أخذ محبو السلام يضعون الأسس لهيئة سلامية جديدة ، والحرب لم تنته بعد ، فقد وقع ميثاق الأطلنطى فى ١٤ أغسطس عام ١٩٤١ ، وأعلنت مبادىء الأمم المتحدة فى ١ يناير ١٩٤٢ ، وفى أكتوبر ١٩٤٤ انعقد مؤتمر دومبرتون أوكس ، الذى خرجت منه الدول الكبرى بميثاق تلافت فيه عيوب عصبة الأمم السابقة ، وقد تولت إحدى وخمسون دولة مراجعة الميثاق فى مؤتمر سان فرانسيسكو ، الذى ظل منعقدا من ٢٥ أبريل إلى ٢٦ يونيو ١٩٤٥ ، ثم وقعه ممثلوها ، وفى ٢٤ أكتوبر

عام ١٩٤٥ تم التصديق عليه من الحكومات ذات الشأن ، وأصبح نافذ المفعول .

مبادىء الهيئة

تقوم الهيئة على خمسة مبادىء كبرى وهى :

١ — المساواة فى السيادة بين جميع أعضائها ، ولذلك فإن الدول غير المستقلة لا تستطيع الاشتراك فيها .

٢ — وجوب قيام جميع أعضائها بالتزاماتهم بنية حسنة .

٣ — إخضاع جميع المنازعات الدولية لأساليب التسوية السلمية .

٤ — تعهد جميع أعضائها بالامتناع عن تهديد كيان أى دولة أو استقلالها ، أو استعمال القوة ضدها .

٥ — وجوب مساعدة المنظمة فى أى عمل تقوم به ، وفقا لمبادىء ميثاقها ، والامتناع عن مساعدة أى دولة تتخذ ضدها تدابير وقائية أو قصاصية .

ومراعاة هذه المبادىء ، تؤدى إلى تحقيق مقاصد الهيئة ، التى تتلخص فيما يلى :

صيانة الأجيال القادمة من الحروب ـ تأمين احترام حقوق الإنسان الأساسية ـ حفظ كرامة الكائن الإنسانى وقيمته ـ المساواة فى الحقوق بين الرجل والمرأة ـ المساواة بين الأمم الكبيرة والصغيرة ـ احترام المعاهدات وقواعد القانون الدولى العرفية ـ تأكيد سيادة العدالة ـ مؤازرة التقدم الاجتماعى وتحقيق مستوى أعلى من الرفاهية فى الحياة فى جو تتوفر فيه الحرية لأكبر ما يمكن .

وعلى الأعضاء أن يتذرعوا بالوسائل التالية لبلوغ مقاصد الهيئة :

١ — مباشرة التسامح والحياة فى سلام مع جيرانهم .

٢ — اتحاد الشعوب الحرة لصيانة الأمن والسلام .

٣ — قبول المبادىء والأساليب التى تدعو إلى نبذ القوة إلا فيما يمس الصالح العام .

٤ — الالتجاء إلى المؤسسات الدولية لتأمين التقدم الاقتصادى والاجتماعى .

فروع الهيئة

تتألف الهيئة وفقا المادة السابعة من الميثاق من الفروع الآتية :

١ — الهيئة العامة (الجمعية العمومية) .

٢ — مجلس الأمن .

٣ — المجلس الاقتصادى والاجتماعى

٤ — مجلس الوصاية .

٥ — محكمة العدل الدولية .

٦ — الأمانة العامة (السكرتارية) .

وفيما يلى اختصاصات كل فرع بإيجاز :

١ — الجمعية العمومية

تتألف من جميع الأعضاء المشتركين ، وهى تدرس جميع المشكلات التى تتوقف عليها صيانة السلام ، وتناقش ما يقدم إليها من مسائل ، وتقدم عنها توصيات للأعضاء أو لمجلس الأمن ، ولها الحق أن توصى بالتدابير التى تؤدى إلى تسوية سلمية ، لكل حالة تنزل الضرر بالخير العام ، أو تسىء إلى العلاقات الودية بين الأمم ، وتقوم بدراسة التقارير السنوية ، أو التقارير المحالة إليها من مجلس الأمن أو أى فرع من فروع الهيئة ، وتوافق على اتفاقات الوصاية والميزانية العامة ، ولكل عضو صوت واحد ؛ وتؤخذ القرارات حسب طبيعة الموضوع المعروض ، إما بأغلبية الثلثين أو بالأغلبية المطلقة .

٢ — مجلس الأمن

يتألف من أحد عشر عضوا من أعضاء الهيئة ، منهم خمسة دائمون ، وهم بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة والصين والاتحاد السوفييتى . والأعضاء الستة غير الدائمين تنتخبهم الجمعية العمومية لمدة سنتين ، وقد انتخب ثلاثة فى الدورة الأولى لمدة سنة واحدة ، حتى يتجدد نصف الأعضاء كل سنة ؛ ولا يجوز إعادة انتخاب

الأعضاء الذين انتهت مدتهم فورا ، وأول الدول التى انتخبتها الجمعية العمومية لعضوية المجلس ، هى استراليا ومصر والمكسيك والبرازيل وهولندا وبولندا .

والمجلس مسئول أساسيا عن صيانة السلام والأمن العالمى ولذلك فهو مكلف بأن:

١ — يضع خططا لتحديد التسلح بالاشتراك مع لجنة أركان الحرب .

٢ — يحقق فى جميع المنازعات الدولية ، ويدعو الدول التى يعنيها الأمر إلى تسوية سلمية ، ويوصى بأساليب التسوية ، فإذا أخفق فعليه أن يقرر أية تسوية يراها مجدية .

٣ — يقدم توصيات أو يقرر تدابير إجبارية لا تستلزم استخدام القوة أو تستلزمها إذا كان ذلك ضروريا ، فى حالة تهديد السلام ، أو وقوع اعتداء على دولة من الدول .

ويعاون المجلس فى المسائل العسكرية لجنة أركان حرب ، تتألف من رؤساء أركان حرب الدول الدائمة العضوية فيه ، ولكل عضو صوت واحد ، وتؤخذ القرارات بأغلبية سبعة أصوات من أحد عشر ، إلا فى مسائل الإجراءات فيكتفى بالأغلبية المطلقة .

ولم يقم مجلس الأمن إلى اليوم بأى إجراء يصون السلم ، ولم يحل المشاكل التى عرضت عليه بل راعى مصالح الدول الكبرى المستعمرة ، وقد وضح ذلك عند عرض قضية مصر وأندونيسيا عليه ، فقد كان موقفه إما أن يكون سلبيا ، أو يصدر قرارات ليست لها قوة التنفيذ ، ولعل ما يعوزه هو القوة التنفيذية . ومما يضعف من قراراته حق النقض (الفيتو) المخول للدول الخمس الكبرى ، والذى تستطيع به نقض أى قرار ، حتى بعد أن يصدره المجلس ؛ فكأنه لم يكن . . !!

ولم تتألف حتى اليوم لجنة أركان الحرب ، ولا القوة المفترض أنها توضع تحت تصرف المجلس ، ليعتمد عليها فى تنفيذ قراراته .

٣ — المجلس الاقتصادى والاجتماعى

يتألف من ثمانية عشر عضوا ، تنتخبهم الجمعية العمومية لمدة ثلاث سنوات ، يجدد ثلثهم كل عام ، واختصاص المجلس محدود ، وهو يتولى إثارة الدراسات ،

وكتابة التقارير فى جميع الموضوعات ، الاقتصادية والاجتماعية والفكرية والتربوية والصحية وما إليها ، ويقدم توصيات بما يراه إلى الجمعية العمومية ، أو إلى الأعضاء أو المؤسسات التى يهمها الأمر ، ويقدم مشاريع اتفاقيات ، ويدعو لبحثها فى مؤتمرات عامة .

٤ — لجنة الوصاية

وتتألف من :

ا — أعضاء الأمم المتحدة الذين يتولون الوصاية على بعض الأقاليم .

ب — كل من لا يتولى وصاية ما من أعضاء مجلس الأمن الدائمين .

حـ — عدد من الأعضاء تنتخبهم الجمعية العمومية ، بحيث يصبح عدد أعضاء المجلس الأوصياء ، مساويا لعدد أعضائه الذين لا يتولون وصاية ما .

ولمجلس الوصاية أن يراقب الأقاليم الواقعة تحت الوصاية ، تبعا لاتفاقات خاصة ، وذلك تحت إشراف الجمعية العمومية ، والأقاليم التى توضع تحت الوصاية هى :

١ — الأقاليم التى كانت خاضعة للانتداب .

٢ — الأقاليم التى يمكن فصلها عن الدول المعادية بعد انتهاء الحرب .

٣ — الأقاليم التى تضعها الدول المسئولة عنها تحت الوصاية بمحض إرادتها .

٥ — محكمة العدل الدولية

تعتبر استمرارا للمحكمة التى أنشأتها عصبة الأمم عام ١٩٢٠ ، « فهى الأداة القضائية الرئيسية للأمم المتحدة » ، ولها اختصاص قضائى مطلق لتسوية المنازعات بين الدول ، وأن تبدى أراء استشارية فى جميع المسائل التى تعرض عليها ، بناء على طلب أى فرع أو مؤسسة من مؤسسات الهيئة ، يبيح لها الميثاق ذلك أو يفرضه عليها .

٦ — السكرتارية

هى المركز الحيوى لهيئة الأمم المتحدة ، والصلة بين فروعها المختلفة ، ولها حق حضور اجتماعات جميع الفروع والمؤسسات التابعة للهيئة ، ولها أن تنبه مجلس الأمن إلى كل حالة من شأنها أن تهدد السلم العالمى ، ويعين السكرتير العام بوساطة الجمعية العمومية بناء على توصية مجلس الأمن ، وهو يعتبر أكبر موظفى الهيئة ، وله حق اختيار معاونيه ، وللهيئة أن تنشىء كل ما تدعو الحاجة إليه من مؤسسات وفروع ، طبقا للمادة السابعة من الميثاق .

ورغم أن الهيئة أنشئت لضمان السلام ، إلا أن الانقسام قد دب فى صفوفها ، فرأيناها فى دوراتها الثلاث قد انقسمت إلى معسكرين : شرقى يضم روسيا ومن يدور فى فلكها ، وغربى ويضم الجانب الأنجلو أميركى ومن يشايعه من الدول ، فكيف تعمل هيئة منقسمة على نفسها لتسوية المنازعات . . . ؟ ؟

الفصل الثانى

جامعة الدول العربية

ظلت مسألة الوحدة العربية تشغل أذهان العرب مدة طويلة ، وقد نشأت أول فكرة لجمع كلمة العرب أثناء الثورة العربية التى قادها الشريف حسين عام ١٩١٦ - ١٩١٨ ، ولكن ظروف كل بلد عربى على حدة شغلتها عن مسألة الوحدة إلى أمد قريب ، ولقد وقفت أطماع الساسة حجر عثرة فى سبيل رسم سياسة عامة للعرب ، وكان لمسألة الأقليات أثر بعيد فى ذلك الشأن ، وعلاوة على ذلك فإن الدول الغربية لم تكن قد اتفقت على سياسة موحدة بإزاء العرب ، وهناك دافعان هما السبب فى تحقيق الوحدة العربية على الصورة التى تمت بها هما :

١ — عامل إيجابى وينبع عن المصالح الثقافية والاقتصادية للعالم العربى .

٢ — عامل سلبى وينبنى على عداوة العرب للصهيونية .

والواقع أن العامل السلبى هو الذى يسيطر على الوحدة العربية ، ويجمع شمل العرب ، ولقد لعب ذلك الدافع دورا كبيرا فى تكوين الجامعة العربية ، ولا يزال العامل الأساسى فى تماسك دول الجامعة ، وستثبت الأيام إذاما كان الدافع الإيجابى سيصبح العامل الأساسى ؟ وهل سيكون الباعث على الوحدة داخليا أم لا . . ؟

والسبب المباشر فى تكوين الجامعة العربية يرجع إلى تحبيذ البريطانيين لها ، ففى أواخر عام ١٩٣٨ كان النفوذ البريطانى فى الشرق العربى آخذا فى التضاؤل ، نتيجة للدعاية النشيطة التى كان يبثها الإيطاليون والألمان ، لذلك فإن بريطانيا قد انتهزت عقد مؤتمر لندن لبحث مشكلة فلسطين ، فى فبراير ومارس ١٩٣٩ ، وأبدت رغبتها « فى رؤية الشرق العربى كتلة واحدة تشعر بالصداقة نحو بريطانيا » ، ورغم أن هذا الأمر قد غير من سياسة بريطانيا قليلا نحو الأكراد واليهود ، إلا أن الوحدة العربية أصبحت حجر الزاوية للسياسة البريطانية فى الشرق الأوسط .

ولقد وجدت بريطانيا فى العراق عونا لها على تنفيذ تلك السياسة ، وجرت محادثات بين نورى السعيد باشا والنحاس باشا وقع على أثرها بروتوكول الأسكندرية وكم سرت بريطانيا عندما وافقت الدول العربية كلها ماعدا واحدة ، على وضع مسألة فلسطين على الرف حتى نهاية الحرب ، بل وكان العرب على استعداد للوقوف موقفا معقولا من اليهود ، وكان الوحيد الذى عارض هو الملك ابن السعود .

وقد جرت العادة على التخاطب بين ملوك العرب ورؤسائهم كلما جد أمر من الأمور ، ولقد كان ذلك من أسباب تعطيل مشروع الوحدة ، فقد كان فى الجو بعض الشوائب بين المملكة السعودية ومصر منذ عام ١٩٢٦ ، وكان بين البيت الهاشمى وبيت آل سعود عداء مستحكم ، والبيت الهاشمى يحكم العراق وشرق الأردن ، ولقد كانت سوريا ولبنان بوصفهما جمهوريتين ، بعيدتين عن مشاكل البيوت المالكة العربية ، وكان ابن السعود يود أن تنحاز سوريا إلى جانبه ، طالما أنه يعمل على عدم تنفيذ مشروع سوريا الكبرى ، التى تنتظم سوريا ولبنان وشرق الأردن ، وربما العراق أيضا وفلسطين ، وتخضع للبيت المالك الهاشمى ؛ وقد نادى الملك عبد الله بذلك ، وأبدى البريطانيون ارتياحهم إلى هذا المشروع ، ولما كان السوريون غير راغبين فى الخضوع للبيت الهاشمى ، لذلك تراهم ينحازون إلى جانب مصر والمملكة العربية السعودية ، بل إلى الملك ابن السعود شخصيا ، ولقد أخذ ابن السعود على عاتقه أمر الدفاع عن استقلال فلسطين لأول مرة فى حياته السياسية ، وإذا كان موقف ابن السعود قد ضايق بريطانيا فإن ذلك ما لم يكن يقصده ، وإنما كان هدفه أن يمنع منافسيه من العرب من الحصول على مزايا سياسية ولهذا السبب نفسه وجد رشيد عالى الثائر العراقى ، والذى طالما دعا للألمان فى إذاعاتهم العربية ، ملجأ فى كنف ابن السعود .

كان هدف ابن السعود اذن هو جامعة من جميع الدول العربية المستقلة ، لا يكون لإحداها تفوق على الأخرى ، بينما موقفه هو سيعطيه بعض النفوذ الشخصى ، وتبعا لذلك أصبحت جامعة الدول العربية ، هى الهدف الأول الذى يسعى إليه العرب تؤيدهم بريطانيا وتبارك خطاهم ، لأن تكوين الجـــامعة كان يتمشى مع السياسة البريطانية نحو الشرق الاوسط ، ولقد أفادت مؤازرة الزعماء العرب بريطانيا كثيرا

فقد أطلقت يدها فى التصرف مع الفرنسيين فى سوريا ولبنان ، وجعلتها فى موقف حسن يمكنها من الصمود للمنافسة الأميركية والروسية .

وفى خلال المحادثات الجارية لوضع الصيغة النهائية لميثاق الجامعة ، قام جلالة الفاروق بزيارة عاهل الجزيرة ، فى مكان قريب من ميناء ينبع على البحر الأحمر، فى أراضى المملكة العربية السعودية ، فى يناير عام ١٩٤٥ ، وهو المعروف باجتماع رضوى ، وكان لهذه الزيارة مدلولان سياسيان : الأول هو توثيق أواصر الصداقة والتعاون بين البلدين ، والثانى هو انتصار البيت السعودى على البيت الهاشمى ، ورجحان كفته ، هذا بينما العراق لم تنس أنها لم تدع إلى المحادثات التى جرت بين الملك ابن السعود والرئيس روزفلت ، فى فبراير من نفس العام ، كما أنها أبعدت أيضا عن المحادثات التى جرت مع مستر تشرشل رئيس الوزارة البريطانية ، بينما دعى الرئيس شكرى القوتلى إليهما معا .

وقد تمت صياغة ميثاق جامعة الدول العربية ، ووقع فى القاهرة فى ٢٢مارس عام ١٩٤٥ ، وقد وقعته مصر والعراق والمملكة العربية السعودية وسوريا ولبنان وشرق الأردن ، أما اليمن فقد وصل وفدها متأخرا جدا ، وقد جُعلت عضوية الجامعة حقا « لكل الدول العربية المستقلة » ، وكانت شرق الأردن فى ذلك الحين لا تزال خاضعة للانتداب البريطانى ، رغم أنها كانت تمارس الحكم الذاتى إلى حدما وكان واضحا أن قبول شرق الأردن عضوا فى الجامعة ، رغم أنها غير مستقلة ، وتوقيعها الميثاق ، يعنى أن ابريطانيا يدا فى ذلك ، وأنها تعد معاهدة مع شرق الأردن تمنحها فيها الاستقلال الشكلى ، وقد حدث ذلك بعد عام واحد ، ولم تتخذ بريطانيا خطوة مشابهة مع فلسطين بدورها ، وفلسطين شىء لا يمكن تجاهله بالنسبة للجامعة ، ولذلك فقد جعل الميثاق ملحق خاص بفلسطين ، وينص على أن استقلال فلسطين أمر تكفله الجامعة ، وأن بعض الظروف الخاصة تمنع الفلسطينيين من ممارسة استقلالهم ، وقد خول مجلس الجامعة الحق فى اختيار ممثل لعرب فلسطين ، يحضر اجتماعات الجامعة مع الوفود العربية الرسمية الأخرى ، وكان هذا التمثيل رمزيا ، لأن ممثل عرب فلسطين لا يملك تنفيذ قرارات الجامعة مع وجود الانتداب .

أما الدول العربية غير المستقلة ، فلها الحق أن تشترك فى أعمال اللجان الاقتصادية والثقافية والاجتماعية ، ولكنها لا تشترك فى النشاط السياسى للجامعة ، وهذا يترك المجال أمام البلاد العربية فى شمال افريقيا للاشتراك فى أوجه نشاط الجامعة المختلفة .

وأغراض الجامعة الأساسية كما وضحها الميثاق هى :

١ — توثيق العلاقات بين الدول الأعضاء وتنسيق خططها السياسية .

٢ — صيانة استقلال الدول الأعضاء والمحافظة على سيادتها .

٣ — النظر بصفة عامة فى شئون البلاد العربية ومصالحها .

وكذلك من أغراضها تعاون الدول الأعضاء تعاونا وثيقا فى المسائل التالية :

١ — المسائل الاقتصادية زراعية وصناعية ومالية ، وأمور العملة والجمارك والتبادل التجارى .

٢ — مسائل المواصلات بأنواعها والبرق والبريد .

٣ — الشئون الثقافية .

٤ — مسائل الجوازات والجنسية .

٥ — الشئون الاجتماعية .

٦ — الشئون الصحية .

وقد نص الميثاق على عدم جواز الالتجاء إلى القوة ، لفض المنازعات بين دولتين أو أكثر من دول الجامعة ، كما نص على تقرير المجلس للتدابير اللازمة لدفع الاعتداءات ، التى تقع على دولة من الدول الأعضاء أو يخشى وقوعها .

ومجلس الجامعة هو الأداة المنفذة ، ولكل دولة صوت واحد فيه ، وليس للمجلس أن يرغم إحدى الدول الأعضاء على الخضوع لقرارات الأغلبية ولا تكون القرارات ملزمة إلا إذا كانت بالإجماع .

والخلاصة أن جامعة الدول العربية منظمة إقليمية ، تحاول تثبيت مركزها فى الشرق الأوسط ، قبل أن تجرب قوتها فى أماكن أخرى ، وإن كان تكتل العرب فى اجتماعات الجمعية العمومية لهيئة الأمم المتحدة قد ظهر ، وكان لهم مجتمعين أكبر الأثر ، ورغم الخلاف بين بعض دول الجامعة فى الأمانى والرغبات ، إلا أن التعاون بينها سيؤدى إلى توثيق العلاقات فى المستقبل القريب .

الباب الحادي عشر

اعتبارات استراتيجية

اعتبارات استراتيجية

إن الشرق الأوسط يحتل اليوم مكانة لم يتمتع بها منذ الفتح الإسلامى ، ويجذب إليه أنظار العالم أجمع فى هذه الآونة ، ولعل العوامل الاستراتيجية هى التى تجذب إليه الأنظار أكثر من أى عامل آخر ، وقد وضحت قيمة تلك المنطقة خلال الحرب العالمية الأخيرة نتيجة لعوامل حديثة ، فما لا شك فيه أن موقع الشرق الأوسط على سطح الكرة الأرضية لم يتغير على مر العصور ، ولكن الذى جدّ عليه هو اكتسابه قيمة استراتيجية لم تكن له من قبل ، فقد كان الإقليم فى الأزمنة القديمة ، مركزا جغرافيا واستراتيجيا لمنطقة غير واضحة الحـــدود ، وقد فقد الإقليم تلك الميزة المزدوجة عندما اتسعت رقعة الدولة الرومانية ، ولكنه استعاد مكانته خلال القرون الأولى للإسلام ، وقد انتقل المركز الاستراتيجى إلى أوربا مرة ثانية ، حيث كان مفروضا أن يستقر هناك طيلة القرن العشرين ، ولكن أوربا فقدت هذه الميزة نتيجة للحرب العالمية الثانية ، ولم تعد بالقارة الصالحة لاحتلال مكانة ممتازة فى الشئون العالميـة ، فإن كلا من بريطانيا وروسيا السوفييتية لا يمكن إدخالها فى نطاق الدول الأوربية ، أما من ناحية الولايات المتحدة فإن مركز الثقل بالنسبة لها ، وعلى ضوء التنظيم الجديد للعالم ، إنما هو المنطقة التى تلتقى فيها مصالح الدول الكبرى وتتعقد ، وهناك من الأسباب الوجيهة ما يدعو إلى اعتبار الشرق الأوسط أهلا للقيام بذلك الدور ، وأهم هذه الأسباب : المواصلات بأنواعها والموارد المتوفرة فى ذلك الإقليم .

وترجع أهمية الإقليم فى الماضى إلى أن الطرق المائية والبرية تتجمع فيه ، واليوم نجد أن هذه الطرق ، التى تستعمل فيها الوسائل الحديثة ، ومنها النقل الجوى تتجمع أيضا فى ذلك الإقليم ، وقد كان افتتاح قنـاة السويس عام ١٨٦٩ ، أول خطوة فى إعادة بعث ذلك الإقليم ، فقد كان السبب فى إظهار قيمة بعض الموانىء كالإسكندرية وبورسعيد ، وعدن وحيفا وبيروت ، أما الخطوة الثانية فهى مد السكك الحديدية ، فإن حلب تعتبر اليوم مفتاحا لوصلة مهمة فى خط اكسبريس الشرق ، الذى يصل إلى بغداد والبصرة من ناحية ، والقاهرة من الناحية الأخرى ،

وقد تمت آخر وصلة إلى بغداد قبل الحرب الأخيرة مباشرة ، أما الوصلة إلى القاهرة فقد تمت بعد طرد قوات فيشى من سوريا ، وكانت كل من القاهرة وبغداد محطة جوية عالمية قبل الحرب العالمية الأخيرة، وقد ازدادت قيمتهما بعد ذلك كثيرا وقد ترتب على هذا أن أصبح الإقليم أكثر من مجرد ملتقى قارات ثلاثة .

وإذا غضضنا النظر عن أن الشرق الأوسط يعتبر وسيلة تؤدى إلى غايات ، فإنه يمكن اعتباره غاية فى حد ذاته ، وهذا يرجع أصلا إلى الموارد الطبيعية المختزنة فى الإقليم ، وكذلك إلى بعض صادراته من الخامات ، كالقطن من مصر ، والحبوب والصوف والجلود من العراق ، والمواد الكيماوية من فلسطين ، أما الثروة الاستراتيجية الحيوية بالشرق الأوسط فهى البترول ، الذى يوجد فى العراق والكويت والبحرين ، والمختزن منه فى باطن أرض المملكة العربية السعودية ، هذا بخلاف الحقول الأخرى المعروفة والتى تستغل تجاريا ، ولا ينتظر أن تقل قيمة الإقليم نتيجة لاستخدام الطاقة الذرية فى الصناعة ، وعلى ذلك فإن الشرق الأوسط سيظل محتفظا بمكانته ، كمصدر رئيسى للبترول فى العالم ، والواقع أن نوعين فقط من العلماء هما اللذان أرشدانا إلى قيمة هذا الإقليم ، وهما عالم الآثار بحفرياته ، التى دلتنا على فضل هذا الإقليم على حضارة العالم ، والآخر عالم طبقات الأرض (الجيولوجيا) ، الذى كشف عن الذهب الأسود (البترول) ، الذى تنطوى عليه تلك التربة الغنية .

احتل الشرق الأوسط — كما أسلفنا — مركزا رئيسيا فى التطور التاريخى للجنس البشرى ، ويعتبر أيضا المركز الجغرافى والثقافى لأرض مترامية الأطراف ، لعدة قرون خلت ، وقد فقد هذا الدور المزدوج ، نتيجة لتطور الثقافة والمكتشفات الحديثة ، وبقى مركزا للأديان ، وإن كان الإسلام قد أفلح فى نقل سيطرته القديمة إلى الشرق الأوسط ، مع التوسع على نطاق ليس بالمحدود ، وعندما انتهت هـــذه المرحلة ، عاد الشرق الأوسط كما كان يتطلع إلى الغرب ، ومع ذلك فقد احتفظ الإقليم بقيمته كمركز روحى ، فاستفاد كثيرا من زعامته الثقافية ، التى كانت له فى القديم ، باعتباره القلب النابض ، للعالم الإسلامى الناهض .

ولما تم استكشاف حدود الكرة الأرضية ، وأصبح العالم ذا حدود واضحة ، بدأت الدول الكبرى فى السيطرة على مناطق من سطح الكرة ، وبدأ عصر التفكير

الاستراتيجى على أساس الكرة الأرضية بأجمها ؛ وقد ظل الشرق الأوسط فى هذا العصر أيضا محافظا على مكانته القديمة ، باعتباره تقاطع الطرق العالمية .

والشرق الأوسط والأدنى ملتقى قارات ثلاثة ، هى أوربا وآسيا وإفريقيا ، وفى هذه المنطقة تتجمع طرق القارات الثلاثة الرئيسية ، وكذلك أقصر الطرق البحرية ، هذا علاوة على قيمة الإقليم التى ظهرت حديثا ، فإنه يعتبر أكثر المراكز حيوية فى شبكة المواصلات الجوية العالمية ، ومن هنا كانت السيطرة على الإقليم موضع الصراع بين الدول الكبرى ، منذ عهد الإسكندر الأكبر وبومبى ثم فى عهد نابليون الذى أدرك مستقبل البحرية ، فحاول تنفيذ مشروع قناة السويس ، ولكن مهندسيه أخطأوا فلم ينفذ ، وكانت هذه المحاولات جميعاً من أوربا للتوسع فى آسيا ، وعندما بدأت بريطانيا وروسيا تتصارعان فى مطلع القرن التاسع عشر ، كان صراعهما الطويل مركزا على الشرق الأوسط ، باعتبارهما قوتين أسيويتين ، تحاول كل منهما أن تصون مصالحها فى القارة العتيدة ، ولم تصبح الإمبراطورية البريطانية حقيقة واقعة، إلا بعد أن أصبح لبريطانيا النفوذ الأول فىالشرق الأوسط وقد حدا بها ذلك إلى احتلال مصر ، لتحمى طريقها الاستراتيجى المائى الجديد ، فى قناة السويس ، ومن هنا كان أى تهديد للنفوذ البريطانى يتجه مباشرة إلى الشرق الأوسط ، وكان ذلك هو الوضع بالنسبة لألمانيا ، التى كان مشروعها (سكة حديد برلين — بغداد) سببا من أسباب الحرب العالمية الأولى ، وفى الفترة مابين الحربين العالميتين الأولى والثانية ، زادت كل من إيطاليا واليابان نشاطها فى الشرق الأوسط وقد صحب ذلك النشاط قبل انفجار الحرب الثانية مباشرة حملة لاذعة من الدعاية الألمانية ، ومن المصادفات النادرة ، أن إحدى الضربات الحاسمة ضد المحـــور ، ونستطيع القول بأنها التحول الحاسم فى الاستراتيجية العالمية ، جاءت مع الانتصار البريطانى على قوات روميل الألمانية الإيطالية فى معركة العلمين .

ولم يكن الشرق الأوسط فى الحرب الأخيرة ميدنا أسيـــاسيا للصراع السياسى . بل كان من الميادين الثانوية ، فقد كان مركز الثقل السياسى فى العالم مايزال فى أوربا ، ومازال الصراع لإحراز السيطرة العالمية صراعا بين دول أوربا ، وقد أخذهذا المركز يميل ، ويمكن مشاهدةذلك والاستدلال عليه ، بأنميادين الحروب

أخذت تتحرك إلى أوربا الجنوبية الشرقية — البلقان — ، ولكن الصراع الذى ولد هناك كان كبيرا على الدول الأوربية ، بل أكبر من الصراع على مصالحها ، وكانت الحلول المقترحة كافية لإنهـــاء التوتر الأوربى ، دون التأثير فى حالة القارات الأخرى .

ومن أكبر التأثيرات التى أحدثتها الحرب الأخيرة ، التحول الأساسى فى موقف أوربا من الشئون العالمية ، فإن بعض الدول ذات المصالح الأوربية ، مثل ألمانيا وإيطاليا ، قد أمسكت عن أن تكون عوامل مؤثرة فى السياسات العالمية — إلى حين — ، وكذلك تدخل الولايات المتحدة الأمريكية كحزب له مصالح كبيرة ، بعد أن نفضت عنها سياسة العزلة ، يعنى تضاؤل زعامة أوربا السياسية ، التى امتدت زمنا طويلا ، تضاؤلا كبيرا ، والقوى الدولية اليوم متوازنة ، بين الدول التى لها مصالح حيوية فى أكثر من قارة واحدة ، فلا بريطانيا ولا روسيا تدخلان فى نطاق القوى الأوربية ، كما أن الولايات المتحدة لم تكن كذلك فى يوم من الأيام ، والمنطقة التى تتجمع فيها مصالح الدول الثلاثة وتتصارع هى الشرق الأوسط ، وهذا يرجع أولا إلى الموقع الجغرافى للإقليم على سطح الكرة ، ولكن عدد المصالح المجتمعة والمتضاربة ، يزيد على نطاق واسع تبعا للعامل الاستراتيجى ، وهو منابع البترول المحلية ، وقد عولج هذا الموضوع فى فصل مستقل من الكتاب .

وهكذا نجد أن الحدود الغربية لروسيا ، التى تعمل ضد النفوذ البريطانى ، قد تكون — وقد لا تكون — من عظم الأهمية بقدر حدودها المعروفة ، المتاخمة لإيران وتركيا ، هاتين الدولتين اللتين تواجه روسيا فيهما النفوذ البريطانى ، الذى وصل إليهما من العالم العربى ، وقد تنظر بريطانيا إلى مركزها فى قلق ، يفوق قلقها على مركزها فى الأراضى العربية ، وكذلك فإن الويات المتحدة بدورها ، لا تستطيع إلا الاهتمام بمنطقة الباسيفيكى ، حيث تحتاج العلاقات بروسيا إلى يقظة شديدة دائمة وهذه المنطقة كقطاع ، فى حاجة إلى تفوق أكثر من المناطق الساحلية للخليج الفارسى والبحر الأحمر ، وبالمثل فإن اتفاق الولايات المتحدة وبريطانيا على مسألتى إيطاليا وألمانيا ، قد تقدم بين الدولتين على مسألتى فلسطين والمملكة العربية السعودية .

وليس هناك مكان آخر فى العالم ، يحتاج إلى علاقات طويلة مشروطة ، تؤثر

على الدول الثلاثة جميعها فى وقت واحد ، — وليس على اثنتين دون الثالثة — ، وتكون تلك العلاقات دقيقة وحساسة ، تنذر بالخطر على السلم العالمى ، كما هى فى الشرقين الأوسط والأدنى ، أو على حدودهما ، وإنما يكون السلم مهددا بالانقلاب حيث تتعدد الاحتكاكات بين المصالح المتضاربة وتكبر ، وهذا هو ما يجعلنا نقول بأن الشرق الأوسط سيأخذ مكانة أوربا ، فيصبح مركز الثقل فى العالم ، وسيكون ميدانا جديدا للصراع ، وقد يعجب المتتبع للشئون العالمية لتلك الأسباب التى تجعل الشرق الأوسط فى بعض الأوقات يحتل مكانة بارزة ، وحقيقة مثل هذه المكانة لن تخفى عليه ، فإنها قد أصبحت واضحة خلال المراحل الختامية للحرب الأخيرة ، وقد تأكدت منذ توقف الأعمال العدائية ، فالمعارك الأخيرة فى القوقاز وفى صحراء مصر تلتقيان فى الشرق الأوسط ، واهتمام روسيا بحركة رشيد عالى الكيلانى فى العراق فى ربيع ١٩٤١ ، وإعلان الرئيس روزفلت أن المملكة العربية السعودية حيوية للدفاع عن الولايات المتحدة ، ورحلته المفاجئة إلى مصر فى فبراير ١٩٤٥ ليقابل ملوك العرب ، والاختبار الأول الذى واجه هيئة الأمم المتحدة فى مسألة إيران ، تلك البلاد ذات العلاقات الوثيقة بالشرق العربى ، جغرافيا وتاريخيا وثقافيا واقتصاديا ، والصراع المرير بين بريطانيا وفرنسا حول المشرق (سوريا ولبنان) عام ١٩٤٥ ، وأزمة فلسطين ، وتأكيد حكومة العمال البريطانية أهمية الشرق الأوسط الحيوية لبريطانيا ، وإشارة الرئيس ترومان فى الخطاب الذى ألقاه بمناسبة يوم الجيش فى أبريل ١٩٤٦ ، إلى الشرقين الأدنى والأوسط كمنطقة « تمثل مشاكل جديدة وعويصة ، وتحتوى على موارد طبيعية ضخمة ، وتقع فى طريق من أكثر طرق المواصلات أهمية ، برا وبحرا وجوا ، وقد تصبح منطقة توتر بين القوى الخارجية وقد ينقلب هذا التوتر إلى صراع » .

هذه بعض الدلالات التى لا تنتهى ، على أن الشرق الأوسط أصبح بؤرة السياسات العالمية ، وبمعنى آخر أصبح مقياسا حساسا للضغط ، فيما يختص بمشاكل فترة بعد الحرب .

وهناك اعتبار استراتيجى واحد ، وهو الأخير الذى يعطى الشرق الأدنى أهمية قد تمتد إلى ما وراء حدود المنطقة نفسها ، وهو يتعلق بتوسط موقع الشرق

الأوسط بين مواقع العالم الإسلامى ، الذى يسهل عليه الوصول إليه جميعه ، فبلاد العرب بصفتها مولد النبي عليه السلام، وتحوى الأماكن المقدسة للسلمين ، التى تعتبر قلب العالم الإسلامى المنتشر فى الدنيا الواسعة ، والتى يتجه إليها كل مسلم فى أى بقعة من بقاع العالم ، خلال صلواته اليومية ، واللغة العربية ــ لغة القرآن ولغة الرسول ــ هى المفضلة عن جميع اللغات ، والعرب بوصفهم عشيرة الرسول يحتلون مكانة بين المسلمين لا يحلم إنسان بالوصول إليها ، ورغم أن عرب الشرق الأوسط لا يتجاوزون الأربعين مليونا ، إلا أنهم يسيطرون على حوالى مائة مليون مسلم فى الهند والباكستان ، وسبعين مليونا فى جزر الهند الهولندية (أندونيسيا) ، وخمسة وعشرين مليونا فى روسيا السوفييتية ، وعشرين مليونا فى الصين ، وذلك بغض النظر عن مسلمى أفريقيا وأوربا والأمريكتين ، والحج لا يقوى الإسلام ، فحسب ، ولكنه يعزز مركز العرب فى الجسم الإسلامى .

ومن المصادفات الغريبة ، أن معظم الثروة الباطنية فى نصف الكرة الشرقى فى منابعها الرئيسية ، وعلى الأخص البترول ، مركزة على امتداد ما يسمى بالنطاق الإسلامى ، ولا نقصد بذلك حقول البترول فى الشرق الأدنى وإيران فحسب ، بل وكذلك حقوله فى القوقاز وجزر الهند الهولندية ، أو بمعنى آخر جميع احتياطيات البترول خارج الأمريكتين ، تقع فى مناطق تحكمها شعوب إسلامية .

وهذا الكلام يصدق بالنسبة للطرق المائية الاستراتيجية فى نصف الكرة الشرقى وهى : جبل طارق ــ الدردنيل ــ السويس ــ سنغافورة ، وبالتبعية فإن العلاقات الطيبة مع العالم العربى تعنى أكثر من صداقة عنصر يسيطر على منطقة معينة ، فإنهم قد تكون لهم السيطرة بدرجات متفاوتة ، على رغبات السكان جميعهم فى مناطق استراتيجية ، وهذه النقطة لم تبحث بعد ، ولم تتضح معالم أية سياسة دولية فى الشرقين الأوسط والأدنى .

وبالإضافة إلى موقع الإقليم كملتقى للطرق العالمية ، فإن له قيمته الكبيرة كواحد من أغنى المناطق بالبترول ، إن لم يكن أغناها فعلا ، والقيمة الاستراتيجية لاحتياطى البترول فى الشرق الأوسط ، ما اكتشف منه وما لم يمس بعد ، ــ لا يمكن تقديرها ، وقد وضحت هذه القيمة خلال الحرب الأخيرة ، لا عن طريق إفادة

الدول المسيطرة عليها بالإنتاج المحلى فحسب ، ولكن عن طريق المجهودات اليائسة التى بذلتها الدول المعادية (المحور) ، لتشق لنفسها طريقا إلى حقول البترول على رأس الخليج الفارسى .

ولم تخفف فترة ما قبل الحرب ، من الضغط الواقع على تلك المشكلة الاستراتيجية الموروثة ، ولكنها زادتها تعقيدات جديدة ، ذات طبيعة اقتصادية وسياسية ، والمصالح المسيطرة على المناطق الغنية بالبترول فى صراع فيما بينها حاليا ، بينما المصالح الأخرى متحفزة للتدخل للأخذ بنصيبها ، هذا بينما الدول التى يستخرج البترول من أرضها تطمع فى زيادة نصيبها ، وتنظر إلى أى زيادة فى الإنتاج ، والزيادة فى الإنتاج بصورة واضحة ليست ببعيدة ، فإن الإنتاج آخذ فى التناقص ، وخصوصا فى الولايات المتحدة ، حيث الموارد المعروفة آخذة فى الجفاف ، بينما اكتشاف آبار جديدة أمر فى غاية الصعوبة ، ومن هنا سيكون الاتجاه إلى المنطقة البكر — منطقة الشرق الأوسط — ، وفى ذلك يقول « دو جوليو » وهو من البتروليين العالميين : « إن مركز الثقل فى إنتاج البترول العالمى يتحول من شاطىء البحر الكاريبى ، إلى الشرق الأوسط ، إلى الخليج الفارسى ، وسيستمر فى التحول حتى يثبت فى تلك المنطقة » وهذا يؤكد وجود الصراع الاستراتيجى والسياسى .

والشرق الأوسط منطقة احتكاك وصراع بين النفوذين الروسى والبريطانى ، إذ تبدأ الرقعة الطويلة الضيقة الفاصلة بين بريطانيا وروسيا فى الشرق الأوسط عند الدردنيل ، وتنتهى عند نقطة تلتقى فيها الروسيا وأفغانستان والتبت ، وتتكون من تركيا وإيران وأفغانستان ، وسكانها أربعون مليونا ومنها بقايا الإمبراطورية العثمانية ، وهى الجزيرة العربية والعراق وفلسطين وسوريا ، ودويلات شبه الجزيرة العربية ، وهذه المنطقة كلها تخضع للنفوذ البريطانى (إذ قد تخلت فرنسا عن انتدابها بسوريا ولبنان أخيرا) وتعداد هذه المناطق كلها ٥٥ مليونا من السكان .

وتتميز المنطقة كلها بفقر الأهالى ، وانتشار الصحراوات ، وعدم وجود صناعات بالمعنى الصحيح ، وخصوصا الصناعات الحربية .

والدول التى تتمتع باستقلالها فى هذه المناطق إنما يرجع استقلالها إلى المزاحمة بين الدول ، وهذه المنطقة تجمع خليطا من الدول (الحواجز) ، ودوائر النفوذ ،

ومناطق الامتيازات الصناعية ، والبترول ، فإن كل حكومة تسعى إلى الحصول على أكثر ما يمكن ، ولذلك تشتد المنافسة بين الدول الكبرى للحصول على امتيازات سياسية أو صناعية أو بترولية ، كل على حسب حاجتها ومطامعها .

وقد أوردنا فى فصول سابقة تاريخ الصراع بين روسيا وبريطانيا فى الشرق الأوسط ، وقد رأينا أن الإمبراطوريتين الروسية والبريطانية كانتا تتقاربان من بعضهما ، حتى لقد أوشكتا أن تلتقيا وجها لوجه ، وقد وصل الفاصل بين حدودهما فى الشرق الأوسط إلى ٢٠ أو ٣٠ ميلا عند باميرو فى الأفغانستان ، وكان لا بد من وقوع صدام بين مصالحهما ، ولكن المعاهدات التى كانت تعقد بين لندن وبطرسبورج كانت تؤجل وقوعه .

وقد ظلت روسيا وبريطانيا صاحبتى النفوذ فى الشرق الأوسط ، خلال القرن التاسع عشر ، وقد حاولت دول أخرى أن تبسط نفوذها ، وتأخذ بنصيب ، ولكنها أصابت نجاحا محدودا .

فألمانيا نفذت عن طريق تركيا إلى بلاد فارس ، وفازت ببعض النفوذ فى الأفغان وكانت سكتها (برلين — بغداد) التى رمت من ورائها إلى ربط برلين بالعالم العربى ، سببا فى توتر العلاقات بينها وبين بريطانيا ، قبل الحرب العالمية الأولى ، وزاد التوتر حينما خطب القيصر مندداً ببريطانيا بأنها العدو الأكبر للعالم الإسلامى . وقد فاز هتلر أخيرا فى العقد الرابع من هذا القرن بنفوذ محدود فى الشرق الأوسط . بوسائل سياسية واقتصادية مختلفة ، ولكن هذا النفوذ قضى عليه فى عامى ١٩٤١ — ١٩٤٢ ولم تستطع ألمانيا أيضا الوصول إلى امتيازات بترول فى المملكة العربية السعودية رغم محاولاتها .

وفرنسا وفقت عقب الحرب العالمية الأولى إلى فرض انتدابها على سوريا ولبنان البالغ تعدادهما ثلاثة ملايين . وقد منحتها بريطانيا بعض الحقوق فى بترول العراق ولكن نفوذها لم يكن كبيرا على أى حال ، وقد اضطرت للتخلى عن انتدابها فى البلدين عقب انهيارها أمام الهجوم الألمانى ، وبعد أن تولت حكومة فيشى السلطة تحت إشراف الألمان .

وإيطاليا طالبت باحتلال بقعة على شاطىء الأناضول الغربى ، عندما طرحت

اشلاء إمبراطورية آل عثمان على مائدة التوزيع ، ، وأعطيت نصيبا ولكنها تخلت عنه فى أوائل الحركة الكمالية لبعث تركيا فى أوائل عام ١٩٢٠ ، وقد ثبتت أقدامها فى طرابلس وبرقة والصومال واريتيريا والحبشة ، وكانت الآمال تراود السنيور موسولينى بضم مصر ، وإعادة مجد الإمبراطورية الرومانية ، ولكن تلك الآمال انهارت بانهزام إيطاليا . وتوقيع معاهدة الصلح بينها وبين الحلفاء ، ولا يزال مصير المستعمرات الإيطالية موضع بحث مجلس وزراء الخارجيـــة ، ولم يوكل بالوصاية عليهـا ـــ حسب ميثاق هيئة الامم المتحدة ـــ إلى أى دولة من الدول الكبرى .

أما روسيا فقد خرجت من موقف الترقب ، الذى كانت تقفه من الاحداث الجارية فى الشرق الأوسط ، وقد كانت مصر أول بلد عربى اعترف بالاتحاد السوفييتى ـــ بناء على رغبة بريطانيا ـــ ونظرا لظروف الموقف الحربى فى تلك الآونة ، ثم تبادلت روسيا التمثيل السياسى مع لبنان وسوريا والعراق ، وكانت السياسة الروسية هى معاونة العرب ، ولكنها كانت من ناحية أخرى تعطف على آمال الصهيونيين فى فلسطين ، وقد عاونوهم معاونة جدية بعد خروج البريطانيين وإعلان انتهاء انتدابهم فى ١٥ مايو ١٩٤٨ ، وقد أثر ذلك على العلاقات بين العرب وروسيا ، وأخذ الشعور العام ينقلب إلى عداء نحو روسيا حليفة الصهيونيين .

وكانت الولايات المتحدة آخر من سعى للظفر بمصالح فى الشرق الأوسط ، وقد بدأ تدخلها بتوظيف أموالها فى المرافق الاقتصادية ، ولم تكن تقصد أصلا إلى كسب نفوذ أو أراضى فى الإقليم ، ولكن نفوذها السياسى قد تطور بسرعة ملحوظة ، وقد كان موقفها فى البداية متعارضا مع المصالح البريطانية ، ولكن ظهور الدب الروسى فى الميدان ، جعل بريطانيا ترحب بالمشاركة الامريكية فى حل مشاكل الشرق الأوسط ، بل وتتنازل عن بعض مصالحها عن طيب خاطر إرضاء للأمريكيين ، ولعل الكلمة التى نطق بها أحد المفاوضين الرسميين فى محادثات البترول عام ١٩٤٤ التى جرت فى واشنجطن ، تعبر عن تطور المصالح الأمريكية أصدق تعبير ، فقد قال : « نحن لا نعلم على التحديد ما هى مصالحنا فى الشرق الأوسط ، ولكنها آخذة فى الازدياد ، وقد ازدادت تلك المصالح فعلا ، وأخذت شكلا واضحا يسهل تمييزه .

وغير مجهول أن الغزاة قديما وحديثا ، وجدوا أنفسهم يندفعون نحو الشرقين الأوسط والأدنى ، أثناء زحفهم للسيطرة على العالم ، ومن المعلوم أن المغناطيس الذى كان يجذبهم جميعا هو موقع الإقليم على سطح الكرة ، وكونه جسرا يصل القارات الثلاثة فى العالم القديم ، وقد ضاعف الطريق المائى الذى شقه المصريون عند السويس من قيمة ذلك الجسر ، وقد ظل أمره كذلك إلى القرن العشرين ، حيث ارتفع نداء البترول ، الذى تنطوى عليه تربة ذلك الإقليم ، والبترول بدوره يمد التقدم الجوى بالقوة المحركة اللازمة ، وكذلك المواصـــلات الأرضية ، مما ساعد على لفت الأنظار إلى حقيقة أخرى ، هى أنه لا يمكن الدوران حول العالم بالطريق الجوى وحده ، إلا باستخدام القواعد الجوية فى الشرق الأوسط ، وهنا نجد الشروط الجيوستراتيجية[1] متجمعة بأعظم قوة ، فهنا موقع استراتيجى مركزى وملتقى للطرق البرية والبحرية والجوية ، ومستودع للموارد الطبيعية الحيوية ، ولكن التفكير الجيوستراتيجى أمر حديث جدا ، لأنه خلاصة تجارب عصر عانى حربين عالميتين خلال جيل واحد.

ولعله من الغباء أن نتساءل — كما هى العادة — أى هذه العوامل هى التى تسبغ على الإقليم تلك المكانة المرموقة ؟ وأى هذه العوامل يسبق غيره فى الأهمية ؟ أهو الموقع ؟ أم المواصلات ؟ أم البترول . . . ؟

وهل للولايات المتحدة مصلحة فى البترول وحده ، بينما روسيا تريد البترول مضافا إليه موانئ فى المياه الدافئة ؟ . . . وبريطانيا تريد هذه العوامل مجتمعة مضافا إليها بعض العوامل السياسية والاقتصادية التى لابد منها لبريطانيا . . . ؟؟؟

الواقع أنه لا يمكن فصل واحد من هذه العوامل الثلاثة عن أخويه ، فلا بد منها جميعا ككل لا يتجزأ وإلا فلا . . . ، كما أن هناك اعتبار آخر لابد من إدخاله فى حسابنا ، وهو أن هذه العوامل ليست شيئا مختزنا فى دكان بقال ، ولا ينقصه إلا

---

(١) الجيوستراتيجية : مذهب جديد من مذاهب التفكير الاستراتيجى ، والأساس فيه هو التفكير على أساس المناطق الجغرافية والأقاليم ككل لا يتجزأ ، وليس على أساس المعاقل والنقط القوية كما كان فى الماضى ، ولعل ذلك يرجع إلى تطور المواصلات بأنواعها وخصوصا المواصلات الجوية وزوال الحواجز بين أجزاء العالم المختلفة .

الشراء ، وإنما هى ملك للدول المحلية المختلفة ولا يمكن الحصول عليها والإفادة منها إلا لقاء ثمن معين .

والشرق الأوسط بوصفه هدفا أساسيا للمصالح الدولية المتصارعة ، يجب أن ينظر إليه من زاويتين مختلفتين : الأولى هى التنافس الدولى على موارد الإقليم ، والثانية هى قدرة الدولة صاحبة الموارد على الحصول على مقابل مرض للامتيازات التى تتنازل عنها ، والواقع أن شعوب الإقليم إذا ظلت فى غفلة وسبات كما كان شأنها فى الماضى واستمرت على خمولها لا تملك دفاعا عن مصالحها فإن الإقليم سيظل هدفا سهلا للاستغلال ، وقد أيقظ اهتمام الدول الكبرى بالشرق الأوسط شعوبه فأصبحت صلبة لاتلين بسهولة ، هذا بالإضافة إلى أن الموارد الضخمة المكتشفة حديثا تمنع أى دولة من الانفراد باستغلالها .

وذلك التوتر الملحوظ بين المتنافسين الخارجيين ، على المزايا المتعددة التى تسبغها الطبيعة على الشرق الأوسط ، تضيف سببا جديدا يحمل الدول الكبرى على عدم تجاهل ذلك الجزء من العالم ، والدافع على اهتمام الدول الكبرى فى هذه المرة ، لا يرجع إلى الموقع والمواصلات والبترول ، وإن كان يرتكز إلى هؤلاء جميعا ، ولكنه يختلف عنها جميعا ، وهذا الدافع بالاختصار هو الأمن والسلام العالمى ، فإن للموقع الجغرافى للإقليم ضريبة لابد من أدائها ، نظرا لأنه ملتقى مصالح الدول الكبرى فى العالم ، ولأن المطالب المتضاربة تتداخل مع بعضها فى تلك المنطقة ، تداخلا لا يحدث فى أى جهة أخرى ، فالحروب إما أن تولد هنا أو يستتب السلام فى العالم ، وطالما أن الحرب كالسلم لا تتجزأ ، فلا يمكن لأى دولة لها دور رئيسى فى الشئون العالمية ، أن تقف بعيدا من تلك المنطقة الحساسة ، وأن تترك للآخرين أمر تقرير السلم أو الحرب ، والمساهمة فى شئون الشرق الأوسط أصبحت اليوم تعادل كرسيا فى سوق التبادل الجيوستراتيجى العالمى .

إن توقع ازدياد المنافسة الدولية يحمل معه الخطر ، كما يحمل الأمل إلى شعوب هذا الإقليم ؛ والخطر الذى نعنيه هو أن تصبح المنطقة ميدانا لحرب عالمية قادمة ، أما الأمل فهو الرخاء الذى سيعم تلك المنطقة ، فكلما ازدادت حدة المنافسة بين الدول ، زادت الفائدة التى تجنيها شعوب الشرقين الأوسط والأدنى ، ولا شك فى

أن مثل هذا الإقليم سيحفظ التوازن بين الدول الكبرى ، ولكن الخطورة الحقيقية تكمن فى التنافس بين دولتين اثنتين فحسب ، فقد يتخذ هذا التنافس شكلا ضارا بالإقليم ، أما المنافسة بين ثلاثة أو أربعة من الدول ، فإنها كبيرة الفائدة من ناحية التعمير ونشر أسباب الرخاء ، فإذا لم تبذل الدول الكبرى معونتها للشرقين الأوسط والأدنى ، فإنها لن تستطيع الإفادة من موقعهما ، أو من المواصلات أو البترول . بل وستفقد مكانتها بالنسبة للسلم العالمى ، وينبغى أن تكون سياسة كل من الدول الكبرى مبنية على تحليل صحيح ، وإن كان مثل هذا التحليل معقدا عسيرا .

ولقد أحسنت بريطانيا استغلال النواحى الاقتصادية ، والسياسية والروحية فى هذا الإقليم ، ولا تزال تحتفظ بمكانتها التقليدية ، بوصفها أقدم العملاء فى المنطقة .

ونعتقد أن الشرق الأوسط ، وعلى الأخص الدول المتأخرة فيه صناعيا واجتماعيا ، ستفيد من القانون الذى سنه أخيرا الكونجرس ، والخاص بمعاونة تلك البلدان والنهوض بها ، وهذا يقوى الأمل فى تعميم الرخاء فى تلك البلاد .

شكر واجب

لا يسعنا — وقد تم طبع الكتاب — إلا أن نقوم بواجب الشكر لكل من أعاننا فى إخراجه .

ونخص بالذكر الأستاذ يوسف مراد الذى قام برسم الخرائط جميعها .

ولا يفوتنا التنويه بما كان لمطبعة الشبكشى بالأزهر من فضل فى إخراج الكتاب على هذه الصورة المشرفة فنتقدم بالشكر لصاحبها وعمالها المجيدين وفقنا الله لما فيه خير الوطن ورفعته .

مطبعة الشكلاني بالازهر بمصر